إمارة حلب

في عهد السلاجقة

بين ٤٧٩ - ٥٢٢ هـ

سياسيًا - اجتماعيًا - اقتصاديًا

دراسة تحليلية لصفحة مشرقة من المقاومة
التي خاضتها جماهير حلب ضد الغزاة الأجانب


al-maktabeh
www.
.com
إمارة حلب
مكتبة
المهتدين



الطبعة الأولىٰ ١٩٩٠م

تصميم الغلاف الفنان عبد الهادي الشماع


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

قدم هذا البحث عن إمارة حلب في عهد السلاجقة

للحصول على درجة «الماجيستير» في تاريخ العرب والإسلام

من جامعة دمشق

نوقشت بتاريخ الأحد ١٣ / ١١ / ١٩٨٨م

من قبل اللجنة المؤلفة من:

الدكتورة أمينة بيطار مشرفاً وعضوية كل من

الدكتور: سهيل زكار و الدكتور عادل زيتون

ومنحت مرتبة الامتياز

○ تقديم :

تناول البحث إمارة حلب في ظل حكم السلاجقة، وهي فترة تمتد بين سنتي ٤٧٩ ــ ٥٢٢ هـ / ١٠٨٦ ــ ١١٢٨ م أي ما يقارب نصف قرن من الزمان، وقد كانت هذه الفترة غنية بأحداثها مليئة بالتقلبات العسكرية والسياسية، وقد أثرت هذه الأحداث مجتمعة على سمات المجتمع في الإمارة، كما أثرت على مسيرتها خلال الفترات الزمنية اللاحقة.

فبعد أن عاشت إمارة حلب فترة طويلة في ظل الحكم العربي ممثلاً بالحمدانيين والمرداسيين وفترة قصيرة تحت حكم العقيليين سقطت بيد السلاجقة ورزحت تحت حكمهم المباشر.

لقد عانت الإمارة في الفترة المرداسية وما بعدها من تذبذب في الولاء بين الدول الكبرىٰ المحيطة من عباسيين وفاطميين، كما عانت من فوضىٰ سياسية سببتها الخلافات بين أفراد الأسرة المرداسية، وقد وصل إلى حد إقتتال الأخوة فيما بينهم حتىٰ أنهم اضطروا في بعض الأحيان للاستنجاد بالقوىٰ الأجنبية من بيزنطية وتركانية للحفاظ على مناصبهم. وقد أدت هذه الفوضىٰ السياسية إلى ضعف الدولة سياسياً واقتصادياً. وأصاب الخلل جسم السلطة فيها، في الوقت الذي بدأ توافد التركان إليها بأشكال متنوعة وتحت أسماء مختلفة، وأخذوا بالاستقرار فيها، ووضعوا أنفسهم كعسكر تحت خدمة القوىٰ التي دفعت لهم الأموال إلى أن تمكنوا من إخضاعها لسلطتهم وسلطانهم، وكان احتلالهم لها بعد صراع طويل على السلطة بين القبائل العربية الحاكمة والتركان الذين وفدوا إليها بشكل غير نظامي. وقد بدأ هذا الصراع على السلطة في حلب بين العرب والتركان منذ سنة ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٤ م، واستمر حتىٰ سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م، حين أصبحت الإمارة تحت حكم السلاجقة المباشر. ولأهمية هذه الفترة وعدم وجود مصادر أولتها العناية الكافية وأعطتها حقها من البحث، ولأهمية منطقة شمالي بلاد الشام أردت أن أضيف إلى المكتبة التاريخية العربية بحثاً أرجو أن يكون على المستوىٰ المطلوب.

وقد واجهتني أثناء عملي بعض الصعوبات يمكن حصرها في أربع نقاط:

الأولىٰ: أن الفترة المدروسة قصيرة جداً ولا تتجاوز نصف قرن.

الثانية: أن المنطقة التي عالجها الكتاب ضيقة المساحة ومقتصرة على إمارة حلب وهي جزء من بلاد الشام.

الثالثة: أن المنطقة لم تشهد الاستقرار إلا لماماً حيث كانت مسرحاً لحروب كثيرة بين التركمان السلاجقة وسكان البلاد الأصليين العرب أولاً، ثم بينهم أنفسهم ثانياً، وبينهم وبين الفرنجة الصليبيين الغزاة القادمين من الغرب الأوروبي ثالثاً، وبينهم وبين القوىٰ المجاورة لهم رابعاً.

الرابعة: قلة المصادر المتخصصة إضافة إلى قلة المعلومات المتوفرة في المصادر والمراجع وإذ أدت كل من النقطتين الأولىٰ والثانية إلى صعوبة في البحث إلا أنهما أدتا إلى عمقه والوصول إلى دقائق الفترة المبحوثة.

وكان لهذه الصعوبات جميعاً أثرها في دفعي للتعلق بالموضوع ليكون لي شرف الإسهام بكشف جزء من تاريخ إمارة ومدينة حلب بالذات، والتي برهن أبناؤها أنهم أقوىٰ من كل المحن والكوارث التي تعرضوا لها حيث قاوموا الهجمات والحصارات التي تعرضوا لها من التركمان السلاجقة عشرات المرات قبل خضوعهم لحكمهم المباشر، وكذلك حاولوا على الرغم من القوىٰ المحيطة التي تفوقهم عدداً وعدة الاستقلال بالحكم عدة مرات، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستمرار نتيجة ظروف داخلية وخارجية شرحت في ثنايا الكتاب.

وعلى الرغم من التفكك والتمزق الذي عاشوه وعانوا منه أثناء فترة الاحتلال التركماني السلجوقي، والتي أضعفت البلاد وأضعفت القوة العسكرية للمنطقة أمام الغزو الفرنجي الصليبي على الرغم من هذا كله، ومن التأخر الاقتصادي الذي عم المنطقة نتيجة القتل والنهب والتدمير والتشتيت الذي قام به التركمان السلاجقة وقف الحلبيون من هذه الأحداث موقفاً مشرفاً أعطوا من خلاله أروع الأمثلة في التضحية والفداء، فكانوا يقاتلون أعداءهم بكل جرأة وبسالة حتىٰ في أيام الوباء والمرض حين كانوا يقومون من مرضهم إذا دق النفير ليقاتلوا الأعداء كأنهم نشطوا من عقال ثم يعودوا إلى فراش المرض.

هذا الشعب الذي تحمل كل ما تعرض له وظل صامداً واقفاً بوجه الأعداء رافعاً رأسه شامخ الأنف يصارع الموت ويغالب الحياة ليظل عزيزاً في بلاده، وهذه المدينة التاريخية العريقة القديمة الحديثة التي يقول فيها ابن العديم وما زالت ظاهرة على من يجاورها بأنطاكية في قديم الزمان وحديثة إلا ما ندر وقوعه.

هذا الشعب وهذه المدينة يستحقان أن يبذل الباحثون من أجلهما الجهد والعناء لتوضيح ما غمض من تاريخهما مهما كلفهم ذلك من جهد وتعب بغية إعطائهما جزءاً يسيراً من الوفاء والشكر على ما قدماه لهذه الأمة ولهذه البلاد من وقفة عز وعناد تحدوا بهما أعتى قوتين في ذلك العصر قوة التركان السلاجقة وقوة الفرنجة الصليبيين.

وإذا كانت أخبار الإمارة السياسية في هذه الفترة متناثرة في المصادر والمراجع ويمكن الوصول إليها وتقميشها بشيء من البحث والمثابرة فإن المعلومات الاجتماعية والاقتصادية كانت أندر بكثير، وكان الحصول عليها أصعب وأشق ويحتاج إلى صبر وأناة وتتبع لكل خبر ورد في المصادر والمراجع.

لقد جاء الكتاب مقسماً إلى خمسة فصول اختص كل فصل منها بسمة من سمات الكتاب بحيث جاء منسجماً ومتكاملاً.

وقد بحثت في الفصل الأول جغرافية حلب اعتماداً على ما أورده الجغرافيون والرحالة العرب الذين وصفوا أراضي الشام الشمالي وتحدثوا عن الموارد الطبيعية لا سيما الملح والمحاصيل سواء الزراعية من حبوب وقطاني وخضروات أو منتوجات الأشجار المثمرة والأحراش وبينت أن هذا كله أسهم في الحياة الاقتصادية، وكانت هذه المواد هي الأساس الذي اعتمدت عليه لدراسة الفصل الخامس.

ويعتبر الفصل الثاني كتمهيد لموضوع الكتاب إذ يوضح الخلفية التي قام عليها حكم السلاجقة في إمارة حلب، فقد تضمن عرضاً موجزاً عن قيام دولة السلاجقة منذ بدء تحركاتهم وحتى قضائهم على الدولة الغزنوية في خراسان، وكذلك لمحة عن أوضاع حلب قبل وصول السلاجقة إليها والصراع الذي كان قائماً بين الأمراء المرداسيين، وقد أوضحت أن اختلافاتهم واستعانتهم بالغز التركان جر على المنطقة الويلات في المستقبل، كما بينت أن استدعاء الغز التركان واستعانة بعض الأمراء بهم ضد إخوتهم أو أبناء عمومتهم جعل دورهم يتزايد يوماً بعد يوم إلى أن أصبحوا هم الأكثر قدرة على توجيه الأمور في المنطقة ورسم سياستها وتقرير مصيرها بحيث لم يعد يمكن إهمال هذا الدور في المستقبل، كما أثبت أن قبيلة كلاب لم تعد هي صاحبة الكلمة الفصل في شمال بلاد الشام. ثم انتقلت إلى توضيح الأساليب والطرق التي استخدمتها جماعات الغز التركان في تحركاتها الأولى غرباً والتي مهدت الطريق أمام الجيوش السلجوقية المنظمة التي أخذت بالتحرك الهادف لتحقيق المطامع التي هدف إليها طغرلبك والتي تفضي إلى:

١ ــ القضاء على الخلافة الفاطمية وتوحيد العالم الإسلامي تحت قيادة الخلافة العباسية.

٢ ــ التوسع على حساب البيزنطيين في أرمينية وآسيا الصغرىٰ.

بعد ذلك تعرضت لبدايات دخول التركان السلاجقة إلى بلاد الشام حيث تمكنت العصابات الغزية من الوصول إلى أبواب الشام عن طريق منطقة ديار مضر وربيعة، وأن الإمارة المرداسية كانت بوابة الصدام الأولىٰ مع هذه العصابات، وقد شُهرت هذه العصابات بشكل عام باسم الناوكية، وكان لها دور في التمهيد لوصول الحملات السلجوقية المنظمة التي قادها سلاطين السلاجقة شروعاً بحملة ألب أرسلان في سنة ٤٦٣ هـ/ ١٠٧١ م، الذي أخفق في اختراق أسوار حلب وتعذر عليه ذلك بسبب المقاومة الصلبة والدفاع المستميت لأهل حلب بقيادة أميرها محمود بن نصر.

لم يقبل السلطان بالهزيمة لذلك لجأ إلى أسلوب التفرقة والإيقاع بين الأمراء العرب حيث تمكن بالخديعة والمخاتلة من تحقيق ما أخفق في تحقيقه بأسلوب الحرب والنزال، ثم أشرت إلى استعانة محمود بن نصر المرداسي بالتركان الناوكية لصد البيزنطيين وإيقاف أعمالهم العدوانية ضد إمارة حلب كما استرد بمعونتهم الرحبة من مسلم بن قريش وأعادها إلى أملاكه. ثم أوضحت أن السلطان ألب أرسلان عندما غادر حلب خلف وراءه طائفة من التركان على رأسهم المقدم اتسز واخوته، واتسز هو الذي تمكن من تأسيس دولة سلجوقية في دمشق وحاول مد سلطانه إلى حلب وإلى مصر أيضاً.

ثم تحدثت عن تركاني اسمه أحمد شاه وعن علاقته بالأمير المرداسي نصر بن محمود، ثم عن إيقاعه بقبيلة كلاب، ذلك أن القبائل العربية إنهزمت سنة ٤٦٨ هـ/ ١٠٧٥ ــ ١٠٧٦ م أمام التركان بقيادة أحمد شاه ومحمد بن دملاج، وكانت هذه الهزيمة نقطة تحول في تاريخ حلب، وكانت مع ما قام به زعيم تركاني آخر هو الأفشين من أعمال تخريبية، ومحاولات تتش للسيطرة على حلب وإخفاقه مما دفع أهل حلب لاستدعاء الأمير العربي مسلم بن قريش أمير الموصل لحكم حلب، وقد وصلها سنة ٤٧٣ هـ/ ١١٨٠ ــ ١١٨١ م، وأقام فيها الدولة العقيلية على أنقاض الدولة المرداسية.

عمل مسلم بن قريش على توحيد الشام كله تحت سلطته، وحاول الاستفادة من الفاطميين لمساعدته في تحرير دمشق وطرد السلاجقة منها وضمها إلى دولته.

في هذه الأثناء كان بعض الأمراء العرب على إتصال مع تتش يعرضون عليه العمل معه للقضاء على مسلم. ولم يصطدم الأمير مسلم بتتش فقط وإنما كان أمامه أيضاً سليمان بن قتلمش صاحب أنطاكية الذي خاض معه معركة كبيرة كانت فيها نهاية مسلم ودولته.

بعد الأعمال التي قام بها تتش والأفشين ومقتل مسلم أصبحت المنطقة مهيأة لوصول

السلطان ملكشاه الذي وصلها بناء على طلب أهلها ودخلها دون قتال في ٢٣ شعبان سنة ٤٧٩ هـ/ ٣ كانون الأول ١٠٨٦ م، ثم استولىٰ على أنطاكية وغيرها، وقد عيّن لها الأمراء والحكام وأصبحت الامبراطورية السلجوقية في أقصىٰ امتداد لها باتجاه الغرب.

وفي نهاية الفصل أوضحت موقف أهالي بلاد الشام من قدوم السلاجقة وأنه كان موقف صدام ومقاومة منذ بدء حكمهم وحتىٰ إنتهائه.

أما الفصل الثالث فقد تناول الحكم السلجوقي المباشر واشتمل على الفترتين الأساسيتين من حكمهم الأولىٰ: فترة حكم آق سنقر، والثانية: فترة حكم رضوان بن تتش حتىٰ وصول الأراتقة إليها.

في الفترة الأولىٰ قمت بالتعريف بآق سنقر وناقشت سبب حيازته للقب قسيم الدولة والحظوة التي نالها لدىٰ السلطان والتي خاف منها كبار رجال الدولة كالوزير نظام الملك الذي حاول التخلص منه بتقديم المشورة والنصح للسلطان بتعيينه حاكماً على حلب، وناقشت موضوع التعيين هذا بحد ذاته وهل كان بسبب نصيحة نظام الملك أم لأسباب أخرىٰ وأوضحت أن التعيين كان لعدة أسباب وليس لنصيحة نظام الملك وحدها.

ثم استعرضت الآراء حول تسلمه إمارة حلب وهل كان مع السلطان عندما غادر الموصل لقتال أخيه تكش أم بقي في الموصل ولماذا لم يذكر في عداد قواد حملة ملكشاه. ثم تعرضت لسياسة آق سنقر الداخلية وأوضحت النتائج التي تمخضت عنها حيث أدت إلى معاودة الناس القيام بالمتاجرات وإغراق أسواق حلب بالبضائع في أيامه ورخص الأسعار وتداعي الناس للسكن فيها ليحظوا وينعموا بالأمن والاستقرار الذي شهدته الإمارة.

بعد ذلك تعرضت لصراعه مع تتش وتوسعه في الشام ونوعية القوات المسلحة التي اعتمدها في تحقيق مخططه وأنها كانت تشمل القوات النظامية والقوات الاحتياطية التي كان يجمعها وقت الحاجة. ثم ناقشت موقفه من حملة تتش على طرابلس وانسحابه وعودته إلى حلب بسبب التنافس الذي كان قائماً بينه وبين تتش، وأوضحت في ثنايا الحديث الدوافع التي أدت بآق سنقر لتسليم أفامية لابن منقذ وكذلك موقفه من مطالبة تتش بالسلطنة بعد وفاة أخيه ملكشاه وانسحابه من تجمع تتش وانضمامه لعساكر بر كياروق وهو الموقف الذي أدىٰ به للاصطدام بتتش بعد عودتهما من الشرق وخسارته لحياته في معركة سبعين في التاسع من جمادىٰ الأولىٰ ٤٨٧ هـ/٢٨ أيار ١٠٩٤ م، وبمقتله إنتهت الفترة الأولىٰ من حكم السلاجقة المباشر في حلب.

أما فترة رضوان بن تتش فقد تناول البحث فيها وصوله إلى الحكم، والمحاولات التي قام بها

لاستعادة أملاك أبيه تتش وأولها ديار بكر ومعرة النعمان، ثم محاولاته أخذ دمشق من أخيه والأسباب التي أدت لإخفاقه في مسعاه.

تعرضت بعد ذلك لموقف رضوان من أركان دولته وأولها موقفه من يوسف بن آبق الذي تخلص منه بعد أن شعر أنه يتآمر عليه وقد أوضحت أن يوسف بن آبق كان ضحية خلاف بين جناح الدولة حسين زوج أم رضوان وياغي سيان أمير أنطاكية وأن المستفيد من مقتله كان رضوان نفسه. ثم تعرضت لموقف رضوان من جناح الدولة حسين والذي اعتمد عليه في الفترة الأولىٰ من حكمه لتسيير أمور البلاد حتىٰ أصبح سيد الموقف، وقد استطاع المجن الفوعي مقدم أحداث حلب الإيقاع بين رضوان وجناح الدولة مما اضطر معه هذا الأخير للهرب إلى حمص حيث قتل فيها بتشجيع من الملك رضوان وتدبيره، ولم يختلف موقف رضوان من المجن الفوعي الذي قام بدور بارز في الحكم أيام آق سنقر ومن ثم رضوان حتىٰ أن أوامره كانت تسري على القضاة والوزراء ومن دونهم وخاصة بعد هروب جناح الدولة إلى حمص حيث أصبح الشخصية الأولىٰ والمؤثرة في أحداث حلب حتىٰ أنه حاول التخلص من رضوان والإنفراد بالحكم وقد أعلن الثورة على رضوان يؤيده بعض الحلبيين إلا أن رضوان وبمجرد أن عرف بنواياه عزله عن رئاسة حلب وألقىٰ القبض عليه وعلى أولاده وقتله مع اثنين من أبنائه، وقد ناقشت أقوال المؤرخين حول المجن وبينت أنهم لم ينصفوه في أحكامهم عليه، بل إنهم ظلموه وقسوا عليه وأن التهم التي ألصقها رضوان به هو الأسلوب الذي لجأ إليه الحكام للقضاء على معارضيهم وخاصة إذا كانوا من أبناء البلد وهم من الغرباء.

ثم انتقلت إلى البحث في علاقات رضوان بالقوىٰ المحيطة بحلب وبينت أن العلاقة مع الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية كانت علاقات ضعيفة ومحدودة لم تظهر إلا في أوقات الأزمات والشدة من خلال الوفود التي كانت تصل بغداد للاستغاثة، كما أنها لم تكن في الغالب علاقات رسمية. وإنما علاقات شعبية بالدرجة الأولىٰ، أما علاقاته مع الخلافة الفاطمية فقد كانت علاقة مصالح متبادلة إذ أن رضوان عندما وجد نفسه محاطاً بالأعداء من الخارج ـــ مع رغبته بالاستقلال عن السلطنة السلجوقية في بغداد ـــ لم يجد أمامه إلا الفاطميين الذين عرفوا الظروف التي أحاطت به فأرسلوا له يعرضون عليه المساعدة مقابل الخطبة لهم في إمارة حلب، وقد نفذ رضوان وعده واعتُبر ذلك إنتصاراً للدبلوماسية الفاطمية كما كان ذلك مدعاة للتساؤل، إذ أنه لأول مرة يتولىٰ فيها ملك سلجوقي الدعوة للفاطميين الذين لم يفوا بوعودهم لرضوان، ويعزىٰ ذلك لعجز عسكري وإقتصادي أصاب الخلافة الفاطمية، كما قد يكون مرده عدم وجود قناعة فاطمية بجدوىٰ التحالف مع حكام إمارة حلب. تحدثت بعد

ذلك عن العلاقة بين رضوان والإسماعيلية النزارية وأوضحت أن رضوان كان يتطلع إلى إيجاد حليف داخلي قوي يعتمد عليه في حكمه بعد أن تخلص من منافسيه، وقد وجد ضالته في داعيتي النزارية الحكيم أسعد أبي الفتح المنجم وأبي طاهر الصائغ وقد استطاعا إقامة علاقات متميزة مع رضوان تمكنا بواسطتها من كسب عدد كبير من الناس في مناطق متعددة وظلت كذلك حتىٰ وفاة رضوان.

ثم انتقلت إلى موقف رضوان من الفرنجة الصليبيين حيث كان موقفه في البدء سلبياً نتيجة علاقاته السيئة مع ياغي سيان حاكم أنطاكية أولاً ولتصفية خصومه ومحاولته واستعادة حمص ودمشق ثانياً، لكن ما لبث أن شعر بالخطر المحدق به وحاول وضع خطة لإنقاذ أنطاكية وشكل تحالفاً لتنفيذ خطته. إلا أن هذا التحالف أخفق، ثم تعرضت لموقفه المتخاذل من حملة كربوقا أمير الموصل ضد الحملة الصليبية الأولىٰ ومحاولة استرداد أنطاكية، وناقشت موقفه هذا وخلصت إلى أن خوفه من أطماع كربوقا لم يكن له ما يسوغه، وأن مستقبل البلاد كان يحتم عليه أن يأخذ موقفاً أكثر إتزاناً وحكمة تجاه ما يجري على أرض مملكته، ثم تحدثت عن حصار المعرة وتدميرها من قبل الفرنجة الصليبيين وقيام رضوان. بتجهيز جيش لإخراج الفرنجة الصليبيين من الأثارب وإنهزامه أمامهم ثانية.

بعد ذلك تحدثت عن حصار الفرنجة الصليبيين لحلب الذي أجبر رضوان ولأول مرة على دفع أتاوة لهم، ثم أشرت إلى معركة ارتاح سنة ٤٩٩ هـ/١١٠٥م، وأن نتيجتها كانت لصالح الفرنجة الصليبيين أيضاً، وقد اضطر إلى التحالف معهم ضد جاولي سقاوة الذي أغار على مناطق من الإمارة، لكن الخلاف ما لبث أن عاد وتجددت المناوشات بين الطرفين، مما اضطر رضوان إلى مصالحتهم مرة أخرىٰ وتقديم الأتاوة لهم. ثم أشرت إلى حملة الأمير مودود التي جاءت إلى حلب لمقاومة الفرنجة الصليبيين والموقف الغريب لرضوان تجاهها والذي يشبه موقفه من حملة كربوقا والسبب نفسه وهو الخوف من مودود وحلفائه وبعد ذلك تعرضت للفترة التي عاشتها حلب بعد وفاة رضوان وقبل وصول الأراتقة إليها وأنها كانت فترة مليئة بالقلاقل والأحداث المتسارعة التي أوصلت حلب إلى أضعف فترة وصلتها حتىٰ الآن.

وتحدثت في الفصل الرابع عن الأراتقة في حلب مبتدئاً بولاية الأمير الأرتقي إيلغازي والظروف التي أحاطت بوصوله إلى حلب والإجراءات التي اتخذها لتأمين سيطرته الكاملة عليها ثم علاقاته بالفرنجة الصليبيين التي تميزت بكثرة المعارك التي خاضها ضدهم وأشهرها معركة ساحة الدم التي انتصر فيها إيلغازي نصراً حاسماً، وقد ناقشت أسباب عدم ملاحقة الفرنجة الصليبيين حتىٰ أنطاكية، كما أشرت إلى التحالفات التي أقامها إيلغازي وأثرها على

المعارك التي خاضها، كما بينت أن إيلغازي لم يكن فقط قائداً عسكرياً، بل كان منظماً إدارياً، فقد نظم أمور حلب الإدارية ونظر في شكاوي سكانها وألغىٰ بعض الرسوم والضرائب.

وتعرضت لموضوع عصيان سليمان بن إيلغازي على أبيه والإجراءات التي اتخذها الابن لتعزيز استقلاله بحلب، وقضاء إيلغازي على هذا التمرد وإعادة ترتيب أمور الدولة الإدارية.

تحدثت بعد ذلك عن عهد سليمان بن عبد الجبار بن أرتق (بدر الدولة) الذي كان ضعيفاً غير قادر على حماية حلب من إعتداءات الفرنجة الصليبيين مما أدىٰ إلى تطلع الأمير الأرتقي بلك إلى توحيد ملك الأراتقة فقرر الاستيلاء على حلب وجعلها قاعدة لعملياته الحربية. وناقشت أسلوب العنف الذي استخدمه بلك مع أهالي حلب، ثم ألمحت للمناوشات التي قام بها مع الفرنجة الصليبيين، وأوضحت أنه عندما غادر إلى خرتبرت لم يبقَ فيها من يدافع عنها إلا أهلها مما دفع بالفرنجة الصليبين للتمادي في عدوانهم حتىٰ وصل الأمر بهم إلى نبش القبور وإحراق الموتىٰ. وكذلك ناقشت موقف بلك من حسان بن كمشتكين أمير منبج وأنه خسر حياته أمام أسوار قلعة هذه المدينة.

وجاء بعد بلك إلى حلب حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي ولكنه لم يكن ذلك القائد الذي تنتظره الإمارة ليدفع عنها الأعداء مما حدا بالفرنجة الصليبيين إلى حصار حلب، وقد استبسل الحلبيون في الدفاع عن بلدهم بالرغم من الظروف القاسية التي عانوا منها، وأمام هذه الظروف أرسل أهل حلب وفداً من وجهاء المدينة إلى ماردين لاستدعاء الأمير حسام الدين تمرتاش لينقذ حلب مما هي فيه ولكنه تقاعس ولم يتجاوب مع الوفد الذي اضطر إلى ترك ماردين سراً والشخوص إلى الموصل للاستنجاد بأميرها آق سنقر البرسقي الذي لبىٰ الدعوة وتحرك على رأس قوات ضخمة وقد رحب به أهل حلب واستقبلوه، فهاجم الفرنجة الصليبيين وهزمهم.

وبينت أن مجيء البرسقي إلى حلب وتوحيد الموصل وحلب كان نقطة تحول كبيرة في تلك الفترة وفتح عهداً جديداً من الصراع القائم في المنطقة بين القوىٰ العربية الإسلامية والقوىٰ الفرنجية الصليبية وأن هذا التوحيد كان بداية الوجود الفرنجي الصليبي في المنطقة مع ظهور عماد الدين زنكي... بعد ذلك أشرت للإصلاحات الإدارية والاقتصادية التي قام بها البرسقي في حلب والتي أعادت الاستقرار والرفاهية لسكان حلب، ثم تحدثت عن موقفه من الفرنجة الصليبيين واستعرضت بعد ذلك الأوضاع التي عاشتها حلب بعد وفاة آق سنقر البرسقي والفوضىٰ السياسية والإدارية التي استمرت حتىٰ وصول عماد الدين إليها.

أما الفصل الخامس فقد تضمن أهم مظاهر الحضارة في حلب في تلك الفترة فتحدثت

أولاً عن النظم والإدارة حيث كانت هذه النظم في أغلبها مستمدة من نظام حكم السلاجقة في المشرق مع إرتكازها على ما كان في البلاد قبلهم، فكان السلطان هو رأس الحكم في الامبراطورية وينيب عنه نواباً وولاة في الأقاليم وفي حلب كان يطلق على نائب السلطان لقب والي أو ملك. وأنه كان يتبع الوالي أو الملك نواب أو حكام في المناطق كحكام أنطاكية واعزاز ومنبج ومعرة النعمان وأحياناً أخرى أفامية وشيزر وحماة والأثارب.

بعد ذلك استعرضت الوظائف التي كانت تسيّر دفة الحكم والصلاحيات التي تمتع بها شاغلوا هذه الوظائف كالوالي والوزير والحاجب والعارض والشحنة والمستوفي وكذلك رئيس المدينة ومقدم الأحداث وأمير القلعة ومن ثم أسلوب تعيينهم وعزلهم ثم عددت أسماء أغلب الذين تسلموا هذه المناصب، وقد أوضحت أن الضعف الذي أصاب ولاة حلب في بعض الأحيان وانشغالهم بتعزيز مراكزهم وسلطتهم جعل حكام المناطق يعصون أوامرهم وتعليماتهم، ووصل ذلك إلى حد العصيان كما حدث مع ياغي سيان حاكم أنطاكية والأمير عمر والي اعزاز ... وأن عمليات العزل والمصادرة والتنكيل التي تعرض لها الوزراء وغيرهم كان مردها إلى اضطراب الأحوال السياسية وكثرة الطلب على تحصيل الأموال بسبب ما كانت تعانيه الإمارة من نفقات الجيوش التركمانية والدمار الذي أحدثته الحروب والكوارث التي شهدتها المنطقة.

تناولت كذلك النسيج السكاني لشمال بلاد الشام وأوضحت أن المنطقة عاش فيها خليط من السكان منذ القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي أغلبهم من العرب المتحدرين من قبيلة كلاب وبعض القبائل الأخرى الأقل شأناً وإلى جانبهم عاشت عناصر أخرى كالأكراد والأرمن ومن ثم التركمان الذين توافدوا على المنطقة منذ سنة ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٤م، وبلغ أوج تدفقهم مع حملتي ألب أرسلان وملكشاه وعلى الرغم من ذلك ظل العرب هم العنصر الأقوى والمسيطر على مناحي الحياة الاقتصادية دون أمور الحكم والسياسة ثم ناقشت دور الأسر الكبيرة التي مثلت دور البرجوازية المحلية كأسرتي آل البديع وآل الخشاب اللتين كانتا تتناوبان زعامة المدينة وكذلك دور الفئات الشعبية كالأحداث الذين شكلوا تنظيماً شبه عسكري، ثم أشرت إلى دورهم السياسي والعسكري مع احتلال السلاجقة للبلاد سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ ــ ١٠٨٧م، حتى إنعدم نهائياً أيام حكم الملك رضوان، لكن اسمهم ما لبث أن ظهر بعد تسلم الأراتقة الحكم وفي مناسبات قليلة وخلصت إلى القول ان الأحداث قاموا بأدوار سياسية في حلب وعبروا بأشكال مختلفة عن رفضهم لكل طامع أجنبي في بلدهم، وأنهم حاولوا إقامة حكم شعبي ولكنهم أخفقوا بسبب استيلاء

السلاجقة على المنطقة. بعد ذلك تحدثت عن الفلاحين ودورهم في العملية الإنتاجية وما عانوه وقاسوه من ظلم الحكام والاقطاعيين الذين أثقلوا كاهلهم بالضرائب والأتاوات وأعمال السخرة التي فرضوها عليهم، ومع ذلك ظلوا هم العنصر الوطني الأكثر ارتباطاً وتعلقاً بالأرض، فهم لم يقصروا أو يتوانوا عن المشاركة في الدفاع عن بلادهم، وعلى الرغم من أن القادة التركان لم يسمحوا للفلاحين بالانتساب إلى الجيش إلا أنهم حملوا السلاح بشكل تلقائي وساهموا في مقاومة الغزاة وألحقوا الضرر بهم، ثم أشرت إلى باقي فئات المنتجين كالحرفيين والصناع والعمال وصغار الموظفين ودورهم في إنتاج الأدوات والمواد والسلع الاستهلاكية التي يحتاجها المجتمع.

ثم انتقلت إلى الحياة الاقتصادية بمختلف فروعها وعلى الرغم من قلة المعلومات وندرتها في الفترة التي تناولتها الدراسة لعدم إشارة المؤرخين لها أو تسجيلها لأن هذه الفترة أتت في أغلبها بالمنازعات والحروب الطاحنة ومع ذلك حاولت استقصاء كل ما ورد في المصادر حول أمور الزراعة والتجارة والصناعة والأمور المالية.

ففي الزراعة تعرضت لطبيعة الأرض في المنطقة وتعدد أشكال البيئة وملاءمتها للزراعة. وكذلك الملكية الزراعية وطرق الزراعة وأدواتها وأسلوب إروائها، ثم أشرت إلى المحاصيل الزراعية وتنوعها وبينت أسباب هذا التنوع. وكذلك أشرت إلى الثروة الحيوانية وأنواعها وأهميتها وأنها كانت مصدراً هاماً من مصادر تمويل الخزينة، كما كانت مصدراً من مصادر الغذاء للسكان ومادة أساسية للزراعة والنقل والجر وللتبادل التجاري بما كانت تنتجه من ألبان ولحوم وجلود.

ثم بحثت في الصناعة وأشرت إلى أهم العوامل التي أدت إلى نشوئها وازدهارها وإلى أهم الصناعات في إمارة حلب.

ثم انتقلت إلى التجارة وأوضحت أن شمال بلاد الشام كان ملتقى الطرق التجارية بين المشرق ومصر وبيزنطة وأن حلب كانت مركزاً تجارياً كبيراً على مر العصور تجلب إليه البضائع المختلفة من سائر البلدان، بعد ذلك أشرت إلى العوامل التي أثرت على ازدهار التجارة وتدهورها وتحدثت عن التجارة الداخلية والأسواق وعن التجارة الخارجية وكذلك أشرت إلى شبكة المواصلات الكبيرة المارة بحلب والتي ساعدتها على تبوء مكانتها التجارية المرموقة.

وأخيراً تحدثت عن الموارد المالية للإمارة وطرق جبايتها وإنفاقها وبعضاً من تقديراتها. إن ما عرضته لا يفي بتوضيح ما تضمنه الكتاب وإنما اقتصرت على بعض الإشارات إلى ما ورد فيه.

أرجو أن أكون قد حققت بعض ما أصبو إليه
والله من وراء القصد .

• عرض المصادر حسب الإفادة منها:

لقد اعتمدت في رسالتي على مجموعة كبيرة من المصادر والمراجع فكان بعضها شديد الصلة بالموضوع ويغطي كامل فصول الدراسة وبعضها الآخر يوضح بعض جوانب الموضوع، ولقد وجدت من المفيد افتتاح الكتاب بعرض لأهم المصادر التي استفدت منها مرتبة حسب أهميتها بالنسبة للبحث.

أولاً ـ كتب التاريخ:

ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد ت ٦٦٠ هـ)

يأتي على رأس المؤرخين الذي أرخوا لحلب وله في هذا المجال عدة كتب، وقد استفدت من كتابيه: بغية الطلب ـ المجلدة الأولى ـ وزبدة الحلب.

لقد أودع ابن العديم في المجلدة الأولى من بغية الطلب أغلب محتويات المكتبة الجغرافية العربية حول بلاد الشام، وكانت إفادتي منها كبيرة جداً وكانت المصدر الأساسي الذي اعتمدت عليه في الكتاب وخاصة في الفصل الأول المتضمن جغرافية حلب، والفصل الخامس الذي يبحث في النواحي الاقتصادية عامة، كما كان لما أورده ابن العديم من مدن وقرى وحصون وقلاع الأساس في رسم الحدود الجغرافية لإمارة حلب في تلك الفترة.

أما كتابه زبدة الحلب والذي ألفه على السنين فيعتبر تاريخاً عاماً وشاملاً لشمال بلاد الشام بشكل خاص ولبلاد الشام بشكل عام ولا غنى عنه لكل من يبحث في تاريخ حلب حتى وفاة المؤرخ، وقد غطى الفترة المدروسة بجميع جوانبها السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية، وكانت معلوماته كافية ودقيقة وشاملة، وتعتبر المصادر الأخرى تدعيماً لما ورد لدى ابن العديم.

لقد أفدت منه إفادة كبيرة في فصول الدراسة ففي الفصل الثاني اعتمدت عليه في كتابتي

عن الدولة المرداسية وصراع الأمراء المرداسيين وبدايات دخول الغز التركان إلى بلاد الشام ثم ظهورهم على مسرح الأحداث في حلب ومحاولاتهم الاستيلاء عليها، كما أفدت من وصفه الدقيق لحملة ألب أرسلان واستعانة الأمير المرداسي محمود بالتركان الناوكية، وأعمال التركان في حلب بدءاً من ابن خان وانتهاءً بالأفشين وسقوط الدولة المرداسية وقيام الدولة العقيلية والدولة المنقذية، وصراع الأمير العربي مسلم بن قريش مع سليمان بن قتلمش، ومحاولة أهل حلب بزعامة الحتيتي تشكيل دولة حلبية صرفة، وعن تفاصيل حملة ملكشاه ودخوله إلى حلب وأنطاكية وعودته إلى الشرق بعد أن رتب أمور شمالي بلاد الشام وألحق إمارة حلب بالسلطنة السلجوقية.

كذلك أفدت مما أورده ابن العديم حول آق سنقر وتسلمه الحكم في حلب والتفاصيل الدقيقة خاصة في مجال سياسته الداخلية ومن ثم صراعه مع تتش ومقتله. وكذلك اعتمدت عليه اعتماداً كبيراً في تغطية فترة حكم رضوان بن تتش بدءاً من وصوله إلى الحكم ثم محاولاته استعادة أملاك أبيه تتش، وموقفه من رجاله الذين تعاونوا معه، وكذلك علاقاته مع القوىٰ المحيطة به كالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية وعلاقته بالخلافة الفاطمية وإحلاله الدعوة الفاطمية محل العباسية، ثم عودته عن ذلك. وكذلك استفدت مما أورده ابن العديم عن علاقة رضوان بالاسماعيلية النزارية واعتماده عليهم في تثبيت حكمه، وكذلك علاقاته بالفرنجة الصليبيين منذ احتلالهم لأنطاكية سنة ٤٩١ هـ/١٠٩٧ ــ ١٠٩٨ م، وموقفه من هذا الاحتلال ومن حملة كربوقا وحصار المعرة ومعركة ارتاح. وتحالفه مع الفرنجة الصليبيين وموقفه من تجمع جيوش السلطان بزعامة مودود، كما أفدت من دقته في عرض أحوال حلب المضطربة بعد وفاة رضوان والتفاصيل التاريخية التي أوردها عن إيلغازي ووصوله إلى حلب وقيادته لحركة التصدي والمجابهة للفرنجة الصليبيين وكذلك فترات حكم كل من بلك وآق سنقر البرسقي، كما استفدت من التفاصيل التي قدمها عن الحروب الجانبية والمناوشات التي حدثت بين الحلبيين والفرنجة الصليبيين والتي إنفرد عن غيره من المؤرخين بجزء منها كما قدم مادة وافية وصورة واضحة عن أوضاع حلب الاجتماعية وتطوراتها الإدارية والاقتصادية وما تعاقب عليها من الولاة والوزراء ورؤساء المدينة ومقدمو الأحداث إضافة لكبار الموظفين الآخرين، وكذلك ما حدث في حلب من قتل وتهجير للسكان ودمار وتخريب للمزارع والأراضي والمصادرات التي طالت عدداً كبيراً من المتنفذين والأغنياء، والحياة البائسة التي عاشها أهالي إمارة حلب في الفترة المدروسة وباختصار يمكن القول إن ما جاء في كتاب زبدة الحلب يعتبر بمثابة العمود الفقري للرسالة تؤيده وتدعمه المصادر والمراجع الأخرىٰ.

ابن الأثير الجزري (أبو الحسن علي ت ٦٣٠ هـ)

يعتبر ابن الأثير من أشهر المؤرخين الحوليين وقد استفدت من كتابيه الكامل والباهر ويأتي كتاب الكامل لابن الأثير على رأس المصادر التاريخية حيث غطى تاريخ الفترة فيما بين ٤٥٠ ــ ٥٢٢ هـ بما قدمه من روايات أصيلة شملت معظم فصول الكتاب وخاصة رواياته حول ظهور السلاجقة وتحركاتهم غرباً ثم بداية دخول التركمان إلى الشام وصراعهم مع الأمراء المرداسيين ثم حملة ألب أرسلان وصلحه مع الأمير محمود بن مرداس وكذلك أفدت من رواياته المفصلة حول حملة ملكشاه وأخبار تتش وولديه رضوان ودقاق وأسلوب وصولهما إلى السلطة وكذلك موقف رضوان من رجاله وعلاقته مع العباسيين والسلاجقة من جهة وعلاقته بالفاطميين وانحيازه إليهم من جهة أخرى، وكذلك علاقة رضوان مع الاسماعيلية النزارية، كما استفدت من التفصيلات الواسعة التي أوردها عن حملات الفرنجة الصليبيين وموقف رضوان منها وكذلك موقف السلاطين السلاجقة منها وإرسالهم الجيوش إلى الشام لمحاربة الفرنجة الصليبيين وموقف أمراء الشام من هذه الجيوش وخاصة رضوان وطغتكين. كذلك كانت الفائدة كبيرة من المعلومات الواردة في الكامل حول التطورات والتغيرات التي شهدتها حلب بعد وفاة رضوان وعلى الرغم من أنها كانت مختصرة إلا أنها غطت فترة ولاية إيلغازي على حلب وموقفه من الفرنجة الصليبيين وعصيان ابنه عليه، ثم فترة سليمان ابن عبد الجبار وبلك بن بهرام وآق سنقر البرسقي.

وعلى الرغم من أن الكامل في التاريخ يعتبر تاريخاً سياسياً وعسكرياً في أغلب رواياته إلا أنه قدم بعض المعلومات الاجتماعية التي أفدت منها في فصل الحياة الاجتماعية وانعكاساتها على المنطقة.

أما كتاب الباهر فإن إفادتي منه اقتصرت على التعريف بآق سنقر ووصوله إلى السلطة والأعمال التي قام بها أثناء تسلمه الحكم وخاصة في المجال الداخلي.

ابن القلانسي (حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي ت ٥٥٥ هـ)

على الرغم من أن ابن القلانسي أرخ لمدينة دمشق وجنوبي بلاد الشام فإن تاريخه يعتبر من التواريخ العامة التي غطت معظم أنحاء العالم العربي الإسلامي خلال الفترة من ٣٦٠ ــ ٥٥٥ هـ فهو من معاصري فترة الرسالة وقد ألقى الضوء على الأحداث التي شهدتها إمارة حلب وباعتباره عاصر الفترة موضوع الرسالة فإن رواياته فيها من الدقة والتفاصيل ما أفدت منه في حملة ألب أرسلان على حلب وصلحه مع محمود المرداسي ثم أخبار الأمير محمود وعلاقته بالقائد التركماني أحمد شاه وسقوط الدولة المرداسية، وكذلك استفدت منه في

المعلومات التي أوردها عن آق سنقر وصراعه مع تتش ثم صراع ولديه رضوان ودقاق باعتبار أنه صراع بين شمالي بلاد الشام وجنوبها، لذلك كانت معلوماته عن هذه الفترة حتىٰ وصول آق سنقر البرسقي إلى حلب وأعماله فيها وافية ودقيقة، كما أفدت منه في فقرة التجارة.

سبط ابن الجوزي (أبو المظفر يوسف بن قزأوغلي ت ٦٥٤هـ)

يعتبر كتابه مرآة الزمان بقسميه المخطوط والمطبوع من التواريخ العامة التي قدمت معلومات وافية وخاصة منذ النصف الثاني للقرن الخامس الهجري، وقد أفدت من المعلومات التي وردت فيه عن الأفشين والناوكية وحملة ألب أرسلان، وصراع الأمراء المرداسيين مع التركمان وسقوط الدولة المرداسية، وكذلك أفدت من معلوماته التي غطت فترة آق سنقر منذ وصوله إلى السلطة وسياسته الداخلية وصراعه مع تتش، وكذلك في توضيح العلاقة بين رضوان والخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية والاسماعيلية النزارية، وكذلك أفدت من المعلومات التي وردت في مرآة الزمان حول علاقة رضوان مع الفرنجة الصليبيين وموقفه منهم، وموقفه من جيوش السلطان بقيادة الأمير مودود، وعن مساوىء رضوان ومهادنته للفرنجة الصليبيين الذين يغيرون على حلب ولا يخرج إليهم وأنه رأي العبر في نفسه، كما أفدت من ما قدمه حول ولاية إيلغازي وموقفه من الفرنجة الصليبيين وخاصة تفاصيل معركة ساحة الدم وعصيان ابنه سليمان عليه، ثم وصول آق سنقر البرسقي إلى حلب واستقباله من قبل أهلها وأعماله فيها ثم مقتله، وكذلك في بحث التجارة في حلب.

إن ما قدمه سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان من روايات مفصلة في بعض الأحيان أكملت الروايات التي وردت لدىٰ المؤرخين في الفترة المدروسة.

العظيمي (محمد بن علي ت ٥٥٦هـ)

على الرغم من أن تاريخ العظيمي تاريخاً حولياً وعاماً إلا أن رواياته ومعلوماته مختصرة جداً وقد أفدت منه في التأريخ لأوضاع حلب قبل وصول التركمان إليها، ثم علاقة الأمير محمود بن مرداس مع ابن خان وابنه نصر مع أحمد شاه، وكذلك نهاية آل مرداس، أما في الفصل الثالث فقد اقتصرت الإفادة منه على خبر آق سنقر وصراعه مع تتش وكذلك موقف رضوان بن تتش من رجاله كجناح الدولة حسين والحجن الفوعي وعلاقته بالاسماعيلية النزارية وموقف رضوان من الفرنجة الصليبيين ولكن بإيجاز شديد، وكذلك فترة الأراتقة في حلب حتىٰ وفاة عز الدين مسعود ووصول الزنكيين إليها.

أبو الفداء (إسماعيل بن محمد بن عمر ت ٧٣٢ هـ)

على الرغم من أنّ أكثر رواياته في كتابه المختصر في أخبار البشر منقولة عن كتاب الكامل لابن

الأثير إلا أن الإفادة منه كانت جيدة وخاصة في معرفة أوضاع حلب قبل وصول التركمان السلاجقة إليها وفي حملة ألب أرسلان على حلب وعلاقة الأمير محمود بن نصر المرداسي بأحمد شاه ومن ثم نهاية الدولة المرداسية وعلاقة مسلم بن قريش بسليمان بن قتلمش وكذلك ما أورده حول حملة ملكشاه على حلب، كما أفدت من المعلومات التي أوردها عن صراع آق سنقر قسيم الدولة مع تتش وعن وصول الملك رضوان بن تتش إلى عرش حلب ومحاولته استعادة دمشق من أخيه دقاق ثم موقفه من جناح الدولة حسين، وعلاقته ببغداد والقاهرة وموقفه من الفرنجة الصليبيين وخاصة حصارهم لحلب أيام حكمه وكذلك الأحداث التي شهدتها حلب بعد وفاته. كما أفدت من المعلومات التي قدمها عن ولاية إيلغازي وانتصاره في معركة ساحة الدم، ثم عصيان ابنه سليمان عليه، وكذلك من الروايات التي قدمها عن الأمير بلك وصلح حسام الدين تمرتاش مع الفرنجة الصليبيين، وعن وصول البرسقي إلى حلب وأعماله فيها، كما أفدت من بعض التفصيلات عن أوضاع حلب والقلاقل التي شهدتها بعد وفاة مسعود بن البرسقي.

أما كتابه تقويم البلدان فقد أفدت منه في المعلومات التي أوردها عن طرق الزراعة وأدواتها والمحاصيل الزراعية إضافة للمعلومات التي أفدت منها في التجارة والموارد المالية.

الذهبي (محمد بن أحمد ت ٧٤٨ هـ)

وقد أفدت من كتابيه العبر في خبر من غبر ودول الإسلام وعلى الأخص في الفصل الثاني حيث أورد روايات مفصلة عن أوضاع حلب قبل وصول التركمان السلاجقة، وتحركاتهم غرباً وحملة السلطان ألب أرسلان على حلب وصلحه مع محمود بن مرداس، ومحاولة كل من اتسز وتتش الاستيلاء على حلب، وعلاقة الأمير نصر بن محمود بالتركماني أحمد شاه ونهاية الدولة المرداسية وعلاقة مسلم بن قريش بسليمان بن قتلمش وما أورده عن حملة ملكشاه على حلب، وكذلك استفدت من المعلومات التي أوردها عن فترة رضوان بن تتش وعلاقاته مع الخلافتين العباسية والفاطمية وموقفه من الفرنجة الصليبيين ومن حملة الأمير كربوقا وحصار الفرنجة الصليبيين لحلب ثم الأحداث التي عاشتها حلب بعد وفاة رضوان، وكذلك فترة إيلغازي ونصره الحاسم في معركة ساحة الدم، وأعمال الأمير بلك بن بهرام ثم أعمال البرسقي في حلب، كما أفدت منه في الفصل الخامس وخاصة في فقرات النظم والإدارة والحياة الاجتماعية والموارد المالية.

ابن كثير (إسماعيل بن عمر ت ٧٧٤ هـ)

وقد أفدت من المعلومات والأخبار التي أوردها في (البداية والنهاية) وعلى الرغم من أنها كانت

مقتضية إلا أنني أفدت منها فيما ذكره عن تقسيم بلاد الشام إلى كور ، وحملة ألب أرسلان وملكشاه على حلب والمحاولات التي بذلها أتسز وتتش للاستيلاء والسيطرة على حلب ، وسقوط الدولة المرداسية وعلاقة الأمير مسلم بن قريش بسليمان بن قتلمش ، كما استفدت من المعلومات المفصلة التي ذكرها عن آق سنقر قسيم الدولة ووصوله إلى السلطة وسياسته في المجالين الداخلي والخارجي وكذلك علاقة رضوان بن تتش بالقوىٰ المحيطة كالخلافتين العباسية والفاطمية والاسماعيلية النزارية وموقفه من حملة كربوقا لإنقاذ أنطاكية وعلاقته بالفرنجة الصليبيين وموقفه من حصارهم للمعرة وحلب . كم أفدت منه فيما أورده عن أوضاع حلب بعد رضوان ومعركة ساحة الدم ، وكذلك وصول بلك إلى حكم حلب ومن بعده حسام الدين تمرتماش وموقفه من الفرنجة الصليبيين .

ابن الشحنه (محمد ت ٩٢١ هـ)

على الرغم من أن أغلب معلومات كتاب الدر المنتخب في تاريخ حلب لابن الشحنه مأخوذة من ابن شداد فقد استفدت منه في الفصل الأول وخاصة في ذكره المدن والبلدان والقرىٰ وبعض المرزوعات ، وكذلك فيما أورده عن معركة ساحة الدم وعن الأمير بلك وموقفه من الفرنجة الصليبيين ، وكذلك أفدت منه فيما أورده عن النظم والإدارة ، والزراعة والغابات والمراعي والتجارة ومن القوائم التي أوردها عن عائدات حلب المالية وتفرعاتها لسنة ٦٠٩ هـ .

ابن أبي الدم (إبراهيم ت ٦٤٢ هـ)

وقد أفدت من المعلومات التي حواها تاريخه الذي لا يزال مخطوطاً في حملة ألب أرسلان ومحاولتي أتسز وتتش الاستيلاء على حلب وإخفاقهما في ذلك وعن سقوط الدولة المرداسية وعلاقة مسلم بن قريش العقيلي بسليمان بن قتلمش كما استفدت من أخباره التي أوردها عن حملة ملكشاه وعن وصول رضوان بن تتش إلى الحكم وموقفه من جناح الدولة حسين ، وكذلك حملة الأمير كربوقا لإنقاذ أنطاكية وإخفاقه في مسعاه ، وعن حصار الفرنجة الصليبيين لحلب ووفاة رضوان . كما أفدت مما قدمه عن معركة ساحة الدم ، وموقف الأمير بلك من الفرنجة الصليبيين وكذلك عنْ آق سنقر البرسقي والأحداث التي شهدتها حلب بعد وفاة ابنه مسعود عز الدين وفيما أورده أيضاً عن النظم والإدارة والحياة الاجتماعية .

ابن العبري (ت ٦٨٥ هـ)

وقد أفادتني المعلومات التي أوردها في كتابيه (تاريخ الزمان) ومختصر الدول في موضوعات قيام الدولة السلجوقية وحملة ألب أرسلان على حلب وسقوط الدولة المرداسية وموقف مسلم ابن قريش من سليمان بن قتلمش وحملة ملكشاه على حلب ، كما أفدت مما أورده عن وصول

آق سنقر قسيم الدولة للسلطة في حلب وفي حملة الأمير كربوقا لفك الحصار الفرنجي الصليبي عن أنطاكية وحصارهم للمعرة. وموقف رضوان بن تتش من الفرنجة الصليبيين وكذلك استفدت منه في التأريخ للفترة التي عاشتها حلب بعد وفاة رضوان، وعصيان سليمان بن إيلغازي على أبيه، وموقف الأمير بلك بن بهرام من حسان بن كمشتكين أمير منبج.

الأصفهاني (محمد بن محمد) القرن السابع الهجري

وقد أفدت من كتابه البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان فيما أورده من معلومات حول حملة ألب أرسلان على حلب، ووصول رضوان بن تتش إلى الحكم وحملة كربوقا لإنقاذ أنطاكية وحصار حلب من قبل الفرنجة الصليبيين وكذلك عن وفاة رضوان وأوضاع إمارة حلب بعد وفاته حيث أعطى تفصيلات مهمة ومفيدة.

ابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ)

وقد أفدت من كتابه شذرات الذهب في المعلومات المتعلقة بحملة ألب أرسلان على حلب ومحاولة أتسز الاستيلاء عليها وسقوط الدولة المرداسية، وموقف الأمير العربي مسلم بن قريش من سليمان بن قتلمش، وكذلك وصول قسيم الدولة آق سنقر إلى حكم حلب وسياسته الخارجية، وأيضاً عن تسلم رضوان بن تتش حكم حلب ثم وفاته والقلاقل التي عاشتها الإمارة بعد وفاته، كما أفدت منه في المعلومات المتعلقة بمرض إيلغازي الأرتقي.

اليافعي اليمني المكي (محمد بن عبد الله ت ٧٦٨هـ)

وقد أفدت من كتابه (مرآة الجنان) فيما أورده عن حملة ألب أرسلان على حلب ومحاولة تتش الاستيلاء عليها، وموقف مسلم بن قريش من سليمان قتلمش وحملة ملكشاه على حلب وصراع قسيم الدولة مع تتش وكذلك وصول رضوان إلى الحكم ومحاولته استعادة دمشق من أخيه دقاق، وموقفه من حملة الأمير كربوقا لإنقاذ أنطاكية وحصار الفرنجة الصليبيين للمعرة، ثم وفاة رضوان وأوضاع حلب بعد وفاته، وكذلك عن وصول الأمير بلك إلى حلب.

ابن تغري بردي (أبو المحاسن يوسف ت ٨٧٤ هـ)

وقد أفدت من المعلومات التي أوردها في كتابه النجوم الزاهرة حول حملة ألب أرسلان على حلب ومحاولة أتسز الاستيلاء عليها وإخفاقه في مسعاه وكذلك سقوط الدولة المرداسية وموقف مسلم بن قريش من سليمان بن قتلمش وسياسة قسيم الدولة الخارجية وصراعه مع تتش، وموقف رضوان من الاسماعيلية النزارية ووفاة رضوان وأوضاع حلب بعد وفاته ثم مرض إيلغازي.

ابن أيبك الدواداري (عبد الله ت ٧٣٩ هـ)

وقد استفدت من كتابه الدرة المضيـة في أخبار الدولة الفاطمية في المعلومات التي قدمها عن قيام دولة السلاجقة وسقوط الدولة المرداسية، ووصول قسيم الدولة آق سنقر إلى السلطة كما أفدت من التفصيلات التي أوردها عن سياسته الخارجية.

العماد الأصفهاني (محمد بن محمد العماد الكاتب ت ٥٩٧هـ)

وكانت الإفادة من كتابه دولة آل سلجوق محصورة في المعلومات المتعلقة بالغز التركمان ووصولهم إلى بلاد الشام وأعمالهم فيها وصراعهم مع الأمراء المرداسيين وكذلك نهاية الدولة المرداسية وحملة ملكشاه على حلب.

الفارقي (ابن الأزرق ت ٥٧٢ هـ)

وقد أفدت من كتابيه تاريخ الفارقي، وتاريخ ميافارقين في المعلومات التي أوردها عن محاولة تتش الاستيلاء على حلب، وسياسة آق سنقر قسيم الدولة الخارجية وصراعه مع تتش، وكذلك وصول الملك رضوان إلى عرش حلب وموقفه من حملة كربوقا لإنقاذ أنطاكية ووفاة رضوان وكذلك في مرض إيلغازي.

- وكذلك استفدت من كتاب المنتظم لابن الجوزي المتوفي سنة ٥٩٧ هـ، وذلك في فقرة وصول رضوان إلى الحكم، وحملة الأمير كربوقا لإنقاذ أنطاكية وسياسة آق سنقر الخارجية وصراعه مع تتش وحصار الفرنجة الصليبيين للمعرة.
- أما كتاب اتعاظ الحنفاني أخبار الأئمة الفاطميين الخلفا للمقريزي المتوفي سنة ٨٤٥هـ فقد أفدت منه في فقرة التحرك المنظم للغز التركمان غرباً، وحصار الفرنجة الصليبيين للمعرة أيام الملك رضوان وحملة كربوقا وموقف رضوان منها ثم من بعض المعلومات المتعلقة بفقرة النظم والإدارة.
- وكذلك أفدت من كتاب أخبار الدولة السلجوقية (زبدة التواريخ) للحسيني المتوفي سنة ٦٢٢ هـ في أخبار أتسز ومحاولته الاستيلاء على حلب وأخبار تتش وسياسة آق سنقر الخارجية وعلاقات رضوان بالفرنجة الصليبيين.
- كما أفدت من كتاب سيرة المؤيد في الدين داعي دعاة الدولة الفاطمية هبة الله بن موسى الشيرازي المتوفي سنة ٤٨٠ هـ وخاصة ما أورده عن زيارته لحلب قبل دخول التركمان السلاجقة إليها ثم تحركهم غرباً وأخباره عن منظمة الأحداث الحلبية ونفوذ كلمتها في حلب.

ـ أما كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ المتوفي سنة ٥٨٤ هـ فقد أفدت منه في فقرة علاقة رضوان بالصليبيين وعن معركة ساحة الدم وموقف حسام الدين تمرتاش من الفرنجة الصليبيين وكذلك فقرة التجارة في حلب.

ـ وكذلك أفدت من كتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل المتوفي سنة ٦٩٧ هـ فيما أورده عن تعيين قسيم الدولة والياً على حلب وسياسته الداخلية، ثم مقتل البرسقي.

ـ أما كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون المتوفي سنة ٨٠٨ هـ فقد أفدت منه في المعلومات المتعلقة بعصيان سليمان بن إيلغازي على أبيه، وموقف الأمير بلك من الفرنجة الصليبيين وكذلك في الإشارات الاقتصادية التي وردت لديه.

ـ وكذلك أفدت من كتاب راحة الصدور وآية السرور للراوندي المتوفي سنة ٥٧٠ هـ فيما أورده من معلومات عن حملة ملكشاه على حلب.

ـ وكذلك أفدت من تاريخ ابن أبي الهيجا الذي عاصر فترة صلاح الدين الأيوبي. فما أورده عن سياسة آق سنقر قسيم الدولة الخارجية وصراعه مع تتش.

ثانياً ـ كتب الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين:

لقد استفدت في بحثي كذلك من كتب الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين. وكانت هذه المصادر غنية بالمعلومات الجغرافية والاقتصادية المتنوعة والتي أغنت الرسالة وخاصة في فصلها الأول والخامس.

وقد تقدمت الإشارة إلى كتاب ابن العديم بغية الطلب وأنه تضمن في المجلدة الأولىٰ منه جل ما كتبه الجغرافيون عن بلاد الشام وأنه أسهب كثيراً وأعطىٰ تفصيلات دقيقة عن الشام الشمالي جغرافياً واجتماعياً.

ويأتي بعد بغية الطلب في الإفادة كتاب الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة بقسميه قنسرين وحلب لابن شداد المتوفي سنة ٦٨٤ هـ وخاصة في موقع إمارة حلب والمناخ والتربة وكذلك في توضيح المدن والقرىٰ والحصون والقلاع التي كانت تابعة لإمارة حلب أيام ابن شداد.

كما أورد بعض المعلومات عن علاقة رضوان بن تتش بالاسماعيلية النزارية وعن موقف بلك من الفرنجة الصليبيين وكذلك في فترة النظم والإدارة والحياة الاجتماعية والزراعة والصناعة في حلب. أما معجم البلدان لياقوت الحموي المتوفي سنة ٦٢٦ هـ فقد أفدت منه في التعريف

بكثير من الأمكنة التي حوتها الرسالة وخاصة في الفصل الثاني كما أفدت من كثير من المعلومات التاريخية والاجتماعية التي أوردها عن كثير من المدن والبلدان ــ المواقع. أما كتابي المسالك والممالك وصورة الأرض لابن حوقل المتوفي سنة ٣٦٧ هـ فقد استفدت منه في التعريف بجبل اللكام وما نقله عن قنسرين وأن الكور كانت تنسب إليها، وعن تسمية ثغور الجزيرة وفيما أورده من المدن والحصون والقلاع والموضحة في الجدول الملحق بالفصل الأول كما تمت الإفادة من المعلومات المتعلقة بالغابات والمراعي وعن بعض الحرف والطرق التجارية وكذلك في فقرة الموارد المالية.

ــ كما أفدت من كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه المتوفي سنة ٢٧٢ هـ في تحديد موقع إمارة حلب وما فيها من أنهار وبحيرات وجبال وفي فقرة التجارة والطرق التجارية التي تربط حلب بغيرها من الأماكن.

ــ وكان للمعلومات الوثائقية التي قدمها المقدسي المتوفي سنة ٣٧٥ هـ عن اقتصاديات بلاد الشام وخاصة الزراعة وكذلك في جدول المدن والقرىٰ والحصون والقلاع المقارن في نهاية الفصل الأول. أهمية خاصة في معلومات الفصل الخامس.

ــ وكذلك أفدت من كتاب المسالك والممالك للأصطخري المتوفي سنة ٣٢١ هـ في تعريف ما أورده من المدن والقرىٰ والقلاع والحصون والثغور وقد أوردته في الجدول المقارن بنهاية الفصل الأول. وعن طرق التجارة في حلب.

ــ أما مخطوطة الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب لابن خطيب الناصرية المتوفي سنة ٨٤٣ هـ فقد أفدت منها في التعريف بأجناد الشام وتعدادها وتسمية العواصم وعن حدود حلب وما أضيف إليها.

ــ وكذلك أفدت من بعض الكتب الأخرىٰ ككتاب الأعلاق النفسية لابن رسته، وفتوح البلدان للبلاذري، والعقد الفريد لابن عبده ربه، وتاريخ الحكماء للقفطي، ونزهة المشتاق للإدريسي، ودر الحبب في تاريخ أعيان حلب للحنبلي.

أما كتب الرحالة فقد استفدت منها فائدة كبرىٰ وخاصة كتابي سفر نامة لناصر خسرو، ورحلة ابن جبير حيث قدما معلومات وثائقية غاية في الأهمية مليئة بالصور الحية والملاحظات الدقيقة عن المناطق التي زارها وهي في مجملها تكشف عن النشاط الاجتماعي وحركة الأسواق والأوضاع الصناعية وتصف أحوال العمران ولا سيما المساجد والأسواق وما استخدم فيها من مواد بناء وأثاث وكذلك عن أساليب التجارة والبيع والشراء وطرق المواصلات مما أغنىٰ الرسالة وجعلها أكثر توثيقاً في النواحي الاجتماعية والاقتصادية.

ثالثاً ـ كتب التراجم والأدب:

وكذلك اعتمدت على كثير من كتب التراجم وأفدت منها في الكتاب للتعريف ببعض الشخصيات التي لم يجرِ التعريف بها قبلاً وأهم هذه الكتب: وفيات الأعيان لابن خلكان المتوفي سنة ٦٨١ هـ وكتاب فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي المتوفي سنة ٧٦٤ هـ، وكتاب معجم الأدباء لياقوت الحموي المتوفي سنة ٦٢٦ هـ وكذلك كتاب الأعلام للزركلي، وأعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء لراغب الطباخ.

كما أفدت من بعض الكتب الأدبية فائدة محدودة منها: كتاب صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشاء للقلقشندي، وديوان ابن حيوس، كما استفدت من بعض المراجع مثل كتاب نهر الذهب في تاريخ حلب للغزي، وكتاب تحف الأنباء بتاريخ حلب الشهباء لبيتشوف، وكتاب الحركة الصليبية لعبد الفتاح عاشور، وكتاب الإمارات الأرتقية لعماد الدين خليل، ومدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية لسهيل زكار، ومقال دخول الترك الغز إلى الشام لشاكر مصطفىٰ، وكتاب موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين لأمينة بيطار. بالإضافة إلى كثير من المصادر والمراجع المهمة التي لا يمكن الحديث عنها جميعاً وقد جرت الإشارة إلى كل منها في موقع الإفادة منه في الكتاب إلى جانب ثبت كامل بأسماء جميع المصادر والمراجع مرتب حسب الحروف الهجائية.



الفصل الأول

جغرافية إمارة حلب

- المقـدمـة .
١ ــ إمارة حلب عند الجغرافيين العرب .
٢ ــ موقع إمارة حلب الجغرافي .
٣ ــ المناخ والتربة .
٤ ــ الأنهار والبحيرات والجبال .
٥ ــ المدن والقرىٰ والحصون والقلاع والثغور والعواصم .
٦ ــ جدول مقارن بين ما ورد عند المؤرخين والجغرافيين من المواقع .

• المقدمة:

حلب إحدىٰ المدن الهامة التي لعبت أدواراً كثيرة ومتعددة منذ أن بنيت في عهد العماليق[1]. أو في عهد سلوقس الموصلي[2]، وكان لها دور سياسي بارز إلى جانب الدور الحضاري والتجاري وبخاصة بعد الفتح الإسلامي لبلاد الشام.

وقد نقل ياقوت الحموي عدة أقوال عن سبب تسمية حلب بهذا الاسم منها، أنها سميت حلب لأن إبراهيم عليه السلام كان يحلب بها غنمه. وقيل إن حلب وحمص وبرذعة كانوا أخوة من بني عمليق فبنىٰ كل واحد منهم مدينة سميت باسمه وهم من بني مهر بن حيص بن جان ابن مكنف[3].

١ ــ إمارة حلب عند الجغرافيين العرب:

تحدث ياقوت الحموي عن حلب فقال: أعلم أن حلب من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة، وقيل إنه أفضل الأقاليم السبعة وأصحها هواءً وأعذبها ماءً[4].

فأما بطليموس الحكيم فقسمها سبعة أقسام... وقال في الإقليم الرابع... ثم يمر على جنوب بلاد التغر وشمال بلاد الشام... وفي هذا الإقليم (أي الرابع) من الجبال الطوال إثنان وعشرون يهراً[5]، ومن المدن المشهورة الكبار نحو مائتين وعدٌ بينها: بالس، منبج، حلب، قنسرين، المعرة...

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب ــ ثلاثة أجزاء، تحقيق: سامي الدهان، طبعة دمشق ١٩٥١م، جـ١، ص١٤.
ياقوت الحموي: معجم البلدان ــ خمسة أجزاء، طبعة صادرَ ودار بيروت، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، مادة حلب، جـ٢، ص٢٨٣.

(٢) ياقوت الحموي ــ المصدر السابق، جـ٢، ص٢٨٣.

(٣) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ مجلدة الأولىٰ، ص١٤ ــ ١٥، نقلاً عن كتاب المهلبي المسالك والممالك.

(٤) ياقوت الحموي ــ المصدر السابق، جـ٢، ص٢٨٤.

(٥) الزبيدي: تاج العروس، طبعة الكويت، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، تحقيق: عبد العليم الطحاوي، جـ٢، ص٣١١.
اليهر: الموضع الواسع، الزبيدي: جـ١٤، ص٤٧٨.
شيخ الربوة أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ليزغ، ١٩٢٣م، ص٥٤.

وقد نقل ابن العديم في بغية الطلب: عن أبي بكر وأبي عثمان الخالديين في تاريخ الموصل قولهما: «وأما موقعها، يعني الموصل من الأقاليم السبعة، ففي الإقليم الرابع، وهو أفضل الأقاليم وأجلها... ثم يمر على شمال الشام ففيه من المدن: بالس، ومنبج، وسميساط، وملطيه، وزبطرة، وحلب، وأنطاكية... وقد ذكر أبو عبد الله بن أحمد الجيهاني في كتابه ما قاله الخالديان، مع زيادة الكنيسة السوداء. ومثله قال أبو الحسين بن المنادي، أما أبو بكر أحمد ابن علي بن ثابت الحافظ: فقد عدّ بلاد الروم والشام من الإقليم الخامس»[1]. وهو مخالف لما قاله جميع الجغرافيين الذين تحدثوا عن قسمة المسكون من الأرض إلى أقاليم، ولذلك فالثابت أنها من الإقليم الرابع، وإذا كان الإقليم الرابع من أصح الأقاليم هواءً، وأعذبها ماءً، وهو في الوسط من العمران، وهو أفضل الأقاليم وأجلها فإن حلب ومنطقتها ومدنها واقعة في هذا الإقليم.

٢ ــ موقع إمارة حلب الجغرافي:

تقع حلب في القسم الشمالي من بلاد الشام، وكانت الشام أيام الروم مقسمة إلى اربع كور[2] هي: حمص، ودمشق، والأردن، وفلسطين. وظل الحال كذلك حتىٰ الفتح العربي الإسلامي لهذه البلاد، وقد حكىٰ الطبري في تاريخه: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه، لما عزم على فتح الشام سمىٰ لكل أمير أمره على الجيوش كورة. فسمىٰ لأبي عبيدة بن الجراح كورة حمص، وليزيد بن أبي سفيان كورة دمشق، ولشرحبيل بن حسنة كورة الأردن، ولعمرو ابن العاص وعلقمة بن محمد كورة فلسطين[3]. وظل الأمر كذلك أيام الخليفة عمر بن الخطاب فقسمت الشام إلى أربعة أجناد هي: جند حمص، ودمشق، والأردن، وفلسطين[4]، وهذه الأجناد الإسلامية أقاليم استقرت فيها فرق من الجيش الإسلامي لحمايتها، وقبض أعطياتهم[5]. وقد اختلف في تسمية الأجناد فقال بعضهم: سمىٰ المسلمون، فلسطين جنداً

---

(١) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، طبع ليدن، بريل سنة ١٨٩١ م، المجلد السابع، ص ٩١.
ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ مجلدة الأولىٰ، ص ٢٤٣.

(٢) الكورة: كل صقع من الأرض يشتمل على عدة قرىٰ، ولا بد لتلك القرىٰ من قصبة أو مدينة، أو نهر يجمع اسمها، ياقوت الحموي ــ المصدر السابق، جـ ٤، ص ٤٨٩.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، جـ ٣، ص ٣٩٤.
ابن كثير: البداية والنهاية، الطبعة الرابعة، مكتبة المعارف، بيروت ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٤ م، جـ ٧، ص ٣.
ابن الشحنة: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، طبعة ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م، دمشق، ص ٩.

(٤) عبد العزيز الدوري: المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، جامعة الأردن ١٩٧٤ م، بحث العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الإسلام، ص ٢٦.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، تحقيق: رضوان محمد رضوان، مصر، ص ١٣٧.

لأنه جمع كوراً، وكذلك دمشق، وكذلك الأردن، وكذلك حمص مع قنسرين، وقال بعضهم سميت كل ناحية لها جند يقبضون أطماعهم (أرزاقهم) بها جنداً، وذكروا أن الجزيرة كانت إلى قنسرين فجندها عبد الملك بن مروان، أي أفردها، فصار جندها يأخذون أطماعهم بها من خراجها[١]. وفي اللغة، الجند: المدينة، وجمعها أجناد. وخص أبو عبيدة بن الجراح به من الشام[٢]. وهذا يعني أن حلب وقنسرين كانتا تابعتين لكورة حمص، ومما يؤيد ذلك ما ذكره قدامة بن جعفر في كتاب الخراج: أن أبا عبيدة سار إلى قنسرين، وكورها يومئذ مضافة إلى حمص[٣]، وظلت كذلك حتىٰ أيام يزيد بن معاوية حيث فصلها عن حمص، وجعل من قنسرين وأنطاكية ومنبج جنداً. وقيل إن الذي جعل قنسرين وحلب جنداً، وأفردها عن حمص، هو معاوية بن أبي سفيان[٤]، وهكذا إنقسمت الشام في العصر الأموي إلى أجناد خمسة وهي: جند دمشق، وجند حمص، وجند فلسطين، وجند الأردن، وجند قنسرين، وقد استعمل الجغرافيون كاليعقوبي (ت ٢٨٨ هـ)، وابن رسته (ت ٢٩٠ هـ)، والأصطخري (ت ٣٢١ هـ)، وقدامة بن جعفر (ت ٣١٠ هـ)، كلمة الأجناد. أما ابن خرداذبة فإنه لا يستخدم كلمة الجند وإنما يذكر فقط كورة دمشق وكورة حمص... كما أن ابن شداد يستخدم في كتابه الأعلاق الخطيرة كلمة الأجناد، أما ياقوت الحموي فإنه يشير إلى أنه لم يبلغه أن كلمة أجناد استعملت في غير أرض الشام[٥].

وقد أفرد الخليفة هارون الرشيد منبج ودلوك، ورعبان، وقورس، ومعرة النعمان وأنطاكية، وتيزين، وسماها العواصم، لأن المسلمين يعتصمون بها في الثغور، فتعصمهم، وتمنعهم إذا انصرفوا من غزوهم[٦]. وهذا الاختلاف في استعمال الكلمات الدالة على أقسام الشام (كورة ــ جند ــ وأحياناً إقليم)[٧] يبدو أنه لا يمت إلى الوضع الإداري بصلة، لكن جغرافيي القرن

---

(١) البلاذري ــ المصدر السابق، ص١٣٨ و ص١٨٩.
ابن خطيب الناصرية: مخطوطة الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب، جـ ١، ص٧.
(٢) الزبيدي ــ المصدر السابق، جـ ٧، ص٥٣٤.
(٣) ابن الشحنة ــ المصدر السابق، ص٩، نقلاً عن قدامه بن جعفر في كتاب الخراج.
ابن خطيب الناصرية: الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب، جـ ١، ص٨.
(٤) ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ ١، ص٤١.
(٥) نجدة خماش: الإدارة في العصر الأموي، طبعة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م، ص٣٩. البلاذري ــ المصدر السابق، ص١٣٨
ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ ١، ص٤١.
(٦) البلاذري ــ المصدر السابق، ص١٣٨. ابن خطيب الناصرية ــ المصدر السابق، ص٩.
(٧) ابن خرداذبه يستعمل إقليم حمص بدلاً من كورة حمص.
نقولا زيادة: جغرافية الشام عند جغرافيي القرن الرابع الهجري ــ المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، ص١٤٨

الرابع وبغية التمييز بين جزء وآخر من ديار الإسلام لجأوا إلى التقسيم العسكري الإداري القديم والذي لم يكن متبعاً أيامهم لأنه يسهل عليهم ضم مدن وقرىٰ، ورساتيق وما إلى ذلك، في وحدات لها صفات خاصة[1] واستمر هذا التقسيم مستعملاً في الفترات التالية ولذلك نقرأ عند ابن خطيب الناصرية «أما أجناد الشام فكانت خمسة، فأولها جند قنسرين ومدينته العظمىٰ، حلب، وهي أكبر أجناد الشام، وأكثره مدناً وحصوناً»[2]، وكانت قنسرين أكبر مدن هذا الجند حتىٰ منتصف القرن الرابع الهجري، ثم تدرجت حلب في العمارة، وقنسرين في الخراب حتىٰ صارت مضافة إلى حلب[3] التي أصبحت هي مركز الجند وعاصمة الولاية.

وفي كتاب العقد الفريد[4]، أن الشام خمس شامات... والشام الخامسة قنسرين، ومدينتها العظمىٰ حلب، وبينهما أربع فراسخ. ويقول ابن خطيب الناصرية، ولقنسرين كان الذكر أولاً لكنها اليوم خراب، وقد زيد الآن في أعمال حلب من جهة الروم حتىٰ درنده وهي آخر عملها، إلى البحر من ناحية الغرب، وبعض بلاد الجزيرة مثل الرها والرقة، وجعبر والبيرة وما والاها، ومن ناحية الجنوب إلى قرب حماه، وحماه هي اليوم منفردة بعمل (منطقة) لكنها كانت من مضافات حلب قديماً، ومضاف إليها المعرة وقراها الكثيرة[5].

وهكذا نرىٰ أن إمارة حلب ومناطقها (جند قنسرين) كانت دائماً بين المد والجزر وكان ذلك يتبع قوة الحكام الذين يسيطرون عليها، وأحياناً كانت الثغور والعواصم مفردة عنها وذلك منذ أيام الخليفة العباسي هارون الرشيد، ويبدو أنها أضيفت إليها ثانية أيام حكم سيف الدولة الحمداني سنة ٣٣٣ هـ ـــ ٣٥٦ هـ/ ٩٤٤ م ـــ ٩٦٧ م، وبعد وفاة سيف الدولة ضعفت حلب ونهشتها الخلافات فأعاد البيزنطيون الكرة، وأخذوا مناطق متعددة منها أنطاكية وما حولها وطرسوس والمصيصة.. إلخ، وبقيت في أيديهم حتىٰ استعاد معظمها سليمان بن قتلمش وقد قاتل آق سنقر البيزنطيين واستخلص منهم حصن برزوية وهو آخر حصن بقي في أيدي البيزنطيين من أعمال أنطاكية وذلك سنة ٤٨١ هـ[6]/ ١٠٨٩ ـــ ١٠٩٠ م، ووصلت إمارة حلب في عهده إلى امتدادها أيام سيف الدولة بالرغم من وجود سلاجقة الروم في الشمال، وبعد دخول الفرنجة الصليبيين إلى بلاد الشام سنة ٤٩١ هـ/ ١٠٩٧ ـــ ١٠٩٨ م،

(١) نقولا زيادة ـــ المصدر السابق، ص ١٤٩.

(٢) ابن الخطيب الناصرية ـــ المصدر السابق، جـ ١، ص ٩.

(٣) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ـــ مجلدة الأولىٰ، ص ٤٩.

أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل): المختصر في أخبار البشر، استامبول ـــ ١٨٦٩ م، جـ ١، ص ١٦٠

(٤) ابن عبده ربه: العقد الفريد، القاهرة ـــ الطبعة الثانية، ١٣٧٢ هـ/ ١٩٥٣ م، جـ ١، ص ٥١.

(٥) ابن خطيب الناصرية ـــ المصدر السابق، جـ ١، ص ٩. ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ٢٣٠

(٦) ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ ٢، ص ٤٦٧.

أخذت بالتقلص طيلة وجودهم في بلاد الشام إلى أن تمكن الأيوبيون وبعدهم المماليك من إخراجهم منها، وأما عن حدود الجند أو الإمارة فكان ذكرها عاماً من قبل المؤرخين، فيقول ابن خطيب الناصرية: إن حدها من جهة الغرب البحر الرومي (الأبيض المتوسط). ومن جهة الشرق، الفرات وبعض البادية إلى منتهىٰ المناظر، ومن جهة الجنوب حدود حمص وتنتهي إلى قرية تعرف بالقرشية بالقرب من اللاذقية إلى حدود سلمية[1].

ثم زيد في أعمالها من جهة الروم بينما تقلصبت في الجنوب وانفصلت عنها حماه والمدن والقرىٰ التابعة لها[2]، ولا شك أن ذلك كان متأخراً عن الفترة السلجوقية ويمكن القول إن أقصىٰ امتداد لإمارة حلب في القرن الخامس الهجري وأوائل القرن السادس، الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين وصل من ناحية الشمال إلى سنجة وبهسنىٰ ومرعش وسيس، ومن جهة الغرب البحر المتوسط وامتداد نهر العاصي من الشمال حتىٰ قرية القرشية بالقرب من اللاذقية إلى شمال حمص، أما من جهة الجنوب فمن السلمية إلى خناصرة إلى صفين إلى قلعة جعبر، ومن الشرق من سميساط حتىٰ بالس مع امتداد نهر الفرات مروراً بقلعة الروم والبيرة وقلعة نجم إلى بالس[3]. ويعتبر جند قنسرين على هذا النحو أكبر أجناد الشام، وأكثرها مدناً وقصبته حلب. وكانت المنطقة (الجند) تتغير من وقت لآخر وتتداخل حدودها، ومدنها وقراها مع المناطق الأخرىٰ، فبعض المؤرخين عدّ الرصافة وصفين، وبالس، وحصن كيفا مع الجزيرة الفراتية[4]، وبعضهم أوردها ضمن حدود حلب وإمارتها[5]، وبعضهم جعل حماه، وشيزر، ومعرة النعمان تابعة لإمارة حلب[6]، وبعضهم جعلها لوحدها أو ألحقها بحمص[7]. أما العواصم والثغور فكانت مفردة لوحدها عن حلب منذ عهد الرشيد، ثم أخذت تخضع للبيزنطيين بين حين وآخر حتىٰ كانت ولاية سيف الدولة على حلب (٣٣٣هـ ــ ٣٥٦هـ) حيث أصبحت تابعة له ويولي عماله عليها[8]، وظلت كذلك حتىٰ أواخر القرن الخامس الهجري وبداية الغزو الصليبي لبلاد الشام، فاستولىٰ الصليبيون على بعضها وظل الحال كذلك حتىٰ قيام الدولة الأتابكية وبعدها الدولة الأيوبية وقيام حركة التحرير التي قادها الأمراء

(١) ابن خطيب الناصرية ــ المصدر السابق، ج ١، ص ١٠.

(٢) ابن الشحنة ــ المصدر السابق، ص ١١.

(٣) المدن والقرىٰ والقلاع ذكرها ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ مجلدة الأولىٰ.

(٤) القرماني (أبو العباس أحمد بن يوسف): أخبار الدول وآثار الدول، طبعة مصورة، بيروت ــ ص ٤٣٣، ٤٤٦.

(٥) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ مجلدة الأولىٰ، ص ٥٠. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ــ مخطوطة قنسرين، ص ٦ ــ ٧.

(٦) ابن شداد ــ المصدر السابق، ص ١٧. القرماني ــ المصدر السابق، ص ٤٥٧ ــ ٤٨٨.

(٧) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ مجلدة الأولىٰ، ص ٥٦. ابن الشحنة ــ المصدر السابق، ص ٢٣٠.

(٨) ماريوس كنار: نخب تاريخية وأدبية جامعة لأخبار الأمير سيف الدولة الحمداني، الجزائر ١٩٣٤م، ص ٦١، ٣٩٢.

الأيوبيون وآخرهم صلاح الدين الأيوبي. وهكذا فقد كانت قوة أمراء حلب وحكامها هي التي تتحكم بتبعية ذلك الثغر أو تلك المدينة لهما. كما أن ضعفهم وتبعيتهم لغيرهم كان يضعف من سيطرتهم على المناطق التابعة لها.

٣ ــ المناخ والتربة:

تتميز إمارة حلب بتعدد البيئات فيها تبعاً لتعدد أنواع التضاريس التي تحويها، ففيها البيئة الجبلية، إلى جانب البيئة الساحلية من الشمال والغرب، وفيها البيئة السهلية الداخلية الخصبة، والبيئة الصحراوية الجافة من الشرق وقسم من البادية في الجنوب، وهذا التعدد في البيئات فرض تنوعاً في المناخ وفارقاً كبيراً في درجات الحرارة بين الصيف والشتاء، وبين الليل والنهار، فهي تتأثر ببرودة المرتفعات الجبلية من الشمال والغرب، وبرياح الصحراء من الشرق والسهوب الداخلية، وبالتيارات الهوائية المعتدلة من البحر ووسط البلاد.

وبشكل عام فإن مناخها يتميز بالبرودة الشديدة شتاءً، والحرارة والقيظ صيفاً، وباعتدال ربيعها وخريفها، أما تربتها فهي البنيّة الحمراء الداكنة (الكروموزول). وتتلقى من الأمطار ما بين ٣٠٠ ــ ٦٠٠ مم وهي عرضة للتشقق، وتمثل تربتها منطقة زراعة القمح في سورية، كما أنها ملائمة جداً لزراعة القطن إذا توفر لها الري[١].

وقد وصف كثير من المؤرخين والجغرافيين إمارة حلب وبقعتها وما فيها من الخيرات، كما وصفوا قراها ومدنها وتضاريسها، وما تحويه من أنواع الأشجار والنباتات والمزروعات[٢]، وسيرد ذلك مفصلاً في الفصل الخامس من هذه الدراسة. كما تضم كثيراً من الكور والمدن والضياع مما يجمع سائر الغلات النفيسة[٣]. وأراضي حلب الغربية حتى أنطاكية، عامرة لا خراب فيها أصلاً لكنها أرض لزراعة الحنطة والشعير، تحت شجر الزيتون، قراها متصلة، ورياضها مزهرة، ومياهها متفجرة[٤].

• الأنهار والبحيرات والجبال في إمارة حلب:

١ ــ الأنهار: تعتبر أنهار إمارة حلب قليلة نسبياً إذا استثنينا نهرّا الفرات الذي يعتبر

---

(١) رجاء دويدري: القطر العربي السوري ــ دراسة إقليمية، جامعة دمشق، طبع ١٩٧٥ م، ص ٣٠.

(٢) انظر ــ ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ مجلدة الأولى، ص ١٢.

ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ــ مخطوطة قنسرين، ص ٩. ابن الشحنة: الدر المنتخب في تاريخ حلب، ص ١٤٩ ــ ١٥٠.

(٣) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ مجلدة الأولى، ص ١٣ ــ ١٤.

(٤) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ مجلدة الأولى، ص ٣٣. القفطي: تاريخ الحكماء، ص ٣٩٦.

الحد الشرقي لها، ونهر العاصي الذي يشكل جزءاً من حدودها الغربية بدءاً من الرستن وحتى مصبه في البحر المتوسط إلى جانب نهري سيحان وجيحان اللذان يسيران في مناطق الثغور.
أما نهر حلب الرئيسي فهو نهر قويق وقد أورده أكثر المؤرخين الذين أرخوا لحلب وكتبوا عنها، أمثال ابن حوقل والمهلبي، وأبو زيد البلخي، وأبو الحسين بن المنادي، وابن العديم، وابن شداد، وابن خطيب الناصرية وابن الشحنة[1]، وقال عنه ياقوت «هو نهر مدينة حلب مخرجه من قرية سبتات (ويبدو أن المقصود بها سنياب)[2]، وسألت عنها بحلب فقالوا: لا نعرف هذا الاسم إنما مخرجه من شناذر، قرية على ستة أميال من دابق، ثم يمر في رساتيق حلب ثمانية عشر ميلاً إلى حلب، ثم يمتد إلى قنسرين اثني عشر ميلاً ثم إلى المرج الأحمر اثني عشر ميلاً ثم يفيض في أجمة هناك، وماؤه أعذب ماء وأصحه، إلا أنه في الصيف ينشف، فلا يبقى إلا نزوز قليلة، وأما في الشتاء فهو حسن المنظر طيب المخبر»[3]. أما ابن العديم فيقول: «وله مخرجان شاهدتهما، وبين حلب وبينهما، أربعة وعشرون ميلاً، أحدهما في قرية يقال لها الحسينية، بالقرب من اعزاز... والمخرج الآخر يجتمع من عيون ماء من سُنياب، ويجتمع النهران فيصيران نهراً واحداً في بلد اعزاز، وهو نهر قويق، ثم يجري إلى دابق ويمر بمدينة حلب، وتمده عيون قبل وصوله إليها، وكذلك بعد أن يتجاوز حلب، وتمده عين المباركة فيقوى ويسقي في طريقه مواضع كثيرة حتى ينتهي إلى قنسرين، ثم يمر إلى المطخ ويغيض في الأجم»[4].

أما نهر الساجور فإنه يمر بمنبج[5]، ومنبعه من عين تاب، تجتمع إليه عيون ببلاد عين تاب، ويجري إلى قرية تعرف بالنفاخ فتجتمع إليه عيون أخر من بلد تل باشر، ثم ينتهي إلى الفرات ويصب فيه. وقد ساقه الأمير أرغون إلى نهر قويق فكثر ماؤه، وقد خرج ابن الشحنة بصحبة الأمير سيف الدين جلبان المؤيدي، لما كان نائباً بحلب إلى نهر الساجور، لإصلاح عوراته، وبناء ما تهدم من سكره[6]. ويبدو أنه لم يكن معروفاً إذ أن أغلب المؤرخين والجغرافيين لم يأتِ على ذكره، حتى ابن العديم في بغية الطلب، وعلى الأغلب أنه يعتبر رافداً من روافد قويق.

(١) ابن الشحنة ــ المصدر السابق، ص ١٣٤ ــ ١٣٦. ابن خرداذبه: المسالك والممالك، ص ١٧٧.
ابن الشحنة ــ المصدر السابق، ص ١٣٤.
(٢) ابن رسته: الأعلاق النفيسة ــ المجلد السابع، ص ٩١.
(٣) ياقوت الحموي ــ المصدر السابق، جـ ٤، ص ٤١٧.
(٤) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ مجلدة الأولى، ص ١٧٠.
(٥) ياقوت الحموي ــ المصدر السابق، جـ ٣، ص ١٧٠.
(٦) ابن الشحنة ــ المصدر السابق، ص ١٣٦.

٢ ــ البحيرات: إن البحيرات التي في إمارة حلب قليلة أيضاً وذلك بسبب من قلة الأنهار الداخلية وأهمها:

ــ **بحيرة أفامية**: وهي بحيرة كبيرة مذكورة، ويجلب منها السمك السلّور، ويقال إن قويق إذا مدَّ في الشتاء، يحمّر ماء أفامية[١].

ــ **بحيرة بغرا**: بحيرة كبيرة إلى جانب العمق، وتعرف أيضاً ببحيرة بغراس، ويجلب منها السمك الكثير، ولها ارتفاع وافر[٢].

وفي حلب قناة، يقال إنها قناة إبراهيم عليه السلام وهي تجتمع من أعين في قرية حيلان الواقعة إلى الشمال من حلب ويقال لها أحياناً قناة حيلان، ثم تجري مياهها ضمن قناة إلى وسط المدينة «وقيل إن الذي بنىٰ حلب، وزن ماءها إلى وسط المدينة، وبني المدينة عليها، وهي تأتي إلى مشهد العافية، تحت بعاذِين (قرية من قرىٰ حلب)، وتركب بعد ذلك على بناء محكم رفع لها لإنخفاض الأرض في ذلك الموضع، ثم تمر إلى أن تصل إلى قرية بظاهر حلب تدعىٰ بابلي، ثم تمر في جباب قد حفرت لها، إلى أن تنتهي إلى باب القناة، وتظهر في ذلك المكان، ثم تمر تحت الأرض إلى أن تدخل من باب الأربعين، وتنقسم في طريق متعددة إلى البلد»[٣].

٣ ــ الجبال: تكثر في إمارة حلب الجبال التي تحيط بها، ففي الشمال منها، اللكام ــ الأقرع، برصايا، ومن الغرب امتداد اللكام وجوشن وسمعان والأعلىٰ، ومن الشرق بانقوسا، والأحص ومن الجنوب جبل الطور، البشر، والأسود، وفيها ما هو على امتدادات كبيرة وارتفاعات عالية كاللكام وسمعان وبني عليم والأقرع، ومنها ما هو متوسط الارتفاع أو قليلها حتىٰ تصل إلى مستوىٰ الهضاب، كالأحص والأسود والبشر والأعلىٰ وبانقوسا وجوشن، ومنها ما هو كثير الأشجار والأحراج والنباتات كالسماق وسمعان والأعلىٰ وبانقوسا، ومنها ما هو عديمها كالأقرع، كذلك فيها جبال تزدان بالقرىٰ والمناطق الآهلة بالسكان، كاللكام والأحص، وجبل السماق وسمعان، وتتوزع هذه الجبال في إمارة حلب كما يلي[٤].

١ ــ جبل جوشن: يقع غربي مدينة حلب، يطل على نهر قويق ويعد جوشن منطقة

---

(١) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ مجلدة الأولىٰ، ص ٢٠٧.

(٢) ابن العديم ــ المصدر السابق، مجلدة الأولىٰ، ص ٢٠٨.

(٣) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ مجلدة الأولىٰ، ص ١٣. ابن خطيب الناصرية: مخطوطة الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب، جـ ١، ص ١٠. ابن الشحنة ــ المصدر السابق، ص ١٤١ ــ ١٤٤، وقد فصل فيها كثيراً نقلاً عن المؤرخين، لمزيد من المعرفة عن القناة الرجوع إليه.

(٤) أغلب المعلومات عن الجبال، مأخوذة من ابن العديم: بغية الطلب، ص ٢٠٨ وما بعدها.

منتزهات لأهل حلب[1]، ويوجد فيه معدن النحاس.

٢ــ جبل بالقوسا: جبل ممتد، قليل الأرتفاع، يقع شرقي مدينة حلب، فيه مناطق آهلة بالسكان، ويقال إنه منبت خشب الشربين (السرو).

٣ــ جبل سمعان: يقع غربي مدينة حلب أوله شمالي جبل جوشن، يمتد غرباً بسلسلة حتىٰ كورة تيزين وهو كثير التين والزيتون والكروم والكمثرىٰ، وفي وسطه جبل عال شاهق يقال له جبل بيت لاها الشرقي، وجبل ليلون، وفيه المنتزهات، والأبنية العظيمة التي تقصد لحسنها، وفيه دير سمعان المشهور[2].

ــ **الجبل الأعلىٰ:** وهو جبل عالٍ يتصل بجبل سمعان من جهة الشمال، وجبل السماق من جنوبه، أغلبه مأهول بالسكان، كثير الأشجار من التين والزيتون والرمان، والجوز والسماق.

ــ **جبل السماق:** ويشتمل على عدة قرىٰ، من أنزه البقاع وأعجبها، مشهور بطيب هوائه، وكثرة أشجاره، وثماره، يزرع في أرضه القطاني[3] والحبوب والقثاء، أما الفواكه والثمار ففيه من التين والعنب، والفستق واللوز والجوز، والتفاح والمشمش الشيء الكثير، وعرف بجبل السماق لكثرة هذه المادة فيه وجودتها[4].

ــ **جبل الطور:** يحيط بقنسرين من جهة الجنوب والشرق، ونهر قويق يمر من شرقيه.

ــ **جبل بني عليم:** مشرف على جبل السماق، في أسفله مدينة أريحا الحالية، وفي رأس الجبل عين ماء يقال لها الكرساني، يقصدها الناس للنزهة من حلب وغيرها، وفي أسفله قرية كفر لاثا[5]. وهو منسوب إلى بني عليم.

ــ **جبل الأحص:** يقع شرق مدينة حلب وجنوبها، في غربه السهول وفي شرقه بادية الرصافة، ومن شماله نقرة بني أسد، وفيه قرية خناصرة، وقرىٰ كثيرة عامرة بإنتاج الغلال.

ــ **جبل البشر:** وهو جبل كبير شرقي مدينة حلب ويبدو أنه هو المعروف بجبل البشرّي في أيامنا. يبعد عن الرصافة غرباً أربعة فراسخ، وينسب إلى رجل يقال له البشر.

ــ **جبل برصايا:** جبل عالٍ شامخ يقع شمالي اعزاز، يشرف على اعزاز وكورة الأرتيق، وهو من أبهىٰ البقاع منظراً وأرقها هواءً.

ــ **الجبل الأسود:** يقع غربي جبل اللكام، وفيه حصن الدربساك ويصل حتىٰ صرفند، وفيه

---

(١) ابن الشحنة ــ المصدر السابق، ص٢٥٦.

(٢) يبعد دير سمعان عن حلب مسافة / ٤٥ / كم، التقسيمات الإدارية في سورية، ص٢٩٨.

(٣) القطاني: يقصد بها ــ العدس والحمص والكرسنه.

(٤) السماق: مادة حرجية لا تحتاج إلى زراعة، يستعمل حبه في الطعام والزعتر، وورقه لدباغة الجلود، وجذره وسوقه حطباً للوقود.

(٥) كفر لاثا: تبعد عن ادلب / ٢٠ / كم، التقسيمات الإدارية في سورية، ص٢٥٢.

أشجار كثيرة.

ـ **جبل اللكام**: ويقال له أيضاً بيت لاها الغربي، وهو إلى الشمال الغربي من حلب، وفيه كثير من القلاع والحصون ويقول عنه ابن حوقل «جبل داخل في بلد الروم، ويقال إنه ينتهي إلى حد مائتي فرسخ، ويظهر في بلاد الإسلام بين مرعش والهارونيه، وعين زربه فيسمى اللكام إلى أن يجاوز اللاذقية، ثم يسمى جبل بهراء وتنوخ إلى حمص، ثم يسمى جبل لبنان...»[1].

ـ **جبل الأقرع**: وهو من جبال أنطاكية، سمي بالأقرع لعدم وجود النبات فيه، ويتصل بجبل اللكام.

• المدن والقرى والحصون والقلاع والثغور والعواصم التي تتبع إمارة حلب:

تعتبر إمارة حلب أكبر المواقع الإدارية في بلاد الشام، وقد وصلت أقصى اتساع لها أيام الدولة الحمدانية، إذ وصلت فتوحات سيف الدولة إلى حصن زياد وسمندو وخرشنه، وقد بدأ التراجع عنها (أو عن بعضها) بعد سيف الدولة وتعاقب الأمراء وخلافاتهم التي بقيت حتى نهاية الدولة المرداسية، وقد غزا السلاجقة بلاد البيزنطيين، وحاولوا استرداد المواقع الشامية التي استولى البيزنطيون عليها، إضافة إلى أن سلاجقة الروم أقاموا دولة في المناطق الشمالية للثغور حتى أن سليمان بن قتلمش سيطر على أنطاكية، وأخذها من أيدي البيزنطيين، وأخذ يغير منها على حلب أيام أبي المكارم مسلم بن قريش كما سيتضح[2]. وقد ذكر جغرافيو القرن الرابع الهجري ما اشتمل عليه جند قنسرين (إمارة حلب) من المدن والقرى والحصون والقلاع، ثم عدوا الثغور والعواصم وهي مفردة عنها. أما مؤرخو القرن السادس والسابع وبخاصة ابن العديم وابن شداد الأقرب إلى الفترة التي تبحث في هذه الدراسة، فقد عدوا الثغور والعواصم من أعمال حلب ومضافة إليها وكذلك المتأخرون منهم كابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ) وابن خطيب الناصرية (ت ٨٤٣ هـ) وابن الشحنة (ت ٨٩٠ هـ). ويبدو أن اختلاف الجغرافيين المؤرخين فيما بينهم بالنسبة للعواصم والثغور، وحتى المدن والقرى والحصون من حيث تعداد وذكر أسمائها في كتبهم ومصنفاتهم يعود إلى أن البعض يذكر حتى الحصون الأقل شأناً، كابن العديم بينما اقتصر البعض الآخر على الهام منها أو ما اعتبره هاماً من وجهة نظره[3].

---

(١) ابن حوقل: المسالك والممالك، ص١٠٩.

(٢) انظر فيما يأتي ـ الصفحة ٥١ ـ ٥٤.

(٣) انظر الجدول المرفق وما ذكره بعض الجغرافيين من القرن الرابع الهجري، وما ذكره بعض المؤرخين من القرنين السادس والسابع الهجريين

١ ـ **حلب**: «فأما حلب فهي مدينة قنسرين العظيمة، وهي مستقر السلطان، وهي مدينة جليلة عامرة آهلة، حسنة المنازل... وهي من أجل المدن وأنفسها، ولها من الكور والضياع ما يجمع سائر الغلات النفيسة، وشرب أهلها من نهر قويق»[١]. وقال عنها ابن جبير: «حلب بلدة قدرها خطير، وذكرها في كل زمان يطير، خطابها من الملوك كثير، ومحلها من النفوس كثير، طاولت الأيام والأعوام، وسعت إليها الخواص والعوام[٢]. وقال عنها ابن شداد: وعلى كل حال فإنها أعظم البلاد جمالاً وأفخرها زينة وجلالاً، مشهورة الفخار، عالية البنا والمنار، ظلها ضاف، وماؤها صاف، وسعوها واف، ووردها العليل للنفوس شاف،... لم ترَ العيون أجمل من بهائها، ولا أطيب من هوائها، ولا أحسن من بنائها[٣]. ويقول عنها ابن فضل الله العمري: حلب مدينة عظيمة، أم أقاليم، وبلاد وأغوار وأنجاد، وبها معظم قلاع الشام ومعاقله وحصونه وثغوره... وبلادها متصلة بسيس والروم وديار بكر وبرية العراق، وأما عملها فكبير متسع منه قلاع وحصون ومنه ما ليس له قلعة[٤]. ويقول فيها الحنبلي بعد أن يذكر عراقتها وما قيل في تسميتها، كانت قبيل الإسلام وفي العصور الإسلامية، بليدة ثانوية محصورة بين مدينتين عظيمتين، هما: أنطاكية عاصمة سورية الشمالية آنذاك، وقنسرين عاصمة الديار الحلبية، ولمع نجمها في عهد الحمدانيين والمرداسيين، فأصبحت مركز الديار (بعد أن دمر البيزنطيون قنسرين) وحاضرة البلاد، حتى أصبح سكانها في القرن السادس ستمائة وخمسين ألفاً بالرغم من تعرضها للخراب على يد البيزنطيين الذين دمروا أسوارها ودورها بعد نهبها حين كانوا ينتصرون على الحمدانيين والمرداسيين[٥]. لكن الحنبلي لا يذكر المصدر الذي اعتمد عليه في تقدير عدد سكان حلب في القرن السادس الهجري. ويذكر نقولا زيادة في كتابه الجغرافية والرحلات عند العرب أن حلب تتمتع بيسار ورخاء إذ تلتقي عندها طرق التجارة الشامية والرومية والعراقية والمصرية»[٦].

٢ ـ **قنسرين**: وكانت تسمى زمن الروم صوبا[٧]، ثم سميت قنسرين، بينها وبين حلب

والمتأخرين منهم.

(١) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ـ المجلدة الأولى، ص ١٤ ـ ١٥ ـ ٢٠.

(٢) ابن جبير: رحلته، ص ١٧٧ ـ ١٧٨. ابن الشحنة ـ المصدر السابق، ص ١٥٥.

(٣) ابن الشحنة ـ المصدر السابق، ص ١٤٩ ـ ١٥٠.

(٤) ابن الشحنة ـ المصدر السابق، ص ١٥٦، نقلاً عن ابن فضل الله العمري.

(٥) الحنبلي: در الحبب في تاريخ أعيان حلب، ص ٣٣.

(٦) نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، بيروت ـ ١٩٦٢ م، ص ١٦٠ ـ ناصر خسرو: سفر نامه، ص ٤٤.

(٧) ابن العديم: بغية الطلب ـ مجلدة الأولى، ص ٢٢. وورد اسمها عند ابن شداد: في الأعلاق الخطيرة ـ قسم قنسرين (صوما)، ص ٩

أربع فراسخ وتقع إلى الجنوب من حلب، وكانت تنسب الكور إليها[1]، وهي مدينة صغيرة، كثيرة الخير والسعة من أضيق تلك النواحي بناءً، وإن كانت نزهة الناظر[2]، وهي اليوم خراب.

٣ ــ **حاضر قنسرين**: ويقال لها أيضاً حاضر طي، تقع إلى جانب قنسرين، يسكنها الفلاحون وخربت قلعتها، وصارت تلاً يزرع فيه العقيل والاشنان[3].

٤ ــ **سرمين**: مدينة بطرف جبل السماق، كثيرة الأشجار، حدودها واسعة، وبها مسجد وأسواق ولها عمارة فاخرة[4]. وهي الآن إحدىٰ قرىٰ محافظة أدلب وتبعد عنها /٨٠/ كم[5].

٥ ــ **معرة مصرين**: مدينة مشهورة، كثيرة الأشجار[6]، والأمطار وتعرف بذات القصور وتقع إلى الجنوب الغربي من حلب وهي الآن إحدىٰ نواحي محافظة أدلب وتبعد عنها بحدود /١٠/ كم.

٦ ــ **حارم**: من المدن الهامة في إمارة حلب طولها تسع وستون درجة وثلاثون دقيقة وعرضها خمس وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة، تشتمل على قرىٰ وبساتين فيها عيون كثيرة، وهي بهذه العيون تسمىٰ دمشق الصغيرة لما فيها من الفواكه، تقع إلى الغرب من حلب، يحدها جنوباً جبل أرمناز والأعلىٰ وباريشا، ومن الشرق تصل حدودها إلى قرية عم وتيزين وجبل لبون ومن الشمال تنتهي إلى عفرين[7].

٧ ــ **اعزاز**: مدينة هامة، تقع إلى الشمال من حلب، يتبعها أكثر من ثلاثمائة قرية، بناؤها حسن، وهي الآن مركز منطقة إدارية[8].

٨ ــ **بالس**: مدينة قديمة على شاطىء الفرات (مسكنه حالياً)، كانت مركز التجارة للمواد التي تصل من مصر وبلاد الشام إلى العراق، قال عنها ابن حوقل «وبالس مدينة قديمة صغيرة في سفح جبل على شط الفرات الغربي ... ومن القرىٰ التابعة لها، توبلس، وقاصرين،

---

(١) ابن حوقل: المسالك والممالك، طبع ١٨٧٣ م، ص ١١٠.
(٢) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ــ مخطوط قنسرين، ص ٩.
(٣) ابن شداد ــ المصدر السابق، ص ١٠.
(٤) ابن شداد ــ المصدر السابق، ابن الشحنة ــ المصدر السابق، ص ١٦٣.
(٥) التقسيمات الإدارية في سورية، ص ٢٥٩.
(٦) ابن شداد ــ المصدر السابق، ص ١١.
(٧) ابن شداد ــ المصدر السابق، ص ١٢، ١٧.
(٨) التقسيمات الإدارية في سورية، ص ٢٤٠.

وعابدين، وصفين[1]. وظلت كذلك إلى أن استولى المغول على البلاد فأجلوا عنها أهلها، وخلت ولم يعد إليها قاطن وتفرق أهلها في البلاد.

٩ ــ **صفين**: وهي من أعمال جند قنسرين، قرية عامرة كبيرة، في منطقة مرتفعة من شط الفرات[2]، وبها جرت موقعة صفين المشهورة في التاريخ الإسلامي.

١٠ ــ **تل باشر**: بلدة مشهورة، ولها قلعة معمورة، بساتينها كثيرة، ومياهها غزيرة، وشرب بلدها جميعه من نهر الساجور[3]، وتقع إلى الشمال من حلب.

١١ ــ **حماه**: عدها المقدسي من مدن حلب، أما ابن واضح فقد عدّها من عمل حمص[4]، وظلت تابعة لحلب حتى قيام الدولة الأيوبية، وهي الآن إحدى محافظات القطر العربي السوري، مشهورة بثمارها وبساتينها.. وهي من أنزه البلاد الشامية، والعاصي يستدير على غالبها من شرقيها وشماليها ولها قلعة حسنة البناء مرتفعة وبها نواعير على العاصي، تسقي أكثر بساتينها[5].

١٢ ــ **الباب وبزاعا**: وهما قريتان عظيمتان، بل مدينتان صغيرتان. لهما بساتين يلذ بها النازل ويطيب، وتقعان إلى الشمال الشرقي من حلب بمسافة تقدر بحوالي ٥٠ كم وبينهما وادي بطنان، وهو من أصح البقاع ماء وأرقها هواءً، وفيه أنهر جارية، وقرى متصلة قصبتها بزاعة، والباب أكثر عمارة من بزاعة، وهي الآن مركز منطقة إدارية تابعة لحلب.

١٣ ــ **منبج**: وهي مدينة حسنة البناء، صحيحة الهواء، كثيرة الأشجار والمياه، يانعة البقول والثمار، وقد نقل ابن العديم عن البلاذري أن منبج مع قنسرين وأنطاكية ظلت جنداً، حتى استخلف هارون الرشيد فأفرد منبج ودلوك ورعبان وقورس وأنطاكية وتيزين وسماها العواصم، وأما ابن العديم فإنه لا يعدها من العواصم ويبدو أنها أصبحت بعد سيف الدولة تابعة لحلب[6]، وتقع إلى الشمال الشرقي من حلب، وهي في الوقت الحاضر مركز منطقة إدارية من مناطق حلب. وبقرب منبج تقع مدينة سبخة الصغيرة، وبقربها قنطرة حجارة ليس أعجب منها[7].

---

(١) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ مجلدة الأولى، ص ٥٣.

(٢) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ــ مخطوط قنسرين، ص ١٢.

(٣) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ مجلدة الأولى، ص ١٥٤.

(٤) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ مجلدة الأولى، ص ٦٦.

(٥) نقولا زيادة ــ المصدر السابق، ص ٧٨، نقلاً عن كتاب أبي الفدا، تقويم البلدان.

(٦) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ مجلدة الأولى، ص ٤٦ ــ ٤٨. ماريوس كنار: نخب تاريخية، ص ٤٢.

(٧) نقولا زيادة: المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، ص ١٦٠. ماريوس كنار: نخب تاريخية، ص ٤٢.

١٤ ــ **جسر منبج**: مدينة صغيرة لها زرع سقي ومباخس، وماؤها من الفرات، ذات مياه وأشجار بين منبج والفرات وقد قاربت على الخراب[١]، وتقع إلى الجنوب الشرقي من حلب قريباً من قلعة جعبر، وأطلالها تشهد عليها اليوم.

١٥ ــ **رصافة هشام**: وهي من مناطق حلب، يشرب أهلها من ماء المطر، وهي قوية منيعة، لأنها في برية، وكان هشام بن عبد الملك قد اتخذها دار إقامته[٢].

١٦ ــ **معرة النعمان**: مدينة حسنة البناء، كثيرة الأشجار والفواكه، واسعة الأسواق، نسبها المسعودي إلى النعمان بن بشير، وكانت تسمىٰ قديماً ذات القصور[٣]. وهي إلى الجنوب من حلب بينها وبين حماه. وهي مدينة هامة الآن ومركز لمنطقة إدارية.

١٧ ــ **خناصرة**: كانت بلدة صغيرة ولها حصن، وهي تحاذي قنسرين باتجاه البادية[٤]، تقع إلى الجنوب من حلب مع ميل إلى الشرق قليلاً.

١٨ ــ **كفر طاب**: كانت مدينة مبنية بالمدر تقع إلى الجنوب من معرة النعمان بخمسة وعشرين كيلو متراً كانت مشهورة بدباغة الجلود وصناعة الفخار، الذي يعمل بها ويحمل إلى البلاد التي حولها[٥].

١٩ ــ **أفامية**: وتقع إلى الغرب من كفر طاب وإلى الشمال الغربي من شيزر وحماه قريبة من العاصي، وهي قديمة وبها آثار رومية عظيمة، وقيل إن سلوقس بناها مع سلوقيه وحلب والرها واللاذقية، وبالقرب منها بحيرة فامية المقدم ذكرها، ولها قلعة موصوفة بالحصانة والمنعة[٦]، وتعرف الآن بقلعة المضيق.

٢٠ ــ **شيزر**: وهي مدينة صغيرة، فواكهها كثيرة، لها قلعة حصينة[٧]، كانت عاصمة الإمارة المنقذية التي لعبت دوراً خطيراً أيام الغزو الصليبي، وقد حاول آق سنقر دعمها لتشكل حاجزاً بينه وبين تتش في دمشق.

٢١ ــ **وكانت بلدان أخرىٰ** قبل هذه الفترة تعرف بالعواصم مثل منبج ودلوك ورعبان،

---

(١) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ مجلدة الأولىٰ، ص٤٨. ماريوس كنار: لمحة تاريخية، ص٤٣.
(٢) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ مجلدة الأولىٰ، ص٥١.
(٣) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ مجلدة الأولىٰ، ص٥٦. محمد بن محمد عبد الله بن ادريس الحمودي الحسني: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، المعهد العلمي الفرنسي ــ تسعة أجزاء، ص٦٤٩.
(٤) ابن العديم ــ المصدر السابق، المجلدة الأولىٰ، ص٦٠.
(٥) ابن العديم ــ المصدر السابق، المجلدة الأولىٰ، ص٦٣.
(٦) ابن العديم ــ المصدر السابق، المجلدة الأولىٰ، ص٦٤.
(٧) ابن العديم ــ المصدر السابق، المجلدة الأولىٰ، ص٦٥.

وقورس، وأنطاكية، وتيزين[1]، وسماها البلاذري العواصم لأن المسلمين يعتصمون بها. فتعصمهم وتمنعهم إذا انصرفوا من عدوهم وخرجوا من الثغور، وجعل مدينة منبج[2] مدينة العواصم. أما قدامة بن جعفر فقد أضاف إليها الجوقة، ولم يذكر معها تيزين[3]، أما ابن حوقل فقد عدّ بالس وسميساط مع الثغور ولكنه لم يوردها مع العواصم.

٢٢ ــ وهناك بلدان وحصون كانت تعتبر ثغوراً وقد ذكر ياقوت أن الثغر كل موضع قريب من أرض العدو، وهو في مواضع كثيرة منها ثغر الشام وهذا الاسم يشمل بلاداً كثيرة، وهي البلاد المعروفة اليوم (أيام ياقوت) ببلاد ابن لاون، ولا قصبة لها لأن أكثر بلادها متساوية[4]، وأما الزبيدي فيقول: الثغر هو الموضع الذي يكون حداً فاصلاً بين بلاد المسلمين والكفار[5]. ويرى الأصطخري أنه بالرغم من أن بعض الثغور، تعرف بثغور الشام، وأخرى تعرف بثغور الجزيرة، فإن كليهما من الشام، لأن كل ما وراء الفرات (ويقصد غرب الفرات) من الشام، وإنما سمي من ملطية إلى مرعش ثغور الجزيرة لأن أهل الجزيرة بها يرابطون، وبها يغزون، لا لأنها من الجزيرة[6]. وابن رسته يعدد الثغور الشامية فيقول: أذنه، المصيصة، طرسوس، عين زربه، الهارونيه، الكنيسة السوداء. وأما قدامه بن جعفر فيذكر الثغور الشامية التي ذكرها ابن رسته ويضيف عليها بياس ونقابلس ويضيف إليها ثغور الجزيرة وهي مرعش والحدث، وزبطرة، وكيسوم، وسميساط، وملطيه.

أما الثغور عند ابن حوقل فهي: ملطيه، الحدث، مرعش، الهارونيه، عين زربه، المصيصة، أذنه والكنيسه، وطرسوس[7]. ويزيد ابن العديم في الثغور عمّا ذكره ابن حوقل، زبطرة وسميساط[8] أما الحصون التي كانت تابعة لهذه المدن فهي: حصن قليقيه، حصن ثابت بن نصر، حصن عجيف، حصن شاكر، حصن الجوزات، حصن تل جبير، حصن أولاس، حصن الاسكندرونه، حصن بياس، حصن التينات، حصن أياس، حصن المثقب، حصن سيسيه وفيه مدينة قريبة من عين زربه، حصن ذي الكلاع، حصن قطر غاش بين

---

(١) ياقوت الحموي ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ١٦٥.

(٢) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ مجلدة الأولى، ص ٤٦ ــ ٤٩. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٤ ــ ص ١٦٥.

(٣) ابن حوقل ــ المصدر السابق، ص ١٠٨ ماريوس كنار ــ المصدر السابق، ص ٦٢.

(٤) ياقوت الحموي ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٩.

(٥) الزبيدي ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ٣٢٢.

(٦) الاصطخري ــ المسالك والممالك، طبعة ١٩٣٧ م، ص ٥٥. ابن حوقل ــ المصدر السابق، ص ١٠٨.
ياقوت الحموي ــ المصدر السابق، جـ ٣، ص ٣١٢.

(٧) ابن حوقل ــ المصدر السابق، ص ١١٠. ماريوس كنار ــ المصدر السابق، ص ٣٧ ــ ٥١.

(٨) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ مجلدة الأولى، ص ١١٤ ــ ١١٦.

أنطاكية والمثقب، حصن موره وهو في جبل اللكام، حصن بوقا، حصن الجرجومة، حصن منصور، حصن زردنا، حصن الأثارب، كفر لاتا، برزيه، حصن سنياب، حصن سلعان، حصن تل زمان، حصن باسوطا، حصن أربنا، حصن أنب[1]، حصن كفر ميت، حصن راشيا، حصن عم، حصن سلقين، حصن تل عماد، حصن تل خالد، حصن أرمناز، حصن تل كشبهان، حصن بايرك، حصن شيخ الحديد، حصن سويرك أوبرزيك، حصن عناقيب، حصن أزرقال ويسمىٰ الآن أزرغان مقابل كشبهان وبينهم العاصي. حصن سرفون، حصن هاب، حصن سلمان من حصون العواصم، حصن سلعوس، حصن زياد، وهو خرتبرت بين آمد وملطيه[2].. ومن هذه الحصون ما كان له دور قتالي عظيم وخاصة في بداية الغزو الصليبي لشمال بلاد الشام ٤٩١ هـ مثل حصون، زردنا، وهاب، والأثارب.

ومن القلاع: الشغر وبكاس، وبرج الرصاص، وعين تاب، بهسني، الراوانداان، بغراس[3] أما عربسوس فهي مدينة ذكر أنها من ثغور الشام، وبعضهم لم يثبتها[4]، ولذلك تم تأخيرها ولوقوع الاختلاف فيها.

هذا الموقع لإمارة حلب وما فيه من الإمكانات المادية والبشرية مع معطيات أخرىٰ، أهّل حلب لأن تكون مركزاً هاماً في شمالي الشام، وشغلت دوراً كبير عبر التاريخ، وكانت محط أنظار الفاتحين والغزاة لأنهم أدركوا أن السيطرة عليها تمكنهم من الوصول إلى جميع بلاد الشام والجزيرة وإلى البلاد المجاورة، وهذا ما ستؤكده الفصول القادمة لهذه الدراسة[5].

وفيما يلي جداول بأسماء المدن والقرىٰ التي كانت تابعة لإمارة حلب حسب ما أورده الجغرافيون والمؤرخون العرب[6].

---

(١) أنب: ضيعة في أطراف الروج ـ وقد اشتهرت بالنصرة العظيمة التي حازها نور الدين محمود على ريموند أمير أنطاكية الصليبي سنة ٥٤٤ هـ. وصفي زكريا: جولة أثرية، ص ١٢٤.

(٢) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ـ مجلدة الأولىٰ، ص ٩٨ ـ ١٠٦. ابن شداد ـ المصدر السابق، ص ٣٥.

(٣) ابن العديم ـ المصدر السابق، المجلدة الأولىٰ، ص ٦٧.

(٤) ابن العديم ـ المصدر السابق، المجلدة الأولىٰ، ص ١٥٨.

(٥) ملحق بالفصل جدول يبين أسماء المواقع والمدن والعواصم والثغور والحصون والقلاع لدىٰ كل الجغرافيين والمؤرخين: ابن رسته، الاصطخري، ابن حوقل، المقدسي، ابن العديم، ابن شداد، ابن فضل الله العمري.

(٦) عن مقال للدكتور نقولا زيادة: تاريخ بلاد الشام من القرن السادس إلى القرن السابع عشر.

حرف	ابن رسته ت ٢٩٠ هـ	الأصطخري ت ٣٢١ هـ	ابن حوقل كتب ٣٦٧ هـ	المقدسي كتب ٣٧٨ هـ	ابن العديم/البغية ت ٦٦٠ هـ	ابن شداد/قنسرين ت ٦٨٤ هـ	ابن فضل الله العمري ت ٧٤٩ هـ
أ	—	أذنه	—	—	أذنه	أذنه	—
	أنطاكية	أنطاكية	—	—	اعزاز	اعزاز	—
	—	اسكندرونه	—	أنطاكية	أنطاكية	أنطاكية	—
	—	أولاس	—	اسكندرون	الاسكندرونه	ارتاح	—
	—	—	انطرطوس	انطرطوس	أفاميه	أرنبا	—
	—	—	—	—	أولاس	أزرقان	—
	—	—	—	—	أياس	أرمناز	—
	—	—	—	—	أثارب	—	—
ب	بالس	بالس	—	بالس	بالس	بالس	—
	—	بياس التينات	بياس التينات	بياس التينات	بهسنىٰ	بهسنىٰ	—
	—	بغراس	بلنياس	بلنياس	بغراس	الباب	—
	—	—	—	—	برزيه	باسوطا	—
	—	—	—	—	برسمان	بابرك	—
	—	—	—	—	بوقا	برج الرصاص	—
	—	—	—	—	بياس	براعه	—
	—	—	—	—	—	بلميس	—
ت	—	التينات	حصن تدمر	تدمر	تل باشر بلدة	تل باشر	—
	—	—	—	—	تل جبير	تل رمان	—
	—	—	—	—	التينات	تيزين	—
ث	—	—	—	—	ثابت بن نصر	—	—
ج	—	جسر منبج	جوسيه	جوسيه	جسر منبج	جسر منبج	—
	—	—	—	جبلة	الجرجومة	الجومة	—
	—	—	—	—	الجوزات	جنداراس	—
ح	حلب	حلب	حلب	حلب	حارم	حارم	حارم
	حمص	حمص	حمص	حاضر قنسرين	حاضر قنسرين	حاضر قنسرين	حاضر قنسرين
	—	—	—	—	حلب	حلب	حلب
	—	—	—	—	حيار بني القعقاع	حيار بني القعقاع	حيار بني القعقاع
	—	الحدث	—	—	الحدث	الحدث	حرستا
	—	—	حماه	حماه	حماه	حصن الحديد	حماه
	—	—	—	—	حاضر طيء	—	حجر شغلان

خ	—	—	خناصرة	خناصرة	خناصرة	خناصرة	خناصرة
	—	—	—	—	—	عروص	—
د	—	—	دلوك	—	دلوك	دلوك	دلوك
	—	—	—	—	دربساك	دربساك	دربساك
	—	—	—	—	—	دير كوش	دير كوش
ذ	—	—	—	—	ذي الكلاع	—	—
ر	—	—	الرصافة	رفينه	الرصافة	الرصافة	الرصافة
	—	—	—	—	الراوندان	الراوندان	الراوندان
	—	—	—	—	رعبان	—	—
	—	—	—	—	رفينه	—	—
ز	—	—	—	—	زبطرة	زبطرة	—
	—	—	—	—	زردنا	الزرب	—
	—	—	—	—	—	زردنا	—
س	—	—	—	—	سرمين	سرمين	سرمين
	سميساط	سميساط	سميساط	سميساط	سميساط	سميساط	—
	—	سبخه	سويدية	سويدية	سبخه	سلقين	—
	—	—	—	سلمية	سيسبه	سلحان	—
	—	—	—	—	—	السويدية	—
	—	—	—	—	—	سرقوب	—
	—	—	—	—	—	سويرك	—
ش	—	—	شيزر	شيزر	شيزر	—	شيزر
	—	—	—	—	الشغر وبكاس	الشغر وبكاس	الشغر وبكاس
	—	—	—	—	حصن شاكر	شيخ الحديد	شيخ الحديد
ص	—	—	—	—	صفين	صفين	صفين
ط	—	طرسوس	طرسوس	—	طرسوس	طرسوس	—
ك	—	كفر بيا	—	—	كفر طاب	—	كفر طاب
	—	الكنيسة السوداء	—	—	كيسوم	كيسوم	كيسوم
	—	—	—	—	كفر بيا	كفر بيا	كر كر
	—	—	—	—	الكنيسة السوداء	كفر دبين	كفخنا
	—	—	—	—	الكلابية	—	—
ف	—	—	فامية	—	—	الفوعة	—

ق	قنسرين	قنسرين	قنسرين	قنسرين	قنسرين	قنسرين	قنسرين
	—	—	—	قلعة نجم	قلعة نجم	قلعة نجم	قلعة نجم
	—	—	—	—	قورس	القرشية	قورس
	—	—	—	—	قاصرين	—	القصير
	—	—	—	—	قطرغاش	—	—
ع	—	—	—	—	عجيف	—	—
	—	—	—	—	عينتاب	عين تاب	عين تاب
	—	عين زربه	—	—	عين زربه	عين زربه	—
	—	—	—	—	عابدين	عناقيث	—
	—	—	—	—	عربسوس	—	—
ل	—	—	—	لاذقية	لطمين	—	—
	—	—	—	لجون	—	—	—
م	—	معرة النعمان	—	—	معرة مصرين	معرة مصرين	معرة مصرين
	—	معرة مصرين	—	—	مرتحوان	—	مرتحوان
	—	منبج	—	مرعش	مزعش	مرعش	—
	—	المصيصة	—	—	ملطيه	ملطيه	—
	—	ملطيه	—	—	المصيصة	المصيصة	—
	—	مرعش	الماحوز	—	مرزبان	مرزبان	—
	—	—	—	—	منصور	منصور	—
	—	—	معرة النعمان	مرعة نعمان	معرة النعمان	—	—
	منبج	—	—	منبج	منبج	مديتا	—
	—	—	معرة قنسرين	معرة قنسرين	المثقب	مراسيا	—
	—	—	—	—	موره	—	—
و	—	—	—	وادي بطنان	—	وادي بطنان	—
هـ	—	الهارونيه	—	—	الهارونيه	هاب	—

ونظراً لكون المؤرخ ابن العديم هو ابن حلب ومؤرخها ويعتبر تاريخه أقرب المؤرخين إلى الفترة المدروسة.

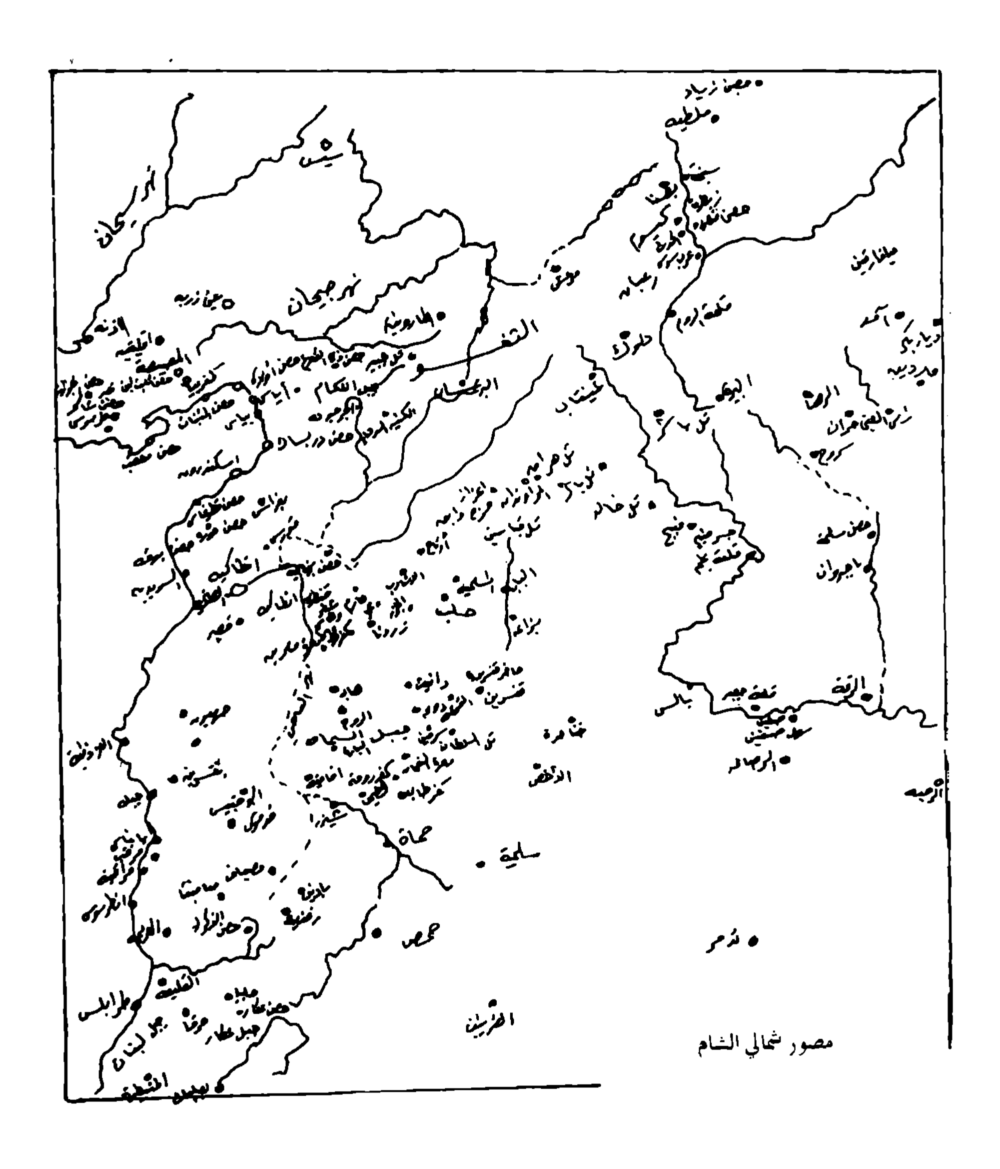
فقد تم اعتماد المعلومات الواردة في كتابه بغية الطلب:

وفيه من المدن والبلدان: اعزاز أفامية، أثارب، أنطاكية، بالس، بياس، جسر منبج، حاضر قنسرين، حارم، حيار بني القعقاع، حماه، خناصرة، الرصافة، رفنيه، زردنا، سرمين، سبخه، سيسيه، شيزر، صفين، قنسرين، عربسوس، معرة مصرين، مرتحوان، معرة النعمان، منبج.

وفيه من العواصم والثغور: أذنه، الحدث، دلوك، رعبان، زبطرة، سميساط، طرسوس، كيسوم، كفربيا، الكنيسة السوداء، قورس، عين زربه، عربسوس، مرعش، ملطيه، المصيصه.

وفيه من الحصون والقلاع: الاسكندرونه، أولاس، أياس، بهسنى، بغراس، برزية، برسمان، بوقا، تل باشر، تل جبير، التينات، حصن ثابت بن نصر، الجرجومة، الجوزات، دربساك، ذي الكلاع، الراوندان، الشغر وبكاس، حصن شاكر، كفر لاثا، الكلابيه، قلعة نجم، طرغاش، عجيف، عينتاب، حصن منصور، حصن المثقب، حصن موره، حصن الهارونية.





مصور شمالي الشام

الفصل الثاني

التركمان في بلاد الشام حتى حملة ملكشاه

١ ـ قيام دولة السلاجقة.

٢ ـ أوضاع حلب قبل وصول التركمان السلاجقة إليها.

٣ ـ المحاولات التركمانية السلجوقية لدخول بلاد الشام.

ـ تحركات التركمان الأولى غرباً.

ـ التحرك المنظم للتركمان غرباً.

ـ بداية وصول التركمان إلى الشام.

٤ ـ ظهور التركمان على مسرح الأحداث في حلب.

ـ ابن خان والأمير المرداسي محمود.

ـ الأفشين، وصندق.

ـ الناوكية.

٥ ـ المحاولات التركمانية السلجوقية للاستيلاء على حلب.

ـ حملة ألب أرسلان وصلحه مع محمود بن مرداس.

ـ استعانة محمود بالتركمان الناوكية .

ـ محاولة أتسز احتلال حلب وإخفاقه .

ـ أحمد شاه والأمير نصر بن محمود المرداسي .

ـ محاولة تتش السيطرة على حلب وأعمال أفشين التركي .

٦ ـ سقوط الدولة المرداسية وقيام الحكم العقيلي في حلب .

ـ قيام الدولة المنقذية .

ـ بين مسلم بن قريش وسليمان بن قتلمش .

٧ ـ حملة ملكشاه وسيطرة السلاجقة على حلب .

٨ ـ أسباب دخول التركمان إلى حلب وأعمالهم فيها .

١ ـ قيام دولة السلاجقة:

السلاجقة قوم من التركمان الغز، ينتمون إلى عدة قبائل أشهرها قبيلة قنق التي منها سلاطين السلاجقة[١]، وموطنهم الأصلي سهوب أوراسيا، ويعرف هذا الموطن باسم تركستان وهي من منطقة ما وراء النهر[٢].

كان جدهم الأول تقاق[٣]، شهماً ذا رأي وتدبير، وهو مقدمهم ومرجعهم، وكان يقيم عند ملك الترك يبغو، وقد أنجب تقاق ولداً سماه سلجوق.

عندما كبر سلجوق، لقبه ملك الترك سباشي[٤]، وقد سار سلجوق مع جماعته ومن يطيعه إلى ديار الإسلام، وأقام بنواحي جند[٥] التي كانت بأيدي المسلمين، وتوفي فيها بعد أن خلّف من الأولاد: ميكائيل، وأرسلان، وموسىٰ، وبيغو[٦].

غزا ميكائيل بلاد الأتراك، واستشهد بعد أن ترك من الأولاد: بيغو، وطغرلبك محمد، وداود جغري بك، وقد أطاعتهم عشائرهم، فنزلوا بها قريباً من بخارىٰ[٧]، وعندما حاول أميرها القضاء عليهم، التجأوا إلى بغراخان ملك التركستان، واحتموا به. إلا أن بغراخان حاول هو الآخر القبض على الأخوين داود وطغرلبك، لكنه تمكن فقط من طغرلبك وأسره[٨]، فثار داود بمن معه، واقتتل مع بغراخان وانتصر عليه، وخلّص أخاه من الأسر، ثم انسحبوا جميعاً إلى جند وأقاموا بها[٩].

---

(١) سهيل زكار: المدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، الطبعة الثانية، دار الفكر ـ ١٩٧٣، ص ٣٤.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، دار الحياة ـ بيروت، ص ٣٨. ياقوت الحموي: معجم البلدان ـ المجلد الثاني، ص ٢٣. تركستان: هو اسم جامع لجميع بلاد الترك، والمقصود بالنهر، نهر سيحون.

(٣) ابن الأثير: الكامل، طبعة صادر ودار بيروت ـ المجلد التاسع، ص ٤٧٣. ومعناه القوس من الحديد.
ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ ٢، ص ٢٥٠.
ابن الفرج جمال الدين بن العبري: تاريخ الزمان، بيروت ـ دار المشرق ـ ١٩٨٦ م، ص ٨٧.

(٤) سباشي: ومعناه قائد الجيش.

(٥) جند: اسم مدينة عظيمة، في بلاد تركستان، بينها وبين خوارزم عشرة أيام، تلقاء بلاد الترك مما وراء النهر، قريب من نهر سيحون، ياقوت الحموي ـ المصدر السابق، جـ ٢، ص ١٦٨.

(٦) ابن الفرج جمال الدين بن العبري: تاريخ الزمان، بيروت ـ دار المشرق ـ ١٩٨٦ م، ص ٨٧.

(٧) بخارىٰ: من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلّها، يعبر إليها من آمل الشط، وبينها وبين جيحون يومان من هذا الوجه، وكانت قاعدة ملك السامانيين، ياقوت الحموي ـ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢٥٢.

(٨) ابن الأثير ـ المصدر السابق، جـ ٩، ص ٤٧٣.

(٩) سهيل زكار ـ المرجع السابق، ص ٣٧.

عندما إنقرضت الدولة السامانية، عظم أمر أرسلان بن سلجوق (الابن الثاني لسلجوق) بمنطقة ما وراء النهر، ولكنه لم يستطع الصمود أمام محمود بن سبكتكين سلطان الدولة الغزنوية، الذي عبر نهر جيحون بقواته، فما كان من أرسلان إلا الهرب مع جماعته، وعلى الرغم من ذلك فإن محمود بن سبكتكين حين رأىٰ قوة السلاجقة، وكثرة عددهم، أراد أن يتخلص منهم بالحيلة والدهاء، فكاتب أرسلان واستماله، وعندما وصل إليه، ألقىٰ القبض عليه، وسجنه[1] ونهب خيامه وخيام جماعته، ثم فرقهم في نواحي خراسان[2]، فلاقوا من ظلم الأمراء ما لاقوه[3]، كما انفصل منهم أكثر من ألفي رجل مع عيالهم وقصدوا كرمان[4]، ومنها ساروا إلى أصبهان[5]، حيث حاربهم صاحبها علاء الدولة ابن كاكويه[6]، فاضطروا إلى الانسحاب إلى أذربيجان[7].

أما يوسف بن موسىٰ (حفيد سلجوق) فقد حاول صاحب بخارىٰ الأمير علي تكين تقريبه إليه، ليستخدمه ضد أبناء عمه طغرلبك وداود، ويفرق كلمتهم، لكن مسعاه مع يوسف فشل فأمر بقتله، وقد عظم ذلك على طغرلبك وداود اللذين جمعا عساكرهما وأنصارهما من التركمان للأخذ بثأر يوسف، وجرت معركة بين الطرفين انتصر فيها صاحب بخارىٰ، فقتل الكثير منهم، وأخذ أولادهم أسرىٰ، ونهب أموالهم، فاضطروا للعبور إلى خراسان[8]، وهناك كتب إليهم، خوارزمشاه هارون بن التونتاش[9]، يستدعيهم ليعمل معهم يداً واحدة، فسار

---

(1) بارتولد: تركستان ــ من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، الكويت ــ ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م، ص ٤٢٦.

(2) خراسان: بلاد واسعة، تشتمل على أمهات المدن من البلاد منها: نيسابور، هراة، مرو، وكانت قصبتها. وبلخ وطالقان، ونسا، وابيور، وسرخس، وما يتخلل ذلك من المدن التي قبل نهر جيحون غرباً. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٢، ص ٣٥٠.

(3) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٤٧٦.

(4) كرمان: ولاية مشهورة، وناحية كبيرة معمورة، ذات بلاد وقرىٰ ومدن واسعة، بين فارس ومكران، وسجستان وخراسان، ياقوت الحموي ــ المصدر السابق، جـ ٤، ص ٤٥٤.

(5) أصبهان: وهي مدينة عظيمة مشهورة، من أعلام المدن وأعيانها، وأصبهان اسم للاقليم بأسره، ياقوت الحموي ــ المصدر السابق، جـ ١، ص ٢٠٦.

(6) ابن كاكويه: هو علاء الدولة أبو جعفر بن دشمنزيار، وقيل له كاكويه لأنه ابن خال مجد الدولة بن بويه، والخال بلغتهم كاكويه، وقام بأصبهان ابنه ظهير الدين أبو منصور مزازرز مقامه. ابن الأثير: الكامل، طبعة صادر ودار بيروت ــ جـ ٩، ص ٤٩٥.

(7) ابن الأثير: الكامل، ــ جـ ١٠، ص ٤٧٦ و ص ٤٧٨. أوزبيجان: إقليم واسع مشهور، من مدائنها تبريز، وهي قصبتها وأكبر مدنها، وهي صقع جليل، ومملكة عظيمة، الغالب عليها الجبال، وفيها قلاع كثيرة، وخيرات واسعة، وفواكه كثيرة، كانت ذات بساتين كثيرة، ومياه غزيرة وعيون، ياقوت الحموي ــ المصدر السابق، جـ ١، ص ١٢٨.

(8) ابن الأثير ــ المصدر السابق، ص ٤٢٧. بارتولد ــ المصدر السابق، ص ٤٤٢.

(9) خوارزمشاه: تعني شاه خوارزم، وهو لقب يطلق على أمراء خوارزم، وهارون هو ابن التونتاش حاكم خوارزم، وعندما توفي التونتاش، لم يحرم السلطان مسعود بن محمود، هارون من الإمارة بعد أبيه، لكنه اتخذ من الإجراءات ما يحد من سلطانه، فقد منح مسعود لقب خوارزمشاه لابنه سعيد، وقرر أن يحكم خوارزم هارونُ بن التونتاش بالإنابة عن الأمير سعيد (ابن السلطان مسعود). كما أن الخلعة التي تسلمها هارون من السلطان كانت نصف خلعة أبيه. بارتولد ــ المصدر السابق، ص ٤٤١.

إليه طغرلبك وأخواه داود وبيغو وذلك سنة ٤٢٦ هـ/ ١٠٣٤ ــ ١٠٣٥ م، ولكنه ما لبث أن غدر بهم، وأكثر من أعمال القتل والسلب والنهب فيهم، مما اضطرهم إلى قصد مرو[١] في نفس السنة، بينما بقي أولادهم وذراريهم في الأسر[٢].

حاول السلاجقة في مرو الاتصال بمسعود بن محمود، الذي كان بطبرستان[٣]، وعرضوا عليه أن يكونوا معه ضد أعدائه، لكنه قبض على وفدهم، وجهز إليهم جيشاً إلتقى بهم عند مدينة نسا[٤] وذلك في شعبان سنة ٤٢٦ هـ/ حزيران ١٠٣٥ م، فهزموا مسعوداً واستردوا ما أخذ من أموالهم ورجالهم، وندم مسعود على غدره بهم[٥] وحاول مرة أخرى التودد إلى السلاجقة، وأرسل لهم الخلع النفيسة، وطلب منهم الرحيل إلى آمل الشط[٦]، وأقطع دهستا[٧] لداود، وفراوة[٨] لبيغو، ونسا لطغرلبك، وأطلق على كل واحد منهم لقب دهقان، لكنهم رفضوا طلب مسعود وعروضه بسبب غدره بهم سابقاً، وعادوا إلى الغارة والنهب والشغب، بينما ترك مسعود بلخ[٩]، وسار منها إلى غزنه[١٠] ليتدبر أمر الهند[١١].

استغل السلاجقة غياب مسعود وانشغاله بأمور الهند، وقصدوا بلخ، ثم نيسابور[١٢]، وطوس[١٣]، وجوزجان[١٤] للإغارة، واشتبكوا مع العساكر الموالية لمسعود في هذه المناطق عدة مرات فانهزمت أمامهم. وقد أرسل له نوابه وقواده في هذه المناطق يشكون إليه أمر السلاجقة

---

(١) مرو: مدينة قريبة من مرو الشاهجان، خرج منها خلق من أهل الفضل، ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٥، ص ١١٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص ٤٧٧. بارتولد ــ المصدر السابق، ص ٤٤١.

(٣) طبرستان: وهي إقليم فيه بلدان واسعة كثيرة، يشملها هذا الاسم، فمن أعيان بلدانها: دهستان، جرجان، استراباد، وقصبتها آمل، ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٤ ــ ص ١٣.

(٤) نسا: مدينة بخراسان، بينها وبين سرخس يومان، وعن مرو خمسة أيام، وعن أبيورد يوم واحد، وعن نيسابور ستة أو سبعة أيام، ياقوت الحموي: معجم البلدان ــ جـ٥ ــ ص ٢٨٢.

(٥) ابن الأثير: الكامل، جـ٩، ص ٤٧٨. سهيل زكار: المدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ص ٥٠.

(٦) آمل الشط: مدينة مشهورة في غربي جيحون، على طريق القاصد إلى بخارى من مرو، وهي معدودة من الإقليم الرابع، ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ١، ص ٥٨.

(٧) دهستا: بلد مشهور في طرف مازندران، قرب خوارزم وجرجان، ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٢، ص ٤٩٢.

(٨) فراوة: وهي بليدة من أعمال نسا، بينها وبين دهستا وخوارزم، ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٤، ص ٢٤٥.

(٩) بلخ: مدينة مشهورة، وهي من أجل مدن خراسان، وأكثرها ذكراً وخيراً، وأوسعها غلة، تحمل غلتها إلى جميع خراسان وإلى خوارزم، ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ١، ص ٤٧٩.

(١٠) غزنه: مدينة عظيمة، وولاية واسعة في طرف خراسان، وهي الحد بين الهند وخراسان، ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ١، ص ٢٠١.

(١١) بارتولد: تركستان، ص ٤٤٨.

(١٢) نيسابور: مدينة عظيمة، بعضهم عدها من الإقليم الرابع، وغيرهم في الخامس، كثيرة الفواكه والخيرات، تعبر دهليز الشرق ولا بد للقفول من ورودها، ياقوت الحموي ــ المصدر السابق، جـ٥، ص ٣٣٢.

(١٣) طوس: مدينة بخراسان، قريبة من نيسابور، وطوس أربع مدن، وبها آثار إسلامية جليلة، ياقوت الحموي ــ المصدر السابق، جـ٤، ص ٤٩.

(١٤) جوزجان: كورة واسعة من كور بلخ بخراسان، وهي بين مرو الروذ وبلخ، ياقوت الحموي ــ المصدر السابق، جـ٢، ص ١٨٢.

وتحرشاتهم وهو مقيم بغزنه، فلم يجبهم لانشغاله بأمور الهند.

بعد عدة انتصارات حققها السلاجقة، سيطر داود على مرو، فأحسن إلى أهلها، وخُطب له في أول جمعة من رجب سنة ٤٢٨ هـ/ نيسان ١٠٣٧ م. ولقب بملك الملوك. وفي نفس العام انتصر داود وقواته على سباشي وقواته في سرخس[١]، وقد كانت المعركة من الأهمية بمكان لدرجة أن ابن الأثير قال: إن السلاجقة ملكو خراسان، ودخلوا قصبات البلاد بعد معركة سرخس الكبيرة[٢].

عندما سمع مسعود بانتصارات السلاجقة وبما حققوه بعد معركة سرخس، قرر كسر شوكتهم وإخراجهم من خراسان، لذلك جهز جيشاً كبيراً قاده بنفسه، وتحرك من غزنه إلى بلخ، ومنها تحرك في أول شهر رمضان سنة ٤٢٩ هـ/ حزيران ١٠٣٨ م باتجاه خراسان فوصل جوزجان واستولىٰ عليها، ثم وصل مرو، فخرج منها داود واتجه إلى سرخس واجتمع مع أخويه طغرلبك وبيغو، وقرروا قتال مسعود وجيوشه.

قام مسعود قبل بدء القتال بمراسلة السلاجقة ودعاهم إلى الصلح، لكنهم رفضوا لعدم ثقتهم به، عندها تحرك من مرو إلى هراة[٣]، وبعد عدة مناوشات قام بها السلاجقة إلتقىٰ الطرفان في معركة كبيرة في أطراف صحراء الداندانقان، انتصر فيها السلاجقة نصراً حاسماً وذلك صيف سنة ٤٣١ هـ/ ١٠٣٩ م، هرب مسعود إثر ذلك إلى غزنه. بينما تابع السلاجقة استيلاءهم على سائر البلاد، وكان آخرها بلخ حيث انتصرت قواتهم فيها على قوات مودود بن مسعود[٤].

اختار السلاجقة لرئاستهم وزعامتهم طغرلبك الذي أرسل إلى الخليفة في بغداد يخبره بما تم في خراسان[٥]. كما وضع مخططه في العمل السياسي والعسكري للمرحلة القادمة، والذي تضمن الإجهاز نهائياً على الدولة الغزنوية، والسيطرة على الخلافة العباسية، والتوسع في الأراضي البيزنطية.

---

(١) سرخس: مدينة قديمة من نواحي خراسان، كبيرة، واسعة، وهي بين نيسابور ومرو في وسط الطريق، والغالب على نواحيها المراعي، ابن الأثير: الكامل، جـ ٩، ص ٤٨٠. ياقوت الحموي ـ المصدر السابق، جـ ٣، ص ٢٠٨.

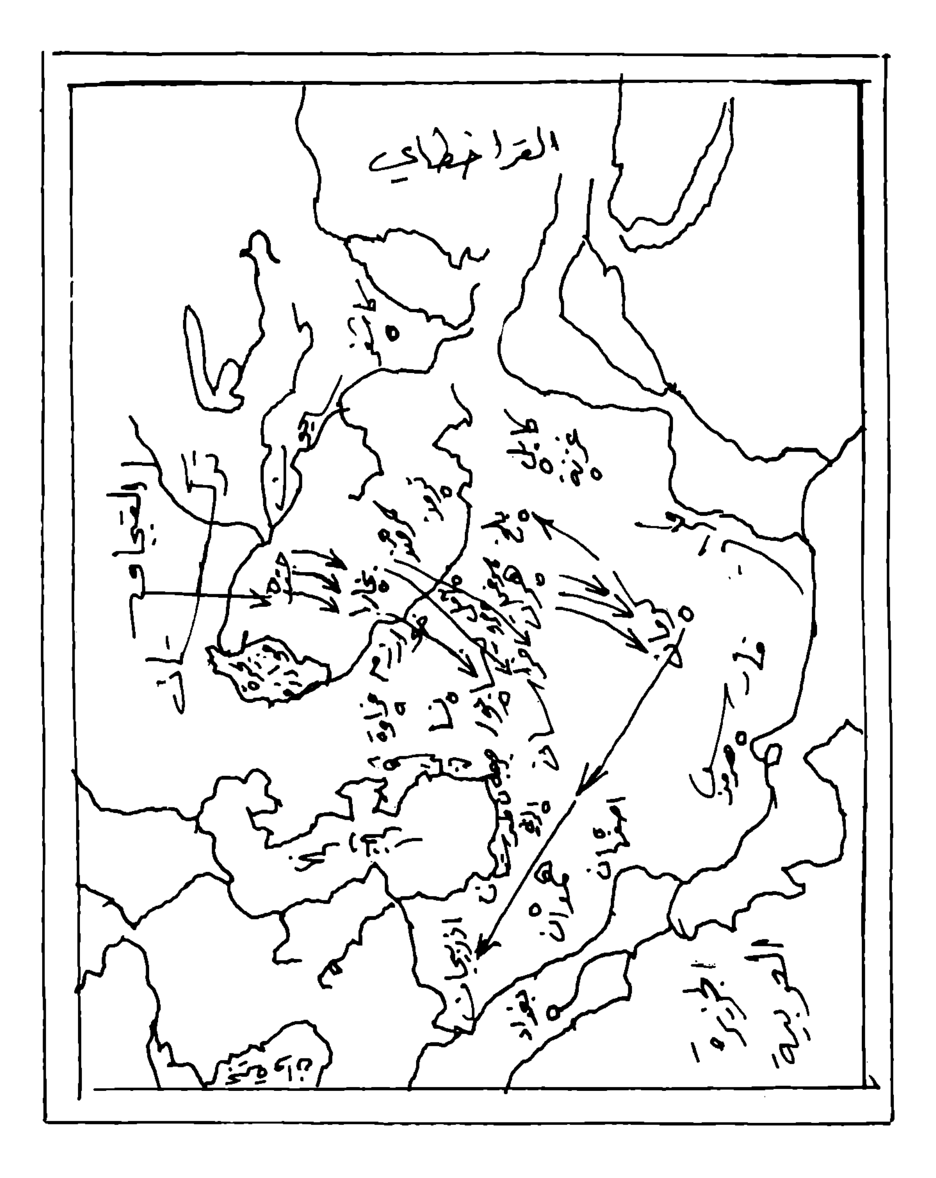
(٢) ابن الأثير ـ المصدر السابق، جـ ٩، ص ٤٨٢ ـ ٤٨٣. العماد الأصفهاني: دولة آل سلجوق، مصر ١٣١٨ هـ/ ١٩٠٠ م، ص ٨، ويجعل انتصار السلاجقة على مسعود سنة ٤٣٠ هـ، سهيل زكار ـ المصدر السابق، ص ٦٠.

(٣) هـراة: من أمهات مدن خراسان، بساتينها كثيرة ومياهها غزيرة، وخيراتها كثيرة، كثيرة العلماء، ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٥، ص ٣٩٦.

(٤) ابن الأثير ـ المصدر السابق، جـ ٩، ص ٤٨٤. أرمينيوس فامبري: تاريخ بخارىٰ منذ أقدم العصور حتىٰ العصر الحاضر ـ بست ١٨٧٢ م، ص ١٣٣.

(٥) ابن الفرج جمال الدين بن العبري: تاريخ الزمان، بيروت ـ دار المشرق ـ ١٩٨٦ م، ص ٩٢.

مصور رقم /١/



مصور توضيحي لقيام دولة السلاجقة

٢ ـ أوضاع حلب قبل وصول التركمان السلاجقة إليها :

كانت أول محاولة لسيطرة المرداسيين على حلب سنة ٤٠٢ هـ/ ١٠١١ ـ ١٠١٢ م. إثر المعركة التي حدثت بين لؤلؤ متولي حلب، وبين صالح بن مرداس الذي هاجمها على رأس قوة مؤلفة من خمسمائة فارس وقد تمكن مع أنصاره من دخول المدينة، لكن لؤلؤ أغلق أبوابها وألقى القبض على صالح بن مرداس مع مائة وعشرين من جماعته. وقتل مائتين[1]، وهرب الباقي وعلى رأسهم صالح بن مرداس. الذي أعاد المحاولة عدة مرات تمكن بعدها من الاستيلاء على حلب إثر حصار دام ستة وخمسين يوماً، وذلك سنة ٤١٥ هـ/ ١٠٢٤ ـ ١٠٢٥ م[2].
أما ابن أيبك الدواداري فيجعل تملك صالح لحلب سنة ٤١٩ هـ/ ١٠٢٨ م، ولا شك أن هذا التاريخ خاطيء بدليل أنه وجدت نقود مسكوكة في حلب ومؤرخة في سنة ٤١٧ هـ/ ١٠٢٦ ـ ١٠٢٧ م، وقد كتب عليها: **لا إله إلا الله، محمد رسول الله**

الأمير أسد الدولة ومقرها وناصحها أبو علي صالح بن مرداس

بسم الله ضرب هذا الدينار بمدينة حلب سنة سبع عشر وأربع مائة[4]

ولا يعقل أن يكون صالح قد ضرب النقود، قبل تسلمه حلب على حد قول ابن أيبك الدواداري.

بعد دخول صالح إلى حلب وتسلمه مقاليد الأمور فيها عصى واليها من قبل الفاطميين المسمى[5] «ابن ثعبان» وصعد إلى القلعة فحاصره صالح بها حتى اضطر الجند إلى تسليمها له سنة ٤١٧ هـ/ ١٠٢٦ م، ولم يكتفِ صالح بالاستيلاء على حلب بل أراد تملك البلاد بين عانة وبعلبك، ولتحقيق ذلك ترك قسماً من جيشه يحاصر القلعة، واتجه بالباقي ليأخذ حمص وبعلبك وصيدا، ولم تأت سنة ٤١٦ هـ/ ١٠٢٥ ـ ١٠٢٦ م، إلا وكانت كافة المناطق خاضعة لملكه، وكذلك أخضع الرحبة ومنبج وبالس ورفنية في الشرق[6].

بعد أن نظم صالح بن مرداس أموره في حلب، ظل حاكماً فيها حتى سنة ٤٢٠ هـ/ ١٠٢٩ م، حيث قتل في معركة الأقحوانة[7]، وكان معه ابنه نصر الذي نجا من المعركة فعاد

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ٩، ص ٢٢٨، يجعل اسمه أبو نصر بن لؤلؤ بدلاً من لؤلؤ. بيتشوف: تحف الأنباء بتاريخ حلب الشهباء، ص ٤١.
أمينة بيطار: موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين، دمشق ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م، ص ٢٢٥.

(٢) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥ م، ص ٣٢٦. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ١، ص ٢٢٧.

(٣) الداوداري: الدرة المضيّة، القاهرة ١٩٦١ م، ص ٣٢٠.

(٤) أمينة بيطار ـ المرجع السابق، ص ٢٥٧.

(٥) ENCYC. OF — ISB: ARTICLE «FATIMIDS» — VOL. LL. — P. L. — P.90.
أمينة بيطار ـ المرجع السابق، ص ٢٥٧.

(٦) أمينة بيطار ـ المرجع السابق، ص ٢٥٧.

(٧) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، دمشق ١٤٣٠ هـ/ ١٩٨٣ م، ص ١١٩. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ١، ص ٢٣٢. بيتشوف ـ المصدر

إلى حلب وملكها ولقب بشبل الدولة[١]، وظل أميراً عليها حتىٰ سنة ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧ م، حيث قتل أمام الدزبري قائد الجيوش الفاطمية[٢] عند حماه، وأصبح الدزبري أميراً على حلب حتىٰ سنة ٤٣٣ هـ/ ١٠٤١ ــ ١٠٤٢ م، حيث مات فيها[٣].

عندما علم ثمال بن صالح وكان في الرحبة بموت الدزبري، قاد أنصاره إلى حلب فتسلمها. من أهلها، واستولىٰ على القلعة في صفر سنة ٤٣٤ هـ/ آب ــ أيلول ١٠٤٢ م[٤] وبقي فيها إلى سنة ٤٤٨ هـ/ ١٠٥٦ ــ ١٠٥٧ م، عندما تنازل عنها للفاطميين[٥]، الذين ولّوا عليها في نفس السنة أبو علي بن ملهم، بعدها توجه ثمال إلى القاهرة، على حين أن أخاه أبو ذؤابه عطيه بن صالح بن مرداس سار إلى الرحبة، ولم تهدأ أمور حلب تحت سلطة الفاطميين، بسبب ثورة الأحداث ضدهم، حيث جرىٰ قتال بين أصحاب ابن ملهم وأحداث حلب، مما دفع أهل حلب لمراسلة محمود بن نصر بن صالح يستدعونه ليسلموه المدينة، فجاء مسرعاً وألقىٰ الحصار على ابن ملهم في مستهل جمادىٰ الآخرة سنة ٤٥٢ هـ/ ١٠٦٠ م[٦]. وقد أرسل الفاطميون جيشاً على رأسه ناصر الدولة ابن حمدان نجدة لابن ملهم في حلب، فلما قارب ابن حمدان حلب، ترك محمود الحصار واختفىٰ الأحداث[٧]، وقد تابع ناصر الدولة تحركه فيْ إثر محمود وأتباعه، ونزل بالفنيدق، حيث إلتقت جيوشهما في رجب سنة ٤٥٢ هـ/ آب ١٠٦٠ م، وبنتيجة المعركة انتصر محمود علي ناصر الدولة وتمكن من أسره[٨]

السابق، ص ٢٥٨.

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ١٢٠. ابن الأثير: الكامل، جـ ٩، ص ٤٦٠.
ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ١، ص ٢٣٧، ويقول إنه: «لما قتل صالح بن مرداس، ملك حلب بعده ابناه معز الدولة ثمال في القلعة، وشبل الدولة نصر في المدينة».

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ١، ص ٢٥١. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ٨٤. أمينة بيطار ــ المرجع السابق، ص ٢٥٦.

(٣) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ١٢٦. ابن الأثير: الكامل، جـ ٩، ص ٥٠١. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ١، ص ٢٥١. أمينة بيطار ــ المرجع السابق، ص ٢٧٠.

(٤) ابن العديم: زبدة حلب، جـ ١، ص ٢٧٤ ــ ٢٧٥. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ١، ص ١٦٦. ابن الأثير: الكامل، جـ ٩، ص ٥٠٢.

(٥) هبة الله الشيرازي: مذكرات داعي دعاة الدولة الفاطمية المؤيد في الدين، بيروت ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م، ص ٢١٦. ابن الأثير: الكامل، جـ ٩، ص ٥٦٠. أمينة بيطار ــ المصدر السابق، ص ٢٨٠. ابن العديم: زبدة حلب، جـ ١، ص ٢٧٣.

(٦) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ١٥١. بيتشوف ــ المصدر السابق، ص ٤٣. أمينة بيطار ــ المرجع السابق، ص ٢٨١.

(٧) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ١، ص ٢٧٨. بيتشوف ــ المصدر السابق، ص ٤٣.

(٨) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ١، ص ٢٧٨. الحافظ الذهبي: العبر في خبر من غبر، الكويت ١٩٦١ م، جـ ٣، ص ٢٢٢. بيتشوف ــ المصدر السابق، ص ٤٣. أمينة بيطار، المرجع السابق، ص ٢٨٣.

وأسر عدد من الأمراء والقواد معه، بعدها دخل حلب وتسلم قلعتها في ١٠ شعبان سنة ٤٥٢ هـ/ ٨ أيلول ١٠٦٠ م، وقد بعث محمود بكل من أسرهم من الأمراء والقواد إلى مصر بعد أن أحسن إليهم[١].

لم يرق الوضع للخلافة الفاطمية بعد الذي حدث لأن حلب خرجت من يدها ثانية، وحرضت ثمال على ابن أخيه، فترك مصر ووصل إلى حلب حيث جرت بينه وبين ابن أخيه عدة معارك، كانت نتيجتها عودة ثمال إلى حكم حلب منذ سنة ٤٥٣ هـ/ ١٠٦١ م، وقد توفي ثمال بن صالح في ذي القعدة سنة ٤٥٤ هـ/تشرين ثاني ١٠٦٢ م[٢]، فتسلم عطيه حلب بعده تنفيذاً لوصيته إلا أن ذلك لم يرضِ محمود بن نصر الذي اعتبر حلب إرثه عن أبيه وهو أحق بحكمها[٣]، ولهذا وقعت بين عطيه وابن أخيه محمود بن نصر عدة معارك إنتهت بانتصار محمود واستيلائه على حلب وذلك سنة ٤٥٧ هـ/١٠٦٤ ــ ١٠٦٥ م[٤].

لقد أدىٰ الصراع على حلب بين الأمراء المرداسيين إلى إضعافهم جميعاً، وجعل كل أمير يبحث عن نجدة ضد الأمير الآخر، فعندما حاصر محمود بن نصر حلب سنة ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٣ ــ ١٠٦٤ م، لم يجد عمه عطيه أمامه من سبيل لفك الحصار إلا الاستعانة بالتركمان الغز[٥]، والذين كانوا قد دخلوا إلى المنطقة، عن طريق أرمينيا حتىٰ الثغور، ولو فكر عطيه في الأمر، وما سيجره هذا الاستدعاء والاستنجاد عليه وعلى المنطقة لما قام به ولو اضطر للتخلي عن الإمارة لابن أخيه، وقد أدىٰ استدعاء التركمان وانتشارهم في المنطقة إلى حدوث صراع طويل، بينهم وبين المرداسيين الكلابيين تمخض عن نتيجتين هامتين:

الأولىٰ: إن قبيلة كلاب لم تعد هي صاحبة الكلمة في شمال بلاد الشام.

الثانية: إن الغز التركمان الذين تكاثروا في المنطقة، أصبح لهم دور في رسم سياستها وتقرير مصيرها لا يمكن تجاهله في المستقبل[٦].

---

(١) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ٩، ص ٢٣٣. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ١، ص ٢٨٠. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ١، ص ١٤٩.

(٢) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ٢٤. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ١، ص ٢٨٨.

(٣) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ١، ص ٢٩١. أمينة بيطار ــ المرجع السابق، ص ٢٨٦.

(٤) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ١، ص ٢٩٧.

(٥) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٩١. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ١، ص ٢٩٥.

(٦) شاكر مصطفىٰ: المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام الأول، عمان ١٩٧٥ م، مقال دخول الترك الغز إلى الشام، ص ٣٤٢.

٣ ــ المحاولات التركمانية السلجوقية لدخول بلاد الشام:

• تحركات الغز التركمان الأولى غرباً[١]

بعد أن تكاثر الغز التركمان في خراسان وتوسع نشاطهم، بدأوا تحركهم نحو الغرب مع بداية سنة ٤٠٩ هـ/١٠١٧ ــ ١٠١٨م، وكان عددهم حوالي أربعة آلاف أسرة، يقودهم داود جغري بك فاخترقوا خراسان، واجتازوا طبرستان إلى أذربيجان، ولم يلبث الغز التركمان أن ازداد عددهم ونشاطهم في أذربيجان والري[٢]، فانحدر قسم منهم من الري إلى أصبهان، والمنطقة الجبلية المسماة بالعراق العجمي، وكانوا حوالي ألفي خركاة[٣]، إلا أنهم طردوا إلى أذربيجان مرة أخرى[٤].

وبسبب ضعف سلطة البويهيين على هذه المناطق[٥]، فقد لحقت بالجماعات السابقة سنة ٤٢٧ هـ/ ١٠٣٥ ــ ١٠٣٦م، جماعات أخرى كان من زعمائها: كوكتاش ــ بوقا ــ وقزل ــ ويغمر ــ وناصغلي، فاتسع نشاطهم في المنطقة الممتدة ما بين الري وهمذان وبحيرة أرميه من أرمينية، فدمروا ونهبوا ثم تحركوا لأول مرة باتجاه الطرق المؤدية إلى الشام حوالي سنة ٤٣٢ هـ/ ١٠٤٠ ــ ١٠٤١م. فتوغل بعضهم في أرمينية غربي بحيرة أرميه، بينما إنحدر بعضهم باتجاه الموصل نحو أراضي الدولة المروانية، وقد اعترضتهم قوات هذه الدولة، وظفرت بعدد منهم وأسرت سبعة من أمرائهم[٦].

كان النظام الذي تسير عليه جماعة التركمان المتوجهين شرقاً والذين أطلق عليهم اسم الغز العراقية، حين تهاجر من منطقة إلى أخرى، أن تنتظم على شكل فرق قبلية صغيرة تتحرك وبرفقتها الأولاد والنساء والدواب، وعلى زعامة كل فرقة فارس أو أمير تأتمر بأمره، ويخضع هؤلاء جميعاً لطاعة السلطان السلجوقي. أما الجماعات التي هاجرت على الطرق المؤدية إلى بلاد الشام فحين وجدت في نفسها القوة، ورأت المسالك أمامها مفتوحة، تمردت على طاعة السلطان طغرلبك، وانطلقت تجرب حظها لحسابها دون رادع يردعها، أو يحد من اندفاعها، ولم تكن تلتزم بقانون أو آداب معينة، بل كانت تمارس أثناء اندفاعها السلب والنهب والقتل

(١) انظر المصور رقم /١/.

(٢) الري: مدينة مشهورة من أمهات البلاد، وأعلام المدن كثيرة الفواكه والخيرات، قصبة بلاد الجبال، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخاً، وإلى قزوين سبعة وعشرون فرسخاً، ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٣، ص ١١٦.

(٣) خركاة: الخيمة أو الأسرة.

(٤) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ٩، ص٣٧٨. شاكر مصطفى ــ المرجع السابق، ص٣١٨.

(٥) شاكر مصطفى ــ المرجع السابق، ص ٣١٩.

(٦) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ٩، ص٣٨٥. شاكر مصطفى ــ المرجع السابق، ص ٣١٩.

مصور رقم /١/

— تحركات الغزو التركمان الأولى غرباً :

١ — التحرك باتجاه جزيرة ابن عمر .

٢ — الإنطلاق من جزيرة ابن عمر باتجاه ديار بكر وأراضي الدولة المروانية ثم نحو نصيبين وسنجار والموصل .

والتدمير، ولما كانت المناطق التي تسير ضمنها وتغير عليها تابعة للخلافة العباسية التي يسيطر عليها البويهيون، ولم يعد لهؤلاء من القوة ما يمكنهم من الوقوف بوجه الجماعات التركمانية المتزايدة، فإنهم عملوا على مراسلة السلطان طغرلبك وإعلامه بأمر هذه الجماعات وما تقوم به من عبث وفساد، فكان جوابه «... إن هؤلاء التركمان كانوا لنا عبيداً وخدماً ورعايا وتبعاً، يمتثلون الأمر، ويخدمون الباب، ولما نهضنا لتدبير خطب آل سبكتكين، وانتدبنا لكفاية أمر خوارزم، إنحازوا إلى الري، فعاثوا فيها وأفسدوا... ولا بد أن نردهم إلى راياتنا خاضعين، ونذيقهم من بأسنا جزاء المتمردين قربوا أم بعدوا، أغاروا أم أنجدوا»[1].

ويعتبر هذا الجواب اعترافاً من زعيم السلاجقة بتمرد هذه الجماعات عليه، وانسياحها في الري وغيرها دون أن يكون له عليها تأثير أو سلطان، إلا أنه أوضح أنه سيرد هذه الجماعات إلى راياته، باعتباره رجل دولة وعليه مسؤوليات تجاه الرعية. وكان طغرلبك يريد من رده هذا أن يثبت للخليفة في بغداد، أمران:

أولهما: هو ضعف البويهيين وعدم قدرتهم على فرض سلطانهم على البلاد.

وثانيهما: هو قوة طغرلبك والسلاجقة، وأنه السلطان المرتقب، وفعلاً كان له ما أراد.

ومن أجل أن يثبت طغرلبك زعامته للتركمان فإنه أتبع القول بالعمل، فأرسل أخاه لأمه إبراهيم ينال إلى الجماعات المتمردة لتأديبها، وما أن علمت هذه الجماعات بتحرك أخي السلطان طغرلبك ووصوله إلى الري سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١ ــ ١٠٤٢م، حتىٰ هربت أمامه، وتركت بلاد الري نحو أذربيجان، لكنها لم تستطع الاستقرار فيها، لما أوقعته بها من دمار وخراب قبل ذلك[2] ولأن إبراهيم ينال كان يلاحقها، ولذلك تركت هذه الجماعات المنطقة وتحركت باتجاه الغرب نحو بلاد الشام للسببين التاليين:

أولاً: لأنها لم تعد قادرة على الرجوع إلى المناطق الشرقية التي يسيطر عليها السلطان طغرلبك.

ثانياً: لأن طرق الممرات الجبلية التي تؤدي إلى أراضي الجزيرة وبلاد الشام كانت مفتوحة أمامها، وأمراء وحكام هذه المناطق غير قادرين على الوقوف بوجههم بسبب الصراعات الناشبة بينهم من جهة، ولعدم وجود سلطة مركزية قوية تدافع عنهم من جهة أخرىٰ.

عندما تحركت الجماعات التركمانية الملاحقة باتجاه الغرب، استعانت ببعض الأدلاء الأكراد

---

(١) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ٩، ص٣٨٩. سهيل زكار: المدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ص٩٥.

(٢) شاكر مصطفىٰ ــ المرجع السابق، ص٣١٩. سهيل زكار ــ المرجع السابق، ص٩٣.

الذين ساروا معها في طريق وعرة حتىٰ وصلت إلى جزيرة ابن عمر[1]، وكان عدد هذه الجماعات يزيد على ثلاثين ألفاً، ويبدو أن هذه الجماعات التركانية هي التي ستحمل فيما بعد اسم الناوكية.

عند وصول التركان إلى جزيرة ابن عمر إنطلقوا منها في ثلاث اتجاهات:

١ ــ بعضهم سار إلى ديار بكر بزعامة بوقا وناصغلي، فنهبوا القرىٰ وخربوا مناطق ديار بكر، وقتلوا وأفسدوا في أراضي الدولة المروانية[2]، وكان مع هذين القائدين «عشرة آلاف فارس، أغاروا ونهبوا، ونزلوا على باب ميافارقين، فبذل لهما أميرها خمسين ألف دينار على أن يعودا عن بلده فما أجابا، ولكنهما تخاصما ذات ليلة على الشراب، فضرب كل واحد منهما الآخر بسكين فسقطا ميتين، ونهب عساكرهما، وتفرقوا وقتل بعضهم، وأسر البعض الآخر»[3]. وهكذا فإن هذا القسم على الرغم من الأذىٰ الذي سببه في المنطقة لفترة وجيزة، إلا أنه إنتهىٰ بسرعة.

٢ ــ القسم الثاني: سار إلى نصيبين وسنجار للغارة، ثم عاد إلى الجزيرة وحاصرها. ولم يعطِ ابن الأثير أو غيره[4] من المؤرخين أية معلومات عن هذا القسم.

٣ ــ أما القسم الثالث: فكان على رأسه أمير يدعىٰ منصور، تحرك في الجانب الشرقي للجزيرة بقصد النهب والقتل والتخريب، ومحاصرة الجزيرة مع الآخرين، وقد أرسله سليمان بن نصر الدولة بن مروان المقيم بالجزيرة، في المصالحة والبقاء بأعمال الجزيرة إلى إنتهاء فصل الشتاء، ليسير مع باقي الغزَ إلى الشام، وتم الاتفاق بينهما ودخل منصور الجزيرة، فما كان من سليمان إلا أن قبض عليه وسجنه، وتفرق أصحابه، فتبعهم عسكر سليمان بن نصر الدولة وقاتلوهم، فعاود الغز القتل والنهب في ديار بكر، وحاول سليمان الاتفاق مع الغز مرة ثانية ليغادروا بلاده مقابل إطلاق سراح أميرهم منصور، وإعطائهم بعض المال، ولكنهم نقضوا الاتفاق، وزادوا في أعمال النهب والتخريب[5]، وهكذا فشل أول تحرك لدخول الشام، قام به الغز العراقية بسبب موقف أمير الجزيرة منهم.

على أثر ذلك إنقسم التركان أتباع منصور إلى قسمين: قسمٌ إنحدر إلى الجنوب الغربي نحو

---

(١) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ٩، ص٣٨٦.

(٢) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ٩، ص٣٨٦.

(٣) شاكر مصطفىٰ ــ المرجع السابق، ص٣٢٠، نقلاً عن ابن الأزرق الفارقي.

(٤) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ٩، ص٣٨٦.

(٥) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ٩، ص٣٨٦ ــ ٣٨٧.

نصبين وسنجار والخابور، حيث اشتغل أمراؤه بالنهب والسلب والتشعيث. في حين أخذ القسم الآخر وهو الأكبر يهدد الموصل لأنها أكبر مركز حضاري غني أمامهم من جهة، ولأنها المحطة الأخيرة لهم في الطريق إلى بلاد الشام[1] من جهة أخرىٰ.

وبالفعل فقد اكتسح التركان الموصل لأول مرة سنة ٤٣٤ هـ/١٠٤٢ ــ ١٠٤٣ م، لكن ثورة قامت ضدهم عقب هذه الغزوة[2]. ما لبثوا أن قضوا عليها، وأعملوا في المدينة قتلاً وتدميراً وأسراً، ثم غزوها ثانية سنة ٤٣٥ هـ/١٠٤٣ ــ ١٠٤٤ م، ولكن هذه الجماعات لم تتمكن من التمركز وتشكيل دولة لسببين:

الأول: إنها كانت محرومة من الإمدادات في الموقع الذي وصلت إليه.

الثاني: لا تستطيع العودة شرقاً، لأن السلطان ينتظرها بالعقوبة، وهو الذي وعد بردها إلى راياته لأنها تمردت عليه.

لذلك كله إنتهىٰ أمر هذه الجماعات بالهزيمة لمجرد أن تحالف العرب والأكراد في هذه المنطقة ضدها[3]، وتبددت في الجزيرة متسللة في أنحائها تعيش كالبدو من العرب على الكر والفر بانتظار مجيء موجات جديدة وراءها، وسيصل أعداد منها بين فترة وأخرىٰ إلى بلاد الشام.

وقد اعتبر ابن الأثير حركة الغز العراقية دولة فيقول: «هذه أخبار الغز العراقيين، وإنما أوردناها متتابعة لأن دولتهم لم تطل، حتىٰ نذكرها على السنين، وإنما كانت سحابة صيف تقشعت عن قريب»[4]، وابن الأثير يوصم هذه الجماعات بالدولة، ثم يقول إنها سحابة صيف، وفي هذا تناقض واضح، فللدول مقوماتها، ودوراتها الحياتية وهو ما لم يتوفر للغز العراقية.

لقد دفعت هذه الموجة التي تعرضت لها الأطراف الشمالية الشرقية البعيدة من الشام، فيما بعد الإمارتين المروانية والعقيلية إلى مسالمة السلطان السلجوقي طغرلبك، ومن ثم القبول الطوعي بالتبعية والخطبة له[5]. كما كانت هذه الموجة فاتحة لموجات تالية، حيث سيعمل الغز السلاجقة على السير في نفس الطريق الذي سلكه هؤلاء التركان، وذلك لأسباب عديدة سوف تتضح فيما بعد.

---

(١) شاكر مصطفىٰ ــ المرجع السابق، ص ٣٢٠.

(٢) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ٩، ص ٣٨٨ ــ ٣٨٩. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ١، ص ٢٥٧.

(٣) شاكر مصطفىٰ ــ المرجع السابق، ص ٣٢٠.

(٤) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ٩، ص ٣١٩.

(٥) شاكر مصطفىٰ ــ المرجع السابق، ص ٣٢١.

• التحرك المنظم للغز التركمان غرباً(*)

كان الضغط البشري والتزايد السكاني التركماني من القوة والاندفاع ما لم يتمكن معه طغرلبك من منعه أو توقيفه، وكل ما كان يستطيع فعله، هو توجيهه ورسم الأقنية له، بدلاً من الانسياح العفوي الذي كان ينفذه التركمان.

بعد أن أصبح طغرلبك سلطاناً للسلاجقة رسم أهدافاً استراتيجية لدولته الفتية هي:

١ ــ القضاء على الخلافة الفاطمية وتوحيد العالم الإسلامي تحت قيادة خلافة واحدة، وذلك يعني الاستيلاء على بلاد الشام ومصر.

٢ ــ التوسع على حساب البيزنطيين، في أرمينيا وآسية الصغرىٰ.

وعلى ضوء هذه الأهداف بدأ تحرك التركمان غرباً، وبدىء في المرحلة الأولىٰ بتوجيه التركمان نحو الأراضي البيزنطية، بدليل أن إبراهيم ينال شقيق السلطان قال للغز حين قصدوا نيسابور سنة ٤٣٣ هـ/ ١٠٤١ ــ ١٠٤٢ م، «هذه البلاد خربت وما تحملكم، اطلبو بلاد الروم فهي أحمل لكم، فساروا إلى بلاد الروم، فقتلوا وأسروا ونهبوا أشياء كثيرة»[١]. ثم قاد ينال بنفسه سلسلة من الأعمال الحربية على الطرق المؤدية لأرمينية، بين سنوات ٤٤٣ ــ ٤٤٦ هـ/ ١٠٤١ ــ ١٠٥٥ م.

وقد وصل إلى ملاذكرد، وأرزن الروم، وقاليقلا، وبلغ طرابزون، وتلك النواحي كلها[٢]، كما أن السلطان طغرلبك قاد بنفسه حملة باتجاه أرمينية سنة ٤٤٦ هـ/ ١٠٥٤ ــ ١٠٥٥ م، أي قبل دخوله بغداد بسنة، فقصد ملاذكرد وحاصرها وضيّق على أهلها، ونهب ما جاورها من البلاد، وقد أرسل له صاحب ديار بكر الهدايا الكثيرة، وبلغ في غزوته هذه أرزن الروم، ثم عاد إلى أذربيجان، من غير أن يملك ملاذكرد[٣].

يبدو أن السلطان طغرلبك كان يحاول الضغط على البيزنطيين ليحقق أمرين، الأول: إظهار قوة السلاجقة وأن بإمكانه تهديد الأراضي البيزنطية في الوقت الذي يريد، لكن مقاومة البيزنطيين لحملاته جعله يؤجل هدفه الأول وهو التوسع على حساب البيزنطيين، ويعمل على الوصول إلى بلاد الشام.

لذلك كله نرىٰ أن السلاجقة في محاولاتهم الدخول إلى الشام كانوا يعملون على كسب

(*) انظر المصور رقم / ٢ /.

(١) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ٩، ص ٥٤٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ٩، ص ٥٤٦.

(٣) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ٩، ص ٥٩٩.

مصور رقم /٢/

- التحرك المنظم للتركمان غرباً.
- تحركات إبراهيم ينال.
- تحركات طغرلبك.

الدولة البيزنطية إلى جانبهم، وإذا لم يتيسر لهم ذلك فعلى الأقل تحييدها في الصراع بينهم وبين الفاطميين، ومن هذه المحاولات أنه في سنة ٤٤٣ هـ/ ١٠٥١ ــ ١٠٥٢ م، أرسل السلطان طغرلبك رسولاً إلى قسطنطين امبراطور بيزنطة يستأذنه في مسيره إلى مصر عبر بلاد الشام، لكن قسطنطين رفض طلب طغرلبك «وأظهر المودة التي بينه وبين المستنصر، وأنه لا يرخص في أذيته، واتفق قدوم رسول المستنصر إليه بهدية عظيمة ...»[١].

وهكذا رفض امبراطور بيزنطة طلب طغرلبك وذلك بسبب الهدنة التي كانت قائمة بين البيزنطيين والفاطميين، ويشير ابن الأثير إلى تجدد هذه الهدنة بين الطرفين سنة ٤٣٩ هـ/ ١٠٤٧ ــ ١٠٤٨ م، وتبادل الهدايا بينهما[٢].

كانت المحاولة الثانية سنة ٤٤٤ هـ/ ١٠٥٢ ــ ١٠٥٣ م، عندما رغب السلطان طغرلبك دعم الثورة الباديسية[٣]، وبالتأكيد لم يكن سلطان السلاجقة جاداً في دعم ابن باديس في ثورته، وإقامة الدعوة العباسية في بلاده، لبعد المسافة بينه وبين أفريقية من جهة، ولخضوع أرمينية والأقسام الشمالية من بلاد الشام للبيزنطيين من جهة ثانية[٤]، لكن الهدف كان تحقيق مخططه في بلاد الشام.

أعاد طغرلبك المحاولة في السنة نفسها، عندما طلب من الامبراطور البيزنطي مقاطعة صاحب مصر لتنفيذ هدفه في القضاء على الخلافة الفاطمية، فكان جواب الامبراطور قسطنطين «صاحب مصر مجاور لنا، وبيننا وبينه عهود وهدنة، وقد بقي منها سنتان، ولا يمكن فسخها»[٥].

ويبدو أن السلطان طغرلبك، كان يحاول التقرب من البيزنطيين وكسبهم، ليسمحوا له بالمرور عبر أراضيهم لحرب الفاطميين والقضاء عليهم، ولكنه لم ينجح بسبب رفض البيزنطيين وعدم موافقتهم، تنفيذاً للعهود والمواثيق بينهم وبين الفاطميين، أو لأن البيزنطيين لم يكونوا راغبين في السماح لقوة قوية ناشئة بالتمركز على حدودهم.

بعد عودة طغرلبك من حملته على الأراضي البيزنطية ودخوله الري سنة ٤٤٦ هـ/

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، القاهرة ١٩٦٧ م، جـ ٢، ص ٢١٤.
(٢) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ٩، ص ٥٤١.
(٣) المقريزي ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢١٤، نسبة إلى قائدها أحمد بن باديس في المغرب.
شاكر مصطفى ــ المرجع السابق، ص ٣٢٥.
(٤) شاكر مصطفى ــ المرجع السابق، ص ٣٢٣، وذلك ما بين شيزر واللاذقية حتى أنطاكية ومناطق الثغور الشامية عند مداخل كيليكية.
(٥) المقريزي ــ المصدر السابق، ص ٢٢٤.

١٠٥٤ ـــ ١٠٥٥م، عرض على امبراطور بيزنطة خطة جديدة للقضاء على الخلافة الفاطمية، وقد ورد ذلك في مذكرات المؤيد داعي الدعاة: «ولما قوي أمر التركمانية... وحصلت بالري، وصار القريب والبعيد، من أهل البلدان يتقلبون من الخوف، ورد إلينا من جهة الروم نسخة رسالة بعث بها التركمانية إلى الروم يطلبون فيها مساعدتهم لأخذ المملكة العلوية... فيجعلون الشام من جملتها، نصيب إخوانهم من شياطين الروم الكفار...»[١].

وهكذا فشلت المحاولات التي قام بها السلطان طغرلبك، فقرر مباشرة الحرب بنفسه على جبهة أرمينية والأراضي البيزنطية، وتنفيذ هدفه الثاني وذلك سنة ٤٤٦هـ ـــ ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥ ـــ ١٠٥٦م، كما سبق. وقبل أن يتوجه إلى بغداد سمح لجماعاته أن تتوغل وتغزو حيث شاءت. بعد وصول السلطان طغرلبك إلى الري إثر عودته من غزو أرمينية، تحرك إلى همدان في المحرم سنة ٤٤٧هـ/نيسان ١٠٥٥م، وأظهر أنه يريد الحج وكان غرضه من ذلك، إما الوصول إلى بلاد الشام عن طريق الحجاز، بعد أن تعذر عليه طريق أرمينية وبيزنطة، أو الوصول إلى بغداد والبقاء فيها، وإنهاء سلطة البويهيين وهذا ما تم فعلاً[٢].

• **بداية دخول التركمان إلى الشام:**

عندما أطلق السلطان طغرلبك لجماعاته حرية الحركة، والانسياح أينما شاءت، وبخاصة في الجزيرة والشام، تمكنت بعض العصابات الغزية من الوصول إلى أبواب الشام، داخله منطقة ديار مضر وربيعة، وقد تمكن الأمير العربي ثمال المرداسي من مقاتلة هذه العصابات، وتحقيق بعض الانتصارات عليها، ولكنها كانت انتصارات مؤقتة، لأن الضغط الغزي التركماني استمر بعدها طويلاً مما اضطر ثمال إلى خوض معارك متعددة معهم[٣].

وهكذا بدأت الصدامات بين الغز التركمان، وبين القبائل العربية في الشام، وعلى رأسها بني مرداس الكلابيين، وأصبحت حلب المركز الرئيسي لمقاومتهم ودفعهم، ويحدد لنا المقريزي سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥ ـــ ١٠٥٦م، تاريخاً لبدء الصدامات التي وقعت في شمالي بلاد الشام بين الغز التركمان وصاحب الدولة المرداسية فيقول: «وفي هذه السنة تجمع كثير من التركمان، بحلب وغيرها، وأفسدوا في أعمال الشام...»[٤] والمقصود بحلب هو أراضي جند حلب، وكذلك

---

(١) المؤيد في الدين: مذكرات داعي دعاة الدولة الفاطمية، ص ١٢٥.

(٢) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ٩، ص ٦٠٩ ــ ٩١٠. المؤيد في الدين ــ المصدر السابق، ص ١٢٥. حاشية رقم /١/، أرمان: الامبراطورية البيزنطية، تعريب: مصطفى طه بدر، القاهرة ١٩٥٣م، ص ١٩٦.

(٣) شاكر مصطفى ــ المرجع السابق، ص ٣٤٠.

(٤) المقريزي ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢٣٠.

أورد داعي الدعاة في مذكراته، أن كتاباً وصله من أمير الجيوش الفاطمي في شمال الشام، وكان ذلك سنة ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ ــ ١٠٥٧ م، «يتضمن التخوف من سرية تركانية سمع أنها تسري إليه، وأنه يستعجل النجدة...»[١] وفي السنة التالية ٤٤٩ هـ/١٠٥٧ ــ ١٠٥٨ م، كان ابن ملهم القائد الفاطمي قد تسلم حلب[٢] وحارب التركانية ويذكر المقريزي أنه بتسلم ابن ملهم لحلب «إنكفت أيدي التركان عنها، وذلك بعد حروب عظيمة»[٣] ولا شك أن هذا الموعد الذي حدده المقريزي لدخول الغز التركان إلى بلاد الشام، يأتي قبل عشر سنوات على الأقل من الموعد الذي يذكره ابن العديم ويجعله تاريخاً لبداية دخول التركان إلى الشام وهي سنة ٤٥٦ هـ[٤]/١٠٦٣ ــ ١٠٦٤ م.

ويبدو أن الموجة الغزية توقفت عدة سنوات (بين أعوام ٤٤٧ ــ ٤٥٦ هـ/ ١٠٥٧ ــ ١٠٦٤ م، أي بين الفترة التي يحددها المقريزي، والفترة التي يحددها ابن العديم وذلك لعدة أسباب منها:

١ ــ الخطة التي كان يعدها اليازوري (وزير مصر) والبساسيري للقضاء على الخلافة العباسية[٥] مما ليس مجال الدخول في تفاصيله في هذه الدراسة.

٢ ــ إنصراف التدفق التركاني الغزي في أواخر أيام طغرلبك إلى التوغل في الأناضول بعد أرمينية.

٣ ــ إنشغال طغرلبك بحركة أخيه إبراهيم ينال[٦].

وقد غير هذا الموقف من طبيعة الغزو التركاني للشام، ومن طريقة دخوله إلى هذه البقاع، وقد أصبح بعد سنة ٤٥٦ هـ/١٠٦٣ ــ ١٠٦٤ م، على شكل مجموعات منظمة من القوى، منها ما كان يعمل لحسابه وحساب أمرائه، ومنها ما كان يعمل لحساب سلاطين السلاجقة، وقد فرضت ظروف المنطقة وصراع الحكام فيها استدعاؤهم لتغليب حاكم على آخر[٧].

---

(١) المجالس والمسايرات؟ — (١) المهتدي في الدين ــ المصدر السابق، ص ١٣٤.
(٢) انظر الصفحة ٦٥ من هذا الفصل.
(٣) المقريزي ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢٣٥.
(٤) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ١، ص ٢٩٥.
(٥) شاكر مصطفى ــ المرجع السابق، ص ٣٢٨.
(٦) أمينة بيطار ــ المرجع السابق، ص ٣١٠ ــ ٣١١.
(٧) شاكر مصطفى ــ المرجع السابق، ص ٣٤١.

٤ ــ ظهور التركان على مسرح الأحداث في حلب:

• **ابن خان والأمير محمود بن نصر المرداسي**(١)

كان على رأس التركان الذين استدعاهم عطية، ابن خان والذي يعتبر أول الغز التركان الذين دخلوا بلاد الشام، وكان لهم دور مؤثر وفعّال في أحداث المناطق الشمالية منها، فمن هو ابن خان؟. يروي ابن العديم أن ابن خان كان ابناً لأحد ملوك الترك، وأن أباه غضب منه فهجره واتجه إلى الشرق حيث استقر في الجزيرة، وبالرغم من أنّ ابن العديم لم يوضح من هو ملك الترك؟ وما اسم ابن خان، فإنه يمكن أن يستخلص مما أورده بأن اسمه الأول هارون، وأن أتباعه كانوا ألفاً من الرماة من أصول مختلفة، كان التركان العنصر الغالب عليها (٢)

عندما تسلم عطية حلب بناء على وصية أخيه ثمال سنة ٤٥٤ هـ/ ١٠٦٢ م، شعر ابن أخيه محمود بن شبل الدولة وكان مقيماً بالرحبة، بأنه أحق بحكم حلب من عمه عطية (٣) فجمع أتباعه الكلابيين وسار باتجاه حلب فحاصرها، ولم يكن أمام عطية من سبيل لفك الحصار عن حلب، إلا اللجوء إلى قوة قادرة على الوقوف بوجه محمود وأتباعه، وكانت هذه القوة هي التركان وعلى رأسهم ابن خان، فاستدعاه عطية لمساعدته ضد ابن أخيه وفك الحصار، وأسرع ابن خان ــ الذي كان يراقب ما يحدث في حلب عن كثب، وينتظر مثل هذه الفرصة ــ بتلبية الطلب، ليكون دخوله إلى حلب وتدخله في أمورها شرعياً، وليثبت للأمراء العرب أنهم ليسوا وحدهم في المنطقة.

قدم ابن خان إلى حلب في ألف مقاتل سنة ٤٥٦ هـ/١٠٦٣ ــ ١٠٦٤ م، ودخل حلب(٤)، واستطاع فك الحصار عنها وإنقاذ أميرها عطية من الحصار، ولكن عطية وقع هذه المرة تحت سيطرة التركان المكروهين من البدو الكلابيين، ومن «أحداث» حلب كون التركان قوة غريبة لها أطماعها في الشام، وتشارك أصحاب البلاد في الأرزاق والمرعى، أما ابن خان والتركان فقد فرضوا أنفسهم على عطية، بخاصة بعد أن استعان بهم في غارة ناجحة على حدود أنطاكية

---

(١) انظر المصور رقم /٣/.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ١، ص٣٩٤. سهيل زكار ــ المرجع السابق، ص ١٣١.

(٣) انظر فيما سبق ص ــ ٦٦ ــ

(٤) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥م، ص ٣٢٤.

التابعة للبيزنطيين[١] .

شعر عطية بوطأة التركمان ، فحاول استدراك الأمر ومصالحة ابن أخيه ، فتنازل له عن بعض أملاكه ، ثم إلتفت إلى التركمان فدبر لهم مذبحة في حلب ، بعد أن قضىٰ منهم غرضه الحربي ، وقد نفذ الهجوم المباغت عليهم أحداث حلب بإغراء من عطية نفسه ، وذلك في صفر سنة ٤٥٧ هـ / كانون الثاني ١٠٦٥ م[٢] ، فقتلوا منهم جماعة ، ونهبوهم وأخذوا خيولهم وسلاحهم ، وخرج ابن خان يتهدد ويتوعد ، ثم مضىٰ فاراً بمن بقي من رجاله الذين لاقوا الويل والشدائد باتجاهين :

الأول : إلى الشرق والجزيرة ، إلا أن قبائل البدو العرب[٣] تخطفتهم وتخلصت منهم .

الثاني : عبر المناطق الشمالية والغربية من حلب ، حيث قرر ابن خان الإلتحاق بخصم عطية ، ابن أخيه محمود والتقىٰ به مع أصحابه في سرمين[٤] ، وعددهم أقل من مائة وخمسين رجلاً ووضع نفسه ورجاله تحت تصرف محمود ، وهكذا استقر ابن خان في المنطقة يتدخل بشؤونها ، ويقرر مصيرها وهنا يمكن القول إنه أصبح للغز التركمان ، تواجداً فعلياً عسكرياً وسياسياً علىٰ أرض الشام منذ هذا التاريخ .

أما الأمير محمود بن نصر الذي احتضن ابن خان ورحب به وقبل به كدعم له ، فإنه لم يفكر بأكثر من وصوله للإمارة مهما كانت السبل ، كما أنه لم يفكر أيضاً في النتائج التي ستصيب المنطقة خاصة ، وبلاد الشام عامة من وجوده ، ولو فكر بالإجهاز على ابن خان ومن بقي معه ، كما فعل عمه عطية لأراح المنطقة منهم ولو لفترة .

في سنة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٤ ـــ ١٠٦٥ م ، حاصر محمود بن نصر المرداسي حلب للمرة الثالثة ، ومعه ابن خان ، وظل محاصراً لها إلى منتصف شهر رمضان[٥] ، ويؤكد ابن العديم ذلك فيقول : « وسار محمود ومعه ابن خان ومن كان بأمرته من التركمان إلى مرج دابق ، حيث إلتقىٰ بجموع عطية في جمادىٰ الآخر سنة ٤٥٧ هـ / مايس ١٠٦٥ م ، فانهزم عطية ، فلحقوا به وحاصروه بحلب مائة ويومين .. حتىٰ ألجأه الجوع إلى التسليم والقناعة بحكم المنطقة الشرقية

---

(١) سهيل زكار ـــ المرجع السابق ، ص ١٢٩ .

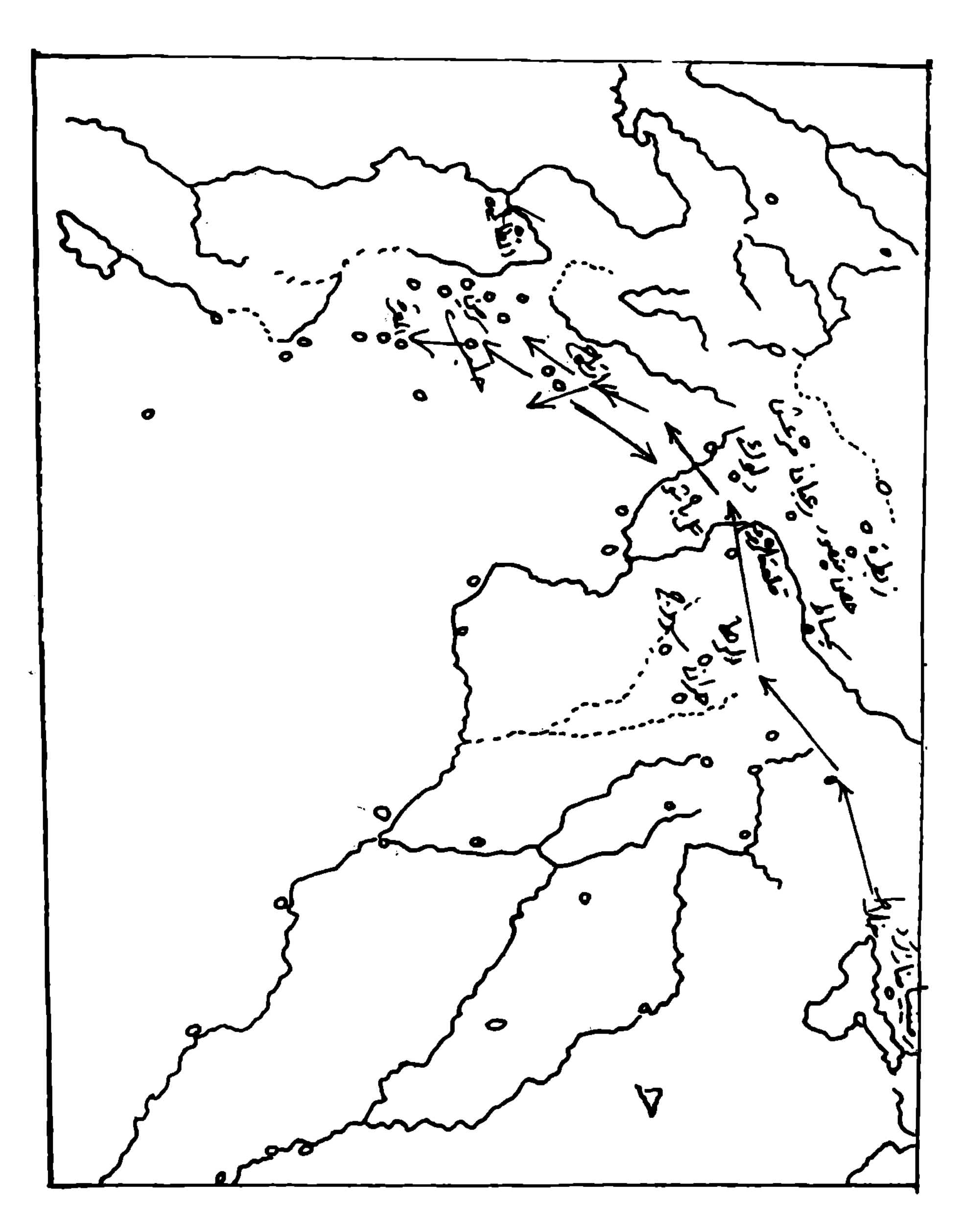
(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ١ ، ص ٢٩٥ . شاكر مصطفىٰ ـــ المرجع السابق ، ص ٣٤٣ . سهيل زكار ـــ المرجع السابق ، ص ١٢٩ .

(٣) ابن العديم ـــ المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٩٦ .

(٤) ابن العديم ـــ المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٩٦ .

(٥) العظيمي ـــ المصدر السابق ، ص ٣٢٦ . ابن القلانسي ـــ المصدر السابق ، ص ١٥٦ . ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ١ ، ص ٢٩٧ .

مصور رقم /٣/



ــ مسير ابن خان وجماعته حتى وصوله إلى المعرة وتحركاته ضمن المنطقة.

من حلب (ما بين منبج والرحبة)[1]، لكن ابن خان لم يدخل إلى حلب مع محمود بعد نصره على عطية لما بينه وبين أحداثها من أحقاد، بل مضىٰ إلى العراق والجزيرة[2]، حيث أخذ يجند فيها بعض الجند، ثم عاد ومعه من الترك والديلم والكرد والأوج مقدار ألف رجل مع حاشيتهم، فحصل على ثمن مساعدته لمحمود بن نصر بأن أقطعه معرة النعمان[3]، فدخلها في شوال سنة ٤٥٨ هـ/مطلع أيلول ١٠٦٥م، وكان هذا الثمن الذي قدمه محمود لابن خان غالياً جداً، إذ أصبح ابن خان بعد ذلك أميراً مستقراً له مركز حكم وليس أميراً مشرداً متنقلاً بين مكان وآخر، وهو ما كان يسعىٰ إليه.

عندما علم التركمان الذين في المعرة، أن ابن خان قادم إليها، أثاروا الشغب ونهبوا الضياع وذلك سنة ٤٥٩ هـ/١٠٦٦ ـــ ١٠٦٧م. مما دفع ابن خان للاستغناء عن خدماتهم، وقد أورد ابن العديم بعض المعلومات حول تركمان المعرة فقال: «إنه كان في هذه المنطقة بعض العساكر التركمانية، الذين يعيشون بها، وقد نهبوا سنة ٤٥٩ هـ/١٠٦٧م، حصن سناك وجميع ضياعه بالشام، مما دفع حاكم المنطقة حسين بن كامل الدوح، أن يسلمها مع الحصن الرئيسي وهو حصن أسفونا إلى نواب فاطميين، بينما كان عسكر ابن خان في غاية النظام، فلم يعتدوا على الكروم والبساتين ولم يأخذوا من أحد شيئاً إلا بثمنه حتىٰ الماء الذي سقوه لدوابهم»[4].

بقي ابن خان وأتباعه قرابة أربع سنوات في المنطقة، حاول خلالها التقرب من السكان بتبني سياسة المنطقة وبخاصة الجهاد ضد البزنطيين، فحاصر حصن أرتاح خمسة أشهر حتىٰ فتحه، واستولىٰ عليه بعد أن قتل من البيزنطيين ما يقارب ثلاثة آلاف رجل، ويصف ابن العديم فتح أرتاح بأنه كان فتحاً عظيماً، وقد خسر البيزنطيون خسائر كبيرة في هذا القتال مما دفع امبراطور بيزنطة للتحرك نحو الشام[5]، واحتلال منبج وذلك في شهر شعبان سنة ٤٦١ هـ[6] حزيران ١٠٦٨م.

كما وقف ابن خان مع محمود المرداسي في وجه الفاطميين، واشترك معه في استرداد حصن

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ١، ص٢٩٦ ـــ ٢٩٧، كانت المعركة في جمادىٰ الآخرة، ثم دام الحصار مائة ويومين أي إلى منتصف شهر رمضان، وهو نفس ما ورد عند العظيمي.

(٢) ابن العديم ـــ المصدر السابق، جـ١، ص٢٩٨.

(٣) العظيمي ـــ المصدر السابق، ص٣٢٦.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٣٧٤.

(٥) أصبح امبراطور بيزنطة هذا العام (رومانوس ذيوجنيوس)، شاكر مصطفىٰ ـــ المرجع السابق، ص٣٩٣.

(٦) ابن العديم ـــ المصدر السابق، جـ٢، ص٣٧٥.

أسفونا منهم في سنة ٤٦٢ هـ/ ١٠٦٩ ـــ ١٠٧٠ م، وبالرغم من ذلك فإن هذه الاعمال الحربية ضد البيزنطيين والفاطميين لم تقرب ابن خان وأتباعه من الأهالي في حلب، وظلت العزلة بينه وبين جماهير الشعب قائمة، بدليل أن فتنة قامت بين الطرفين سنة ٤٦٢ هـ/ ١٠٦٩ ـــ ١٠٧٠ م، كان من ضحاياها نحو من أربعين رجلاً من التركان، وعشرة من الحلبيين[١]، كما أن الحكام الفاطميين كانوا غير راضين عن وجود ابن خان في خدمة الأمير المرداسي[٢]، لكونه تركانياً موالياً للعباسيين، وهو يشجع محموداً المرداسي على تغيير ولائه السياسي وتغيير المذهب الرسمي لدولته، والاتصال بخليفة بغداد والسلطان السلجوقي، والغريب في الأمر هو تناقض مواقف ابن خان والتركان المتواجدين في حلب؟ فهم لم يكونوا على وفاق أو علاقات جيدة مع السلطان وخارجين على إرادته، ومع ذلك فأميرهم يدفع محموداً المرداسي للتقرب من الخليفة العباسي والدعاء له، وترك الخلافة الفاطمية. وهو ما يدعو للتساؤل عن دور ابن خان وأمثاله عن التركان في المنطقة.

لم يكن ابن خان مخلصاً لمحمود، بل كان يعمل للسيطرة على المنطقة، وأخذ يدبر المؤامرات لحكامها وكبار رجالاتها. وشعر محمود بأن ابن خان يدبر له ولعمه عطية مؤامرة يعمل فيها على التخلص منهما، فحاول محمود بدوره التخلص منه، وأخذ يقرب إليه أميراً تركانياً آخر نجهل اسمه[٣]. وعلى الرغم من ذلك فإنه يمكن القول إن ابن خان وأتباعه كانوا الركيزة الأساسية لحكم محمود بن نصر المرداسي، فبمساعدتهم تقلّد منصب الإمارة في حلب، وبوجودهم قريباً منه دعم نفسه في السلطة، وأخضع كافة القبائل في المنطقة ويؤيد ذلك ابن العديم بقوله: «وخرج محمود بن نصر بابن خان والتركان في سنة ٤٥٩ هـ/ ١٠٦٦ ـــ ١٠٦٧ م، ومعه بنو عوف من بني أبي بكر بن كلاب، فنزل المعشيرة ـــ من بلد حماه ـــ ثم أتى حماه ووطيء جميع العرب وأذلها»[٤].

عندما فشل ابن خان في مؤامراته لقتل محمود وعمه عطية، وعلم أن السلطان ألب أرسلان[٥] متوجه للاستيلاء على حلب، وهو الخارج عن إرادته، وجد أن الموقف يتطلب منه مغادرة منطقة حلب، فتوجه إلى سواحل الشام حتى وصل إلى ابن أبي عقيل أمير صور

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٣٨٠.

(٢) شاكر مصطفى ـــ المرجع السابق، ص ٣٤٤.

(٣) شاكر مصطفى ـــ المرجع السابق، ص ٣٤٦.

(٤) ابن العديم ـــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣٧٤.

(٥) ألب أرسلان: هو محمد داود بك بن ميكائيل بن سلجوق، ولد سنة ٤٢٤ هـ، وتوفي في العاشر من ربيع الأول سنة ٤٦٥ هـ، وكانت مدة ملكه منذ أن خطب له بالسلطنة إلى أن قتل تسع سنين وستة أشهر وأياماً. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٧٤.

فاستقبله ورحب به وأكرمه مع أصحابه، وفي هذه الأثناء وصل بدر الجمالي إلى الساحل وحاصر صور، وأراد ابن خان استغلال الفرصة عله يصل مع بدر إلى ما لم يصل إليه مع غيره، ولذلك فإنه خرج إليه وعسكر عنده، مما أدىٰ إلى غضب ابن أبي عقيل، الذي أرسل إلى أتباع ابن خان وقال لهم: «قد عرفتم ما فعلت مع صاحبكم من الجميل، وما أنفقت عليه من الأموال، وما صلح لي، ولا جازاني على إحساني إليه، ولكم عليّ إن قتلتموه كذا وكذا من المال فوثب عليه اثنان فقتلاه، وحملا رأسه إلى ابن أبي عقيل فطيف به في صور ...»[1]، وانتهت بذلك حياة أول تركماني غزي دخل الشام، وقام مع أتباعه بدور كبير في التمهيد لوصول السلاجقة إلى بلاد الشام وحكمها حكماً مباشراً، مع أن ابن خان يعتبر أحد زعماء الجماعات التركمانية الخارجة عن إرادة السلطان السلجوقي، والتي أطلق عليها اسم الناوكية، ومما يؤيد هذا وجود أخ لابن خان بين زعماء الناوكية الذين سمع عنهم جنوبي بلاد الشام وذلك سنة ٤٦٤ هـ/ ١٠٧١ ــ ١٠٧٢م.

ويتضح من مجريات الأحداث أنه كان رجلاً مغامراً يقدم خدماته العسكرية لمن يطلبها ولمن يظن الفائدة على يديه.

• الأفشين[2]

لم يكن ابن خان وأتباعه هم التركمان الوحيدين الذين دخلوا شمال بلاد الشام، وإنما كانت هناك جماعات أخرىٰ وقواد آخرون قدموا عن طريق أرمينيا وأعالي الفرَات إلى الأراضي البيزنطية ومنها إلى الثغور الجزرية والشامية، ومن هؤلاء القائد السلجوقي الأفشين، الذي كان مع عساكر القائد كمشتكين حاجب السلطان ألب أرسلان، حيث كان ميدان عمل هذا العسكر وقائده في أعالي الفرات، جنوبي حصن منصور ما بين حران ووادي الفرات[3]، ويقال إن الأفشين قتل قائده كمشتكين في خصومة بينهما مما أثار غضب السلطان عليه، فأوغل في الأراضي البيزنطية حتىٰ بلغ قيسارية ونهبها سنة ٤٥٩ هـ/ ١٠٦٦ ــ ١٠٦٧م. ثم إنحدر إلى كيلكيه، واخترق الأمانوس حتىٰ وصل أرض أنطاكية، ويؤرخ ابن العديم لهذه الحادثة فيقول «وفي سنة ٤٥٩ هـ/ ١٠٦٦ ــ ١٠٦٧م، طلعت طائفة كبيرة من الترك، فنزل بعضهم على دلوك[4]، وتقدم منهم نحو ألف فنهبوا بلد أنطاكية عن آخره، وأخذوا نحو

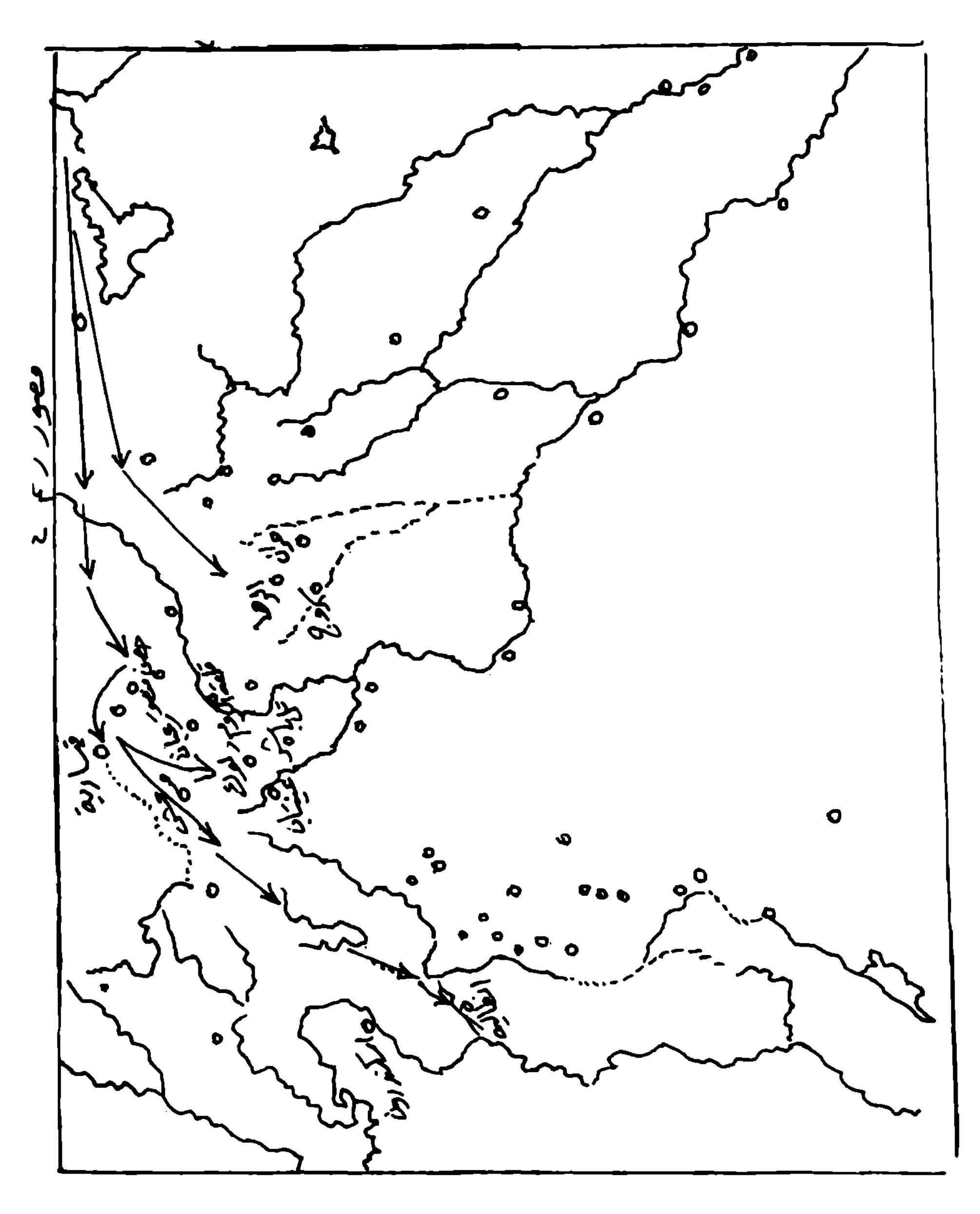
(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، طبع حيدر آباد ١٩٥١م، ص ١٥١.

(٢) انظر المصور رقم / ٤ /.

(٣) شاكر مصطفىٰ ــ المرجع السابق، ص ٣٤٦.

(٤) دلوك: بليدة من نواحي حلب بالعواصم، كانت بها وقعة لأبي العشائر الحمداني مع الروم، ياقوت الحموي ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٦١.

مصور رقم /٤/



مسيرة جماعة الأفشين ـ حسب الأسهم من أرمينية حتى أنطاكية.

أربعين ألف جاموس وقيل أكثر، حتىٰ أن الجاموس كان يباع بدينار وأكثره بدينارين أو ثلاثة، وأما البقر والغنم والماعز والحمير والجواري فلم يقع على ذلك إحصاء من الكثرة، وكانت الجارية بدينارين، والصبي بتطبيقة نعال للخيل. كان مقدم الترك أفشين بن بكجي... ثم خرج إلى أعمال حلب وباع الغنائم التي كانت معه...»[1]. بعد هذا النهب والتخريب، غادر الأفشين أراضي حلب إلى الأراضي البيزنطية من ناحية الجزر[2] فأقام هناك بأمر من السلطان ألب أرسلان، لأنه كان من أصحابه[3]، والسؤال الذي يطرح نفسه؟ كيف يغضب السلطان عليه؟ ثم يأمره بأن يقيم في الأراضي البيزنطية، وهنا يمكن القول بوجود احتمالين: لعلاقة الأفشين بالسلطان في هذه الفترة، **الأول**: أن قتل كمشتكين كان بتدبير من السلطان نفسه ولأسباب لا تزال مجهولة والمنفذ هو الأفشين، وقد أظهر السلطان إنزعاجه منه لفترة، ثم رضي عنه. **والاحتمال الثاني**: أن يكون القتل تم لخصومة كانت بينهما فعلاً، مما أدىٰ إلى هرب الأفشين خوفاً من غضب السلطان إلا أنه عاد وطلب الصفح والعفو وتصالح معه باعتباره من قواده المخلصين، ولذلك سمح له بالتمركز في الأراضي البيزنطية، وهذا يؤدي إلى القول أيضاً بأن دور الأفشين كان مرسوماً من قبل السلطان في كلا الاحتمالين، وهو تهيئة المناطق الواقعة فيما بين أعالي الفرات وشمال أرمينية، تمهيداً للحملة السلجوقية القادمة إلى بلاد الشام والتي سيقودها السلطان ألب أرسلان بنفسه، بدليل أننا نجد الأفشين معه في حملته سنة ٤٦٢ هـ/ ١٠٦٩ ــ ١٠٧٠م. كما روىٰ ابن الجوزي في مرآة الزمان حوادث سنة ٤٦٣ هـ/ ١٠٧٠ ــ ١٠٧١م، فقال: «كان ألب أرسلان قد سار من همدان في ذي القعدة من سنة ٤٦٢ هـ/ آب ١٠٧٠م، فلما قارب أرجيش من ملاذكرد من بلاد خلاط فتحهما وقتل وسبي، وبعث بين يديه الأفشين سرية...»[4] ومع قدوم السلطان ألب أرسلان إلى حلب إنتهىٰ دور الأفشين في بلاد الشام.

• صنــدق[5]

في سنة ٤٦٢ هـ/١٠٦٩ ــ ١٠٧٠م، برز اسم قائد تركماني آخر هو صندق الذي وصل من الأراضي البيزنطية إلى أراضي حلب، ويذكر الأصفهاني، أنه عندما خرج السلطان

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ٣٧٥ ــ ٣٧٦.

(٢) الجزر: كورة من كور حلب، ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٢، ص ١٣٣.

(٣) شاكر مصطفىٰ ــ المرجع السابق، ص ٣٤٦.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، أحمد الثالث، رقم ٢٩٠٧ س، المجلدة /١٢/ حوادث سنة ٤٦٣ هـ.

(٥) انظر المصور رقم /٥/.

ألب أرسلان إلى ملاذكرد، وكان البيزنطيون قد اقتربوا من بلاد خلاط وهم يعيثون ويخربون فيها «فخرج إليهم عسكر خلاط ومقدمهم صندق التركي، فصبح صبح البيض على ليل النقع المظلم، وقتل منهم خلقاً كثيراً، وقاد قائدهم في القيد أسيراً»[1]. كما يشير ابن العديم إلى صندق ودخوله إلى حلب فيقول: «وفي هذه السنة ٤٦٢ هـ/ ١٠٦٩ — ١٠٧٠ م، وصل صندق التركي، خارجاً من بلد الروم ومعه عسكر عظيم، ودخل إلى حلب من الأرتيق[2] إلى الجزر، إلى بلدة معرة النعمان وكفر طاب إلى حماه وحمص ورفنيه، وشتوا في هذه السنة، فنهبوا الضياع وسبوا منها، وعاقبوا من وجدوا هناك، وفتحوا جباب الغلة ومدافنها، وقطع صندق القطائع الكثيرة على مواضع امتنعت عليه. ولقي أهل الشام من عسكره شدة عظيمة، وهو أول نهب وفساد جرىٰ بالشام من الأتراك. ولما إنقضىٰ زمن الشتاء عاد إلى بلد الروم، بعد أن أكرمه محمود بن نصر المرداسي بتحف حملها إليه...»[3]، ولا يشير ابن العديم أو غيره إلى أي مكان في الأراضي البيزنطية عاد صندق، ومما لا شك فيه أن الدور الذي قام به صندق في شمال بلاد الشام، شبيه ومكمل للدور الذي مارسه الأفشين من قبل، وبتخطيط واحد ومسبق، مما اضطر معه محمود المرداسي لتقديم التحف والهدايا له إتقاءً لشره وفساده وحتىٰ لا يدخل حلب.

أما قول ابن العديم إن الأعمال التي قام بها صندق، هي أول نهب وفساد جرىٰ بالشام، فهو قول غير دقيق، إذ سبقه إلى ذلك كثير من التركان أهمهم ابن خان والأفشين، وقد أشار إلى أعمالهما ابن العديم نفسه.

مع بداية سنة ٤٦٣ هـ/ ١٠٧٠ — ١٠٧١ م، توافدت إلى بلاد الشام جموع تركانية، وردت من طرق مختلفة، ولأغراض متباينة، تتوزع هنا وهناك، وتعمل لحسابها الخاص، وكأنها مقدمات لموجات أخرىٰ منظمة وذات أهداف مرسومة. وتظهر بعض هذه الجماعات، عند ابن أبي عقيل صاحب صور، كما وصلت جماعات أخرىٰ إلى الشام الجنوبي بدعوة من واليها بدر الجمالي الفاطمي، لتعاونه في استقرار المنطقة ورد غارات البدو عنها، وهي من الجماعات المنساحة في الأراضي البيزنطية، ومن المحتمل أن تكون جماعة ابن خان هي إحدىٰ هذه الجماعات التي ظهرت لدىٰ بن أبي عقيل، وبدر الجمالي[4]. وتركت حلب بعد سماعها

---

(١) الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٣٨.

(٢) الأرتيق: كورة من أعمال حلب، من جهة القبلة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ١، ص ١٤١.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٣٨٠.

(٤) انظر فيما سبق، ص ٨٢، من هذا الفصل.

بقدوم السلطان إليها.

بالرغم من تواجد هذه الجماعات في شمال بلاد الشام وجنوبه، فإن تأثيرها كان محدوداً، وتمهيدياً. أما الجماعات الأكبر والأخطر فهي تلك الجماعات التي وصلت إلى بلاد الشام ضمن الحملات السلجوقية في عملية فتح سياسي وعسكري(١)، يقودها السلطان السلجوقي ألب أرسلان بنفسه، ومن بعده ابنه ملكشاه وقد سلكت هذه الجماعات طريقين:

الأول: من الأناضول على الدروب التي كانت دوماً خطوط مواصلات بين الثغور الشامية والعواصم.

الثاني: من الجزيرة العليا المتصلة من جهة الشرق الشمالي بأرمينية وأذربيجان.

- **الناوكية**:

من طوائف الغز التركمان التي وصلت إلى بلاد الشام، ولعبت دوراً رئيساً في الأحداث السياسية التي سبقت ومهدت للاحتلال السلجوقي المباشر لبلاد الشام، هي الجماعات التي اشتهرت باسم الناوكية.

واسم الناوكية لم يرد في ديوان لغات الترك لصاحبه الكاشغري، والمعاصر لتلك الفترة، كما لا يظهر بين أسماء القبائل الغزية، ويكتب أحياناً الياوكية(٢). وقد أطلق هذا الاسم على جماعات من المرتزقة الذين لم يدينوا بالطاعة للسلطان السلجوقي، وكان التركمان يشكلون أكثريتها، إضافة إلى عناصر من السكان المحليين، في خراسان والعراق والجزيرة، وبعضاً من بقايا الدول التي زالت مع انتصار السلاجقة(٣)، كالغزنويين والخوارزميين، والديلم.

ومن المحتمل أن كلمة ناوكية، تعني الخارجين عن السلطة أو (القانون) كما فسرها أحد الباحثين الأتراك حيث اعتبر السلاجقة، جماعات التركمان العراقية والناوكية خوارج على سلطتهم، ويمكن أن يندرج تحت هذا التفسير جميع التركمان الذين تدفقوا إلى الأراضي البيزنطية والجزيرة، دون علم السلطان أو رضاه. ويؤيد ذلك ما أورده سبط ابن الجوزي «وكان أريسغي زوج أخت السلطان معه جماعة من الناوكية، وكان السلطان يطلبهم، فساروا منحازين إلى بلاد الروم خائفين من السلطان»(٤). ويبدو أن أريسغي كان من جماعة السلطان طغرلبك،

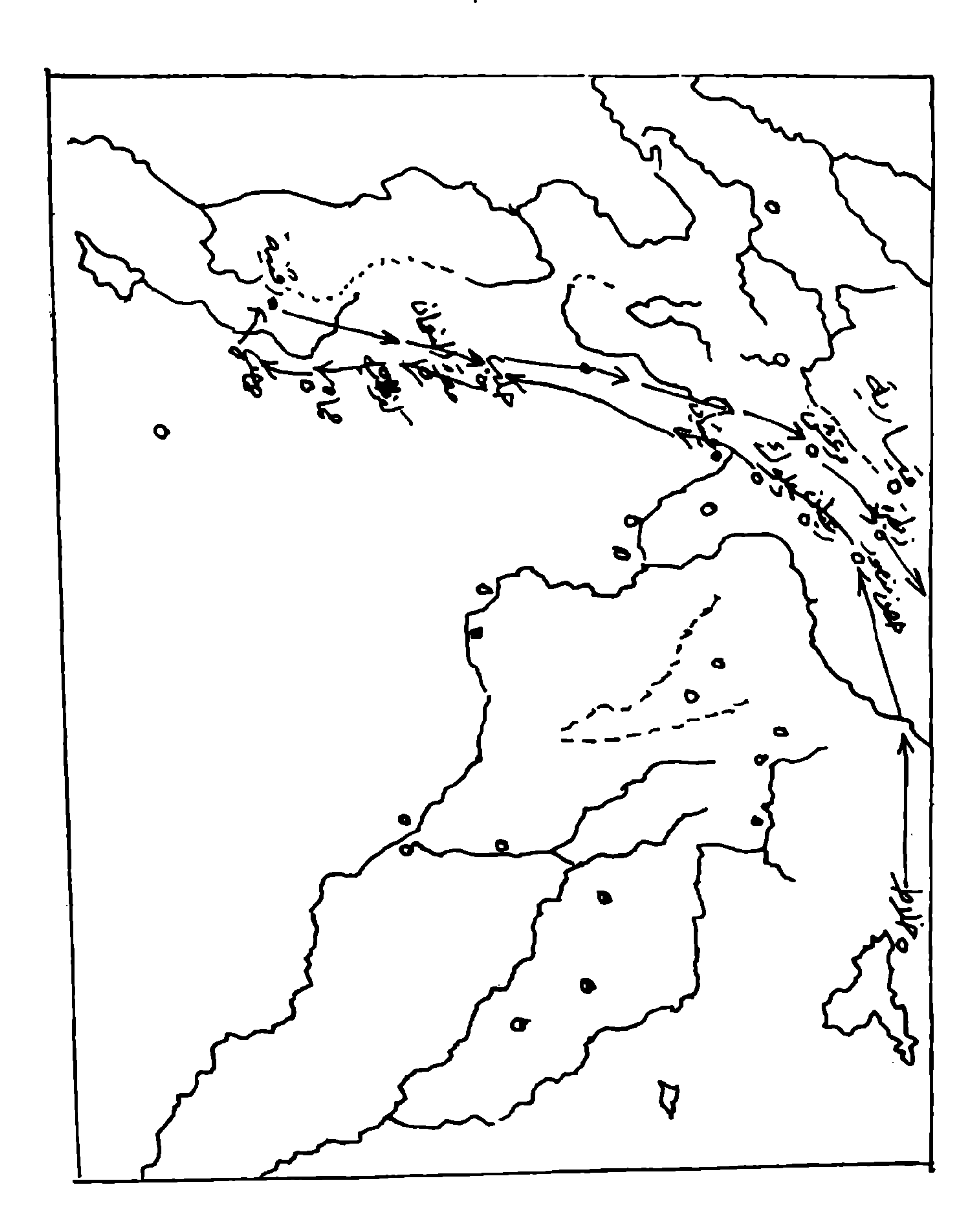
(١) شاكر مصطفى ـ المرجع السابق، ص٣٤٨.

(٢) شاكر مصطفى ـ المرجع السابق، ص٣٤٩، نقلاً عن الكاشغري.

(٣) سهيل زكار ـ المرجع السابق، ص١٣٢.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ص١٤٤.

مصور رقم /٥/



_ مسيرة جماعة صندق _ حسب الأسهم.

وأسهم معه في الأعمال الحربية ضد البساسيري وذلك سنة ٤٥٠ ــ ٤٥١ هـ/ ١٠٥٨ ــ ١٠٦٠ م، وقد أصبح من أنصار ألب إرسلان بعد وفاة طغرلبك، وما لبث أن اختلف معه، فهرب منه سنة ٤٦٣ هـ/ ١٠٧٠ ــ ١٠٧١ م، باتجاه الأراضي البيزنطية، وهذا يعني أنه كان خارجاً عن إرادة السلطان ألب أرسلان، كما أنه من المحتمل أن تكون جماعة ابن خان التي ظهرت في الشام منذ سنة ٤٥٦ هـ/١٠٦٣ ــ ١٠٦٤ م، من الجماعات التي تدخل تحت اسم الناوكية، وذلك لسببين:

الأول: هو ترك ابن خان لحلب عندما علم بقدوم السلطان ألب أرسلان إليها، مما يدل على أنه لم يكن على وفاق معه.

الثاني: هو وجود ابن أخ لابن خان بين زعماء الناوكية في جنوبي الشام.

وفي حال صحة هذين السببين فإن ابن خان يعتبر زعيم أول جماعة ناوكية دخلت بلاد الشام، كما أن بدر الجمالي والي الشام الجنوبي من قبل الفاطميين، كان قد استدعى إليه بعض جماعات الناوكية لمساعدته[1] في رد غارات القبائل العربية، وكان يظن بذلك أن يسلط بدواً على بدو، وبخاصة عندما فقد الأمل بوصول نجدة إليه من مقر الخلافة الفاطمية، بسبب الأوضاع الاقتصادية التي كانت تعاني منها هذه الخلافة والتي أطلق عليها اسم الشدة المستنصرية. وقد وصلت هذه الجماعات التركمانية إلى الجنوب سنة ٤٦٣ هـ/ ١٠٧٠ ــ ١٠٧١ م[2]، وعرفت هناك باسم الناوكية.

كما أن سبط ابن الجوزي أشار في حوادث سنة ٤٦٦ هـ/١٠٧٣ ــ ١٠٧٤ م، إلى وجود جماعة تركمانية من الناوكية كان مقدمها أتسز بن أوق الخوارزمي التركماني بقوله: «وفيها أي سنة ٤٦٦ هـ، وردت كتب أتسز التركماني مقدم الناوكية بفتح بيت المقدس في شوال سنة ٤٦٥ هـ، وإقامة الخطبة العباسية. وأن أتسز أحسن إليهم، وتبطيل الخطبة المصرية ولم يقاتلهم وقال حَرَمُ الله لا أقاتله وإنما أريد الدعوة الإمامية العباسية والسلطانية فأجابوه»[3] كما يؤكد سبط ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٦٧ هـ/ ١٠٧٤ ــ ١٠٧٥ م، على أن أتسز هو مقدم الناوكية والترك فيقول: «... واستفحل أمر شكلي أمير التركمان، وبعث إليه أتسز التركي صاحب القدس والرملة، وكان مقدماً على جميع الترك والناوكية بالشام ...»[4].

---

(١) انظر فيما سبق، ص ٨٢.

(٢) شاكر مصطفى ــ المرجع السابق، ص ٣٤٩.

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، القسم المطبوع، ص ١٦٩، ويقصد إبطال الخطبة للفاطميين.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، القسم المطبوع، ص ١٦٩.

يبدو أن سبط ابن الجوزي اختلط عليه الأمر بالنسبة للتركمان المتواجدين في جنوب بلاد الشام، فأطلق على الجميع اسم الناوكية، بدليل أنه اعتبر أتسز مقدماً للناوكية، بالرغم من أن أتسز وجماعته كانوا من التركمان الذين خلفهم ألب أرسلان في بلاد الشام بعد عودته إلى بلاده، ولا ينطبق عليهم اسم الناوكية التي تعني التركمان الخارجين عن إرادة السلطان، وأتسز وجماعته جاؤوا مع السلطان ولم يخرجوا عن طاعته، إلا إذا اعتبر سبط ابن الجوزي عدم عودتهم مع السلطان وبقائهم في بلاد الشام هو خروج عن طاعته وعدم الإلتزام معه، وفي هذه الحالة فقط فإنه ينطبق عليهم اسم الناوكية، ولذلك فإن ملكشاه فكر بإزاحته حين رأى استفحال أمره باحتلاله مدينة دمشق، وأقطع الشام لأخيه تتش كما سيتضح فيما بعد.

يبدو أن جماعات الناوكية كان لهم علاقة بالتركمان العراقية أو جزء منهم، أو هم أنفسهم باسم جديد وبالتالي فإنهم جميعاً لم يخرجوا عن كونهم جماعات من التركمان تلقبوا بأسماء متعددة، بعد أن تركوا العراق واتجهوا نحو الأراضي البيزنطية والجزيرة تحت ضغط سلاطين السلاجقة وقوتهم التي ظهرت في العراق، ثم توغلت في الأراضي البيزنطية، وجاء بعضهم إلى بلاد الشام فظلوا بها إلى أن طغت عليهم موجات الغز التي جاءت إلى المنطقة بعد سنة ٤٦٣ هـ/ ١٠٧٠ ـ ١٠٧١م.

بالرغم من الإدعاء بأن الناوكية لم تخضع للسلطان السلجوقي، وأن زعماءها كانوا يعملون لحسابهم الخاص، إلا أن أعمالهم في بلاد الشام مهدت لدخول السلاجقة، وساعدت على نجاحهم، كما يمكن القول إن استقرار ابن خان في حلب، قد سمح لبقية العشائر من قومه بالتسرب الجماعي والبطيء إلى الشام بعد أن مهد لها الطريق. حيث توضعت واستقرت في المناطق الداخلية الفاصلة بين الأراضي التابعة لإمارة المرداسيين في حلب والبلاد الخاضعة للفاطميين مباشرة[١].

ومثلما كان دور الناوكية في شمال بلاد الشام مؤثراً وفعّالاً في تثبيت حكم محمود بن نصر، فإن دورهم في جنوب بلاد الشام كان أخطر، حيث إنقلبوا على بدر الجمالي الذي استدعاهم ليجعل منهم قوة لحماية البلاد التابعة لحكمه، وهو يعلم أنهم قوى تركمانية موالية للعباسيين في بغداد، وظن أن خروجها عن إرادة السلطان فيما إذا كانت خارجة فعلاً؟ سبب كافٍ لتكون في خدمته وخدمة الفاطميين الدفاعية[٢].

---

(١) شاكر مصطفى ـ المرجع السابق، ص ٣٥١.

(٢) شاكر مصطفى ـ المرجع السابق، ص ٣٥٢.

بعد مقتل ابن خان خلفه في زعامة الناوكية قرلو، لكنه توفي سنة ٤٦٤ هـ/١٠٧١ ـ ١٠٧٢ م، وبعد وفاته تعرضت الناوكية لهزات وانقسامات داخلية، أضعفت من قدراتها القتالية، بسبب تعدد الزعامات فيها، وتحت ضغط جموع الغز التركمان الذين جاؤوا إلى حلب مع حملة ألب أرسلان، وقد إنزاح قسم من الناوكية باتجاه الجنوب حيث كان دورهم أعظم وأكبر، وبخاصة بعد قيام إمارة أتسز بن أوق الخوارزمي، ولن يتم التعرض لأعمالهم في جنوب بلاد الشام في هذا الكتاب، لأن مجاله إمارة حلب فقط.

٥ ـ المحاولات التركمانية السلجوقية للاستيلاء على حلب:

• حملة ألب أرسلان على حلب وصلحه مع محمود بن مرداس[١]

في الوقت الذي كان التركمان يتوغلون فيه داخل الأراضي البيزنطية، ويعملون فيها السلب والنهب، متخذين من أراضي إمارة حلب مركزاً لنشاطاتهم، قاد امبراطور بيزنطة رومانوس ديوجينوس حملتين عسكريتين على الأجزاء الشمالية لبلاد الشام، وذلك بين سنتي ٤٦١ ـ ٤٦٢ هـ/١٠٦٨ ـ ١٠٧٠ م، وكان يهدف من ذلك إيقاف تدفق التركمان، ومنعهم من غزو الأراضي البيزنطية، وإغلاق الطرق الرئيسية التي تسلكها الجماعات التركمانية، ولم ينجم عن هاتين الحملتين أي خطر حقيقي على حلب، إذ لم تؤديا إلا إلى الاستيلاء على بلدة منبج[٢]، التي ظلت تحت حكم البيزنطيين حتى تمكن نصر بن محمود المرداسي من استرجاعها سنة ٤٦٨ هـ/ ١٠٧٥ ـ ١٠٧٦ م[٣]. لكن الخطر الحقيقي على حلب جاء هذه المرة من الشرق، من خراسان حيث كان السلطان السلجوقي ينتظر الفرصة السانحة ليحقق هدفه بالاستيلاء على بلاد الشام، وجاءت الفرصة من القاهرة التي كانت تعيش فترة منازعات سياسية من أجل السيطرة على الحكم، والتسلط على الخليفة المستنصر. وقد بلغ الاضطراب السياسي فيها أقصى مداه. وأكبر دليل على ذلك أنه عين للوزارة وعزل عنها ما بين سنة ٤٥٠ ـ ٤٦٦ هـ/١٠٥٨ ـ ١٠٧٥ م، سبعة وثلاثون وزيراً، ولمنصب قاضي القضاة

---

(١) انظر المصور رقم /٦/.

(٢) ابن القلانسي ـ المصدر السابق، ص ١٦٦ . ابن الأثير ـ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ٦٠ . الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ١، ص ٢٧٠ .

(٣) ابن الأثير ـ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١٠٠ . ابن كثير: البداية والنهاية، بيروت ١٤٠٤ هـ/١٩٨٣ م، جـ ٢، ص ١١٢ .

خمسة وثلاثون قاضياً[1]. كما أن الوضع الاقتصادي بلغ أقصى تدهور له سنة ٤٦٣ هـ/ ١٠٧٠ ــ ١٠٧١ م، حيث حلت الشدة المستنصرية العظمى في ذلك الوقت.

كان ناصر الدولة الحمداني (أحد أحفاد الحمدانيين) من أبرز قواد مصر في هذا الوقت، وقد تغلب على تحالف الوزير ابن أبي كدينة مع الدكوز قائد[2] عسكر الأتراك سنة ٤٦٢ هـ/ ١٠٦٩ ــ ١٠٧٠ م، فعزم ناصر الدولة هذا القضاء على الدولة الفاطمية والمستنصر بالله، وإقامة الدعوة للخليفة العباسي في القاهرة. فأرسل برسوله الفقيه القاضي أبا جعفر محمد بن البخاري إلى السلطان ألب أرسلان يطلب إليه إرسال جيش كبير إلى مصر ليساعده في إقامة الخطبة العباسية وضم مصر[3] لسلطان السلاجقة، ويقول ابن الأثير إن السبب الذي حمل ناصر الدولة على ذلك «أنه كان يظهر التسنن من بين أهله، ويعيب المستنصر، وقد بالغ في أذى المستنصر وإهانته، وفرق عنه عامة أصحابه، وكان غرضه من ذلك أن يخطب للخليفة القائم»[4].

لا شك أن الأسباب التي ذكرها ابن الأثير ليست وحدها التي دفعت ناصر الدولة للاستنجاد بالسلطان السلجوقي ومن الواضح أن هناك أسباباً أخرى أهمها:

١ ــ أنه أراد تدعيم موقفه ومركزه في القاهرة.

٢ ــ أنه أصبح غير قادر على الوقوف بوجه منافسيه الذين تمكنوا فيما بعد من قتله والتخلص منه سنة ٤٦٥ هـ/ ١٠٧٣ ــ ١٠٧٤ م.

ويبدو أن الرغبة بالسلطة، والأطماع الشخصية، هي التي كانت تتحكم بسياسة الأمراء وليس العقائد المذهبية كما يتبادر لأول وهلة. وما يثبت ذلك أنه في الوقت الذي كان فيه الأمراء المرداسيون يدينون بالتشيع، نراهم يتعاملون مع السلاجقة السنيين، ويرفضون في غالب الأحيان الولاء للفاطميين ويقاتلون ضدهم، وفي مصر أيضاً نرى أكبر قواد الدولة الفاطمية المثقلة بالأعباء يعمل للإجهاز عليها نهائياً، ويدعو السلطان السلجوقي إليه ليقيم الدعوة العباسية، وقبله محمود المرداسي (المفترض أنه مع الفاطميين) فإننا نسمع أنه في سنة ٤٦٢ هـ/ ١٠٦٩ ــ ١٠٧٠ م، راسل السلطان ألب أرسلان وأبلغه أنه سيخطب في حلب

---

(١) شاكر مصطفى ــ المرجع السابق، ص ٣٥٤.

(٢) الدكوز: أحد مقدمي الأتراك في مصر كان مع ناصر الدولة ثم إنقلب عليه، وقف مع المستنصر في بادىء الأمر ضد ناصر الدولة الحمداني، وقد حاول الدكوز مع الوزير ابن أبي كدينه وبعض الأتراك التخلص من ناصر الدولة المتحكم بأمور المستنصر إلا أنه تغلب عليهما.

(٣) ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ١٥٩. الزركلي: الأعلام، الطبعة السادسة ــ تشرين الثاني ١٩٨٤ م، جـ ٢، ص ١٨٨.

(٤) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ٨٦، وهو الخليفة العباسي المقيم في بغداد.

للإمام القائم خليفة بغداد وبعده للسلطان ومن بعده لنفسه، ثم يجمع أهل حلب ويقول لهم: «قد ذهبت دولة المصريين، وهذه دولة جديدة ومملكة سديدة، ونحن تحت الخوف منهم وهم يستحلون دماءكم لأجل مذهبكم. والرأي أن نقيم الخطبة خوفاً من أن يجيئنا وقت لا ينفع فيه قول ولا بذل»[1]، ويدل نص ابن العديم على بعض الحقائق في تلك الفترة منها، أن ما كان يهم الأمراء المرداسيين هو بقاؤهم في السلطة، إذ لم يعد الفاطميون قادرين على مساعدة هؤلاء الأمراء، على حين أن السلاجقة في أوج قوتهم ويهددون أملاكهم، وأنه ليس بإمكانهم الوقوف أمام قوتهم.

لم يكن السلطان ألب أرسلان يحلم بأكثر من هذه الدعوة التي جاءته من داخل أراضي خصمه، من مصر لينفذ مخطط عمه طغرلبك في السيطرة على بلاد الشام ومصر. ويحقق الامبراطورية السلجوقية التي تضم العالم الإسلامي بأكمله. ولذلك وبمجرد أن تسلم السلطان دعوة ابن حمدان، فإنه جهز جيشاً عظيماً انطلق به من خراسان وتحرك غرباً، وكان من أهم الأسباب التي دفعته للتحرك عدا ما ذكر.

١ ــ العداء المستحكم للفاطميين والرغبة في القضاء على دولتهم وجعلها تحت سيطرته المباشرة.

٢ ــ رغبته في توسيع سيطرته وفرض سلطانه على بلاد الشام. إلى جانب أسباب أخرى لا مجال لذكرها.

كانت الرها أولى المحطات القتالية التي واجهها ألب أرسلان، وقد حاصرها سنة ٤٦٣ هـ/ ١٠٧٠ ــ ١٠٧١ م[2]، وأقام عليها نيفاً وثلاثين يوماً. وعلى الرغم من استخدام الشدة والقسوة لم تفتح أبوابها وعند ذلك سمح لرجاله بقطع الأشجار. وطمر الخنادق. كما قصفت مجانيقهم الأسوار مع من كان عليها، وعندما أخفق الحصار بعث إلى أهلها برسالة يقول فيها: «ما يحسن بي أن أرحل عنكم بعد قتالكم، وقد أطاعتني جميع البلاد، إلا بعد أن يستقر لي عليكم مال يسير، وأنا أرحل عنكم لئلا يصير عليَّ فضيحة»[3]، ولا نعلم هل تم الاتفاق بين السلطان، وأهل الرها على شيء أم لا؟ المهم أن السلطان رحل عن الرها، بقواته

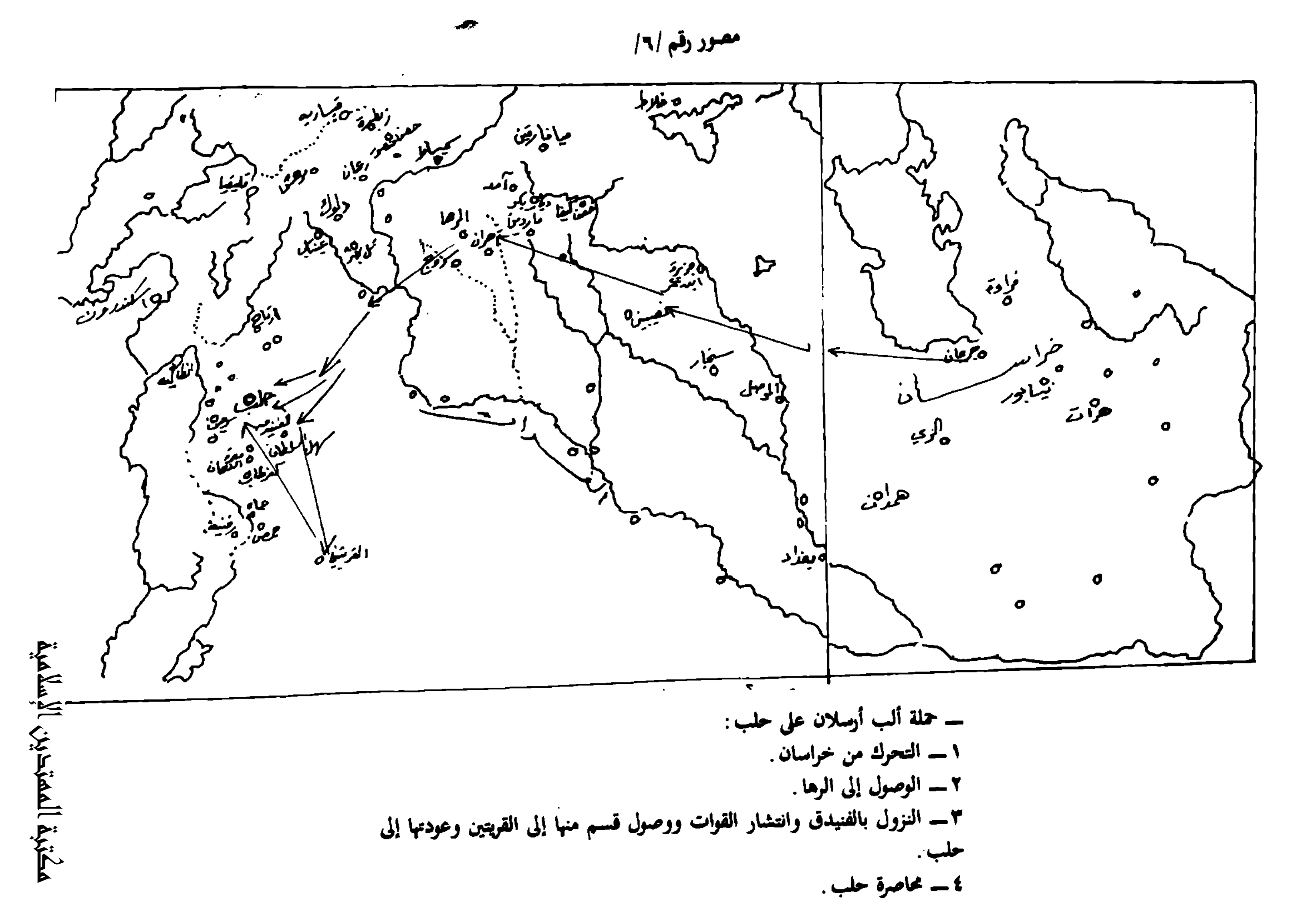
---

(١) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ٦٣. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٣٨٠ ــ ٣٨١. الذهبي: العبر في خبر من غبر، جـ ٢، ص ٢٥٠، بيشوف ــ المصدر السابق، ص ٢٣.

(٢) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ٦٤. سبط ابن الجوزي ــ المصدر السابق، القسم المطبوع، ص ١٤٥. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣٨٣. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ١، ص ٢٧١. إبراهيم بن أبي الدم: مخطوطة البودليان ــ مارش ٦٠، ص ١٣٥. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، القاهرة ١٩٢٩ ــ ١٩٣٦ م، جـ ٥، ص ٨٦ ــ ٨٧.

(٣) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ٦٤. سهيل زكار ــ المرجع السابق، ص ١٤١.

مصور رقم /٦/



— حملة ألب أرسلان على حلب :

١ — التحرك من خراسان .

٢ — الوصول إلى الرها .

٣ — النزول بالفنيدق وانتشار القوات ووصول قسم منها إلى القريتين وعودتها إلى حلب .

٤ — محاصرة حلب .

إلى الشام، وعند وصوله إلى الفرات قدم له جميع أمراء الجزيرة وأصحاب السلطة فيها الولاء أمثال شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي أمير الموصل، ونصر بن مروان أمير ميافارقين، وابن وثاب أمير حران، وأمراء الترك والديلم[1].

قبل عبور السلطان نهر الفرات، أرسل السلطان القاضي أبا جعفر محمد بن البخاري ــ وكان عند السلطان مرسلاً إليه من قبل ناصر الدولة ــ[2] موفداً إلى محمود بن نصر بن صالح بن مرداس أمير حلب يدعوه للقدوم إلى السلطان، لتقديم الطاعة والولاء له ودوس بساطه[3]، وخدمته أسوة بمن وفد عليه من الأمراء وأن يفتح أبواب حلب لاستقباله، لكن محمود رفض العرض، ولا ندري السبب بدقة. ولكن يمكن القول إنه كان بتحريض من ابن خان أو تشجيعه، إلى جانب عوامل أخرىٰ كثيرة، ولذلك آثر الاعتصام بحلب والدفاع عنها، وكان محمود يظن أن ما قام به في سنة ٤٦٢ هـ/ ١٠٦٩ ــ ١٠٧٠م، من إقامة الخطبة للخليفة العباسي والسلطان، ولبس الخلع التي أرسلت له مع طراد الزينبي[4] سيجنبه مخاطر الهجوم التركماني، ولكنه فوجيء في السنة التالية بوقوف السلطان نفسه قريباً من حلب. ولما لم يكن محمود بن نصر يريد الخضوع له، فقد كان عليه أن يقوي حلب بالرجال الذين وفدوا عليه من سائر أنحاء بلاد الشام للدفاع عنها، وبالمؤن والسلاح استعداداً لمقاومة السلطان وجيوشه.

تابع السلطان ألب أرسلان تقدمه باتجاه حلب فعبر نهر الفرات في منتصف شهر ربيع الآخر سنة ٤٦٣هـ/ كانون الثاني ١٠٧١م، من منطقة نهر الجوز ونزل على المروج فأعجبته فقال له الفقيه القاضي أبو جعفر البخاري، والذي وصل إليه من مصر كما تقدم: «يا مولانا أحمد الله تعالىٰ على هذه النعمة، وهي أن هذا النهر لم يقطعه تركي إلا مملوك وأنت قطعته ملكاً»[5]. ثم زحف بقواته نحو حلب فوصلها في أواخر جمادىٰ الأولىٰ سنة ٤٦٣ هـ/ شباط ١٠٧١م، وجعل مركز قيادته في الفنيدق، وخربت العساكر مناطق حلب ونهبتها ووصلت

---

(١) ابن العديم ــ المصدر السابق، ص ١٩.

(٢) انظر فيما سبق، ص ـ ٩١ ـ

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٣٨٣. ابن أبي الدم ــ المصدر السابق، ص ١٣٥.

(٤) ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ١٦٦. العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥م، ص ٣٢٦. ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ٦٣، ويجعل خطبة محمود للخليفة العباسي سنة ٤٦٣ هـ، وليس ٤٦٢ هـ، ابن العديم ــ المصدر السابق، ص ٣٨٠ ــ ٣٨١. الذهبي: العبر في خبر من غبر، جـ ٣، ص ٢٥٠ ــ ٢٥١، ويجعل خطبة محمود للخليفة العباسي والسلطان سنة ٤٦٣ هـ، ابن كثير ــ المصدر السابق، جـ ١٢، ص ١٠١.

(٥) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣٨٤. ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٤٦.

إلى القريتين من أعمال حمص، ونهبت بني كلاب وعادت بغنائم عظيمة[1]. ويصف ابن العديم جيوش السلطان بقوله: «ونزلت على حلب تملأ الفضاء، وتضيق بها الدهناء، وكانت الخيام والعساكر ممتدة من حلب إلى مروج الشام»[2].

تجددت المفاوضات في هذه الآونة بين الطرفين، وقد طلب محمود المرداسي من نقيب النقباء بحلب، ولم يكن قد غادرها بعد إقامة الدعوة العباسية فيها، بأن يخرج إلى السلطان ويصلح أمره معه، فخرج نقيب النقباء مستفسراً ومتوسلاً، وتلطف الأمر وأحسن السفارة، وخاطب السلطان وقال له: إن محموداً بن نصر قريب العهد بالخطبة للخليفة وقد لبس تشريفه، فقال له السلطان: «وأي شيء تساوي خطبته للخليفة ولبس تشريفه مع ما سبق من شق العصا، وخروجه عن الطاعة»[3]، ولم يقبل الشفاعة، ورفض الولاء الاسمي والخضوع من بعيد، دون المثول بشخصه ووطء بساطه، وكان كلما اقترب السلطان من حلب كلما ازداد إصرار محمود على المقاومة.

بعدما رأى السلطان من إصرار محمود وتمسكه بموقفه، قرر أخذ المدينة بقوة السلاح، فأقام عليها وحاصرها[4]، ودام الحصار شهراً ويومين دون حدوث قتال سوى في يوم واحد، ويبدو أنه كان يظن أن المدينة ستستسلم لمجرد فرض الحصار ودون قتال، ويوضح ابن العديم سلوك جيوش السلطان أثناء الحصار بقوله: «ولم يتعرض أحد من العسكر بمال أحد ولا سبيت له حرمة ولا قاتل حصناً، ولم يأخذ عسكره عليقة تبن من فلاح إلا بثمنه»[5].

قامت القوات السلجوقية بعدة محاولات لاقتحام المدينة، لكنها أخفقت وتكبدت خسائر كبيرة، وكانت معنويات أهل حلب عالية، وكانوا واثقين من موقفهم وقوة دفاعهم، وقد عبّروا عن ذلك بأسلحتهم، ويقظتهم، وبطرائق خاصة فيها نوع من الغرابة والسخرية، فقد عمد السلاجقة في إحدى محاولاتهم إلى خرق أحد أبراج المدينة ويدعى برج الغنم، ودخل منه بعضهم فظفر بهم أهل حلب، فأسروا بعضاً منهم ووقع الردم على الباقين فقتلوا، وفي اليوم التالي ربط الحلبيون منارة البرج بقطعة قماش (شقة أطلس)، وكان السلطان نازلاً بميدان باب

---

(1) سبط ابن الجوزي ــ المصدر السابق، ص ١٤٦ . ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٥، ص ٨٦ .

(2) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ مجلدة الثالثة ــ حوادث سنة ٤٦٣ هـ، ابن أبي الدم ــ المصدر السابق، ص ١٣٥ . ابن تغري بردي ــ المصدر السابق، جـ ٥، ص ٨٦ .

(3) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠ ، ص ٦٤ . ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢ ، ص ٣٨٤ .

(4) ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ١٦٧ . الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ١ ، ص ٢٧١ . القرماني: أخبار الدول وآثار الأول، ص ٢٧١ . يعشوف ــ المصدر السابق، ص ٢٣ .

(5) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢ ، ص ٣٨٥ .

قنسرين، فسأل عن معنىٰ ذلك فقيل له: هؤلاء الحلبيون يقولون على سبيل المزاح أن رأس البرج أصابه الصداع من حجارة المنجنيق ولذلك عصبوه، فانزعج السلطان وامتعض، ووزع في تلك الليلة ثمانين ألف فردة نشاب على أصحابه، وفي صباح اليوم التالي أمر بالزحف ورمي النشاب، وجّد العساكر في قتال البلد، وحمل السلطان بنفسه في ذلك اليوم فوقعت يد فرسه في خسف كان هناك، وأصاب في الحال رأس فرسه حجر المنجنيق فركب غيره، وعاد فصرف الناس عن الحرب بعد أن أشرف البلد على الأخذ، وكان عسكره محيطاً بالبلد من جميع اتجاهاته، وقال: «أخش أن أفتح هذا الثغر بالسيف فيصير إلى الروم»[1]، فهل حقاً خاف أن يصير البلد إلى الروم، أم أن هناك أسباباً أخرىٰ؟

إنه دون شك أخفق مع قواته باقتحام أسوار حلب المنيعة، ولو تمكن من اختراقها بالقوة لما عاد عنها، ولعل إخفاق السلطان في حصاره لحلب عائد لعدة أسباب منها:

١ ــ المقاومة الصلبة والدفاع المستميت لأهل حلب والمدافعين عنها.

٢ ــ مناعة أسوار حلب وقوة أبراجها، وحصانتها.

٣ ــ إيمان محمود بعدالة قضيته، وعدم التفريط بها.

٤ ــ نجاح خطة محمود بإشراك جميع القبائل العربية في الدفاع عن حلب واستقدام الرجال والمؤن والسلاح والذخيرة وتخزينها، مما مكّن رجاله وأهل البلد من تحمل الحصار.

٥ ــ تأخر وصول جيوش السلطان إلى حلب إذ استغرق وصولها مدة شهرين مما ساعد محمود على شحن المدينة وتقويتها وإعدادها مادياً ومعنوياً لثباتها في وجه المحاصرين.

٦ ــ الطبيعة البدوية للجيش السلجوقي الذي لم يعتد حرب الأسوار أو تسلقها، والإقامة لمدة طويلة بينما اشتهر باستخدام القوس والنشاب وسرعة التحرك للوصول إلى الغنائم. ولقد أخفق في الرها قبل إخفاقه في حلب، لأسباب مشابهة.

بعد أن أدرك السلطان صعوبة أخذ حلب بالقوة، لجأ إلى أسلوب التفرقة «فراسل الأمراء من بني كلاب وأحضرهم من البرية فوصلوا إليه، وعوّل على تقليد بعضهم، وتركه في مقاتلة محمود»[2].

وهكذا لجأ إلى الإيقاع بين الأهل والأخوة ليصل بذلك إلى ما أخفق في الوصول إليه عن طريق الحرب. وبدلاً من أن يكون جواب الأمراء المرداسيين أعنف من موقف محمود مع السلطان، نراهم يمتثلون لأمره، وينفذون رغبته، فيضطر محمود بعد أن سمع بما قام به السلطان

(١) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ٦٤، وقد أورد هذا الخبر بإيجاز، ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٣٨٥ ــ ٣٨٦.
(٢) ابن العديم: زبدة حلب، جـ ٢، ص ٣٨٤.

وتجاوب الأمراء معه، ولاحظ مدى الخطر الذي هو فيه إلى التحرك بسرعة والسعي للوصول إلى مصالحة مع السلطان، ليفوت الفرصة على الأمراء الكلابيين أولاً، ويصون بها ملكه وإمارته ثانياً، مع حفظ كرامة السلطان وسمعته. وقد أخطأ محمود بن نصر المرداسي، وأمراء بني كلاب للمرة الثالثة[1]، ولم يستغلوا الفرصة التي واتتهم، وتركوها بأيدي السلاجقة، حيث كان بإمكان الأمراء أن يرفضوا التعاون مع السلطان كما رفض محمود، ولو فعلوا لغادر السلطان حلب دون تحقيق أي هدف من حصاره. ولكن يبدو أن السلطان هذه المرة ضرب على الوتر الحساس كما يقولون عندما لجأ إلى أسلوب التفرقة؟

وبسبب موقف الأمراء الكلابيين المتخاذل، طلب محمود من أيتكين السليماني وهو من حاشية السلطان، وقد تردد إلى حلب أكثر من مرة، أن يخبر السلطان عن عزمه على القدوم إليه، وفي ليلة الأول من شعبان سنة ٤٦٣ هـ/الرابع من أيار ١٠٧١ م، خرج محمود من حلب متخفياً بزي التركمان، بصحبة والدته وتوجها إلى معسكر التركمان، فرحب به السلطان وتم الاتفاق بينهما[2] على ما يلي:

١ ــ أن يخرج محمود في اليوم التالي علناً ليزور معسكر السلطان، ويدوس بساطه ويقدم فروض الطاعة والولاء.

٢ ــ أن يوافق السلطان على بقاء محمود أميراً لحلب، على أن يكون تابعاً له ويدعو للخليفة العباسي ولألب أرسلان.

وبعد أن تم الاتفاق كان على محمود أن ينفذه، ولذلك خرج في اليوم التالي علناً إلى معسكر السلطان، وبصحبته والدته علوية ومعه مفاتيح البلد، ولدى وصولهما إلى المعسكر رحب بهما السلطان، وأكرمهما وأحسن إليهما[3]، وأعلن عن بقاء محمود أميراً للبلد، وكتب له توقيعاً بإمارة حلب ــ وبذلك أصبح تابعاً فعلياً ورسمياً للسلطان، ومتولياً من قبله وبتوقيعه،

---

(١) المرة الأولى: عند استدعاء عطية لابن خان، والثانية: استدعاؤه من قبل محمود وإطاعته المعرة. انظر فيما سبق ص ٦٤.

(٢) العظيمي ــ المصدر السابق، ص ٣٢٦. ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ٦٤. سبط ابن الجوزي ــ المصدر السابق، ص ١٤٦. الأصفهاني: البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان ــ مخطوط أحمد الثالث، رقم ٢٩٥٩، ص ١٠٩. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٣٨٦. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، ص ٢٧١. الذهبي: العبر، جـ ٣، ص ٢٥٠. ابن أبي الدم ــ المصدر السابق، ص ١٣٥. القرماني ــ المصدر السابق، ص ٢٧١. ابن العماد: شذرات الذهب ــ طبعة مصورة، بيروت، جـ ٣، ص ٣١٨. يعقوف ــ المصدر السابق، ص ٢٣.

(٣) ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ١٦٧. العظيمي ــ المصدر السابق، ص ٣٢٦. ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ٦٤. ويذكر أن والدة محمود اسمها: منيعة بنت وثاب النميري، العماد الأصفهاني: دولة آل سلجوق، ص ٣٧، ويذكر كذلك أن والدة محمود اسمها: منيعة بنت وثاب النميري، ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣٨٦. ابن خلكان ــ المصدر السابق، جـ ٥، ص ٦٩. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر ــ حوادث سنة ٤٦٣ هـ.

وليس أميراً حاكماً بقوته يستطيع في كل لحظة نقض الولاء.

بعد أن أخضع السلطان حلب لطاعة العباسيين، قرر العودة إلى خراسان لأمور جدت هناك دون أن يتخطىٰ أسوار حلب. وكان هدف حملته المعلن والذي لم يتحقق هو مصر، وقد أوكل إلى الأمير محمود وقواته ومعه أيتكين السليماني وأتباعه إتمام العمل والبدء بالاستيلاء على دمشق، وإقامة الخطبة للخليفة العباسي القائم بأمر الله في بغداد.

توجه السلطان إلى أرمينية، ولدىٰ وصوله إلى أذربيجان سمع أن امبراطور بيزنطة وصل إلى أعمال خلاط، ومعه عساكر يقدر عددها بمائتي ألف، ولم تكن عساكر السلطان تزيد عن خمسة عشر ألفاً، فقرر أن يزحف لقتال البيزنطيين والتقىٰ بهم في موقع ملاذكرد، فانتصر السلطان على البيزنطيين نصراً حاسماً وأسر ملكهم رومانوس ديوجينوس[(١)]، ويقول ابن القلانسي: «وحصل الملك في أيدي المسلمين أسيراً، وامتلأت الأيدي من سوادهم، وأموالهم وآلاتهم وكراعاتهم. ولم تزل المراسلات قائمة بين السلطان ألب أرسلان وبين ملك الروم المأسور إلى أن تقرر إطلاقه، والمن عليه بنفسه بعد أخذ العهود عليه والمواثيق بترك التعرض لشيء من أعمال الإسلام»[(٢)]. وقد كان لمعركة ملاذكرد تأثير كبير على مجرىٰ الأحداث القادمة بين المسلمين والبيزنطيين، ولولا انتصار السلطان فيها لعاد إلى بلاده خالي الوفاض دون تحقيق أي هدف يذكر من زحفه على حلب.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل اشترط السلطان ألب أرسلان أية شروط على محمود قبل رحيله؟ كدفع قطيعة سنوية، أو ترك حامية غزية داخل حلب، المصادر لا تذكر أو تشير إلى شيء من ذلك باستثناء بقاء أيتكين السليماني وأتباعه في المنطقة.

بعد عودة السلطان شرقاً ظهر على مسرح الأحداث في بلاد الشام، مجموعة من التركمان كانت بزعامة أتسز وأخوته، ولا ندري في هذه المرحلة بشكل واضح نوع العلاقة التي كانت تربط أتسز بالسلطان. فبعض المصادر تذكر أنه كان خوارزمياً، وبعضها الآخر تذكر أنه كان مقدماً للناوكية. وسيمر فيما بعد إقدام أتسز بعد احتلاله لدمشق على مراسلة السلطنة،

---

(١) ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ١٦٧. العظيمي ــ المصدر السابق، ص ٣٢٦. ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ٦٦. أبو الفداء ــ المصدر السابق، حوادث سنة ٤٦٣ هـ، الذهبي: العبر، جـ ٢، ص ٢٥١. ابن أبي الدم ــ المصدر السابق، ص ١٣٥. القرماني ــ المصدر السابق، ص ٢٧١. ابن الفرج جمال الدين بن العبري: تاريخ الزمان، بيروت ــ دار المشرق ــ ١٩٨٦ م، ص ١١٠
Encyc-de l'isl. A—D. P432
أرمنيوس فامبري: تاريخ بخارىٰ، ص ١٣٦. نورمان بينز: الامبراطورية البيزنطية، تعريب: حسين مؤنس، محمود يوسف زايد، مدريد ــ نوفمبر (تشرين ثاني) ١٩٥٧ م، ص ٣٩١. أومان: الامبراطورية البيزنطية، ص ١٩٨، ويقول إن المعركة كانت نقطة التحول في مجرىٰ التاريخ البيزنطي كله، رفيق التميمي: الحروب الصليبية، القدس ــ الطبعة الأولىٰ، ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م، ص ١٣.

(٢) ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ١٦٧.

واعتبار نفسه تابعاً لها. ومع ذلك ستكون نهاية أتسز على يد تتش بن ألب أرسلان. ولم تحدد المصادر أو تجزم بهذا الموضوع، كما أن بعض المصادر كابن الأثير يخلط بين أخبار أتسز وأخبار الأفشين[1].

- **استعانة محمود بن مرداس بالتركمان الناوكية**

تنفيذاً لأوامر السلطان ألب أرسلان، توجه محمود بن نصر وأيتكين السليماني بقواتهما إلى دمشق لتخليصها من قبضة الفاطميين، وذلك في شعبان سنة ٤٦٤ هـ/ نيسان ١٠٧٢ م. وأثناء توقفهما في بعلبك وصلت إلى محمود أخبار تفيد أن عمه عطية تحرك مع البيزنطيين في أنطاكية، وهجموا على معرة مصرين وأحرقوا بعضاً منها، وقتلوا من تمكنوا منه فعاد مسرعاً إلى حلب. أما أيتكين السليماني فقد تحرك هو الآخر باتجاه أرمينية لنجدة السلطان في معركته مع البيزنطيين في ملاذكرد[2]. وأثناء عودة محمود إلى حلب اشتبك مع البيزنطيين أيضاً في أكثر من معركة، فانتصروا عليه وهزموه[3]. وعندما وجد نفسه عاجزاً عن الوقوف في وجه البيزنطيين ودفعهم وردهم عن بلاده، استغاث بزعماء الناوكية، وعلى رأسهم (قرلو وأتسز وأخوته) الذين كانوا مع أتباعهم في جنوب بلاد الشام، يعملون للاستيلاء على فلسطين[4] وقد لبى هؤلاء الدعوة، ووصلوا إلى محمود بأتباعهم وقد تمكن بفضل مساعدتهم من:

١ ـ صد البيزنطيين وإيقاف أعمالهم العدوانية وتحرشاتهم ضد أراضي إمارته.

٢ ـ استطاع استرداد الرحبة من مسلم بن قريش وإعادتها إلى أملاكه[5]. ويبدو أن التركمان الناوكية، لبثوا فترة طويلة من الزمن عند محمود، لأن عملية استرداد الرحبة تمت سنة ٤٦٥ هـ/١٠٧٣ ـ ١٠٧٤ م، بعد ذلك طلب منهم مغادرة حلب فتركوها متوجهين إلى فلسطين، بعد أن أعطاهم مبلغاً من المال وعدداً من الخيول، وذلك كأجر لهم على مساعدتهم له بعد أن تركوا عدداً منهم في خدمته. وكذلك تمكن بمساعدتهم أن يصد

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٦٨، ويقول: وفي هذه السنة قصد أتسز بن أوق الخوارزمي، وهو من أمراء السلطان ملكشاه، اليافعي اليمني المكي: مرآة الجنان، جـ ٣، ص ١٠٠ ـ ١٠٨، ويسميه أقسيس الخوارزمي.

(٢) ابن العديم ـ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥.

(٣) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ١٦٨.

(٤) سبط ابن الجوزي ـ المصدر السابق، ص ١٣٥.

(٥) ابن العديم ـ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣٩٥. سبط ابن الجوزي ـ المصدر السابق، ص ١٣٥. سهيل زكار ـ المرجع السابق، ص ١٥٤.

القوات البيزنطية المتمركزة في أنطاكية، عندما أغارت على أراضي حلب سنة ٤٦٦ هـ/ ١٠٧٣ـ ١٠٧٤م، كما تمكن من فتح قلعة السن التي كانت تتبع للبيزنطيين وضمها إلى أملاكه[١]، وذلك يوم الخميس تاسع ربيع الآخر من هذه السنة.

• محاولة أتسز الاستيلاء على حلب وإخفاقه

عندما ترك السلطان ألب أرسلان حلب، خلف وراءه طائفة من التركمان، كان على رأسهم المقدم أتسز[٢] وأخوته، جاولي والمأمون وقرلو وشكلي. تحركت هذه الجماعة إلى دمشق، ونزلت عليها وحاصرتها وذلك سنة ٤٦٣ هـ/ ١٠٧٠ـ ١٠٧١م، وعندما أخفق أتسز وجماعته بدخولها، جمع التركمان المتواجدين في جنوب بلاد الشام[٣]. وتحرك باتجاه فلسطين[٤]، فاستولى على مدينة الرملة، ثم القدس وما جاورها من البلاد عدا عسقلان، ثم استولى على طبرية، وكانت أهم أعماله في هذهِ المناطق إبطال الدعوة للخلافة الفاطمية، وإحلاله الدعوة للخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية[٥]، وأرسل إلى السلطان ألب أرسلان يعلمه بما حققه في جنوب بلاد الشام.

بدأ أتسز من مدينة القدس يغير على دمشق ويضايقها، وفي هذه الأثناء وصلته نجدة من السلطان ملكشاه الذي تولى السلطنة منذ سنة ٤٦٥ هـ/١٠٧٣ـ ١٠٧٤م، بعد وفاة والده السلطان ألب أرسلان على يد يوسف الخوارزمي وذلك سنة ٤٦٥ هـ/ ١٠٧٣ـ ١٠٧٤م[٦]، وكان عدد أفراد النجدة ثلاثة آلاف مقاتل، ولم تكن أوضاع دمشق مستقرة، فقد ساءت أحوالها الاقتصادية وكثرت فيها الفتن الداخلية في نفس الوقت الذي كانت تتعرض فيه للحصار من الخارج. وقد أدى كل

(١) العظيمي ـ المصدر السابق، ص ٣٢٦. ابن القلانسي ـ المصدر السابق، ص ١٧٠. سهيل زكار ـ المرجع السابق، ص ١٥٤.

(٢) انظر فيما سبق صفحة ـ

(٣) يبدو أن هذا هو السبب الذي حدا ببعض المؤرخين لوصفه بمقدم الناوكية.

(٤) ابن القلانسي ـ المصدر السابق، ص ١٦٦. ابن الأثير ـ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ٦٨. محمد مختار باشا: التوفيقات الإلهامية، جـ ١، ص ٤٩٥.

(٥) ابن الأثير ـ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ٨٨. سبط ابن الجوزي ـ المصدر السابق، ص ١٦٩.

(٦) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥م، ص ٣٤٨. الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية، ص ٥٤. ابن الأثير ـ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ٧٣. ابن خلكان: وفيات الأعيان، المجلد الخامس، ص ٧٤٠. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ١، ص ٢٧٤. الذهبي: العبر، جـ ٣، ص ٢٥٦. ابن العماد: شذرات الذهب، جـ ٣، ص ٣١٨.

ذلك إلى خضوعها لأتسز دون قتال وذلك سنة ٤٦٨ هـ/ ١٠٧٥ ــ ١٠٧٦ م[١]، فأقام فيها الدعوة العباسية[٢]، وبذلك أصبحت غالبية بلاد الشام باستثناء الشريط الساحلي تقريباً، تدين بالولاء لطاعة العباسيين والسلاجقة.

بعد دخول أتسز دمشق لقب نفسه بالملك المعظم، وأصبح سيد بلاد الشام تقريباً، وأخذ يمارس سلطانه باسم السلاجقة، حيث بدأت تتشكل ملامح دولة السلاجقة الشامية، ولم يكتفِ أتسز بما حققه، بل أخذ يفكر بمد سلطانه على الشمال، وساعده على ذلك وفاة محمود بن نصر المرداسي صاحب حلب. وقد اختلف في تاريخ وفاته فقد جعلها سبط ابن الجوزي في ١٣ شعبان سنة ٤٦٧ هـ/٣ نيسان ١٠٧٥ م[٣]، على حين أن ابن العديم يجعل تاريخ وفاته هو جمادىٰ الأولىٰ سنة ٤٦٧ هـ/ كانون الثاني ١٠٧٥ م[٤]، ويؤيده في ذلك ابن القلانسي[٥]. وقد أوصىٰ محمود بالإمارة لابنه شبيب على الرغم من كونه أصغر أولاده، لكن وصيته لم تنفذ، لأن شخصيات الإمارة مع قادة العساكر لم يرغبوا به وفضلوا عليه أخاه نصراً الابن الأكبر لمحمود وبايعوه أميراً لحلب[٦]. وقد بدأ نصر حكمه بقتل وزير أبيه علي بن أبي الثريا، بعد أن اتهمه بتحريض والده محمود على عدم اختياره ولياً لعهده، والبيعة لابنه الأصغر شبيباً[٧].

بعد مقتل الوزير علي بن أبي الثريا، عيّن نصر مكانه محمد بن الحسن التميمي المشهور بابن النحاس، كما اعتمد في تدبير معظم شؤون الإمارة على عمه بالرضاعة

---

(١) ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ١٧٤. ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١٠٠. ابن أبي الدم ــ المصدر السابق، ص ١٣٦. ابن كثير ــ المصدر السابق، جـ ١٢، ص ١١٢. القرماني ــ المصدر السابق، ص ٢٧٧.

(٢) ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ١٧٥.

(٣) العظيمي ــ المصدر السابق، ص ٤٢٦. ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ١٧٣. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ــ مخطوطة أحمد الثالث ــ حوادث سنة ٤٦٧ هـ، ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١٠٥، ويجعل وفاته سنة ٤٦٩ هـ، ويبدو أنه أخطأ بينه وبين ابنه نصر بن محمود، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ــ القسم المطبوع، ص ١٧٥. الذهبي: العبر، جـ ٣، ص ٢٢٦. ابن أبي الدم ــ المصدر السابق، يجعل مقتل محمود سنة ٤٦٨ هـ، ويبدو أنه يتحدث أيضاً عن نصر بن محمود، ومقتله بسهم أحد التركمان.

(٤) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣٩٥.

(٥) ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ١٧٣.

(٦) ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ١٧٣. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ــ القسم المطبوع، ص ١٧٥. ابن تغري بردي ــ المصدر السابق، جـ ٥، ص ٨٦ ــ ٨٧. ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ٤، ص ٤٤٠. «وكان الأمير نصراً سخياً واسع العطاء، ملك حلب بعد وفاة أبيه، في سنة سبع وستين وأربعمائة، ولم تطل مدة حكمه، حتىٰ ثار عليه جماعة من جنده فقتلوه، في ثاني شوال ٤٦٨ هـ.

(٧) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ المجلدة الثامنة، ص ١٦ ــ ١٧.

علي بن مقلد المنقذي الملقب بسديد الملك[1]، وكان ابن النحاس وسديد الملك على تفاهم واتفاق بينهما، وزاد من ذلك حبهما للأدب، كما قام نصر بإرسال جيش بقيادة أحمد شاه زعيم التركمان الذين كانوا يعيشون في حلب آنذاك، والذي حظي نصر بتأييدهم إلى بلدة منبج لاستردادها من أيدي البيزنطيين، وقد تمكن أحمد شاه من النجاح في مهمته وإعادتها لحكم الدولة المرداسية في سنة ٤٦٨ هـ/١٠٧٥ ـ ١٠٧٦م، بعد حصار طويل.

في هذه الأثناء وصل أتسز وجماعته إلى القرىٰ الجنوبية لحلب[2]، وذلك في محاولة من أتسز لضم حلب إلى أملاكه، وقد هرب كثير من أهل الشام الشمالي من سطوته وأعماله الانتقامية الإرهابية، فنهب كل ما قدر عليه واستولىٰ علي رفنيه وعين أخوه جاولي أميراً عليها، وترددت سراياه في جميع الشام الشمالي وتمادىٰ فساده[3]، وذلك لإرهاب الأمير نصر المرداسي وتخويفه وجعله تابعاً له، ولتحقيق ذلك راسل أتسز، نصر ابن محمود وقد ترددت الرسل بينهما، وكانت طلبات أتسز هي:

١ ـ أن يسلم إليه بلاد حلب.
٢ ـ أن يدفع له نصر قسماً من أموال حلب التي خلفها والده محمود.
٣ ـ أن يتم بين الطرفين مصاهرة، وذلك بزواج أتسز من أخت محمود.

وقد وافق نصر بن محمود على أن يدفع لأتسز خمسة عشَر ألف دينار، أما التسليم والمصاهرة فلم يستجب لها نصر بن محمود، وقد عاد أتسز إلى دمشق بعد أن رسم لأخيه جاولي الذي بقي في رفنية الخطة التي يتبعها لإجبار حكام حلب على التسليم، وتتلخص في إساءة المجاورة وشن الغارات والأذىٰ في المناطق الجنوبية لحلب. والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو لماذا تراجع أتسز عن حلب دون تحقيق طلباته التي طلبها من نصر؟ يبدو أن هناك عدة احتمالات لهذا التراجع وهي:

---

(١) أبو الحسن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني، الملقب سديد الملك، صاحب قلعة شيزر، كان شجاعاً مقداماً قوي النفس كريماً، وهو أول من ملك قلعة شيزر من بني منقذ في رجب ٤٧٤ هـ، وكانت سنة وفاته ٤٧٥ هـ، ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ٣، ص ٤٠٩ ـ ٤١٠.

(٢) ابن الأثير ـ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١٠٠. الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٤٩. ابن العديم ـ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤١٠. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ١، ص ٤٦٨. ابن أبي الدم ـ المصدر السابق، ص ١٣٦. ابن كثير ـ المصدر السابق، جـ ١٢، ص ١١٢. ابن الفرج جمال الدين بن العبري: تاريخ الزمان، بيروت ـ دار المشرق ـ ١٩٨٦ م، ص ١١٥.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ ١، ص ٤١٠ ـ ٤١١.

١ ــ أن أتسز عرف قوة حلب[1]، بسكانها وحكامها إضافة لما فيها من بقايا الناوكية، الذين احتفظ نصر بخدماتهم لمساعدته في الدفاع عن حلب، ضد أطماع آل قتلمش في الشمال، وأتسز وأخوته وجماعته في الجنوب.

٢ ــ أن أتسز سمع عن عزم السلطان ملكشاه على إقطاع شمالي بلاد الشام لأخيه تتش، ولذلك فهو لا يرغب بالوقوف ضد رغبات السلطان، وهو الذي يحكم باسمه (ولو شكلياً).

٣ ــ نتيجة للاحتمالين السابقين فقد يكون أتسز رغب في توجيه قوته باتجاه مصر التي يحكمها الفاطميون وتمر بحالة ضعف عام في مختلف المجالات، وبذلك يحقق الحلم الكبير الذي عمل له كل من طغرلبك وألب أرسلان ولكنهما لم يتمكنا من تحقيقه.

أما جاولي الذي بقي في رفنية، فقد حاول تنفيذ السياسة التي رسمها له أتسز، فعمل على التحرش بحلب والإغارة عليها، وكان جواب نصر على أعمال جاولي وتحرشاته ومضايقاته، أن جهز جيشاً قوياً أسند قيادته إلى أحمد شاه لقتاله ورد عادياته عن حلب. وقد إلتقىٰ الطرفان في أرض حماه، وكان النصر لجاولي في المراحل الأولىٰ للقتال، ولكن أحمد شاه قام بمناورة عسكرية أظهر فيها التراجع أمام جاولي؟ وقام في أثناء ذلك بجمع عسكره وتنظيمه، ومن ثم خاطب الذين أرادوا ترك القتال والعودة إلى حلب مشجعاً لهم وموضحاً بأنه «ما بقي لي عود إلى حلب بعد هذه الكسرة فإن راجعتم الحرب، وأظفرنا الله بهم كان الأمر لنا بحكم الظفر، وإن أبيتـم ذلك فأنا أسير إلى الفرات وأستدعي أهلي، فما لي وجه ألقىٰ به نصر بن محمود، وإنما أعطىٰ ومنح وأكرم لمثل هذا الموقف، فأجمعوا أمرهم على معاودة الحرب، فأسرىٰ من موضعه إلى عسكر جاولي فنهبه وأسر ما يزيد على ثلاثمائة أسير، وسيرهم في الوثائق إلى حلب مشاة، وهرب جاولي إلى رفنية، وسار بعد ذلك إلى دمشق...»[2]. وهكذا أخفق أتسز وجماعته أمام صلابة موقف حلب وإصرار أهلها على المقاومة، وعاد إلى دمشق ليبدأ مشروعاً جديداً ضد مصر الفاطمية، ولكن الظروف كانت له بالمرصاد، فلم يستطع تحقيق بغيته بل إنتهىٰ أمره في مدينة دمشق على يد سلجوقي آخر من أسرة السلاطين هو تتش.

أما نصر فلم تطل مدة حكمه في حلب وستكون نهايته على يد جماعة أحمد شاه، فمن هو أحمد شاه؟ وما هو الدور الذي قام به ونفذه في حلب؟

---

(١) سبط ابن الجوزي ــ المصدر السابق، ص١٧٨، كان أتسز مع السلطان ألب أرسلان عندما حاصر حلب، ولذلك فمن المحتمل أنه خبر قوة أهلها وتحصيناتها.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ٤١٠ ــ ٤١١. سهيل زكار ــ المرجع السابق، ص ١٦١.

• أحمد شاه والأمير المرداسي نصر بن محمود

كان محمود بن نصر المرداسي قد طلب من التركمان الناوكية، مغادرة حلب، وقد تركوها فعلاً متوجهين إلى فلسطين، بعد أن أعطاهم وأجزل لهم العطاء كما مرّ سابقاً. إلا أنه أبقى عنده قسماً منهم لمساعدته وخدمته، وعلى رأس هؤلاء كان أحمد شاه الذي استخدمه محمود والد نصر في صد البيزنطيين، ثم استخدمه ابنه نصر أيضاً في إعادة منبج إلى أملاكه، وصد أتسز وجاولي عن مناطق حلب الجنوبية، وإفشال خطتهما.

بعد هزيمة جاولي أمام أحمد شاه وعسكره وعوده إلى حلب، إنقلب عليه نصر بن محمود فجأة، ورغب بالتخلص منه، وفي اليوم الثاني لعيد الفطر سنة ٤٦٨ هـ/ ٢٢ أيار ١٠٧٥ م، جاء أحمد شاه لتهنئة نصر بن محمود بالعيد، إلا أن هذا الأخير قبض عليه وسجنه في قلعة حلب، ولم يكتفِ بذلك بل ركب فرسه وحيداً؟! وخرج إلى حاضر حلب[1] حيث كان التركمان يقيمون، وكان يريد من وراء ذلك القضاء عليهم، ونهب ممتلكاتهم فرماه أحدهم بسهم فقتله[2]. وذلك في الثاني من شوال سنة ٤٦٨ هـ/ ٢٢ أيار ١٠٧٥ م. ولا بد لنا من التساؤل عن الأسباب التي دفعت بنصر بن محمود إلى أن يتصرف هذا التصرف، خاصة وأن المصادر لا تجيب على هذا التساؤل، كما أنها لا تبرر سبب القبض على أحمد شاه، وهجوم نصر بن محمود على التركمان، وهل كان وحده فعلاً؟.

بالرغم من أن بعض الروايات التاريخية تقول إن نصراً كان أهوجاً، وأنه شرب الخمر بعد اعتقاله لأحمد شاه حتى سكر، وأنه خرج إلى التركمان مخموراً ولوحده أيضاً، وأنه كان يستهدف نهب التركمان وخطف عدد من نسائهم، لكن هذه الروايات تثير الشك في عدة نقاط منها: إذا كان نصر بن محمود خرج إلى التركمان مخموراً، فإنه حين قبض على أحمد شاه لم يكن مخموراً، فلماذا قبض عليه؟ وإذا كان القبض بناءً على تخطيط مسبق فكيف نصدق أنه خرج لوحده إلى التركمان مهما كانت شدة سكره، ثم إذا كان هدفه النهب وخطف النساء، فكيف يتمكن لوحده من تحقيق هذا الهدف؟ وهل كان الأمراء هم الذين يقومون بأنفسهم وبمفردهم بمثل هذه الأعمال؟ وهل كان من الصعب عليه خطف ما يريد من النساء دون أن يلقي بنفسه إلى التهلكة؟.

---

(١) الحاضر السليماني: هو الآن حي السليمانية بحلب.

(٢) العظيمي ــ المصدر السابق، ص ٣٢٦. ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ١٧٥. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤١٣. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٢، ص ١٩٣. الذهبي: العبر، جـ ٣، ص ٢٦٦.

إننا لا نستطيع أن نجد إجابة لهذه الأسئلة، إلا إذا تابعنا استقراء وتحليل الأوضاع، فمن سياق الأحداث التي من جملتها أن نصراً عندما أصبح أميراً على حلب اعتمد في حكمه وتدبير شؤون إمارته على وزيره ابن النحاس الحلبي وعلى سديد الملك علي بن مقلد المنقذي العربيان، وهذا يعني اعتماده بالدرجة الأولى على العنصر العربي في حكمه مما يشير ويؤكد أن نصراً صحا صحوة عربية، ولنقل هي الأخيرة في هذه المنطقة التي لم تعرف الاستقرار منذ مدة طويلة، وأن هذه الصحوة يمكن أن تكون صادرة عنه أو بتحريض من عمه ووزيره، فأراد تخليص حلب من سطوة أحمد شاه وجماعته، وهنا أيضاً يرد السؤال، هل يمكن تصديق ما يرد في الرواية من أن نصراً خرج إلى حاضر حلب للتخلص من التركمان وحده، والجواب الذي يمكن أن يقبل، هو أنه لم يخرج وحده بل لا بد أن يكون معه عناصره، إذ كيف يخرج أمير من إمارته ليقوم بمثل هذا العمل بمفرده، لكن يمكن القول إنه خرج دون أن يأخذ احتياطاته وحذره ودون أن يقدر الأمر حق قدره، ولم يجند لمثل هذا العمل الكبير الامكانات الكافية لتنفيذه على الوجه الأكمل، بدليل أنه خرج إليهم فكان مصيره القتل، كما لا نعلم مصير من كان معه؟.

ويبدو من سياق الأحداث أيضاً أن التركمان لم يكتفوا بقتل نصر. بل ثاروا أيضاً مما اضطر معه كل من سديد الملك وابن النحاس إلى إتخاذ إجراء سريع لتدارك الموقف، فعملا على استدعاء أخي نصر المسمى سابق بن محمود وذلك سنة ٤٦٨ هـ/ ١٠٧٥ — ١٠٧٦ م، ورفعاه إلى القلعة لأنهما لم يتمكنا من إدخاله إليها من الباب بسبب سكره الشديد وأشارا عليه بإطلاق أحمد شاه ليهدىء ثورة التركمان فأطلقه في الحال، وقدم له هدايا كثيرة. وهنا أيضاً يمكن أن يطرح السؤال التالي: إذا كان سديد الملك وابن النحاس أشارا على نصر بن محمود باعتقال أحمد شاه، فلمَ أشارا على سابق بن محمود بإطلاق سراحه؟ مما لا شك فيه أنهما تخوفا من ثورة العساكر التركمان وقدرا أن القوى المحلية لن تستطيع تهدئة هذه الثورة، إن لم يقم أحمد شاه بذلك. وحين أطلق سراح أحمد شاه نزل إلى العسكر بالحاضر، وأمرهم بالهدوء فسكنت الثائرة وأخمدت الفتنة[1]، وأصبح سابق بن محمود بعد ذلك يقرب التركمان إليه ويعينهم في المراكز الحساسة ويحسن إليهم، ويقدمهم على أهله من بني كلاب، وهكذا أصبح أحمد شاه الآن سيد إمارة حلب الفعلي، وأخذ يمارس سلطاته، وجعل سابق بن محمود بن نصر المرداسي تحت سلطته[2]، وهذا الخضوع الذي أبداه سابق للتركمان، لم يحصل من أمير

(١) ابن القلانسي — المصدر السابق، ص ١٧٥. ابن العديم — المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤١٧.

(٢) يبدو أن هذا التحكم بمصير حلب وأهلها هو ما كان يخشاه نصر بن محمود ويحسب حسابه عندما قام باعتقال أحمد شاه.

كلابي قبله مما حدا ببني كلاب إلى تجمعهم والتجائهم إلى أخيه وثاب بن محمود، فحسنوا إليه أخذ حلب، وانضم شبيب بن محمود وابن خالهما مبارك بن شبل، وأصبحت حلب وأهلها الآن بين قوتين تتربص كل منهما بالأخرىٰ، **الأولىٰ**: في الداخل متمثلة بالأمير سابق وهو لا حول له ولا قوة ومعه أحمد شاه والتركمان المتحكمون بمقدراتها، **والثانية**: خارجة عن حلب وتتمثل ببقية قبيلة كلاب، وهي قبيلة الأمير سابق التي تريد مهاجمة حلب لخلعه عن الإمارة، وتسليمها لأخيه وثاب بن محمود، ولا تشير المصادر إلى دور سديد الملك وابن النحاس في هذه الفترة.

في هذه الظروف الحرجة، ساءت الأوضاع الاقتصادية داخل حلب، كما أن البعض أخذ في الاستفادة من هذه الأوضاع لصالحه، فتحرك علي بن المقلد من حلب إلى كفر طاب، وأخذ يخطط للاستيلاء على شيزر، كما أن قبيلة كلاب جمعت كل رجالها، ويقال إن عددهم قارب سبعين ألف فارس وراجل وعسكروا في منطقة قنسرين استعداداً للزحف على حلب، بينما قام سابق باستدعاء أحمد شاه أمير التركمان وشاوره في كيفية مقاومة بني قومه الكلابيين، وكان عدد التركمان التابعين لأحمد شاه ألف فارس[1]، ولذلك فإن ما قام به هو العمل على تفريق جموع العرب المحتشدة قريباً من حلب والتصدي لهم.

كان يمكن لهذه المعركة أن تكون الفيصل في الصراع بين العرب والتركمان، لو أن سابقاً وقف مع قومه ولو لمرة واحدة ضد من يتحكمون به وبمصائر سكان حلب ولكنه لم يفعل، وقد خاف من حوله من هذا الانقسام والاقتتال بين أبناء القبيلة الواحدة، وحاولوا تجنب الاصطدام لأن في ذلك نهاية القوة العربية البدوية أولاً، وإنهاء مجد آل مرداس ثانياً. وقد عبر الشاعر ابن حيوس عن ذلك بقوله:

فلا ترض يا عز الملـــوك بذلهم ... وإن يردوا من غير بحرك منهلا
وصنواك لا تعص ابن عمك منهما ... وكن غير مأمور إلى السلم أميلا[2]

ولكن الأمر كان قد خرج من يد الأمير سابق، وأصبح في يد أحمد شاه التركماني الذي أسرع للاتصال بقائد تركماني آخر كان نازلاً على الحدود مع البيزنطيين، يعرف بمحمد بن دملاج ومعه خمسمائة فارس، وطلب منه مساعدته ضد قبيلة بني كلاب، وأغراه بالمال فوصل هذا القائد مع جماعته إلى حلب يوم الأربعاء الأول من ذي القعدة سنة ٤٦٨ هـ/

---

(١) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤١٨.
(٢) ابن حيوس: ديوان ابن حيوس، تحقيق: خليل مردم بك، ١٩٥١، جـ ٢، ص ٤٨٣.

حزيران ١٠٧٦ م، وتكاثر التركمان بحلب وخرجوا إلى بني كلاب المجتمعين مع وثاب في يوم الخميس مستهل ذي الحجة سنة ٤٦٨ هـ/الأول من تموز ١٠٧٦ م، بشكل فجائي، مما أوقع الكلابيين في مأزق وذهلوا من المفاجأة حتى أن ابن العديم يقول: «فعند معاينتهم الأتراك انهزموا من غير قتال، وخلفوا حليهم وكل ما يملكونه، وغنم أحمد شاه ومحمد بن دملاج وصحبهم كل ما كان لبني كلاب»[1] وتقول المصادر أنهم استولوا على مائة ألف جمل وأربعمائة ألف شاة، وسبوا من حرمهم الحرائر جماعة كثيرة، ومن إمائهم أكثر، وكل ما كان في بيوتهم، وعفوا عن قتل العبيد المقاتلة وكانوا أكثر من عشرة آلاف. وكان الذي غنمه التركمان من العرب في ذلك اليوم ما لا يحصى كثرة. والذي يدعو للتساؤل كيف ينهزم سبعون ألف مقاتل أمام العدد القليل للتركمان الذي لا يتجاوز على الأغلب أربعة آلاف مقاتل بما فيهم جماعة سابق؟ لا شك أن هناك أسباباً أعمق من مجرد المفاجأة وقد تكون الخيانة لعبت دورها في هذه الظروف، لكن المصادر لا تشير إلى شيء من ذلك!.

مهما كانت أسباب هزيمة العرب، فإنه يمكن القول إن هذه المعركة كانت كبيرة جداً ونقطة تحول في تاريخ حلب ليس بسبب خسائرها فقط، بل بنتائجها التي نجمت عنها ولم يقدرها سابق حق قدرها ومنها:

١ ــ كانت هزيمة للعرب جميعاً وفي الشام كله.

٢ ــ لم يعد العرب وأمراؤهم أصحاب الأمر والنهي في بلدهم، بل أصبح الأمر في أيدي التركمان.

٣ ــ كانت تهيئة وتطويعاً لمدينة حلب لمجيء السلطان السلجوقي إليها.

٤ ــ وأخطر هذه النتائج هي ذهاب الكلابيين المنهزمين وعلى رأسهم وثاب بن محمود لدعوة السلطان لتسليمه حلب.

ومع هذه النتائج التي تمخضت عنها المعركة فإن سابق قد واتته الفرصة لتدارك بعض ما فات، وإصلاح الأمور التي أفسدها، والثأر من التركمان على الأقل «إذ بعد ثلاثة عشر يوماً فقط من انتصار التركمان على بني كلاب، دعا محمد بن دملاج حليفه أحمد شاه، وكان نازلاً شمالي حلب فلما أكلوا وشربوا قبض ابن دملاج على أحمد شاه وأسره، وكان في نفر قليل فأقام في أسره تسعة أيام»[2]. وهنا كان يمكن لسابق أن يثير جماعة أحمد شاه ويحثهم على فك أسر مقدمهم، وبذلك تقع الحرب بين فئتي التركمان فتضعفا، ويهجم هو بمن معه على الاثنين،

(١) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ٢، ص٤١٨ ــ ٤١٩.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٤١٨ ــ ٤١٩.

فيتخلص منهما بسهولة، ويعيد كرامته وكرامة قومه المهدورة فيما قبل. ولكنه لم يضيع الفرصة فقط، بل آثر أن يظل محكوماً، لذلك بادر وبسرعة لتحرير أحمد شاه وفك أسره، ودفع له فدية مقدارها عشرة آلاف دينار وعشرين فرساً[1]، خوفاً من أن يفقد إمارته! إذا ظل أحمد شاه أسيراً؟ لكن ما قيمة الإمارة، وهو مأمور وليس آمراً، ولو استغل سابق هذه الفدية في كسب المؤيدين له للتخلص من التركمان، لاستطاع تأخير وصول السلطان إلى حلب لفترة ليست بالقصيرة. لكن أحمد شاه وبعد تخليصه من الأسر أصبح المتحكم بأمور حلب حتى قتل أثناء الحصار الذي فرضه تتش على حلب وذلك سنة ٤٧١ هـ/١٠٧٨ ـــ ١٠٧٩ م.

• محاولة تتش السيطرة على حلب وأعمال أفشين التركي

إثر هزيمة بني كلاب أمام أحمد شاه ومحمد بن دملاج وقواتهما في حلب، توجه وثاب بن محمود وعدد من زعماء بني كلاب إلى خراسان ليطلبوا المساعدة من السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان ويعرفوه ما كان من سابق تجاههم، ولما وصلوا استقبلهم السلطان ووعدهم بالمساعدة وأقطع كلاً منهم بقعة في الشام، وقرر تولية أخيه تتش حكم الشام وما يفتحه وراءها، وأمره بالمسير إليها[2]. وكتب الرسائل إلى القوى المتمركزة في الشام والجزيرة ليكونوا مع تتش، ومن القوى التي راسلها ألب أرسلان ـــ عدا وثاب بن محمود ومن كان معه ـــ مسلم ابن قريش العقيلي أمير الموصل، وزعماء القوى التركمانية المتمركزة على أرض الشام أو الأراضي البيزنطية، ومنهم: الأفشين بن بكجي، وصندق الحاجب، ومحمد بن دملاج، وابن طوطو، وابن بريق وغيرهم من أمراء التركمان[3]. وهنا يمكن أن يرد تساؤل وهو كيف يذهب وثاب لطلب المساعدة من السلطان ضد أحمد شاه ومحمد بن دملاج، والسلطان يعتبرهم من رجاله؟ يبدو أنه لم يكن أمام وثاب إلا هذا الخيار، فالقوى المحيطة بحلب أضعف من أن تقف بوجه أحمد شاه وحليفه، خاصة وأن دمشق كانت بيد أتسز التركماني أيضاً، والقوى الفاطمية في مدن الساحل كانت ضعيفة ومفككة هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن وثاباً كان يعرف أن السلطان هو وحده الذي يملك القدرة على التأثير والتغيير وهو المرجع الأعلى الذي يمكن العودة إليه دون غيره، ولربما ذهب وثاب لتحريض السلطان على احتلال حلب.

---

(١) ابن العديم ـــ المصدر السابق نفسه.

(٢) الأصفهاني: دولة آل سلجوق، ص ٦٥. ابن الأثير ـــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١١١. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ـــ مخطوط أحمد الثالث ـــ المجلدة ١٣ حوادث سنة ٤٧٠ هـ، الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ١٢٣. ابن كثير ـــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ١١٧.

(٣) سبط ابن الجوزي ـــ المصدر السابق، المجلدة ١٣ حوادث سنة ٤٧٠ هـ.

تحرك تتش غرباً في أوائل سنة ٤٧٠ هـ/آب ١٠٧٧ م. وعندما وصل إلى ديار بكر انضم إليه الحاجب ايتكين السليماني بأمر من السلطان[1]، ثم إلتحقت به قبيلة كلاب فانضمت إليه، وانضوت تحت قيادته ليسير بها إلى حصار حلب، وإسقاط الدولة المرداسية الكلابية فيها، وجعلها تابعة وبشكل كامل للتركمان. وهكذا فإن قبيلة كلاب التي قاتلت أميرها سابق بن محمود لانقياده وخضوعه لأحمد شاه، سعت بيدها لزوال ملكها، وارتكب أفرادها بذلك حماقة أكبر مما ارتكبه سابق فيها.

وصل تتش على رأس قواته قريباً من حلب، وذلك في الثالث من ذي القعدة سنة ٤٧٠ هـ/١٨ مايس ١٠٧٨ م، وقد إلتحق به عدا ما ذكر ــ مسلم بن قريش ومعه عدد كبير من المقاتلين[2]، أما سابق فقد أخذ احتياطاته قبل وصول تتش وقواته. فأرسل إلى أحمد شاه الذي كان يحاصر أنطاكية وطلب منه العودة إلى حلب ولكنه رفض العمل بأمر سابق والعودة إلى حلب إلا بعد أن أخذ مبلغ خمسة آلاف دينار من أهل أنطاكية. ألقى تتش الحصار على حلب[3]، لكنه رفع الحصار بعد عدة أيام وانسحب عدة أميال، وقد كان لتتش أهداف من هذا الانسحاب منها:

١ ــ استدراج المدافعين للخروج من المدينة والإيقاع بهم.

٢ ــ إعادة تنظيم قواته استعداداً لحصار طويل الأمد.

وهذا ما كان فعلاً فقد عاد لحصار المدينة، واستمر يحاصرها ثلاثة أشهر وعشرين يوماً، ثم ما لبث أن اضطر لرفع الحصار عنها، نتيجة لعدة عوامل أثرت في إضعاف معسكره منها:

١ ــ أن شرف الدولة أبو المكارم مسلم بن قريش بالرغم من أنه جاء معونة لتتش بناء على أوامر السلطان، إلا أنه كان ضمناً مع سابق ويعمل سراً على تقويته، وتقوية موقف أنصاره بدافع من عروبته، وكان مسلم «ينكر على بني كلاب خلطتهم بعسكر الترك» وعمل على أن تتخلى قبيلة كلاب عن تتش فترحل إلى البادية، أو يدخل رجالها حلب للمساعدة في الدفاع عنها، ومما سهل مهمة مسلم مقتل أحمد شاه، أثناء الحصار وذلك سنة ٤٧١ هـ/١٠٧٩ م[4].

---

(١) شاكر مصطفى ــ المرجع السابق، ص ٣٧٨. وقد عرفنا دور أيتكين أثناء حصار السلطان ألب أرسلان لحلب، سهيل زكار ــ المرجع السابق، ص ١٧١.

(٢) ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ١٨١، ويقول إنه كان معه وثاب وشبيب ابنا محمود بن صالح المرداسي وخالهما مبارك بن شبل، ص ١٨٢. سبط ابن الجوزي ــ المصدر السابق نفسه.

(٣) العظيمي ــ المصدر السابق، ص ٣٣٠. ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١١١. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ص ١٩٨. ابن أبي الدم ــ المصدر السابق، ص ١٣٦. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ١٢٣. ابن كثير ــ المصدر السابق، جـ ١٢، ص ١١٧. بيشوف: تحف الأنباء، ص ٤٥.

(٤) العظيمي ــ المصدر السابق، ص ٣٣١. ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ١٨٣. ابن أبي الدم ــ المصدر السابق، ص ١٣٦،

٢ ــ تنبه وتيقظ قبيلة كلاب إلى تناقض موقفهم إذ كانوا يرفضون وجود التركان بحلب، فإذا بهم يأتون بتركان آخرين أكثر قوة وأشد تنظيماً. وقد أثمرت جهود مسلم بن قريش، لذلك تخلت كلاب عن تتش ورحل القسم الأكبر منها نحو البادية، ودخل قسم آخر مدينة حلب لتتقوىٰ بهم.

٣ ــ تنبه سابق إلى مصلحته في فك ارتباط العرب مع التركان، ولكن بعد فوات الأوان، ولذلك كثرت رسائله إلى زعماء قبيلته يستثير عروبتهم. ويروي ابن العديم أنه كتب إلى بني كلاب «إني إنما أذب وأحامي عن بلادكم وعزكم، ولو صار هذا البلد إلى تتش لزال ملك العرب وذلوا...»[١]. ونسي أنه لولا استعانته بأحمد شاه ومحمد بن دملاج، لما اضطرت قبيلته للاستنجاد بالسلطان وقواته، ولكنه التنبه الذي يأتي بعد فوات الأوان، ولذلك فإنه لم يؤثر على مجرىٰ الأحداث.

٤ ــ انسحاب مسلم بن قريش العقيلي، وتخليه عن تتش بعد أن أخبره برحيله عائداً إلى الموصل. وقبل رحيله باع أصحابه جميع غلالهم إلى أهل حلب الذين كانوا يعانون من شدة الغلاء، وقلة المؤن نتيجة الحصار. وقد علم تتش بهذا البيع، فاستدعىٰ مسلم بن قريش وعاتبه على أفعاله لتقوية المحاصرين، وقال له: «أنت أتيت في مساعدتي عليهم، أو في تقويتهم؟ ارجع إلى أعمالك، مالي إليك حاجة، وأحس مسلم بتغير النية فيه»[٢]، وخاف أن يتحقق مما يقوم به، وخاصة مراسلة سابق وأهل حلب، لذلك استاذن في الرحيل وتحرك إلى سنجار.

٥ ــ تدمير النجدة التي طلبها تتش من السلطان وكانت مؤلفة من ألف مقاتل، ومعهم كثيراً من آلات الحصار يقودهم قائد تركاني اسمه (تركان). وقد إلتقىٰ مسلم بتركان هذا وهو في طريقه إلى الموصل بالقرب من سنجار، وحاول مسلم أن يقنع القائد تركان بعدم متابعة سيره نحو حلب، وعندما فشل أرسل فوراً إلى سابق وحذره وساعده في تشكيل قوة عربية بدوية من مختلف القبائل فيها حوالي ألف وخمسمائة فارس وراجل، كمنت[٣] هذه القوة العربية البدوية لعساكر النجدة التركانية ففرقتهم، وقتلت معظمهم، وصادرت ما كان يحمله التجار الذين كانوا مع النجدة، وعندما وصلت

يجهل وفاة أحمد شاه سنة ٤٧٢ هـ.

(١) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ٢، ص٤٥٦. سهيل زكار ــ المرجع السابق، ص١٧٣.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ص١٩٨. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ٢، ص٤٥٧.

(٣) سبط ابن الجوزي ــ المصدر السابق، ص١٩٨.

أخبار ما حل بالنجدة الغزية إلى تتش ترك أسوار حلب، وقاد معظم ما كان لديه من قوات لتأديب القوات الكلابية، والبدو العرب الذين كانوا ينشطون في ريف حلب، وما أن تركت قواته أسوار حلب، وبعدت عنها، حتىٰ خرجت القوات المدافعة التي كانت بداخلها، فهاجمت معسكراته وغنمت ما كان فيها[1]. وكان لهذا النصر المحدود، والذي يعتبر رد اعتبار لقبيلة كلاب التي إنهزمت أمام أحمد شاه سنة ٤٦٨ هـ/ ١٠٧٥ م. أصداؤه لدىٰ البدو العرب. وقد جسد ذلك الشاعر ابن حيوس، شاعر المرداسيين الذي كان يعيش تلك الأحداث ويتفاعل معها ومما قاله:

وكانت الترك بالأعراب جاهلة ... حتىٰ أتحت لها أن تعرف العربا[2]

وهذا يؤكد أن بني كلاب، لا يدينون لأمير منهم يجمع كلمتهم، ولو إنقادوا لم يكن لأحد من العرب بهم طاقة حتىٰ ولا لغيرهم[3]. وعندما سمع تتش بنهب معسكره وأيقن بعدم جدوىٰ مطاردته للعرب البدو، قرر عبور الفرات للانتقام من مسلم بن قريش، ولكن الأخبار وصلته بأن مسلماً بانتظاره[4]، وهو متأهب للقائه والتصدي له، فاضطر مرغماً التخلي عن خططه، وعرج على أعمال نصر بن مروان في ديار بكر، وشتىٰ فيها.

وهكذا تفرق التحالف الذي خطط له السلطان ملكشاه، وأخفق أمام أسوار حلب، وكان السبب لهذا الإخفاق السلجوقي هو تنبه القبائل العربية وتيقظها لما سيحيق بها، ولاتحادها وتعاونها في رد هذا الهجوم، والذي سيتابعه تتش مرة أخرىٰ، ولكن المصير نفسه سينتظره، ليتخلىٰ نهائياً عن أطماعه في حلب، ويعود بقواته إلى دمشق حيث ينتظره أتسز ممثل السلاجقة في جنوب بلاد الشام، كما كان لموقف مسلم بن قريش الجريء والحاسم أثره الكبير في إخفاق تتش في مهمته، وربما كان مسلم بعمله هذا، يمهد لتشكيل دولة عربية موحدة تضم بلاد الشام والجزيرة للوقوف بوجه السلاجقة.

بعد أن أمضىٰ تتش الشتاء في ديار بكر، كتب إلى السلطان ملكشاه يشرح له الموقف

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ص١٩٨.

(٢) ابن حيوس: ديوان ابن حيوس، جـ١، ص٥٢.

(٣) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ١، ص٥٩، ويقول: «إنه حكم حلب ثلاثة من الملوك في ثلاثة أيام متتابعة وكانت الكسرة لناصر الدولة يوم الأربعاء سلخ رجب سنة ٤٥٢ هـ، وتسلم محمود بن نصر، ووصل وقت الكسرة أسد الدولة أبو ذؤابة عطية بن صالح إلى حلب وتسلم المدينة من المغاربة يوم الخميس ١ شعبان، وقدم محمود بن نصر إلى المدينة فانهزم عطية منه آخر نهار الخميس ١ شعبان، وتسلم البلد في اليوم الثاني من شعبان الجمعة سنة ٤٥٢ هـ، وهذا من أغرب الاتفاقات أن يملك حلب ثلاثة من الملوك في ثلاثة أيام متتابعة»، أمينة بيطار: موقف أمراء العرب، ص٢٤٨.

(٤) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص١٨٣.

وما تعرض له، ويطلب مساعدته، ثم غادر ديار بكر مع قوات تركمانية جديدة إنضمت إليه، يريد الاستيلاء على حلب للمرة الثالثة! وقد وضع لذلك استراتيجية حربية جديدة، تقضي بتجريد حلب من جميع المواقع الحصينة التابعة لها أولاً، ثم ينقض عليها فيخضعها ثانياً. وهكذا بدأ بمنبج فاحتلها، ثم استولى على حصن الفايا، وحصن الدير وترك بهما حامية مدافعة، ثم سار إلى حصن بزاعة، وكان صاحبه شبل بن جامع ففتحه بالسيف، وقتل كافة من فيه ونهبه وترك فيه حامية تركمانية، ثم توجه إلى اعزاز وقد تجمع في قلعتها عدد كبير من الناس، فضربها واستولى عليها، وتابع زحفه بعد ذلك إلى الحصون الصغيرة: جبرين، وسرمين، والخناقية، وفي كل هذه المعارك كان قتاله مع القوى العربية سجالاً، وخسر في الكمائن التي نصبت لقواته بين الحصون الكثير من الجند. بعد ذلك توجهت قواته إلى حلب لحصارها وذلك في ذي الحجة سنة ٤٧١ هـ/حزيران ١٠٧٠ م[1]، وقبل أن تستكمل هذه القوات استعداداتها وتنظم صفوفها استعداداً لبدء الهجوم، إنقضت عليها القوات المتمركزة في حلب ففاجأتها، فانهزمت القوات المهاجمة، وغادر تتش مع قواته وفي نفسه شيء منها، ولن يحاول مهاجمتها في الوقت القريب، لما لاقاه وقاساه منها، وتوجه جنوباً بعد أن ضعف عسكره، فاستولى على حماه والمعرة وما يليها، وأطاعه أمير حمص (خلف بن ملاعب) فأقره عليها[2]، وتابع سيره إلى دمشق ليتسلمها من أتسز[3]، وقد سنحت له هذه الفرصة بسبب تعرض أتسز لجيش فاطمي أرسله أمير الجيوش بدر الجمالي لقتال أتسز وإخراجه من دمشق، وإعادتها إلى الدولة الفاطمية، وكان قائد هذا الجيش يعرف بنصير الدولة وقد حاصر نصير الدولة هذا دمشق فأرسل أتسز إلى تتش يستنجده ضد عساكر مصر، ورحب تتش بالدعوة لأنه لو لم توجه له لقصد دمشق من تلقاء نفسه، بعد أن أخفق في حلب.

اتجه تتش من حمص إلى دمشق لنصرة أتسز وعندما سمع المصريون بقرب تتش تركوا الحصار وهربوا، بينما خرج أتسز لاستقباله عند سور دمشق، فغضب منه تتش لأنه لم يذهب إلى أبعد من ذلك للقائه، فاعتذر أتسز بأمور لم يقبلها تتش فقبض عليه وقتله، وتسلم دمشق

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ١١٤ ــ ١١٥. ابن أبي الدم ــ المصدر السابق، ص ١٣٦. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ص ٢٠٠. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٢٦. شاكر مصطفى ــ المرجع السابق، ص ٣٨٠.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ــ أحمد الثالث ــ المجلدة الثالثة (عن تاريخ وقف عليه سبط بدمشق).

(٣) العظيمي ــ المصدر السابق، ص ٣٣١. ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ١٨٣. الحسيني: زبدة التواريخ، ص ١٤٣ ــ ١٤٤، فيقول إن تتش ملك دمشق من الأفشين وقتله، وهو خطأ واضح، فالذي كان في دمشق هو أتسز. أما الأفشين فقد انفصل عن تتش وتحرك شمالاً كما سبق. ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١١١. اليافعي اليمني المكي: مرآة الجنان، ص ١٠٠ ــ ١٠٨. حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي، ص ٢٥٢ ــ ٢٥٣.

دون قتال سنة ٤٧١ هـ/١٠٧٨ م[1]، وأسس لنفسه حكماً فيها.

بعد أن فتك تتش بأتسز وتفرد بحكم دمشق، تركه أفشين مخافة أن يلقىٰ مصير أتسز وتوجه شمالاً مع الجزء الأكبر من التركمان الذين رافقوا تتش يريد الأراضي البيزنطية، ويقول ابن العديم «ثم فسخ من عسكره ــ أي تتش ــ أفشين، ومعه أكثر العسكر، وعاد شمالاً» ثم يتابع ابن العديم قوله فيما فعله أفشين حين ترك العسكر «ونهب ضياعاً في أعمال بعلبك، ووصل أفشين مع عسكره إلى رفنية في اليوم العاشر من جمادىٰ الأولىٰ سنة ٤٧٢ هـ/٨ تشرين ثاني ١٠٧٩ م، وفيها جماعة من التجار والقوافل متوجهين إلى طرابلس، فهاجمها أفشين بغتة، وقتل من بها كافة، واستباح أموالهم وحريمهم وأقام بها عشرة أيام، ثم نزل حصن الجسر قرب شيزر فأكرمه أبو الحسن علي بن منقذ، فأعلمه بما عزم عليه من نهب الشام، فطلب منه أن لا يتعرض لبلدة كفر طاب، فوافق على طلبه، ثم وصل قسطون من قرىٰ الجسر فتعرض لأهلها بالقتل والنهب كما فعل برفنية، وأقام بها نيفاً وعشرين يوماً، حتىٰ لم يبق فيها موضع ولا برج إلا افتتحه، وأهلكه واستباح حريمه وأولاده، وفرض على أهل سرمين والمعرة الأتاوات والغرامات ثم تابع زحفه إلى جبل بني عليم (جبل الزاوية الآن) فلم يتم له به شيء. ثم قصد ضياع معرة النعمان الشرقية فرماها بالمنجنيقات حتىٰ تمكن من احتلال أبراجها، وحصونها بالسيف وأخذ ما لا يمكن إحصاؤه من الغنائم، وقتل من أهلها عدداً كبيراً، ثم وصل تل منس قرب المعرة ورتب عليها خمسة آلاف دينار، ولم يتمكن من أخذها. ثم انتقل إلى منطقة معرة النعمان ففعل مثل ذلك، وسار إلى معرتارح[2] من منطقة كفر طاب، وعندما تعذرت عليه أحرقها وأهلك جميع من كان فيها... وحين رجع أفشين من الشام ولم يبقَ في أعمال حلب قرية مسكونة من بلد المعرة إلى حلب، توجه إلى أنطاكية فخرب ما قدر عليه، ونهب وسبىٰ، ما وجد وحمل إليه من أنطاكية أموال، وتوجه إلى الشرق بعد إمتلاء صدره وصدر عسكره من النهب، وهرب من سلم من الشام إلى بلد شرف الدولة أبي المكارم مسلم بن قريش، فأحسن إليهم وتصدق عليهم، وكان ذلك الإحسان منه أكبر الأسباب في

---

(١) الفارقي: تاريخ الفارقي، ص٢٣٣، يجعل تسلم تتش لدمشق سنة ٤٧٣ هـ، ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ١٠، ص١١١. أبو الفداء: المختصر، جـ٢، ص٢٠٣. الذهبي: العبر، جـ٣، ص٣٧٤ ــ ٣٧٥. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ٢، ص١٢٣، ويجعل ملك تتش لدمشق سنة ٤٧٢ هـ، ويروي نفس رواية ابن الأثير عن مقتل أتسز تقريباً، اليافعي اليمني المكي: مرآة الجنان، جـ٣، ص١٠٠ ــ ١٠٨. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ١، ص١٠٥، يجعل مقتل أتسز ١٠٧٩ م، معروف رزوق: تاريخ شيزر، ص١٥١، يجعل دخول تتش لدمشق ١٠٧٩ م.

(٢) معرتارح: حالياً مزرعة تتبع قرية كفر سجنه التابعة لخان شيخون تبعد عن معرة النعمان / ٤٠ / كم، وعن ادلب / ٧٩ / كم التقسيمات الإدارية في الجمهورية العربية السورية ١٩٦٨. ص٢٨١.

تملكه حلب»[1].

لقد شق الأفشين بلاد الشام من الجنوب إلى الشمال كالسهم الذي لا يخطىء، وأحرق كل ما وجده في طريقه، وبجميع الاتجاهات، مما لم تعرفه بلاد الشام من قبل! لماذا فعل الأفشين ما فعل؟

لا شك أن وراء ذلك عدة أمور ينبغي أن لا تغيب عن أذهاننا وهي:

١ ــ لم يبقَ في بلاد الشام بعد الأحداث التي عصفت بها منذ أكثر من عشر سنوات، قوة عربية تستطيع أن توقف الأفشين أو غيره عن رعونته، وتضع حداً لمآسيه وتصرفاته، فالبلاد خراباً يباباً، والخلافات القبلية تنهشها، وجاء الأفشين ليكمل بدوره ما بقي منها دون تدمير أو نهب أو سلب أو قتل أو سبي، وليجد الصليبيون بعد عشرين سنة، الأرض ممهدة أمام جحافلهم إلا من بعض الأمراء التركمان.

٢ ــ ادعى الأفشين أنه كان يريد الأراضي البيزنطية عندما ترك تتش، وانفصل عنه، ولكنه على ما يبدو حسب ما جرت عليه الأمور، إنما كان يمهد البلاد بإضعافها ليأتي من بعده تتش إليها ويجدها وقد أينعت ولم يبق أمامه إلا قطافها؟ فهل كان دوره مرسوماً من قبل تتش، بالرغم من تذرعه بأنه هارب منه، وبالرغم من أن المصادر لا تزال تؤكد أن ما قام به الأفشين كان تصرفاً منه، إلا أن الاحتمال الأول يثير التساؤل وينتظر الجواب؟. والدليل أن تتش خرج وراء الأفشين مباشرة وأغلب الظن ليس لتعقبه كما أعلن، ولكن ليستثمر نتائج أفعاله.

٣ ــ إن أعمال الأفشين تدل على أنه كان بعيداً عمّا يدعيه من تعصبه للسنة، لأن الحماقات التي ارتكبها، لا تصدر عن إنسان يؤمن بأية عقيدة، وخاصة إذا كانت العقيدة الإسلامية السمحاء، والأغرب من هذا أن تتش عندما علم بما فعله الأفشين، قرر مطاردته لإيقافه عن أعماله التدميرية كما ادعى ولكن الذي حصل فعلاً أنه توجه إلى حلب ليهاجمها ويحقق حلمه بتشكيل دولة سلجوقية موحدة في بلاد الشام.

٦ ــ سقوط الدولة المرداسية وقيام الحكم العقيلي:

وصلت أخبار ما قام به الأفشين إلى تتش، فتظاهر بأنه غير راضٍ عنه، فترك دمشق وتوجه شمالاً بحجة مطاردة الأفشين، لكنه فعلاً كان يريد حلب ظناً منه أنها أصبحت لقمة

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ٤٢٩ ــ ٤٣٠.

سائغة وغير قادرة على مقاومته. وصل تتش إلى حلب وحاصرها أياماً، فرأىٰ عجزه عن إتمام الحصار والنجاح في فتحها، ولذلك فإنه رفع الحصار وانسحب متوجهاً شمالاً، فنهب القرىٰ المحيطة بالمدينة ممن كان له حظ النجاة من نهب الأفشين ثم عاد بغنائمه إلى دمشق[1]، في هذه الأثناء وأمام هذا الضغط المتواصل وجد أهل حلب أنه لا بد لهم من الإلتجاء إلى زعيم قوي يحفظ حلب، وناقشوا الأمر من جميع جوانبه فوجدوا أن الأمير سابق لا حول له ولا قوة، أما السلطان ملكشاه، فكان بعيداً عن مسرح الأحداث أولاً ومشغولاً بغير الشام والجزيرة ثانياً، وهو راضٍ عن التخريب الذي تم باسمه، والذي يريد وأعوانه من ورائه السيطرة على الشام والجزيرة، وضمهما إلى أملاكه فيما بعد، وأما تتش فلم يكن أفضل كثيراً من أفشين، وهو الذي حاصر حلب ثلاث مرات خلال سنتين، والشخص القوي الوحيد الذي كان أمامهم هو مسلم بن قريش العقيلي، وهو الذي وقف مع حلب أيام محنتها مع تتش والتجأ إليه الهاربون من أفشين فأكرمهم وأحسن إليهم، كما أنه عربي أولاً وأخيراً، ولذلك فقد اختاروه لتسليمه حلب. فتوجهت إلى الموصل عدة وفود وجماعات تمثل مختلف السكان في حلب[2]، ومناطقها إضافة إلى رسالة من أحداث حلب، وهم القوة الشعبية المحلية فيها، ووفداً من أمراء كلاب، والجميع يستغيث ويطلب منه إنقاذ حلب حتىٰ أن أمير حلب المرداسي سابق بن محمود كتب إلى مسلم يعرض عليه التنازل له عن الإمارة، وقال في رسالته: «أنت أولىٰ بي من الغز، والعربية تجمعنا، فإن كنت مأكولاً فكن أنت بآكلي»[3]، ولما كان مسلم يتطلع ويطمح لتشكيل دولة عربية تضم الجزيرة وبلاد الشام، قادرة على الوقوف بوجه الغزو التركاني من الشرق، ولعلها كانت آخر يقظة عربية في الجزيرة والشام، قبل أن يسيطر السلاجقة سيطرة كاملة، ويحكموا هذه البلاد حكماً مباشراً، وتصبح جزءاً من الامبراطورية السلجوقية وذلك سنة ٤٧٩ هـ/١٠٨٦م.

قرر مسلم بعد تسلمه طلبات أهالي حلب الشخوص إليها لتسلمها، ولكي يضمن موافقة السلطان على مخططه، أرسل ولده من خاتون ــ أخت السلطان ألب أرسلان وعمة ملكشاه ــ إلى السلطان، وتعهد له بدفع ثلاثمائة ألف دينار كل سنة[4]، حتىٰ لا يهاجم الموصل هو أو أحد قواده عند مغادرته إياها فكان جواب السلطان بالموافقة، وطلب منه قصد

---

(١) ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص١٨٢. سبط ابن الجوزي ــ المصدر السابق ــ أحد الثالث ــ المجلدة ١٣.

(٢) سبط ابن الجوزي ــ المصدر السابق نفسه.

(٣) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ٢، ص ٤٣١ ــ ٤٣٢. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ص٢٠٣.

(٤) سبط ابن الجوزي ــ المصدر السابق، ص٢٠٣. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ٢، ص٥.

حلب ، أما ابن الأثير ، فيجعل إرسال مسلم ابنه إلى السلطان بعد دخوله ، وتسلمه القلعة ، ليخبره بما فعل ويسأله أن يقرر الضمان[1]. ويبدو أن الرواية الأولىٰ أكثر قبولاً ومنطقية ــ لأن مسلم كان يريد موافقة السلطان قبل أن يقدم على عمل كبير كضم حلب إلى مملكته ، ليكون موقفه سليماً وقوياً ، أمام القوىٰ الأخرىٰ كتتش .

تحرك مسلم غرباً وتوجه إلى قلعة جعبر ، فحاصرها ، وكان بها جعبر وأصحابه ، يقطعون الطرق فصالحوه على أن يقلعوا عن أعمالهم ، وتابع سيره حتىٰ وصل حلب ثاني عشر ذي الحجة سنة ٤٧٣ هـ / ٥ حزيران ١٠٨٠ م[2]، ومعه بنو كلاب ، وكلب ، وجميع القبائل ، وقام أحداث حلب بكسر أبوابها ، في العشرين من ذي الحجة ، حيث فسحوا له المجال لدخول المدينة ، فدخلها دون أن يتأذىٰ منه أحد من أهلها ، ولا أغلق فيها دكاناً[3]. ثم تم الاتفاق بين سابق ومسلم على تسليم القلعة مقابل زواجه بأخت سابق ، ومالاً يدفعه له ، وفي الوقت الذي قرر فيه سابق النزول من القلعة ، وثب عليه أخواه شبيب ووثاب فقبضا عليه واستوليا على القلعة ، فاضطر مسلم إلى حصار القلعة ، ودام الحصار قرابة أربعة أشهر ، حتىٰ ملّ الحصار فقرر العودة ، وقال لأهل حلب قبل أن يغادرها : « ... أنفقت أموالي وبعدت عن بلادي في حراسة بلادكم وأموالكم ، وكف عاديه الغز عنكم ، وهذه مقابلة ما أعرفها ، فإن كنتم رجعتم ، فها أنا راجع إلى بلادي ومتبرىء منكم ، فأنكروا ما جرىٰ وشرطوا السعي وإزالة ما تجدد منه »[4]. لكن تشجيع أهالي حلب لمسلم مع مقدمي قبيلة كلاب ، وبعض

---

(١) ابن الأثير ــ المصدر السابق ، جـ ١٠ ، ص ١١٥ .

(٢) العظيمي ــ المصدر السابق ، ص ٣٣١ . ابن القلانسي ــ المصدر السابق ، ص ١٨٣ ، يجعل تسلم شرف الدولة مسلم بن قريش لحلب سنة ٤٧٢ هـ . العماد الأصفهاني : دولة آل سلجوق ــ اختصار البنداري ، ص ٤٩ ، يجعل تسلم مسلم لحلب سنة ٤٧١ هـ ، وغالب التقدير أنه أخطأ بين مسلم وتتش . ابن الأثير ــ المصدر السابق ، جـ ١٠ ، ص ١١٥ . سبط ابن الجوزي ــ المصدر السابق ، ص ٢٠٢ ، يجعل تسلم مسلم لحلب يوم ٢٦ ذي الحجة سنة ٤٧٢ هـ ، وسلمها له ابن الحتيتي ، ولعل الخلاف الحاصل بين المؤرخين ، بين عامي ٤٧٢ هـ ، و ٤٧٣ هـ ، مرده إلى قرب الفترة بين وصول مسلم إلى أسوار حلب ، وذلك في أواخر سنة ٤٧٢ هـ ، ودخوله إليها في بداية سنة ٤٧٣ هـ ، وهو الذي أوجد الإلتباس بين المؤرخين ، أبو الفداء ــ المصدر السابق ، ص ١٩٤ . الدواداري : الدرة المضية ، ص ٤٠٦ . الغزي : نهر الذهب في تاريخ حلب ، ص ٧٦ . يعشوف ــ المصدر السابق ، ص ٤٤ . شاكر مصطفىٰ ــ المرجع السابق ، ص ٣٨٣ . سهيل زكار ــ المرجع السابق ، ص ١٨٤ .

(٣) سبط ابن الجوزي ــ المصدر السابق ، ص ٢٠٢ ، يروي ابن الأثير أن ابن الحتيتي خرج للصيد يوماً فأسره أحد التركمان ، وأرسله إلى مسلم وطلب ولد الحتيتي من مسلم ، أن يطلق سراحه مقابل تسليمه البلد ، فقبل مسلم وأطلق ولد الحتيتي الأسير ، فلما عاد إلى حلب ، واجتمع بأبيه وأخبره باتفاقه مع مسلم ، وقد وافق الحتيتي وسلم البلد إلى مسلم ونادىٰ بشعاره سنة ٤٧٣ هـ ، وهي مطابقة مع رواية ابن العديم ، ابن الأثير ــ المصدر السابق ، جـ ١٠ ، ص ١١٥ . ابن أبي الدم ــ المصدر السابق ، ص ١٣٦ ، ويجعل تسلم مسلم لحلب سنة ٤٧٢ هـ ، والقلعة سنة ٤٧٣ هـ .

(٤) ابن أبي الدم ــ المصدر السابق ، ص ١٢٦ ، ويجعل تسلم مسلم لحلب سنة ٤٧٢ هـ ، والقلعة سنة ٤٧٣ هـ .

شخصيات الإمارة أقنعه بالبقاء في حلب، ومتابعة حصار القلعة، وفي هذه الأثناء، وقعت بعض الخلافات بين الأمراء المرداسيين، فتدخل علي بن المقلد وتوسط بينهم وبين مسلم وأقنعهم بتسليم القلعة، مقابل تعويضات مالية وإقطاعات لكل واحد منهم[1]. وتسلم مسلم القلعة يوم الأحد العاشر من ربيع الآخر سنة ٤٧٣ هـ/أو الثلاثاء الخامس منه/٢٧ أيلول ١٠٨٠ م[2]. وبذلك إنتهت دولة المرداسيين، بعد أن عاشت حوالي ستين سنة، كانت كلها نزاعات وخلافات بين أمرائها.

• قيام الدولة المنقذية:

أصبح أبو المكارم مسلم بن قريش سيداً للدولة الجديدة التي تضم شمال بلاد الشام مع أجزاء من الجزيرة والعراق، ويقول ابن العديم: إن مسلماً عزل الوزير ابن النحاس، وولى وزارته أبا منصور عيسى بن بطرس النصراني[3]. وفي الوقت الذي بدأ مسلم فيه بترتيب أمور دولته الداخلية لينطلق لتحقيق مخططه، كان علي بن المقلد الأمير المنقذي أمير كفر طاب، يخطط لاحتلال قلعة شيزر، وقد سقطت بيده يوم الأحد الخامس عشر من رجب سنة ٤٧٤ هـ/١٩ كانون أول ١٠٨١ م[4]، فأسس فيها حكم الأسرة المنقذية في شيزر، والتي ستكون من أبرز الأسر العربية زمن الحروب الصليبية، إلا أن ذلك لم يرضِ مسلم الذي لم يكن يرغب بوجود دولة أخرى غير دولته، فتحرك بسرعة، وعمل على إنتزاع قلعة شيزر من يد علي ابن المقلد، وجهز جيشاً لهذه المهمة، أوكل قيادته إلى أخيه علي بن قريش الذي حاصر شيزر لكن دون جدوى. لذلك تحرك مسلم بنفسه مع قوات جديدة نحوها وحاصرها، وما لبث أن تركها أيضاً لمنعتها وشدة مقاومة أهلها بقيادة حاكمهم الجديد، وتوجه نحو حمص بينما ترك قوة كافية تتابع حصار شيزر حتى سقوطها. والسؤال الذي يطرح نفسه، لماذا حاصر مسلم

---

(١) بن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٤٣، «وجرت الحادثات بين مسلم وبين سابق وأخويه، فأقطع شبيباً ووثاباً، قلعتي اعزاز والأثارب، وعدة ضياع وأقطع سابق مواضع في أعمال الرحبة، وطلب أن يتزوج من منيعة بنت محمود أخت سابق، وكان السفير بينهم في ذلك سديد الملك ..».

(٤) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١١٤ ــ ١١٥. سبط ابن الجوزي ــ المصدر السابق، ص ٢٠٦، ويؤيد الثلاثاء الخامس من ربيع الآخر سنة ٤٧٣ هـ، بيشوف ــ المصدر السابق، ص ٤٦.

(٣) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٣٣.

(٤) ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ١٨٤.

شيزر؟ يروي ابن العديم أن الذي دفع مسلم لحصار شيزر هو حسده لابن منقذ، لكن الأحداث التي وقعت برهنت غير ذلك، وأظهرت أن دوافع مسلم كانت أبعد من الحسد، لأنه كان يعمل على جعل الشام كله موحداً تحت سلطته، وفي هذا السبيل عليه إزالة جميع الدويلات الشامية الصغيرة مهما كان لونها، وأن يوحدها تحت زعامته، رغبة أو رهبة، ليتمكن من مجابهة القوىٰ المحيطة، ولأنه كان يدرك أن بلاد الشام لن تستطيع وهي مجزأة القيام بواجبها والمحافظة على استقلالها، ولذلك فما أن استولىٰ على حلب، حتىٰ إلتفت نحو إمارة حران فضمها إلى أملاكه[1]، ثم جرد جميع أمراء الأسر المرداسية، من أملاكهم أيضاً، كما استولىٰ على جميع القرىٰ والأراضي الجبلية، التي كانت في أيدي التركمان، وأصبح شمالي بلاد الشام حتىٰ حماه خالياً من التركمان[2]، وتشدد في ذلك حتىٰ أنه منعهم من الدخول إلى أراضي إمارته حتىٰ ولو مروراً، ثم مد نفوذه على إمارة الرها في المشرق، وأنطاكية في الغرب، وكانت من أملاك الدولة البيزنطية. ثم وصل إلى حمص ففتحها، وحاصر قلعتها، وكان بذلك يريد أن تكون حمص الخطوة الممهدة لوصوله إلى دمشق، ولكنه علم بتحرك تتش ضده لمنعه من إتمام عملية التوحيد، لا بل كان لا يريد أن تقوم دولة قوية في شمالي بلاد الشام تقف في طريق توسعه. لذلك ترك حصار القلعة وتصالح مع خلف بن ملاعب أمير حمص[3]. أمام هذه الانتصارات التي حققها مسلم، يمكن طرح سؤال هام هو هل سيترك السلاجقة مسلم يحقق ما يريد وبالتالي يوافقون على إنهاء وجودهم في بلاد الشام والجزيرة والعراق؟ لا شك أنهم لن يقبلوا بذلك وهم الذين يعتبرون هذه البلاد وحتىٰ مصر ضمن سيطرتهم؟ وإذا كان السلطان ملكشاه قد سمح لمسلم بدخول حلب، فمن الذي سيقاومه؟ وهل ستكون المقاومة بأوامر السلطان وموافقته؟ أم أنه سيظل بعيداً بينما يبارك خطوات غيره في هذا السبيل؟

حين كان مسلم بن قريش العقيلي في حمص، استقبل وفداً منقذياً، عرض عليه التبعية له ودفع مبلغ عشرة آلاف دينار، مقابل رفع الحصار عن شيزر، فقبل مسلم العرض، وأمر برفع الحصار والانسحاب عنها، ثم غادر حمص عائداً إلى حلب، ومنها إلى الموصل ليجهز قواته لقتال تتش، وأصبح الصراع الآن مكشوفاً ووجهاً لوجه بين مسلم بن قريش الذي يحاول ضم جميع بلاد الشام إلى دولته العربية الفتية، وبين تتش الذي يتطلع إلى حلب لضمها إلى مملكته

(١) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١٢٢.

(٢) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٤٢، «وعندما وصل شرف الدولة إلى حماه قبض على جميع الأتراك الذين بالشام، وأخذ منهم الحصون التي كانت في أيديهم، وهي بيت لاها، وتل أغدي، وهاب، وكفر نبل... وحمل الأتراك وحبسهم في الرحبة، فداموا بها إلى أن قتل».

(٣) ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ١٨٨.

السلجوقية الجديدة، وكان تحرك كل طرف بحسب ما يحقق طموحاته:

- فمسلم بن قريش تطلع إلى الدولة الفاطمية في مصر، العدو الأول للسلاجقة، والتي تحاول إبقاء المنطقة خاضعة لها ولو إسمياً فأجرىٰ اتصالات مع بدر الجمالي في القاهرة، وتم الاتفاق بينهما على أن يرسل الفاطميون جيشاً يساعد مسلم في أخذ دمشق، عندما يصل إليها ويحاصرها[1].
- أما تتش فقد استلم في هذا الوقت ــ حين كان مسلم بن قريش يعد العدة للقيام بحملته ضده، في دمشق ــ رسائل من بعض أمراء الأسرة المرداسية، ومن خلف بن ملاعب صاحب حمص، ومن أمير شيزر المنقذي، والجميع يشكون من تصرفات مسلم، ويعرضون التعاون معه لطرده من بلاد الشام وتسليم أملاكه لتتش[2]. وهكذا مرة أخرىٰ يستنجد الأمراء العرب بالتركان لتسليم أراضيهم إليهم، لأن مسلم بنظرهم أصبح يشكل خطراً حقيقياً عليهم، وعلى إماراتهم الصغيرة، ومرة أخرىٰ يفضلون مصالحهم الأنانية الضيقة على مصالح الأمة العليا، ويفضلون التجزئة على الوحدة، والضعف على القوة، فإن كانوا لا يعرفون هذه الحقائق فتلك مصيبة، وإن كانوا يعرفونها ويتجاهلونها فهذه أخطر وأكبر.

رحب تتش بالعرض فجمع قواته، وتوجه نحو أنطاكية سنة ٤٧٥ هـ/ ١٠٨٢ م[3]، بينما تحركت قوات حلفائه شمالاً باتجاه حلب، فاحتلت حماه ثم المعرة، وتابعت سيرها نحو حلب، ومن خلال هذا التحرك يبدو وجود خطة عربية تقضي باستيلاء تتش على المناطق الشمالية الغربية لإمارة حلب، بينما تستولي القوات العربية المتحالفة معه على المناطق الواقعة جنوبها وبعدها تطبق القوتان على حلب، وتنتزعها، وتطرد مسلم من الشام.

عندما وصلت أنباء هذه التحركات إلى مسلم وكان في الموصل، سارع بعبور الفرات على رأس قوات كبيرة واتجه إلى حلب، ومنها كان يريد دمشق. وقد أجبر هذا التحرك السريع لمسلم، تتش ومن معه على التراجع عن خطتهم، وعودة كل منهم إلى بلده، ليدافع عنها أمام زحف مسلم الذي لم يتوقف إلا أمام أسوار دمشق، فألقىٰ الحصار عليها، وذلك سنة

---

(١) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١٢٧.

(٢) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٤٣ ــ ٤٤٤.

(٣) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١٢٦. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٤٣ ــ ٤٤٤.

٤٧٥ هـ/ ١٠٨٣ م[١]، وكانت هذه الخطوة أهم أعمال مسلم باتجاه دولته المنشودة، وهدفه الكبير، وقد دام الحصار قرابة شهر، لكنه أجبر على الانسحاب لأسباب منها:

١ ـ التركيب القبلي لقواته حيث أنه كان بينها إلى جانب العقيليين عدداً من قبائل كلاب، ونمير وطيء وعليم وكلب، وأكراد الجزيرة، ولم يخلص له إلا العقيليون، أما الباقي فوافقوا معه إما عن رهبة من بطشه، أو رغبة في نيل المغانم إذا سقطت دمشق.
٢ ـ كان تنظيم التركمان ومعرفتهم باستخدام الأقواس، أفضل من معرفة العرب بها.
٣ ـ مقاومة تتش الفعّالة وهجوماته المفاجئة، يقول ابن الأثير: «وفي بعض الأيام خرج إليه أي إلى مسلم ـ عسكر دمشق وقاتلوه وحملوا على عسكره حملة صادقة، فانكشفوا وتضعضعوا وانهزمت العرب، وثبت شرف الدولة وأشرف على الأسر»[٢].
٤ ـ عدم وفاء الخلافة الفاطمية بوعودها، وإرسال جيش من مصر لمساعدة مسلم في حصاره لدمشق[٣].
٥ ـ ورود الأخبار إلى مسلم بقيام ثورة في حران ضده «عصا أهل حران على شرف الدولة وأطاعوا قاضيهم ابن جبلة الحنبلي، وعزموا على تسليم حران إلى جبق أمير التركمان»[٤].

لذلك رجع مسلم مسرعاً إلى حمص، فصالح ابن ملاعب وحالفه وأقطعه رفنية وسلمية إضافة لحمص، وأقطع شبيباً بن محمود بن صالح المرداسي حماه، واستخلفه في تلك المنطقة، وعندما وصل مسلم إلى حران وجد قاضيها قد أدخل إليه جماعة من بني نمير، وأرسل إلى جبق أمير التركمان يطلب إليه الحضور ليسلمه البلد. وحاصر مسلم حران، وبينما هو على الحصار وصل التركمان إليها فترك جماعة تتابع الحصار، وسار هو على رأس جماعة أخرى، وهزم التركمان ثم عاد وتابع حصار حران حتى تمكن من اختراق أسوارها بالرغم من الدفاع المستميت عنها «فقتل خلقاً كثيراً من أهل البلد... ثم أخذ القاضي وولداه وأعيان حران ونهب البلد إلى آخر النهار، وبعد ذلك رفع القاضي وولديه والأعيان على السور وصلبهم، وقتل

(١) العظيمي ـ المصدر السابق، ص ٣٣٣، ويجعل حصار شرف الدولة لدمشق في المحرم سنة ٤٧٦ هـ. ابن القلانسي ـ المصدر السابق، ص ١٨٦. ابن الأثير ـ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١٢٧. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ـ أحمد الثالث ـ المجلدة ١٣، حوادث سنة ٤٧٦ هـ، ابن تغري بردي ـ المصدر السابق، جـ ٥، ص ١١٥.
(٢) ابن القلانسي ـ المصدر السابق، ص ١٨٦. ابن الأثير ـ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١٢٧. ابن العديم ـ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٤٥، وهناك تشابه بين الروايات الثلاث.
(٣) ابن الأثير ـ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١٢٧.
(٤) ابن الأثير ـ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١٢٧. ابن كثير ـ المصدر السابق، جـ ٢، ص ١٢٤.

من العوام خلقاً وعاد إلى الموصل»[1].

بعد عودة مسلم إلى الموصل تعرض لمحنة كبيرة، وهزة عنيفة جراء حملة قام بها ابن جهير وأرتق بك على الجزيرة بإيعاز من السلطان، فانتصر على مسلم بأرض آمد[2]، كذلك جاء السلطان ملكشاه قادماً من أصفهان يريد دخول الموصل وليتوج نصر ابن جهير وأرتق على مسلم، وأخذ يعد نفسه لإكمال زحفه على الشام[3]. وهنا لا بد من التساؤل كيف يأذن السلطان لمسلم بدخول حلب ويرضى عنه[4]، ثم يرسل ابن جهير لقتاله وكسر شوكته، ثم يأتي بنفسه ليتوج إنتصار ابن جهير على مسلم، لا شك أن إرسال ابن جهير في البداية كان ضد المروانيين باعتباره كان وزيراً لهم ويعرف ما لديهم من ثروات وإمكانات، ولما كان مسلم حليفاً للمروانيين، فقد اضطر لمساعدتهم ضد ابن جهير، الذي استغل بدوره هذه الفرصة وحارب مسلم وانتصر عليه في آمد، وعندما سمع السلطان بهزيمة مسلم أراد أن يستغل معطيات الوضع الجديد ويتملك الجزيرة ومن ثم يصل إلى حلب. ويبدو أن المصلحة اقتضت الآن مثل هذا الإجراء من السلطان كما اقتضت سابقاً أن يوافق على دخول مسلم إلى حلب.

قبل دخول السلطان مدينة الموصل، بلغه أن مسلم بن قريش نجا من المعركة التي خسرها مع ابن جهير في آمد سنة ٤٧٧ هـ/ ١٠٨٤ ـــ ١٠٨٥ م، كما علم أن أخاه تكش بن ألب أرسلان أعلن الثورة عليه، وبدأ يستولي على مدن خراسان ويعتزم إعلان نفسه سلطاناً بدلاً من ملكشاه[5]. هذان الخبران جعلا ملكشاه يعدل عن متابعة زحفه باتجاه الشام، وقام بدلاً من ذلك باستقبال مسلم ومصالحته، ثم قرر العودة إلى خراسان ليتدارك أوضاعها[6]. وبالمقابل فقد قدم إليه مسلم مبلغاً كبيراً من المال مع عدد من الهدايا الثمينة والخيول، ومن جملتها فرسه الخاص، وهكذا عادت إلى مسلم أملاكه[7]، واستعاد أنفاسه بالرغم من الضربة

---

(١) العظيمي ـــ المصدر السابق، ص ٣٣٣. ابن العماد: شذرات الذهب، جـ ٣، ص ٣٤٩.

(٢) العظيمي ـــ المصدر السابق، ص ٣٣٣. ابن القلانسي ـــ المصدر السابق، ص ١٩١. ابن الأثير ـــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١٣٤ ـــ ١٣٥، ويجعل ذلك سنة ٤٧٧ هـ. وآمد: عاصمة مقاطعة ديار بكر. أما اليوم فديار بكر يطلق على المدينة، ابن منقذ: كتاب الاعتبار، ص ٨٣. ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ١١٧. حسن شميساني: مدينة ماردين، طبعة أولى، بيروت ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م، ص ١٣١.

(٣) ابن القلانسي ـــ المصدر السابق، ص ١٨٩. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ـــ أحمد الثالث ـــ المجلدة ١٣، حوادث سنة ٤٧٦ هـ، ابن كثير ـــ المصدر السابق، جـ ١٢، ص ١٢٦.

(٤) انظر فيما سبق ص ـــ ١١٤

(٥) ابن الأثير ـــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١٣٦. سهيل زكار ـــ المرجع السابق، ص ١٩٦.

(٦) ابن الأثير ـــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١٣٧، ويقول: وعاد إلى خراسان لحرب أخيه. سهيل زكار ـــ المرجع السابق، ص ١٩٦، نقلاً عن رواية غرس النعمة محمد بن هلال الصابيء.

(٧) حسن شميساني: مدينة ماردين، ص ١٣١.

القاصمة التي نزلت به، ونجت مع نجاة مسلم الدولة العقيلية من السقوط، وكانت حملة ابن جهير أخطر ما تعرض له مسلم حتىٰ الآن.

• مسلم بن قريش وسليمان بن قتلمش

كان من المتوقع من مسلم بن قريش بعد نجاته في آمد وعودته إلى إمارته، أن يعمل على لملمة جراحه، وتقوية إمارته من الداخل وإعادة حساباته قبل الإقدام على أي عمل عربي جديد، في هذا الوقت وصلت الأخبار باحتلال سليمان بن قتلمش لنيقية وما جاورها، مثل طرسوس وأذنه والمصيصه وعين زربه، وقام بتأسيس دولة سلاجقة الروم وأخذ يتطلع ببصره نحو أنطاكية، التي حررها سنة ٤٧٧ هـ/ ١٠٨٤ ــ ١٠٨٥ م[١]، مع قلعتها بعد حصار دام مدة شهر تقريباً، وقد ساعده فتح أنطاكية على التطلع إلى بلاد الشام، حيث أخذ منها بتهديد أراضي إمارة حلب كمقدمة للاستيلاء على حلب نفسها، وقد إنضم إليه عدد من الأمراء المرداسيين مع أتباعهم وبعضاً من عساكر مسلم الناقمين.

لم يكن مسلم بن قريش ليتنازل عن مطامعه في بلاد الشام، وعن الجهود التي بذلها كي يحقق ما حققه، ولذلك فإنه ما إن سمع بتصرفات سليمان بن قتلمش، حتىٰ نهض لجمع بعض القوات البدوية العربية وقدم بها إلى حلب، وأخذ يعد العدة للاصطدام بسليمان، ولم يكتفِ بالعرب الذين جمعهم، بل إنه استدعىٰ إليه أيضاً مقدم التركمان مع أتباعه، وأخذ يشن بهذه القوات المتجمعة غارات متتابعة على أراضي أنطاكية، فقابله سليمان بغارات إنتقامية «وأرسل عسكره فنهبوا سواد حلب من منبج إلى المعرة، وسبوا وساقوا من الجمال والدواب والماشية شيئاً كثيراً»[٢]، وقد أدىٰ هذا العمل إلى تضرر سكان وأهالي قرىٰ حلب، وفلاحيها الذين احتجوا لدىٰ سليمان على أعماله ضدهم. فكان جوابه بأن مسلم أجبره على ذلك، بينما علل مسلم غاراته على أنطاكية بأن سليمان قطع الجزية التي كان يدفعها له أمراء أنطاكية البيزنطيون، وعندما طالبه بدفع ما كان يدفعه البيزنطيون، كان جوابه أن الجزية يدفعها الكفار، وهو بحمد الله مؤمن[٣]. وهذا نص رد سليمان بن قتلمش إلى مسلم بن قريش كما أورده أبو الفداء حين طالبه بدفع الجزية «تلك جزية كانت على الروم تمسك عن جهادهم،

---

(١) ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ١٩٠. ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١٣٨ ــ ١٣٩. ابن كثير ــ المصدر السابق، جـ ١٢، ص ١٢٦.

(٢) سبط ابن الجوزي ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢٧٧.

(٣) الذهبي: العبر، جـ ٣، ص ٢٨٥ ــ ٢٨٦.

وقمت أنا بفريضة الجهاد وصارت أنطاكية للمسلمين، فكيف أؤدي عنها إليك جزية»[١].

وأما ابن الأثير فيقول: «وأما المال الذي كان يحمله صاحب أنطاكية قبلي، فهو كان كافراً، وكان يحمل جزية رأسه ورأس أصحابه، وأنا بحمد الله مؤمن، ولا أحمل شيئاً»[٢].

لذلك قرر مسلم مهاجمة سليمان على الرغم من النصائح التي قدمت له بتجنب ذلك فجهز جيشاً تعداده قرابة ستة آلاف مقاتل وقاده باتجاه أنطاكية، وفي الطريق اعترضه سليمان بجيشه ودارت رحىٰ معركة كبيرة، وفي أثناء المعركة تخلىٰ جبق وجماعته التركمان عن مسلم وانضموا إلى سليمان، فتضعضعت قواته، واشتبك الجيشان ظهيرة يوم السبت ٢٤ صفر سنة ٤٧٨ هـ/ ٢١ حزيران ١٠٨٥ م، في موقع يقال له قرزاحل[٣]، وكان النصر حليف سليمان، وانهزم مسلم مع قواته، ولم يصمد معه حتىٰ النهاية سوىٰ أحداث حلب، وكانوا ستمائة، وحاول مسلم الانسحاب بتغطية من الأحداث الذين سقط منهم أربعمائة، إلا أنه أخفق في النجاة، وتلقىٰ ضربة أفقدته حياته[٤]. ويمكن تعليل هزيمة مسلم بن قريش وقواته أمام سليمان بن قتلمش وقواته بأسباب عديدة منها:

١ ــ تخلي قوات جبق التركمانية في بدء المعركة وانضمامها إلى جانب سليمان، وكان مسلم قد استدعىٰ جبق لمساعدته ولم يستفد من التجارب...؟!.

٢ ــ تخلي أصحاب مسلم من بعض القبائل عنه، وهروبهم من ساحة المعركة، تاركين مسلم يعاني مصيره وليس معه سوىٰ أحداث حلب.

٣ ــ إن الشمس كانت في وجوه أصحاب مسلم[٥]، خاصة وإن الشهر حزيران.

بعد مقتل مسلم بن قريش، تسلم أمور البلاد بدلاً عنه أخوه إبراهيم بن قريش، أما حلب فلم تقبل بالخضوع إلى إبراهيم بن قريش ورفض أهلها تسليمها له[٦].

---

(١) أبو الفداء ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ١٩٥. اليافعي اليمني المكي: مرآة الجنان، جـ ٣، ص ١٢٠، وقد ورد نصاً مشابهاً لما أورده أبو الفداء.

(٢) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١٤٠.

(٣) العظيمي ــ المصدر السابق، ص ٣٣٣، ويسمىٰ الموقع بئر راحل ويقع غرب عفرين، وهو تصحيف عن قرزاحل. ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ١٩٢. ابن أبي الدم ــ المصدر السابق، ص ١٣٤ ــ ١٣٨، ويقول إن لقاء سليمان مع مسلم كان على موضع من أعمال الجومة. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٥٤ ــ ٤٥٥، ويقول عن قُرزاحل: من نواحي حلب ثم من نواحي العمق، يعشوف ــ المصدر السابق، ص ٤٧.

(٤) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١٤٠. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٥٦. أبو الفداء ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ١٩٦. ابن كثير ــ المصدر السابق، جـ ١٢، ص ١٢٦. ابن تغري بردي ــ المصدر السابق، جـ ٥، ص ١١٩، ويجعل مقتل مسلم سنة ٤٧٧ هـ. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، جـ ٣، ص ٣٦٢. ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ١١٩.

(٥) سهيل زكار ــ المرجع السابق، ص ٢٠٠.

(٦) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٥٦.

ومرة أخرىٰ تكون أسباب هزيمة أمير عربي وجيوشه هو تخاذل الغز الذين استنجد بهم في وقت المحنة، وكان عليه أن لا يثق بهم، وإذا كان هناك في المرات السابقة مجال للصحو أو إنقاذ الأمور أو معالجتها، فإن الهزيمة هذه المرة كانت فاصلة ونهائية. لأنه بمقتل مسلم بن قريش إنتهىٰ مشروع دولة عربية وصل إلى أقصىٰ مداه وكان المفترض في هذه الدولة أن تقف أمام المد السلجوقي القادم من الشرق، وانتهت بذلك أيضاً فترة الصراع بين القبائل العربية البدوية والبدو التركمان على أرض بلاد الشام، ليصبح الصراع من الآن فصاعداً ليس بين التركمان أنفسهم وحسب، بل بينهم وبين الصليبيين القادمين من الغرب. وسيقع عليهم عبء الدفاع عن بلاد الشام دون أن يكون لأهل البلاد دور في تقرير مصيرها وقيادة جيوشها، اللهم إلا كجنود في جيوش قادها السلاجقة، باستثناء بعض العائلات العربية التي ظلت محافظة على كياناتها واستقلالها. بالرغم من العواصف التي تعرضت لها، كبني منقذ في شيزر، وبني عمار في طرابلس.

٧ ــ حملة ملكشاه وسيطرة السلاجقة على حلب:

عندما قتل مسلم بن قريش ورفض أهلها تسليمها لأخيه إبراهيم، أصبح مقدم «أحداث» حلب الشريف حسن هبة الله الحتيتي الحاكم الفعلي لها، ويشاركه في مسؤولية تولي القلعة وإدارة أمورها سالم بن مالك ابن عم مسلم[*]. وفي تلك الأثناء وصل إلى حلب سليمان بن قتلمش وطرح أمام أسوارها جثة مسلم آملاً أن تسلم له المدينة، لكن الحتيتي رفض التسليم وأصر على المقاومة[1]، وراسل السلطان ملكشاه وأعلمه بمقتل مسلم وحصار سليمان لحلب، ودعاه للقدوم إليها ليتم تسليمها له[2].

لجأ الحتيتي إلى السلطان ملكشاه لأنه كان معرضاً للخطر من قبل سليمان بن قتلمش الذي فرض الحصار على حلب. ولأنه أدرك أيضاً، أن حلب إن نجت من سليمان، فإنها لن تنجو من مطامع تتش، إضافة لذلك بدأ الحتيتي ببناء قلعة لنفسه سماها قلعة الشريف[3]، لأنه لم يكن له سلطة على القلعة الكبيرة. وأصبحت قلعة الشريف مقراً لحكومة الحتيتي،

(*) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٥٦.

(١) العظيمي ــ المصدر السابق، ص ٣٣٤. ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ١٩٢. ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١٤١. أبو الفداء ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ١٩٧. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٦٠، ويقول إن الذي حمل رسالة الحتيتي إلى السلطان هو مبارك بن شبل الدولة. سهيل زكار ــ المرجع السابق، ص ١٩٩ ــ ٢٠١.

(٢) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٥٩.

(٣) ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ١٩٣. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٥٩.

وثكنة «لأحداثه» الذين يسيطرون على حلب ويتولون إدارتها، فيما يشبه حكومة ميليشيا شعبية.

وفي أثناء حصار حلبْ قام سليمان بن قتلمش بالاستيلاء على معرة النعمان وكفر طاب[1]، لأنه أدرك أن أمر حصار هذه المدينة سيطول.

تحرك السلطان ملكشاه من خراسان إلى بلاد الشام على رأس قوات ضخمة لمجرد وصول رسالة الحتيتي إليه، لكن تحركه كان بطيئاً مما جعل سليمان يضيّق الحصار ويشدده أكثر، لذلك اضطر الحتيتي مكرهاً لاستدعاء تتش ليسلمه حلب كتدبير مؤقت لكسب الوقت، معتقداً أن السلطان سيسبق تتش في الوصول إليه، وبذلك يفلت من سليمان ومن تتش بالوقت نفسه.

وصلت دعوة الحتيتي إلى تتش وكان عنده أرتق بن اكسب وأتباعه، وكان تتش ينتظر مثل هذه الدعوة بفارغ الصبر ليحقق حلمه القديم ويضم حلب إلى مملكته. ولذلك فقد تحرك بسرعة باتجاه الشمال مع قواته ومعه أرتق ورجاله يريدون حلب وذلك في المحرم سنة ٤٧٩ هـ/ نيسان ــ أيار ١٠٨٦ م[2]. وقبل وصول تتش وقواته إلى حلب اعترضه سليمان بن قتلمش بقواته، والتحم الجيشان السلجوقيان في موقع يعرف بعين سليم[3]، تمخض القتال في نهايته عن نصر تتش وهزيمة سليمان ومقتله[4]، وكانت هذه هي المرة الأولىٰ التي يتقاتل فيها جيشان نظاميان سلجوقيان على أرض الشام..

بعد هذا النصر الذي حققه تتش على سليمان، توجه بجيوشه إلى حلب، لكنه وجد الأبواب مقفلة بوجه قواته، وعندما استوضح السبب قاله له الحتيتي: إن السلطان أصبح قريباً من حلب وهو يحظر تسليمها لأحد غيره[5]. إلا أن تتش لم يقنع بالجواب وأمر قواته بضرب الحصار عليها حتىٰ تسقط، وقد سقطت فعلاً بتاريخ ٢٦ ربيع الأول سنة ٤٧٩ هـ/ ١١ تموز ١٠٨٦ م[6]. وكان دخوله إليها نتيجة قيام عدد من تجار حلب الذين يكرهون الحتيتي ولاقوا

---

(١) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٥٩.

(٢) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٦٠. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٦٦.

(٣) عين سليم: موقع على بعد ثلاثة أميال من حلب، ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٤، ص ١٧٨.

(٤) العظيمي ــ المصدر السابق، ص ٣٣٥. ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ١٩٤. ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١٧٤. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٦٠. الذهبي: العبر، جـ ٣، ص ٢٩٣. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ٩. أبو الفداء ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ١٩٧. ابن كثير ــ المصدر السابق، جـ ١٢، ص ١٣٠.

(٥) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٦٠. عماد الدين خليل ــ المرجع السابق، ص ٦٦.

(٦) ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ١٩٥. ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١٤٨. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٦٠. أبو الفداء ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ١٩٧. الذهبي: العبر، جـ ٣، ص ١٩٧. اليافعي اليمني المكي: مرآة الجنان، جـ ٣،

منه شدة وعنتاً بفتح إحدىٰ بوابات سور حلب[1]، وهكذا كان حصار تتش لحلب هذه المرة أقصر حصار حاصرها به.

لم يتمكن تتش بالرغم من دخوله حلب من الاستيلاء على قلعة الشريف (مقر تمركز الأحداث)، أو القلعة الكبيرة ومتوليها سالم بن مالك الذي أعلن أنه لن يسلمها إلا للسلطان نفسه لأن مسلم بن قريش كان قد أوصاه بذلك، لكن تتش تمكن بعد أيام من الاستيلاء على قلعة الشريف، وقبض على الحتيتي، ونفاه إلى القدس[2]، ثم ركز جهوده على القلعة الكبيرة وحاصرها قرابة شهر، وأثناء الحصار وصلت إلى أطراف حلب طلائع قوات ملكشاه، وقد آثر تتش ألا يصطدم مع أخيه وأن لا يلتقي معه، لذلك جمع قواته وانسحب عائداً إلى دمشق[3].

كان على رأس طلائع قوات السلطان ملكشاه التي وصلت إلى حلب عدداً من المقدمين منهم: برسق وإياز وبوزان، أما السلطان فكان قد تحرك من أصفهان في جمادىٰ الآخرة فملك في طريقه حران ثم سار إلى الرها ومنها إلى حلب حيث وصلها في الثالث والعشرين من شعبان سنة ٤٧٩ هـ/ الثالث من كانون الأول ١٠٨٦ م، فتسلمها دون قتال[4]، كما تسلم القلعة من سالم بن مالك فأقطعه بدلاً عنها قلعة جعبر[5]، وأقطع محمد بن مسلم بن قريش حران والرقة والرحبة وسروج والخابور[6]، أمضىٰ السلطان ملكشاه عدة أيام في حلب ثم واصل سيره إلى أنطاكية فتسلمها، وعين ياغي سيان حاكماً عليها. «ثم وصل إلى

ص ١٠٠ ــ ١٠٨.

(١) العظيمي ــ المصدر السابق، ص ٣٣٥، ويسمىٰ الشخص الذي فتح بوابة سور حلب لتتش، بابن البرغولي. ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١٤٨، يسميه ابن الرعوي. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٦٠، يسميه ابن البرلي الحلبي. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ٩. نيقشوف ــ المصدر السابق، ص ٤١.

(٢) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٦٢.

(٣) العظيمي ــ المصدر السابق، ص ٣٣٥. ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١٤٩. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢٠، ص ٤٦٢. أبو الفداء ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٦٢. الذهبي: العبر، جـ ٣، ص ٢٩٣. اليافعي اليمني المكي ــ المصدر السابق، جـ ٣، ص ١٠٠ ــ ١٠٨. عماد الدين خليل ــ المرجع السابق، ص ٦٧.

(٤) ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ١٩٥، لكنه يورد هذا الخبر في حوادث سنة ٤٧٥ هـ، وهو خطأ واضح، كما يتبين من مجريات الأحداث التاريخية. ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١٤٨. الذهبي ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٩. اليافعي اليمني المكي ــ المصدر السابق، جـ ٣، ص ١٠٠ ــ ١٠٨. ابن كثير ــ المصدر السابق، جـ ١٢، ص ١٣٠. القرماني ــ المصدر السابق، ص ٢٧٧.

(٥) العظيمي ــ المصدر السابق، ص ١٣٥. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٦٥. أبو الفداء ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ١٩٧، ويقول: وكان بها صاحبها سابق الدين جعبر القشيري، وهو شيخ أعمىٰ فأمسكه، وأمسك ولديه وكانا يقطعان الطريق ويخيفان السبيل، فملكها أثناء قدومه إلى حلب.

(٦) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١٥٨. أبو الفداء ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ١٩٧، ويجعل إقطاع السلطان ملكشاه حران لمحمد بن مسلم، بعد خروجه من أصبهان في طريقه إلى حلب. الذهبي: العبر، جـ ٣، ص ٢٩٣، ويجعل إقطاع السلطان ملكشاه حران لمحمد بن مسلم، بعد عودته إلى أصبهان وتزويجه أخته زليخا لمحمد بن مسلم.

السويدية، فصلىٰ على شاطىء البرج شكراً لله تعالىٰ على أن ملّكه، من بحر المشرق إلى بحر المغرب، وعاد إلى حلب وعيّد بها»[1]، وأثناء وجود السلطان في حلب راسله نصر بن علي المنقذي أمير شيزر يعترف له بالطاعة ويتنازل له عن اللاذقية وأفامية وكفر طاب[2].

وهكذا فإن ملكشاه استطاع أن يحقق نصراً كبيراً في بلاد الشام بدخوله حلب ووصوله إلى أنطاكية، وهو ما لم يحققه سلطان قبله، وبدون أية خسائر، لا بل استقبل بالترحيب، كما تسلم اللاذقية وغيرها دون أن يصل إلى هذه المناطق بقواته. واستطاع بذلك أن يقطف ثمار ما قام به قبله الغز التركمان بدءاً من ابن خان وانتهاءً بتتش في هذه المنطقة بحيث لم يبق فيها من يعارض وصوله إليها ولو بكلمة. بعد ذلك غادر ملكشاه حلب متوجهاً إلى خراسان بعد أن أقطعها حاجبه آق سنقر، وعينه والياً عليها[3]، يساعده في ولاية القلعة تركماني اسمه نوح، كما ترك معه أربعة آلاف فارس كحامية لحلب، وولي على جمع المال أبا منصور بن الخلال[4]، كما أقطع الرها لبوزان وعينه حاكماً عليها، واستصحب معه ابن الحتيتي بناء على طلب من الأهالي[5].

كانت حملة ملكشاه ثاني حملة سلجوقية كبيرة، يقودها أحد سلاطين السلاجقة الكبار إلى حلب، وقد أوصلت هذه الحملة الامبراطورية السلجوقية إلى أقصىٰ اتساع لها، وحقق ملكشاه ما لم يستطع والده ألب أرسلان تحقيقه في الاستيلاء على الرها وحلب وأنطاكية.

وهكذا أصبحت إمارة حلب تحت الحكم السلجوقي المباشر، وبدأت مرحلة جديدة تعرضت، فيها حلب خاصة وبلاد الشام عامة لهزات عنيفة ومدمرة، قبل خضوعها لعماد الدين زنكي في سنة ٥٢٢ هـ/١١٢٨ م.

٨ ــ أسباب دخول السلاجقة إلى بلاد الشام عامة، وحلب خاصة:

بدأ تحرك السلاجقة غرباً منذ سنة ٤٠٩ هـ/١٠١٨ ــ ١٠١٩ م، وما بعدها حتىٰ

---

(١) العظيمي ــ المصدر السابق، ص ٣٣٥.

(٢) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١٤٩. ابن الفداء ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ١٩٨.

(٣) ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ١٩٦، يجعل تقرير ولاية حلب لآق سنقر سنة ٤٨٠ هـ بدلاً من سنة ٤٧٩ هـ. العظيمي: تاريخ العظيمي، ص ٣٥٤، يجعل تولية السلطان حلب لآق سنقر والقلعة لنوح التركي سنة ٤٨٠ هـ أيضاً. ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١٥٠. ابن أبي الدم ــ المصدر السابق، ص ١٣٤. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٦٦. ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ١٢٠. أبو الفداء ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ١٩٨. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ٩. الراوندي: راحة الصدور، ص ٢٠٣. ابن كثير ــ المصدر السابق، جـ ١٢، ص ١٣٠. حوادث سنة ٤٧٩ هـ. القرماني ــ المصدر السابق، ص ٢٧٧. يعشوف ــ المصدر السابق، ص ٤٦، يجعل تسليم السلطان حلب لآق سنقر سنة ٤٨٠ هـ. الغزي ــ المصدر السابق، ص ٧٦.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٦٧.

(٥) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٦٦.

وصل الأمر بهم إلى دخول بغداد سنة ٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥ ــ ١٠٥٦ م، وتمكنوا من إزالة سلطان البويهيين[١].

وهكذا وقعت الخلافة العباسية مجدداً تحت نوع جديد من التحكم، هو التحكم السلجوقي، وجاءت إلى الوجود دولة جديدة هي السلطنة السلجوقية، وانساح التركمان السلاجقة في العراق، والجزيرة وأرمينية وآسية الصغرى، متوسعين على حساب المناطق العربية الإسلامية، والامبراطورية البيزنطية، غير مبالين في سبيل تحقيق غاياتهم بما سببوه من الخراب العظيم والدمار المريع[٢].

بعد دخول طغرلبك بغداد بدأ يتطلع ببصره غرباً نحو بلاد الشام ومصر، لاستكمال امبراطوريته الجديدة، وهنا لا بد من التساؤل، لماذا تطلع التركمان إلى بلاد الشام، وما هي أسباب دخولهم إليها بشكل عام وإلى حلب بشكل خاص.

من خلال الاطلاع على تاريخ السلاجقة في العراق وبلاد الشام، يمكن إرجاع الأسباب التي دفعتهم للاستيلاء على بلاد الشام إلى نوعين:

الأول: عقائدي مذهبي.

الثاني: سياسي توسعي.

وينقسم السبب **الأول**: **العقائدي المذهبي** إلى قسمين، **الأول**: توحيد العالم العربي الإسلامي تحت سلطة الخلافة العباسية، ولذلك دافعوا عن الخليفة العباسي في بغداد، وأعادوه إلى مقره عندما أخرج منه وذلك أثناء حركة البساسيري واستيلائه على بغداد سنة ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٨ ــ ١٠٥٩ م[٣]. ولم يكن هذا السبب كما يبدو إلا للحصول على السلطة والسيطرة على الخلافة في بغداد، وإضفاء الشرعية على سلطتهم ولتحقيق مطامحهم لقربهم من مركز الخلافة العباسية في بغداد أولاً، وبعدهم عن مركز الخلافة الفاطمية في القاهرة ثانياً. والدليل على ذلك أن إبراهيم ينال شقيق السلطان طغرلبك لأمه، مال إلى الفاطميين عندما اختلف مع أخيه لتحقيق مكاسب سياسية وشخصية، كما أن البساسيري عندما دخل بغداد وخطب بها لخليفة مصر، مال العامة إليه بالرغم من أنه يخطب للفاطميين، ويشير ابن الأثير إلى ذلك بقوله: «وكان ميل العامة إلى البساسيري، أما الشيعة فللمذهب، وأما السنة فلما

---

(١) انظر فيما سبق صفحة ٧٥ وما بعدها.

(٢) سهيل زكار: الحروب الصليبية، الطبعة الأولى، دمشق ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م، جـ ١، ص ٥١.

(٣) شاكر مصطفى: دخول الغز الترك إلى الشام، ص ٣٠٣.

فعل بهم الأتراك»[1]. كما أن التركمان عندما دخلوا بغداد نهبهم الناس، بينما دافع عنهم وحماهم أهل الكرخ وهم شيعة.

الثاني: هو القضاء على الدولة الفاطمية وإحلال الخلافة العباسية محلها، ولذلك وبمجرد أن أنعم الخليفة على طغرلبك بلقب ملك المشرق والمغرب وأنه ولاه جميع ما ولاه الله من بلاد[2] اعتبر نفسه مسؤولاً عن جميع ديار المسلمين بما فيها بلاد الشام ومصر وأن هذا اللقب لا يأخذ مداه ويستكمل معناه إلا بإعادة هذه البلاد إلى حظيرة الخلافة العباسية، وإخضاعها لسلطة السلطان السلجوقي، أما خليفة بغداد، فكان همه إعادة الهيبة إلى منصب الخلافة، بعد أن أصبح ألعوبة بيد البويهيين وقد وجد بالقوة السلجوقية النامية، غاية مطلبه[3]، ولذلك أرسل رسوله أبو محمد هبة بن محمد بن الحسن بن المأمون يدعو طغرلبك إلى بغداد[4] ليخطب له، فدخلها سنة ٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥ ــ ١٠٥٦ م، ولكنه لم يكن مع السلاجقة فيما بعد بأحسن حالاً مما كان عليه مع البويهيين.

النوع الثاني هو **السياسي التوسعي**: إن الأسباب السياسية التوسعية لدخول السلاجقة بلاد الشام بشكل عام وحلب بشكل خاص كانت كثيرة ومتعددة منها:

١ ــ إن بلاد الشام كانت جزءاً من المجال الحيوي والاستقراري للقبائل والجماعات التركمانية المنساحة بدون توقف أو ضابط، وتحتاج إلى أماكن تستقر بها، ولذلك قاموا بعدة محاولات للدخول إلى بلاد الشام، كان آخرها وأكبرها حملتي ألب أرسلان وابنه ملكشاه، وهي تدل بصورة قاطعة على رغبة السلاجقة بحكم هذه البلاد، وإخضاعها لسيطرتهم.

٢ ــ كان سلاطين السلاجقة، يرغبون بالاستيلاء على بلاد الشام وضمها إلى أملاكهم، بغية الحصول على أكبر مساحة من الأراضي الواقعة إلى غربي نقطة تحركهم الأولى[5]، والانطلاق منها إلى الجنوب باتجاه مصر، وإلى الشمال باتجاه بيزنطة.

٣ ــ كان الاهتمام الأول للسلاجقة هو الاستيلاء على حلب، لكونهم اعتبروها نقطة إنطلاق نحو جميع بلاد الشام، وقد حوصرت حلب من قبلهم عدة مرات قبل إخضاعها لسلطانهم، كما اعتبروها مركزاً هاماً يتوغلون منه إلى داخل الأراضي البيزنطية كما اعتبرها

---

(١) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ٩، ص ٦٤١.

(٢) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ٩، ص ٦٣٤.

(٣) كان خليفة بغداد هو: القائم بأمر الله أبو جعفر وتقلد منصب الخلافة بعد وفاة الإمام القادر بالله في ذي الحجة سنة ٤٢٢ هـ.

(٤) العماد الأصفهاني: دولة آل سلجوق، ص ٨.

(٥) شاكر مصطفى ــ المرجع السابق، ص ٣٥٦.

السلطان السلجوقي ألب أرسلان «مفتاح الطريق الاستراتيجي بين امبراطوريته في المشرق، وبين الأرض التي يغامر الآن بغزوها في الشام ومصر وهذا ما يفسر تشدده في رفض الولاء الشكلي من قبل الأمير المرداسي محمود بن نصر»[1].

٤ ــ كانت حلب بالنسبة لبعض السلاجقة، مركزاً تموينياً استراتيجياً يحصلون منه على احتياجاتهم أثناء غزوهم الأراضي البيزنطية والمناطق الشامية، ويبيعون فيها ما يغنموه في غزواتهم، وكانت غنائمهم من البلاد البيزنطية هائلة[2]، ويروي ابن العديم عن طائفة من التركان نزل بعضهم على دلوك، ثم يتحدث عن نهبهم للمعرة والغنائم التي حصلوا عليها، وبيعها في أسواق حلب[3].

تلك هي جملة من الأسباب التي حدت بالتركان السلاجقة، دخول بلاد الشام وقد ساعدهم على احتلالهم لبلاد الشام جملة من العوامل أيضاً منها:

١ ــ إنتشار نفوذ قبائل متعددة، وتنافسها فيما بينها، كالكلابيين في الشمال وعلى رأسهم المرداسيين ونزاعاتهم في حلب ومناطقها، وحروب بني الجراح في فلسطين وطبرية، بسبب عدم وجود دولة قوية تجمعهم وتوحد قواهم.

٢ ــ عدم قدرة أهالي البلاد على الدفاع عن بلادهم، بسبب الدمار والخراب الذي كان يحدثه غزو البدو العرب على أطراف المدن والذي لم ينقطع لفترات طويلة، بسبب ضعف السلطة الحكومية، حتى أن بعض الأمراء كانوا يستخدمون البدو في نزاعاتهم، كالمرداسيين وبني الجراح وغيرهم[3]. وسنرى أن أول ما قام به آق سنقر، في حلب هو نشر الأمن والاستقرار.

٣ ــ ظلم الحكام والأمراء لعامة الناس وفرض الضرائب عليهم، ومصادرة أملاكهم واستنزاف خيراتهم ومقدراتهم. بغية تمويل صراعاتهم من جهة، وزيادة ثرواتهم من جهة أخرى. ويكفي للتدليل على صحة ذلك، ما خلفه أحد ولاة دمشق وهو أنوشتكين الدزبري (سنة ٤١٩ ــ ٤٣٦ هـ/١٠٢٨ ــ ١٠٤٥م) «وهو الممدوح بحسن السيرة والعدل. فقد قيل إنه خلف بقلعة حلب بعد وفاته ستمائة ألف دينار، سوى الآلات والعروض، وقيمة الغلات مائة ألف دينار، وأخذ له من دمشق وفلسطين مائتا ألف دينار، وكان له مع التجار خمسون ألف دينار، ونهب له من القصر بدمشق مائتا ألف

---

(١) شاكر مصطفى ــ المرجع السابق، ص ٣٥٦.

(٢) سهيل زكار ــ المرجع السابق، ص ٩٤.

(٣) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣٧٦. انظر فيما سبق صفحة ــ ٣٧ ــ.

دينار .... »[1]، من أين أتى بهذه الأموال؟ لا شك أنها من جيوب محكوميه وجهدهم وعرقهم.

٤ ــ وفوق هذا وذاك كثرة الأوبئة والمجاعات والنكبات الطبيعية التي تعرضت لها بلاد الشام، والتي خربت كثيراً من القرى والمدن. كالوباء الذي تعرضت له حلب سنة ٤٥٩ هـ/ ١٠٦٦ ــ ١٠٦٧ م، ويقول ابن العديم: «حتى إنه مات في رجب من هذه السنة زهاء أربعة آلاف من هذا الوباء فضلاً عن سائر الشهور»[2].

كل هذه العوامل أدت إلى إضعاف مقاومة البلاد وجعلتها فريسة سهلة أمام الغزوات الخارجية، كغزوات التركمان السلاجقة، ومن بعدهم الاجتياح الفرنجي الصليبي القادم والمدمر.

• أعمال التركمان في بلاد الشام وموقف أهالي حلب منهم:

كان الأسلوب الذي اتبعه التركمان أثناء إندفاعهم باتجاه الغرب، هو أسلوب النهب والقتل والتدمير والسلب والسبي والتشعيث، ويصف الأصفهاني ما قامت به جيوش السلطان طغرلبك عندما تحرك على رأسها باتجاه بغداد، «واندفع كالسيل، ولم يترك الترك ورداً إلا شفهوه، ولا حسناً إلا شوهوه، ولا ناراً إلا أرشوها، ولا داراً إلا شعثوها، ولا عصمة إلا رفعوها، ولا وصمة إلا وضعوها، فما جاؤوا إلى بلدة إلا ملكوا مالكها، وملأوا مسالكها، وأرعبوا ساكنيها، وأسكنوها الرعب... »[3].

إنه وصف دقيق لما قام به التركمان أثناء إندفاعهم، دون رادع يردعهم أو يوقف زحفهم، وما قام به ابن خان وصندق والأفشين وأحمد شاه ومن بعدهم تتش وأرتق وسليمان بن قتلمش[4]، يعتبر شواهد حية على أعمالهم وممارساتهم في بلاد الشام عامة، ومناطق حلب خاصة، ويمكن أن تعزى أعمالهم وتصرفاتهم إلى كونهم بداة غلاظاً ضاقت بهم الأرض التي بها يقيمون، والبدوي أي كان لونه أو جنسه يتصرف تصرفاً عفوياً غير محسوب النتائج، إضافة إلى أطماعهم في هذه البلاد.

ومثلما كانت غارات الغز وأفعالهم قاسية وعنيفة، كان الرد عليها من القبائل العربية البدوية وسكان المدن لا يقل عنفاً وشدة، وما قام به عطية مع الأحداث ضد التركمان سنة ٤٥٧ هـ/

---

(١) ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ١٢٧.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ١٠. وينقل عنه شاكر مصطفى ــ المرجع السابق، ص ٣١٠.

(٣) العماد الأصفهاني: دولة آل سلجوق، ص ٩.

(٤) انظر فيما سبق صفحة ٧٧ وما بعدها.

١٠٦٤ ـ ١٠٦٥ م، وخطف القبائل العربية للتركان المنهزمين، ودفاع أهل حلب المستميت عند حصارها من قبل ألب أرسلان، ومن بعده تتش وسليمان بن قتلمش، وموقف مسلم بن قريش وتخليه عن تتش، وإيقاعه بالنجدة التركانية التي جاءت لمساعدة تتش، ثم قبضه على جميع التركان الذين بالشام وسجنهم في الرحبة[١]. كل هذه المواقف تدل على العداء المستحكم بين العرب والتركان القادمين، أما القبائل العربية الحاكمة فقد قبلت مساعدتهم لتحقيق طموحاتها السياسية، ولم يكن أبناء المدن وخاصة تنظيمات «الأحداث» بأقل مقاومة، فقد لعبت هذه التنظيمات دوراً كبيراً في الصراع بين التركان والعرب، وكان «الأحداث» دائماً ضد التركان بدافع من عروبتهم أولاً، وحماية لمصالحهم وسلطاتهم ومكانتهم التي هددها مجيء السلاجقة بالزوال ثانياً، كما يمكن القول إن غالبية سكان الشام والجزيرة وقفت ضد التركان وكرهتهم لما ألحقوه بهم من ويلات ومصائب[٢]. وعلى الرغم من ذلك لم نسمع عن مواقف فئات السكان الأخرى كالحرفيين والصناع والتجار والفلاحين عموماً. وهذا ما يؤكد أن الإنسان العادي لم يكن له دور في تقرير مصيره أو مصير بلده، أو أن المصادر لم تكن تهتم بذكر هذه الفئة وأعمالها وموقفها لأن أغلب المؤرخين كانوا يؤرخون للأمراء والحكام وذوي النفوذ، أو لأن هذه الفئات كانت تعمل تحت جناح أو لواء الجماعة المتزعمة...



(١) انظر فيما سبق صفحة ١١٦ وما بعدها.

(٢) سهيل زكار ـ المرجع السابق، ص ١٧٨.

الفصل الثالث

الحكم السلجوقي المباشر لحلب

أولاً ــ حلب في ظل حكم قسيم الدول آق سنقر :

١ ــ آق سنقر قسيم الدولة ووصوله إلى السلطة .

٢ ــ حكم آق سنقر في حلب :

آ ــ سياسته الداخلية .

ب ــ صراعه مع تتش، توسعه في الشام، سياسته الخارجية :

ــ القوات العسكرية لآق سنقر .

ــ فرض سلطانه على المناطق المحيطة بحلب .

ــ علاقته بالسلطان ملكشاه .

ــ موقفه من محاولات تتش التوسعية ومطالبته بالسلطنة .

ــ إنحيازه إلى جانب بركيا روق بن ملكشاه .

٣ ــ مقتل آق سنقر .

ثانياً ــ حلب في ظل حكم الملك رضوان بن تتش .

١ ــ وصول الملك رضوان إلى الحكم .

٢ ــ حلب في ظل حكم الملك رضوان :

آ ــ محاولة رضوان استعادة أملاك أبيه :

ــ محاولته استعادة ديار بكر ومعرة النعمان .

ــ محاولته استعادة دمشق .

ب ـ موقف رضوان من رجاله :

ـ موقفه من يوسف بن آبق .

ـ موقفه من جناح الدولة حسين .

ـ موقفه من المجن الفوعي .

٣ ـ العلاقات بين رضوان والقوىٰ المحيطة :

ـ العلاقة مع الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية .

ـ العلاقة مع الخلافة الفاطمية .

ـ العلاقة مع الاسماعيلية النزارية .

٤ ـ موقف رضوان من الفرنجة الصليبيين :

ـ موقفه من احتلالهم لأنطاكية .

ـ موقفه من حملة كربوقا لإنقاذ أنطاكية .

ـ نشاط الفرنجة الصليبيين بعد هزيمة كربوقا .

ـ حصار الفرنجة الصليبيين لحلب .

ـ معركة أرتاح ونتائجها .

ـ تحالفه مع الفرنجة الصليبيين .

٥ ـ وفاة الملك رضوان .

٦ ـ حلب بعد وفاة الملك وحتىٰ وصول الأراتقة إليها .

أولاً ــ حلب في ظل حكم قسيم الدولة آق سنقر:

١ ــ آق سنقر ــ وصوله إلى السلطة

آق سنقر بن عبد الله[١] المعروف بقسيم الدولة، ويقال إن اسم أبيه إل ترغان[٢]، وأنه من قبيلة ساب يو[٣] وأنه كان مملوكاً للسلطان أبي الفتح ملكشاه وملازماً له[٤]، وأنه كان حاجبه[٥] وذا حظوة عنده، ولا يعرف عن شبابه إلا أنه تزوج من داية السلطان ادريس بن طغان شاه[٦]. قال عنه ابن الأثير: «كان قسيم الدولة تركياً من أصحاب السلطان جلال الدولة ركن الدين ملكشاه بن ألب أرسلان وأترابه، وممن ربي معه في صغره وصحبه حتى كبره، فلما أفضت إليه السلطنة بعد أبيه، وأفاضت تاجها عليه رعى لآق سنقر صحبته، فجعله من أعيان أمرائه وأخص أوليائه، فصادف الإحسان أهله، فرفع قدره، وأعلى محله، واعتمد عليه السلطان في مهماته، وأفضى إليه بأسراره في خلواته وجلواته، ووثق به وثوقاً حسده عليه سائر أمرائه وأجناده لما رأى من شجاعته وحزمه وسداد رأيه وتقدم عنده تقدماً فاق فيه سائر الناس، واختصه السلطان للقرب والإيناس»[٧].

إن ما أورده ابن الأثير في تعريفه لآق سنقر يدل على أنه كان مملوكاً للسلطان ألب أرسلان وعاش في كنفه مع ابنه ملكشاه، ثم أصبح مملوكه وحاجبه، ومن أخلص المخلصين له حتى أن السلطان ملكشاه صدق شكايته ضد أخيه تتش عندما وفدا عليه في بغداد[٨].

إن من أقوى الدلائل على الحظوة التي حازها آق سنقر عند السلطان هو منحه لقب قسيم الدولة[٩]، وكانت الألقاب في تلك الفترة مصونة ولا تعطى إلا لمستحقيها ــ حتى أن

---

(١) هكذا ورد في بغية الطلب، وهذا يدل على عدم معرفة اسم أبيه ولذلك قيل ابن عبد الله لأن كل إنسان يعتبر عبداً من عبيد الله.

(٢) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ المجلد الثالث.

(٣) ابن العديم: زبدة حلب، جـ٢، ص١٠٣. اسم أبيه النعمان، ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص١٦٢، يقول: إنه كان زوج دادة السلطان ملكشاه وهي التي تربيه وتحضنه.

(٤) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ المجلد الثالث، ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص١٠٣، إنه كان مملوكاً للسلطان ملكشاه، وقيل إنه لصيق به. ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص٣٤١، إنه كان مملوكاً للسلطان ملكشاه بن ألب أرسلان.

(٥) ابن واصل (محمد بن سالم): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، القاهرة ١٩٥٣م، جـ١، ص١١. ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ١، ص٢٤١. الذهبي: العبر في خبر من غبر، الكويت ١٩٦١م، جـ٣، ص٣١٥. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص١٤٧.

(٦) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ المجلد الثالث.

(٧) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، القاهرة ١٩٦٣م، ص٤.

(٨) انظر فيما بعد صفحة ــ ١٤٦ ــ

(٩) سهيل زكار: المدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، الطبعة الثانية، دار الفكر ــ ١٩٧٣، ص٢٧١.

السلطان ــ لم يكن يعرف إلا بجلال الدول ومن الدلائل الأخرىٰ على الحظوة التي حازها آق سنقر قسيم الدولة أيضاً أنه كان يقف إلى يمين سدة السلطنة ولا يتقدمه أحد[1].

إن منح هذا اللقب لآق سنقر يدعو للتساؤل حول أسباب منحه خاصة إذا علمنا أن قسيم تعني شريك، فهل أعطي له هذا اللقب لمجرد أنه حاز ثقة السلطان ومحبته ودعمه؟ أم أن هذا المنح كان بسبب أنه ينتسب لقبيلة لها مكانتها وأهميتها بين القبائل السلجوقية الحاكمة وهي قبيلة ساب يو، وأنه كان ذو مكانة رفيعة فيها. أو أنه أدىٰ لملكشاه أعمالاً جليلة استحقت إعطاءه هذا اللقب؟

يبدو أن هذا اللقب أعطي لهذه الأسباب جميعاً إضافة إلى أن المكانة التي حازها لدىٰ ملكشاه تدل دلالة واضحة على أنه تربىٰ وعاش معه فعرف ذكاءه وشجاعته وحسن معاشرته[2].

وصلت مكانة ورفعة آق سنقر عند السلطان ملكشاه إلى الحد الذي أخاف كبار رجال الدولة أمثال الوزير نظام الملك، بالرغم من تحكمه بأمور الدولة والسلطنة وكثرة أتباعه وأعوانه، مما دفعه لتقديم مشورته للسلطان بتعيين آق سنقر حاكماً على إمارة حلب ويضيف إليه حكم غيرها من بلاد الشام، وقد أراد نظام الملك من هذه المشورة تحقيق عدة أمور منها:

١ ــ كسب ثقة ومحبة آق سنقر قسيم الدولة.

٢ ــ إبعاده عن مرافقة السلطان وخدمته، وبالتالي إبعاده عن طريقه ومنافسته.

٣ ــ عدم المساس بثقة السلطان بآق سنقر.

والسؤال الذي يرد هنا، هل تم تعيين آق سنقر والياً على حلب بسبب مشورة أو نصيحة الوزير نظام الملك أم أن ملكشاه كان يرىٰ في ولاية آق سنقر لحلب أموراً أخرىٰ؟.

إن المصادر لا تجيب على التساؤل حتىٰ الآن، ولكن الأحداث تدل على أنَّ ملكشاه وجد أن نصيحة نظام الملك موافقة للظروف التي كانت تمر بها منطقة شمال بلاد الشام وحاجتها إلى شخص قادر على فرض الحكم السلجوقي فيها، ولعله أراد كذلك أن يكون قسيم الدولة حاجزاً بينه وبين أخيه تتش صاحب المطامع السياسية ليس في بلاد الشام وحدها بل وبالسلطنة أيضاً، ويؤيد هذا الافتراض الصراع الذي نشب بين تتش وآق سنقر في حياة السلطان ملكشاه، وكذلك بعد وفاته[3].

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٨.

(٢) ابن الأثير ــ المصدر السابق، ص٨.

(٣) انظر الفقرة التالية.

اعتمد السلطان على آق سنقر في كثير من الحروب ففي سنة ٤٧٣ هـ/ ١٠٨٠ ــ ١٠٨١ م، عينه قائداً للجيش الذي أرسله إلى الموصل بصحبة ابن جهير، وقد استطاع بما عرف عنه من سداد الرأي ورجاحة العقل وقوة السياسة إلى جانب معرفته بأمور الحرب والحصار إقناع أهل الموصل بترك العصيان وإطاعة السلطان بتسليم البلد لابن جهير الذي أخذ ما كان لشرف الدولة وأهله من مالٍ وذخائر[1].

إن جميع المصادر تشير إلى وجود آق سنقر على رأس حملة ابن جهير إلى الموصل ولكنها لم تشر إلى رحيله عن الموصل مع السلطان الذي غادرها لقتال أخيه تكش الذي أظهر العصيان عليه في شعبان سنة ٤٧٣ هـ/ كانون الثاني ــ شباط ١٠٨١ م، كما أنها لم تؤكد بقاءه في الموصل بانتظار عودة السلطان إلى الغرب ليرافقه أثناء توجهه إلى حلب، وعلى الرغم من ذلك فإن ابن الأثير يغفل ذكر اسمه مع جيوش السلطان التي دخلت حلب مع أن السلطان ولاه إمارتها قبل رحيله، ولكنه يكمل روايته في موضع آخر فيقول: إن السلطان عندما ملك حلب سلمها إلى قسيم الدولة آق سنقر[3]، وكذلك يشير ابن كثير إلى أن السلطان استناب على حلب قسيم الدولة آق سنقر[4].

كان أهل حلب قد كاتبوا السلطان ملكشاه لتسليمه حلب التي دخلها تتش سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ ــ ١٠٨٧ م، وحاصر قلعتها، وقد وصلت الأخبار إلى تتش تعلمه بوصول طلائع حملة أخيه السلطان إلى حلب فرحل عنها[5] في الوقت الذي عبر فيه السلطان ملكشاه الفرات ووصل مدينة حلب فتسلمها[6] وتسلم القلعة، وفي أثناء وجوده بحلب أرسل إليه نصر بن علي بن المقلد أمير شيزر يعلمه بدخوله في طاعته وتسليمه اللاذقية وفامية وكفر طاب، فقبل السلطان العرض ولم يزحف على بلاده وأقره أميراً على شيزر، بعدها تابع السلطان مسيره إلى أنطاكية فضمها إلى أملاكه وحط رحاله على ساحل البحر أياماً، ثم عاد إلى حلب وعيّد بها عيد الفطر، ثم رحل عنها بعد أن أقطع حلب ومناطقها، وحماه ومنبج واللاذقية وما معها إلى قسيم الدولة آق سنقر، وأقطع مدينة أنطاكية للأمير ياغي سيان وذلك

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ١٣٦. ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ٥. الدواداري: الدرة المضية، ص ٤١٠. ابن كثير ــ المصدر السابق، جـ ١٢، ص ١٢٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ١٣٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ١٤٨، أما في الباهر فيقول المؤرخ إن السلطان كان في الرها عندما كاتبه أهل حلب، ص ٧.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٢، ص ١٣٠.

(٥) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ١٤٨. ابن أيبك الدواداري: الدرة المضية، ص ٤١٢. بيشوف: تحف الأنباء، ص ٤٦.

(٦) انظر الفصل السابق، الفقرة المتعلقة باجتياز ملكشاه الفرات واحتلاله منبج في طريقه، ثم تسلمه حلب وقلعتها. الغزي ــ المصدر السابق، جـ ٣، ص ٧٦٠، ويجعل تحرك السلطان من أصبهان.

سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ ــ ١٠٨٧ م[١]، وقد اختلف المؤرخون حول تاريخ تعيين آق سنقر والياً على حلب، ويبدو أن هذا الاختلاف مرده إلى أن رحيل السلطان عن حلب لم يذكر بالشهر، فمنهم من قدّر ذلك بأنه أواخر سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ ــ ١٠٨٧ م، وبعضهم قدر ذلك أنه أول سنة ٤٨٠ هـ/ ١٠٨٧ ــ ١٠٨٨ م[٢].

مع تولي آق سنقر حكم حلب بدأت مرحلة جديدة من حكم السلاجقة المباشر لإمارة حلب وانتهىٰ حكم القبائل العربية لهذه الإمارة وأزيحت عن مسرح السياسة والحرب والحكم والدفاع، وأصبح كل ذلك شأناً من شؤون التركمان وسيستمر ذلك في شمالي الشام حتىٰ قيام حكم الزنكيين سنة ٥٢٢ هـ/ ١١٢٨ م.

٢ ــ حكم آق سنقر في حلب:

آ ــ سياسته الداخلية:

عاشت إمارة حلب فترة من المنازعات القبلية والسياسية، قبل دخول السلطان ملكشاه إليها، وبالرغم من أن مسلم بن قريش كان أميراً عليها وحاول إيجاد نوع من الوحدة السياسية لبلاد الشام إلا أن إخفاقه بذلك وانكفاءه عن دمشق إلى حران للقضاء على التمرد الذي حصل بها، وتصميم تتش على إنتزاع حلب وممتلكاتها وضمها إلى سلطانه، ومقاومة أهلها لهذا الضم، دفع بهم إلى استدعاء السلطان ملكشاه الذي اهتبل هذه الفرصة الثمينة ودخلها دون مقاومة، وألحقها بسلطنته، وولىٰ عليها قسيم الدولة آق سنقر.

كان آق سنقر أول حاكم سلجوقي لإمارة حلب، بعدما عانت سنوات طويلة من التمزق والتفكك والحروب الطويلة التي كانت تدور أولاً بين القبائل العربية فيما بينها، ومن ثم بين القبائل العربية وقبائل بدوية قادمة من الشرق هم البدو التركمان[٣].

فمنذ سنة ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٣ ــ ١٠٦٤ م، تعرض شمال بلاد الشام لأبشع أنواع التدمير

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ١٩٦، فيجعل تقرير ولاية آق سنقر على حلب سنة ٤٨٠ هـ/ ١٠٨٧ ــ ١٠٨٨ م، ورغم ذلك فإنه يذكر أنه السلطان عيّد في حلب ثم رحل عنها سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ ــ ١٠٨٧ م، وقبل رحيله أقر آق سنقر على حلب وهو الصواب.
ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ١٥٠. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ص ٢٤٤، ويجعل ذلك سنة ٤٨٠ هـ. ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ١٢٠. ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ المجلد الثالث، الذهبي ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٩.
ابن كثير ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ١٣٠.

(٢) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، جـ ٣، ص ٣٨٠. الدواداري: الدرة المضيّة، ص ٤٣٠. الغزي: نهر الذهب، ص ٧٧.
يعشوف ــ المصدر السابق، ص ٧.

(٣) سهيل زكار: المدخل، ص ٧٣.

والقتل ونهب للقرىٰ وتهديم للحَصون وإتلاف للمحصولات والمزروعات، وأسر للرجال، وسبي للنساء، وقد تناوب هذه الأعمال التخريبية الغز التركان مرة، والبدو العرب أخرىٰ[1].

ولم يكن يشغل الأُمراء والحكام في المنطقة إلا العمل على تثبيت أقدامهم في مواقع السلطة بالتآمر والمؤامرات، أو من خلال اللجوء إلى القوىٰ الكبرىٰ المحيطة بهم كالخلافة العباسية ومن ورائها السلاجقة تارة، أو البيزنطيين والفاطميين تارة أخرىٰ، وهدفهم الوحيد هو المحافظة على دولتهم[2]، وكانت سياستهم في استنجادهم بالقوىٰ المحيطة متوازنة، حتىٰ لا يمكنوا أي منها من القضاء على دولتهم، فيستنجدون بالأقوىٰ عندما يتعرضون للخطر؟ كما فعل عطيه ومحمود ومسلم بن قريش، وفي خضم هذه الصراعات نسوا مسؤولياتهم تجاه مواطنيهم وبلدهم، كما لم يعملوا على تطوير اقتصاد البلاد بما يزيد من وارداتها، بل كانوا إذا احتاجوا إلى الأموال، وكثيراً ما احتاجوا إليها لجأوا إلى فرض الضرائب والأتاوات التي أثقلت كاهل المواطنين وأفقرتهم ووصلت بهم إلى حد التذمر والشكوىٰ[3]، وقد أدىٰ كل ذلك إلى كثرة اللصوص وقطاع الطرق ومخيفي السبيل، فانعدم الأمن داخل البلاد وعلى الطرق التجارية، فأقفرت الأسواق وقلت البضائع فيها لأن التاجر لا يضحي بأمواله إذا كان يدرك وجود من يسلبه ما يحمل، وكذلك ضعفت موارد الزراعة لعدم تمكن الفلاحين من القيام بالحرث والزرع وجني المحصول، وفي هذه الظروف أيضاً برزت وقويت منظمة الأحداث[4] التي كانت تعمل على الحفاظ على مصالح أفرادها، والوقوف بوجه التعديات التي تأتي من الخارج.

تسلم آق سنقر السلطة في حلب في شوال سنة ٤٧٩ هـ/ كانون الثاني ١٠٨٧ م، والبلاد في حالة فوضىٰ تامة كان عليه إزالتها. إضافة إلى أن السلطان ملكشاه إعتمد عليه في تنفيذ سياسة السلاجقة في بلاد الشام، والتي تسير ضمن اتجاهين **الأول**: مقاومة الفاطميين والقضاء على سلطانهم في بلاد الشام ومصر، **والثاني**: هو إخضاع بلاد الشام كاملاً لسلطانهم، فكانت أول أعماله إقامة الحدود الشرعية وإزالة حالة الفوضىٰ التي كانت تعيشها البلاد، والتخلص من المتطرفين في الفساد واستئصال شأفتهم[5]، وملاحقتهم في كل مكان، ونتيجة لذلك فإن أهالي البلاد أخذوا يشعرون بالأمن والاستقرار. وتابع آق سنقر عمله

---

(١) شاكر مصطفىٰ: دخول الترك الغز إلى الشام، ص٣٠٧.

(٢) شاكر مصطفىٰ ــ المرجع السابق، ص ٣١٤.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٤٣٧، كذلك انظر فيما بعد ــ فصل أهم مظاهر الحضارة.

(٤) شاكر مصطفىٰ ــ المرجع السابق، ص ٣١٥.

(٥) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ١٨٠. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٦٧ ــ ٤٦٨. الغزي: نهر الذهب، جـ٣، ص ٧٧.

بملاحقة اللصوص وقطاع الطرق ومخيفي السبيل، فأوقع بهم حتىٰ قضىٰ عليهم قتلاً أو أسراً[1]، فاطمأن القادمون والمسافرون، وبدأ الاستقرار يعرف طريقه إلى حلب من جديد، ونشطت التجارة، ولم يكتفِ بذلك بل كتب وأعطىٰ الأوامر إلى عماله في سائر المدن والقرىٰ التي خضعت لحكمه بتتبع المفسدين، وحماية المسافرين، وتابع ذلك بنفسه، ففي سنة ٤٨٢ هـ/ ١٠٨٩ ــ ١٠٩٠ م، تعرض اللصوص وقطاع الطرق لقافلة كبيرة بولاية حلب، فتجهز آق سنقر على رأس جماعة من عسكره وسار بأثرهم، ولم يرجع إلا بعد أن قتل قسماً منهم وأسر القسم الباقي[2]، وقد بالغ في مسلكه هذا حتىٰ قال ابن القلانسي إنه: «بالغ في ذلك مبالغة حسن ذكره بها، وعظمت هيبته بسببها، وشاع له الصيت باعتمادها»[3].

إلى جانب الشدة والقسوة التي عامل بها الخارجين على القانون، فقد أقر مبدأ المسؤولية الجماعية عندما فرض على أهل كل قرية أو مدينة في بلاده إذا سرق عندهم تاجر أو قافلة أن يدفعوا قيمة ما سرق عندهم قليلاً كان أم كثيراً، وقد طبق قراره هذا بحزم، فنهض الأهالي لمساعدته في فرض الأمن من جهة، ولئلا يدفعوا قيمة ما يسرق في أرضهم، حتىٰ وصل الأمر أنه إذا وصل تاجر إلى بلد من البلاد وضع أمتعته وبضاعته إلى جانبه ونام قرير العين هانيها يحرسه أهل القرية ويحمونه حتىٰ يغادر حدود بلدهم[4]، وبذلك شارك الأهالي في تحمل المسؤولية وحفظ الأمن، حتىٰ تحدث الناس بحسن سيرته وكفايته.

ولثقة آق سنقر بنفسه وقدرته على نشر الأمن والاطمئنان، فإنه نادىٰ في أنحاء الإمارة بأن لا يرفع أحد متاعه ولا يحفظه في طريق، ويروي ابن العديم في بغية الطلب قصة قضائه على دابة ابن آوىٰ التي تأكل جلد المحراث والتي تدل بصورة قاطعة على اهتمام آق سنقر بمتابعة تنفيذ الأوامر التي يصدرها قال: «فخرج يوماً يتصيد فمر على قرية من قرىٰ حلب، فوجد بعض الفلاحين، وقد فرغ من عمل الفدان، وطرح عن البقر النير ورفعه على دابة ليحمله إلى القرية، فقال له: ألم تسمع مناداة قسيم الدولة بأن لا يرفع أحد متاعاً ولا شيئاً من موضعه؟! فقال له: حفظ الله قسيم الدولة قد أمنا في أيامه، وما نرفع هذه الآلة خوفاً عليها أن تسرق، لكن هنا دابة يقال لها ابن آوىٰ تأتي إلى هذا النير فتأكل الجلد الذي عليه، فنحن نحفظه منها ونرفعه لذلك. قال: فعاد قسيم الدولة من الصيد وأمر الصيادين فتتبعوا بنات آوىٰ في بلد حلب، فصادوها حتىٰ أفنوها من بلد حلب، قلت: وهي إلى الآن لا يوجد في بلد

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ١٩٧. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ١٨٠. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٦٧ ــ ٤٦٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ١٨٠.

(٣) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ١٩٧.

(٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٥. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٣٣. ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ١، ص ٢٧.

حلب منها إلا في النادر دون غيرها من البلاد»[1].

لقد دفع الأمان الذي شهدته البلاد في عهد آق سنقر ــ بعد أن حرمت منه مدة طويلة ــ إلى عودة الناس للتجارات في كل الأرجاء بعد إمتناعهم عن ذلك مدة طويلة، وقد أدى الاستقرار ونشاط التجارة إلى إغراق أسواق حلب بالبضائع الواردة إليها من جميع الجهات والأقطار، فرخصت الأسعار، وتداعى الناس إليها للكسب فيها ليحظوا وينعموا بالأمن والاستقرار ويعيشوا حياة رغيدة رخيصة[2]. وقد أثبتت تصرفاته وأعماله بأنه آمن بأن العدل والأمن والاستقرار هي الأسس الكفيلة في بقاء أي حكم واستمراريته، وإن المتابعة والمحاسبة هما الضمانة الأكيدة لاستمرار حكمه.

وقد شهد أغلب المؤرخين بحسن سياسة آق سنقر الداخلية والأمنية، ولم يجمعوا على مدح أو إطراء أمير أو حاكم أو زعيم بمثل ما أجمعوا به على آق سنقر، فقال عنه ابن القلانسي «... وأحسن فيها السيرة وبسط العدل في أهليها، وحمى السابلة المترددين فيها، وأقام الهيبة وأنصف الرعية، وتتبع المفسدين فأبادهم، وقصد أهل الشر فأبعدهم، وحصل له بذلك من الصيت وحسن الذكر، وتضاعف الثناء والشكر، واحترز كل من كان في ضيعة أو معقل من أن يتم على أحد من المجتازين به، أمر يؤخذ به ويهلك بسببه»[3]، وقال ابن الأثير «وكان قسيم الدولة أحسن الأمراء سياسة لرعيته وحفظاً لهم، وكانت بلاده بين رخص عام وعدل شامل وأمن واسع»[4]. أما ابن العديم في بغية الطلب، فقد نقل آراء الكثيرين من المؤرخين الذين فقدت كتبهم في سياسة آق سنقر الداخلية، ومما جاء في كتابه ما نقله عن تاريخ أبي غالب الشيباني فقال: «وكان آق سنقر من أحسن الناس سياسة وآمنهم رعية وسابلة، وعن كتاب عنوان السير للهمذاني قال... فأحسن السيرة وظهر منه عدل لم يعرف بمثله»[5]، وقال عنه ابن كثير: «... بأنه كان من أحسن الملوك سيرة، وأجودهم سريرة، وكانت الرعية في أمن ورخص وعدل»[6]، وقال عنه الغزي «ثم ظهرت كفايته، وعظمت هيبته في جميع بلاده... ورخصت الأسعار في أيامه، وأمنت السبل، وأقيمت الحدود الشرعية»[7].

---

(١) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ المجلد الثالث.

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ــ القسم المطبوع، ص ٢٤٤.

(٣) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ١٩٦، ومثل هذا القول أورده كل من سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان ــ القسم المطبوع، ص ٢٤٤. وابن واصل في كتابه مفرج الكروب، جـ ١، ص ٢٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٣٣. ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٥.

(٥) سهيل زكار: المدخل، ص ٢٧١. ترجمة: آق سنقر من بغية الطلب.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٢، ص ١٤٧.

(٧) الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ٧٧.

إن السياسة التي اتبعها آق سنقر والأعمال التي قام بها والتي مدحه بها أكثر المؤرخين جعلت ذكراه طيبة لدى أهل حلب، مما جعلهم يمدحونه ويثنون على سيرته، وقد شجعهم ذلك فيما بعد على التعاون مع ابنه عماد الدين ومن بعده حفيده نور الدين اللذين اتخذا من حلب قاعدة لحكمهما، ومستقراً للملك الأيوبيين بعدهما.

ب ــ صراعه مع تتش ــ توسعه في الشام ــ سياسته الخارجية:

كان آق سنقر رجل دولة استطاع بحنكته أن يوفر الأمن والاستقرار لإمارة حلب، ولم تكن سياسته الخارجية وإنجازاته فيها بأقل مما قام به في الداخل، وقد نفذ سياسته معتمداً على قوة عسكرية منظمة ومدربة تدريباً جيداً، أنفق عليها إنفاقاً باهظاً، وهيأ لها ما مكنها من التحرك السريع على جميع المستويات الداخلية والخارجية، وكانت نواتها تلك القوة التي تركها ملكشاه معه عندما رحل عن حلب وتعدادها أربعة آلاف مقاتل. وقد أثبت للسلطان مقدرة قواته وحسن تنظيمها عندما قدم إلى بغداد مع الأمراء الآخرين سنة ٤٨٠ هـ/١٠٨٧ــ ١٠٨٨م، بناء على دعوة السلطان، فوصل إليه «في تجمل عظيم لم يكن في عساكر السلطان من يقاربه، فاستحسن منه ذلك وعظم محله عنده، ثم أمره بالعودة إلى حلب فعاد»[١] بعد أن اطمأن السلطان على قدرته في تحقيق الدور الذي أسنده إليه.

اعتمد آق سنقر قسيم الدولة على نوعين من القوات العسكرية، **النوع الأول**: هو القوات النظامية المدربة المنتمية بمجموعها للتركمان السلاجقة، وكان عددها ستة آلاف أو يزيد عن ذلك[٢]، وهو عدد مقبول لقوات نظامية في ذلك الوقت، وبخاصة أن ما تركه السلطان ملكشاه عنده هو قرابة أربعة آلاف فارس. **والنوع الثاني**: هو القوات الاحتياطية التي جمعها حين احتاج إليها، وكانت خليطاً من العرب والتركمان وغيرهم. وقد وصل عددها في معركته مع تتش إلى عشرين ألفاً، وعن ذلك يقول المؤرخون: «فركب ومعه النجدة التي وصلته وجماعة كثيرة من بني كلاب مع شبل بن جامع ومبارك بن شبل، وكان قد أطلقهما من الاعتقال ومحمد بن زائدة وجماعة من أحداث حلب والديلم والخراسانية، في أحسن وأكمل عدة وقيل إنه قدر عسكره بعشرين ألف فارس، وقيل كان يزيد عن ستة آلاف»[٣].

كان تنظيمه للقوات العسكرية يعتمد على تقسيمها ثلاثة أقسام رئيسية هي: الميمنة

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٨.

(٢) كان آق سنقر قد زاد عدد جنده من التركمان الموجودين في المنطقة.

(٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص١٥. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٤٧٢. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ٢، ص١٢

والميسرة والقلب، وكان هو يتقدم هذه القوات وأول من ينزل للقتال[1] أما سلاح الجيش فكان القوس للخيالة المشهورين بسرعة الحركة والمرونة، والرماح والسيوف وغيرها من الأسلحة الفردية للمشاة[2].

أخذ آق سنقر بعد أن نظم أمور المنطقة الداخلية، يتطلع إلى ضم المناطق المجاورة لها أو فرض هيبته عليها، أو إبقاء حكامها تابعين له، مستغلاً الخلافات التي كانت تنشب بين حكام هذه المناطق أو دفاعاً عن مناطق تابعة له ومن ذلك أنه في سنة ٤٨١ هـ/١٠٨٨ — ١٠٨٩ م، حاصر شيزر وقاتل جيشها ونهبها، انتصاراً لأهل لطمين التابعة لإمارته ثم عاد إلى حلب بعد أن تصالح مع أمير شيزر نصر بن منقذ[3].

يبدو أن هذا العمل كان استعراضاً وفرض هيبة وإنذاراً للمجاورين له بعدم التعرض للمناطق التابعة لحلب، وكي لا يجرؤ أحد منهم على معاداته أو عصيانه، كما أنه أراد إثبات وجوده أمام البيزنطيين واستعادة بعض المناطق التي كانت بأيديهم من بلاد الشام، ولذلك سير جيوشه إلى حصن برزويه[4] وهو آخر حصن بقي في أيدي البيزنطيين من أعمال أنطاكية فحرره وضمه إليه سنة ٤٨٢ هـ/١٠٨٩ — ١٠٩٠ م[5].

حين نهض آق سنقر لتوسيع أملاكه باتجاه الجنوب، اصطدم بمنافس خطير كان يعمل على مد سلطانه أيضاً في هذه المنطقة، هذا المنافس هو تاج الدولة تتش حاكم دمشق وأخو السلطان ملكشاه، وكان تتش قد طلب من أخيه السلطان سنة ٤٨٠ هـ/١٠٨٧ — ١٠٨٨ م تزويده بجيوش ومعدات تمكنه من طرد الفاطميين من بلاد الشام وإخضاعها كاملاً لسلطان السلاجقة، وقد لبىٰ السلطان طلب أخيه تتش فأصدر أوامره إلى آق سنقر والي حلب، وبوزان حاكم الرها أن يكونا مع تتش ويقدما له كل ما يحتاجه في مهمته من عساكر ومعدات[6]، ومن الأمور التي كانت تستدعي الإسراع في طرد الفاطميين من المنطقة، وجود حكام في بلاد الشام يقدمون الولاء للفاطميين، ويعملون على الإعتداء على الأراضي التابعة

---

(١) سهيل زكار: المدخل، ص ٢٧٢.

(٢) أحمد إسماعيل علي: تاريخ السلاجقة، ص ٢٣٦.

(٣) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ١٩٧. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ١٦٨ ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٦٥. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ص ١٩٩. الدواداري: الدرة المضيّة، ص ٤٣١. الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ٧٧.

(٤) برزويه: حصن قرب السواحل الشامية على سن جبل شاهق يضرب به المثل لحصانته. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ١، ص ٣٨٣.

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٦٧ — ٤٦٨.

(٦) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان — القسم المطبوع، ص ٢٤٤. الحسيني: زبدة التواريخ، ص ١٤٣ — ١٤٤. سهيل زكار: المدخل، ص ٢١٦.

لتتش ومن هؤلاء خلف بن ملاعب أمير حمص الذي قام في سنة ٤٨٢ هـ/١٠٨٩ ــ ١٠٩٠ م، بالإعتداء على الأراضي التابعة لتتش بإيحاء من الفاطميين، وقد ضج ولاة الشام السلاجقة من تصرفات ابن ملاعب فشكوا أمرهم للسلطان ملكشاه[1] الذي أمر أخاه تتش بالمسير لتأديبه، ومن ثم الاستيلاء على المناطق التي ما زالت تخضع للفاطميين في الشام، وكذلك طلب السلطان ملكشاه من آق سنقر وياغي سيان وبوزان مساعدة تتش في مهمته تلك، وبالرغم من أن آق سنقر وبوزان كانا غير قانعين بمساعدة تتش إلا أنهما وصلا إليه بجيشهما تحقيقاً لرغبة السلطان وتنفيذاً لأوامره.

نزلت القوات المتحالفة على حمص سنة ٤٨٣ هـ/١٠٩٠ ــ ١٠٩١ م، وحاصرتها وضيقت عليها حتى استلمت بالأمان[2]، ويقول ابن العديم إن آق سنقر تسلم حمص حتى وصله أمر السلطان بتسليمها لتتش[3] الذي أرسل أميرها خلف بن ملاعب مقيداً إلى السلطان.

بعد الاستيلاء على حمص تابعت القوات المتجمعة الزحف باتجاه عرقة التي كانت تحت سيطرة بني عمار حكام طرابلس، ومنها توجهت إلى طرابلس وحاصرتها وكان يحكمها جلال الملك بن عمار، وقد وجد ابن عمار أنه لا يستطيع دفع هذا الجيش الكبير عن طرابلس إلا بالحيلة والسياسة فاتصل سراً بأمراء تتش محاولاً عقد صفقات صلح منفردة وإبعادهم عن تتش بغية إضعافه، فلم يصل إلى مبتغاه، لكن ابن عمار لم ييأس من المحاولة واتصل ثانية بوزير آق سنقر «رزين كمر» فوجد عنده ليناً، فتابع مراسلته وبعث إليه من الهدايا والتحف ما أرضاه، فسعى هذا للوساطة بين ابن عمار وقسيم الدولة آق سنقر ليبعده عن تتش، وقد قبل آق سنقر وساطة وزيره مما دفع ابن عمار إلى حمل ثلاثين ألف دينار وتحفاً بمثلها وقدمها لآق سنقر، وكذلك عرض عليه التفويض الذي بيده من السلطان ملكشاه بإقراره على طرابلس[4] وولايته عليها، فقبل آق سنقر حجج ابن عمار مما أدى إلى اختلاف آق سنقر مع تتش وحدثت مشادة بينهما فقال آق سنقر: «لا أقاتل من هذه المناشير بيده. فأغلظ له تاج الدولة وقال: هل أنت إلا تابع لي؟ فقال آق سنقر: أنا تابعك إلا في معصية السلطان ورحل من الغد عن موضعه، فاضطر تاج الدولة إلى الرحيل، فرحل غضبان وعاد بوزان إلى بلاده،

---

(١) العدمري: تاريخ طرابلس، ص ٢٦٥.

(٢) سهيل زكار: المدخل، ص ٢١٦.

(٣) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥ م، ص ٣٣٦. ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ١٩٨. الغزي: نهر الذهب، ص ٧٧.

(٤) العدمري: تاريخ طرابلس، ص ٢٦٥. عبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ص ٧١.

فانتفض الأمر»[1]، وهكذا فإن آق سنقر لم يساعد تتش، وهذا ما يثبت وجود تنافس بينهما، وأن آق سنقر يطمع فيما كان يطمع به تتش من بلاد الشام، وأنه كان يخرج معه تنفيذاً لأوامر السلطان فقط، وحين يجد ثغرة ينفذ منها للتخلص والتهرب من مساعدة تتش كان يفعل، وهذا ما تم على أبواب طرابلس.

إلى جانب ذلك فإن آق سنقر كان يدرك أن احتلال أي مدينة أو موقع سيكون من نصيب تتش، كما حدث في حمص، وهذا بحد ذاته دعم وتقوية لمركز تتش وإضعاف واستنزاف لقدرات وإمكانات آق سنقر، وهو ما كان آق سنقر يحاول تحاشيه والإبتعاد عنه.

حين ترك قسيم الدولة طرابلس ورفض مساعدة تتش، بدأ بتنفيذ جزء من مخططه في التوسع لذلك توجه إلى أفامية، فاستولى عليها، وكانت تابعة لخلف بن ملاعب ويتولى شؤونها نائب عنه، وذلك في الثالث من رجب سنة ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ ــ ١٠٩٢ م، وسلمها إلى ابن منقذ وعاد إلى حلب[2].

وهنا يمكن التساؤل لماذا سلم قسيم الدولة أفامية لابن منقذ ولم يعين نائباً عليها من قبله؟ وتبرز هنا عدة احتمالات كانت وراء ذلك أولاها أنه كان يريد إيجاد حليف قوي، وقد وجد هذا الحليف في الأسرة المنقذية، ثانيهما أن هذا العمل كان تشجيعاً منه لإقامة دولة تحجز بينه وبين تتش وتحمي حدوده الجنوبية، وثالثهما حرمان تتش من الاستيلاء عليها وبالتالي إبعاده عن حلب، وقد تكون هذه الدوافع مجتمعة هي التي حملت آق سنقر قسيم الدولة على تسليم أفامية لابن منقذ.

بعد عودة آق سنقر إلى حلب اعتقل شبل بن جامع أمير بني كلاب وولده مبارك بالقلعة[3]. لكن المصادر لا تورد أسباب اعتقالهما، ويبدو أنه قام بذلك لأحد أمرين:

ــ فإما أن يكون قد اكتشف أنهما حاولا القيام بفتنة أثناء غيابه، أو أنه خاف من قيامهما مع قبيلة كلاب بعمل ما للعودة إلى حكم حلب كالسابق.

في شهر رمضان من سنة ٤٨٤ هـ/ أيلول ــ تشرين أول ١٠٩١ م، وصل السلطان

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٠٢ ــ ٢٠٣. الدواداري: الدرة المضيّة، ص ٤٣١ ــ ٤٣٢. عبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ص ٧٢.

(٢) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥ م، ص ٣٥٥. ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ١٩٨. ابن العديم: زبدة حلب، جـ ٢، ص ٤٦٧ ــ ٤٦٨. الدواداري: الدرة المضيّة، ص ٤١٣. الجندي: تاريخ المعرة، ص ١٤٢.

(٣) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥ م، ص ٣٥٥. ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ١٩٨. ابن العديم ــ المصدر السابق والصفحة. الدواداري ــ المصدر السابق والصفحة. الجندي ــ المرجع السابق والصفحة.

ملكشاه إلى بغداد كما وصل إليها تتش وآق سنقر وغيرهما من زعماء الأطراف[1] للسلام عليه ولمشاركته في الاحتفال بعيد المولد، وحاول كل منهم أن يظهر أمام السلطان بأفضل ما لديه للظهور لكسب وده وثقته، ويبدو أن تتش عرض قضية خلافه مع اق سنقر وعدم تعاون هذا الأخير معه أثناء حصار طرابلس، لكنه خسر هذه القضية بسبب إتهام آق سنقر له بالكذب ثم فضحه لنواياه السيئة وخططه تجاه السلطان[2]، ثم عادوا إلى بلادهم[3] ثم تذكر المصادر عودة تتش مرة ثانية للقاء أخيه السلطان ملكشاه للخدمة والتقرب، وأنه علم بخبر موته[4] وهو في طريقه إليه. وذلك ليلة الجمعة النصف من شوال، فاستولى علي هيت ثم وصل إلى الرحبة فتركها دون الاستيلاء عليها[5]. وعاد إلى دمشق يتجهز لطلب السلطنة[6]، فهل كان تحرك تتش قبل وفاة أخيه للخدمة والتقرب فقط، فإذا كان كذلك فهذا يعني وجود جفاء بينهما، ويبدو أن هذا الجفاء ظهر أثناء المقابلة التي تمت في بلاط السلطان بين تتش وآق سنقر قبل أشهر في بغداد، ولذلك فإنه أراد من قدومه إلى بغداد إزالة الآثار التي تركتها تلك المقابلة لدى السلطان، وتوضيح موقفه مما اتهمه به آق سنقر، وقد يكون هذا التحرك إلى بغداد لهدف أبعد من ذلك، كأن يطالب أخيه بولاية العهد بعد وفاته، إن المصادر لا توضح ذلك إلا أن تصرفات تتش مجرد سماعه بنبأ وفاة أخيه كانت تؤكد ذلك.

وكذلك يذكر ابن العديم أن آق سنقر كان في طريقه إلى السلطان ملكشاه، فلما سمع بوفاته عاد إلى حلب[7]، وهذا يعني أن تتش لم يكن وحده الذي ذهب لمقابلة ملكشاه، وإنما آق سنقر أيضاً وقد يكون فعل ذلك كي لا يترك فرصة لتتش يوغر فيها صدر ملكشاه ضده[8].

أكمل تتش استعداداته بغية التوجه شرقاً لاخضاع البلاد لسلطانه، وكاتب آق سنقر وبوزان يطلب مساعدتهما[9]، كان موقف آق سنقر من هذا الطلب صعباً للأسباب التالية:

١ ــ إن السلطان ملكشاه الذي كان يؤيده ويدعمه قد توفي.

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ١٩٩. يعشوف: تحف الأنباء، ص ٤٦.
(٢) سهيل زكار: المدخل، ص ٢٢٠.
(٣) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ٢١٧.
(٤) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥ م، ص ٣٥٦. ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ٢١٩.
(٥) ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ٢٠٠ ــ ٢٠١.
(٦) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ٢١٩. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٥، ص ١٣٧.
(٧) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٧٠ ــ ٤٧١.
(٨) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ٨.
(٩) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٢٠.

٢ ــ أن عدوه اللدود والذي يريد إبعاده عن الشام يطالب بالسلطنة لنفسه، ويطلب منه المساعدة.

٣ ــ أنه إذا رفض طلب تتش في المساعدة فليس لديه القدرة على دفعه[١] وحماية إمارته منه.

٤ ــ أن الأمر لم يتضح بعد في خراسان، والخلاف قائم بين أولاد ملكشاه وخاصة محمود وبركياروق من أجل الحصول على السلطنة.

درس آق سنقر الموقف واحتمالاته، فوجد أنه لا مفر من إجابة تتش لطلبه، وقبل مكرهاً الاعتراف به واضعاً نفسه وقواته تحت تصرفه كما أرسل إلى ياغي سيان في أنطاكية بوزان في الرها يشرح لهما موقفه، ويشير عليهما بمسايرة تاج الدولة والمسير معه حتى يعلموا ما يكون من أمر أولاد السلطان ملكشاه، فامتثلا لنصيحة آق سنقر وصار الثلاثة مع تتش وخطبوا له في بلادهم[٢].

عندما مر تتش بأراضي حلب متوجهاً إلى الرحبة سنة ٤٨٦ هـ/١٠٩٣ م، التحق به كل من آق سنقر وياغي سيان وبوزان، وتابع الجميع تحركهم إلى الرحبة فاستولوا عليها في المحرم من سنة ٤٨٦ هـ/شباط ١٠٩٣ م، حيث خطب تتش لنفسه بالسلطنة[٣]، ثم ألقوا الحصار على نصيبين فخرج واليها يقدم الطاعة لتتش ويعرض عليه أن يكون معه، إلا أن أهلها كانوا من جماعة إبراهيم بن قريش العقيلي فقاوموه ورفضوا تسليم البلد له مما اضطره إلى إعطاء الأوامر لاستخدام القوة في احتلالها، فقتل بها أناس كثيرون، وارتكبت معهم أبشع الأعمال، واعتديَ على حرمة النساء وافتعلت الكبائر[٤] فلما تم الاستيلاء عليها جعل نائبه فيها محمد بن شرف الدولة العقيلي[٥].

قام تتش بإخضاع المناطق التي كان يمر بها قبل وصوله إلى خراسان. وقد استعصت عليه الموصل التي تخضع لحكم بني عقيل برئاسة إبراهيم بن قريش العقيلي، فاضطر إلى قتالها وقتل

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٢١.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٢١. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٧١ ــ ٤٧٢. مختار باشا: التوفيقات الإلهامية، جـ ١، ص ٥١٨.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، جـ ٩، ص ٢٩. ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١، ص ٢٢١. ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٢. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٧١ ــ ٤٧٢. الدواداري: الدرة المضيّة، ص ٤٣٢. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٢، ص ١٤٤. الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ٧٧. يعشوف: تحف الأنباء، ص ٤٧. مختار باشا ــ المرجع السابق، جـ ١، ص ٥١٨.

(٤) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥ م، ص ٣٥٦، ويقول إن آق سنقر هو الذي فتح نصيبين بالسيف. ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٠١. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٢٠. ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٢. الدواداري ــ المصدر السابق، ص ٤٣٢. الذهبي: العبر، جـ ٣، ص ٣١٠. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ١٤. يعشوف: تحف الأنباء، ص ٤٦.

(٥) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٢٠.

العديد من أهلها حتىٰ خضعت له، ولم يشاهد أبشع مما فعله السلاجقة بالعرب ونسائهم في هذه المعركة حتىٰ أن بعض النساء عمدن إلى إلقاء أنفسهن في نهر الفرات خشية ما قد يلحقهن من العار على أيدي تتش، بينما ترك بنو عقيل منازلهم بعد هذه الهزيمة وتوجهوا إلى السلطان بر كياروق الذي استقرت له السلطنة بعد أبيه ملكشاه[1].

بعد أن استولىٰ تتش وقواته المتحالفة على الموصل والمناطق التابعة لها قصد مع حلفائه ديار بكر، فنزل على آمد فملكها مع الجزيرة، واستولىٰ على ميافا رقين وأعمالها وقرر أمر هذه البلاد ورتب حكامها[2]. ثم سار منها إلى أذربيجان[3].

قوي مركز تتش بما ضمه من البلاد والمواضع فأرسل إلى الخليفة العباسي يطلب منه جعله سلطاناً على البلاد والخطبة له على منابر بغداد وبلدان الخلافة العباسية، فكان رد الخليفة بعدم الإيجاب والمماطلة[4].

في هذه الأثناء كانت أمور سلطنة السلاجقة قد استقرت وانتهىٰ القتال الذي جرىٰ بين أبناء ملكشاه محمود وبر كياروق لصالح الأخير الذي أصبح سلطاناً، وتمت له البيعة ودعي على المنابر باسمه واستقام له الأمر[5].

وصلت الأنباء إلى تتش فقرر التوجه مباشرة إلى خراسان، وعندما وصل إلى مدينة تبريز، انفصل عنه قسيم الدولة آق سنقر حاكم حلب، وعماد الدولة بوزان حاكم الرها والتحقا ببر كياروق عند مدينة الري وقد سُرَّ بر كياروق بمقدمهما وتقوىٰ بهما وبمن وفد عليه من بني عقيل بعد سقوط الموصل[6].

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٠٢ ــ ٢٠٣. ابن الجوزي: المنتظم، جـ ٩، ص ٢٩. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٢١. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٧٢. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ١٤. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٢، ص ١٤٤. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٥، ص ١٣٧. يعشوف: تحف الأنباء، ص ٤٧. سهيل زكار: المدخل، ص ٢٢٣. المعاضيدي: دولة بني عقيل، ص ١٣٩.

(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٠٢. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٢٢. ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٢٠. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٢، ص ١٤٤. الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ٧٧. يعشوف: تحف الأنباء، ص ٤٧. المعاضيدي: دولة بني عقيل، ص ١٤٠. سهيل زكار: المدخل، ص ٢٢٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٢٢. الفارقي: تاريخ الفارقي، القاهرة ١٩٥٩ م، ص ٢٤٣. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٢، ص ١٤٤. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ٢٠.

(٤) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٢٢. ابن الجوزي: المنتظم، جـ ٩، ص ٢٩. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ٢٠. مختار باشا: التوفيقات الإلهامية، جـ ١، ص ٥١٨.

(٥) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٠٠. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٢.

(٦) العظيمي: تاريخه، ص ٣٥٦. ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٠٣. ابن الجوزي: المنتظم، جـ ٩، ص ٢٩. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٢٢. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٧٢. الدواداري: الدرة المضيّة، ص ٤٣٣. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ٤. الذهبي: العبر، جـ ٣، ص ٣١٠ ــ ٣١١. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٢، ص ١٤٤ ــ ١٤٥. الفارقي ــ المصدر

يبدو أن هناك أسباباً كثيرة لانفصال آق سنقر وبوزان عن تتش وانحيازهما إلى بر كياروق، فقد كان تتش منافساً خطيراً لآق سنقر، وأن تأييده له ومسيره كان تحت ضغط الظروف[1] لا انتصاراً له ورغبة بحكمه، ثم أنه كان يرىٰ أن تبقىٰ السلطنة في أبناء سيده ملكشاه وفاء منه له، فما أن عرف بانتصار بر كياروق والخطبة له حتىٰ ترك تتش وانحاز إلى ابن سيده هذا إضافة إلى شعوره بأنه لن يكون له من الأمر شيء إذا تسلم تتش السلطنة، وهناك سبب ضعيف آخر يورده ابن العديم وهو أن آق سنقر شعر بأن تتش يقرب ياغي سيان ويميل إليه وقد يعتمد عليه في حكم الشام.

عند وصول آق سنقر وبوزان إلى معسكر بر كياروق أخذا يحذرانه من تتش وينصحانه بعدم إهمال أمره، ويحرضانه على استعجال قتاله وإنهاء خطبه، وأوضحا له طمعه في السلطنة وعمله لتحقيق حلمه فيها، وأنه استولىٰ على بلاد كثيرة، وأشارا عليه بالمسير معهما للقضاء عليه[2].

في هذا الوقت أخذت قوات تتش بالضعف حتىٰ أنه اتخذ قراره بالعودة إلى الرحبة[3]. وبالفعل فقد تحرك كل من بر كياروق وآق سنقر وبوزان باتجاه الرحبة، فلما علم تتش بذلك تركها واجتاز الفرات قاصداً أنطاكية التي بقي بها مدة ثم عاد إلى دمشق، وذلك أواخر ذي الحجة من سنة ٤٨٦ هـ/ كانون أول ١٠٩٣ م، ومعه وثاب بن محمود، وبنو كامل، وجماعة من العرب لم يجسروا على الإقامة بشمال الشام لخشيتهم من قسيم الدولة أمير حلب[4].

توقف بر كياروق في الرحبة وأشرف على عقد تحالف بين آق سنقر وبوزان من جهة، وبين من بقي من قبيلة بني عقيل بزعامة علي بن مسلم بن قريش العقيلي من جهة ثانية، للوقوف بوجه تتش ثم عاد إلى بغداد[5] ليخطب له على منابرها، وذلك يوم الجمعة الرابع عشر من محرم سنة ٤٨٧ هـ/ الرابع من شباط ١٠٩٤ م. بينما عاد بوزان إلى الرها وقسيم الدولة آق سنقر إلى حلب، وبرفقته بعضاً من عساكر بر كياروق وبني عقيل وغيرهم، وكان وصوله إليها في ذي القعدة سنة ٤٨٦ هـ/ تشرين الثاني ١٠٩٣ م[6].

السابق، ص ٢٤٣. ابن العميد ــ المصدر السابق، ص ١٧٤. الغزي ــ المصدر السابق، ص ٧٨. سهيل زكار: المدخل، ص ٢٢٤.

(١) انظر فيما سبق الصفحة ـ ١٤٣ ـ

(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٠٤.

(٣) ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ٢٠٣. يتشوف ــ المصدر السابق، ص ٤٧.

(٤) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥ م، ص ٣٥٦. ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ٢٠٤. سهيل زكار: المدخل، ص ٢٢٥.

(٥) العظيمي: تاريخه، ص ٣٥٧. مختار باشا: التوفيقات الإلهامية، جـ ١، ص ٥١٩. سهيل زكار: المدخل، ص ٢٢٤.

(٦) العظيمي: تاريخه، ص ٣٥٦. ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ٢٠٤.

وهكذا قام آق سنقر بالدور الأكبر في إفشال خصمه الأول تتش ومنعه من الحصول على السلطنة، وساعد بر كياروق ابن صديقه وولي نعمته ملكشاه بإبقاء السلطنة له، وهذا دليل آخر على صدقه وإخلاصه ووفائه لسيده.

أدرك قسيم الدولة آق سنقر بأن تاج الدولة تتش سينتقم للضربة التي وجهت إليه[1] فأخذ بالاستعداد وتجهيز الجيوش للتصدي له ومنعه من الخروج من دمشق ثانية لطلب السلطنة، ومن ثم إنتزاع دمشق نفسها منه، فطلب المساعدة والدعم من السلطان بر كياروق، وكذلك أرسل إلى كربوقا الذي صار أميراً على الموصل[2] وبوزان حاكم الرها، ويوسف بن آبق أمير الرحبة يطلب منهم القدوم إليه ومساعدته على الوقوف بوجه تتش، وفي الوقت الذي كان فيه آق سنقر يجمع الأنصار والحلفاء كان تتش يستعد أيضاً لقتاله، فضم إليه ياغي سيان وجعل منه حليفاً له بعد أن صاهره وزوج ابنه رضوان من ابنته.

تحرك تتش باتجاه حلب لقتال آق سنقر واحتلالها في شهر ربيع الآخر سنة ٤٨٧ هـ/ نيسان ١٠٩٤ م، ومعه عساكر كثيرة من العرب والتركمان كما أنجده ياغي سيان بعسكره والتقى به قرب حماه[3]. وعندما وصل الخبر إلى قسيم الدولة في حلب شرع في الجمع والاحتشاد واستعد للقائه ورده على أعقابه، فتحرك بقواته ومعه حلفاؤه الذين وصلوا إليه، وجماعة كثيرة من العرب الكلابيين وعلى رأسهم شبل بن جامع وولده مبارك بعد أن أطلقهما من الاعتقال، وكذلك محمد بن زائدة وجماعة من أحداث حلب والديلم والخراسانية، وقدر عدد القوات التي تجمعت تحت قيادته بنحو من عشرين ألفاً، وكانوا في أحسن زي وهيئة، وأتم آلة وعدة[4].

تحرك آق سنقر بقواته المتجمعة يوم الجمعة الثامن من جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ/ السابع والعشرين من أيار ١٠٩٤ م، وقد قطع هذا الجيش الجرار سواقي نهر سبعين[5] قاصداً عسكر تتش بينما لم تتمكن عساكر كربوقا وبوزان من قطع السواقي فظلوا في أماكنهم[6].

---

(١) ابن القلانسي ـ المصدر السابق، ص ٢٠٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٣٢.

(٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٥. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ـ مخطوطة أحمد الثالث. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ١٢. بيتشوف ـ المصدر السابق، ص ٤٧.

(٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٥. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٧٢، ويقدر عدد جيش آق سنقر بستة آلاف فارس وراجل. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ١٢. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ـ مخطوطة أحمد الثالث.

(٥) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٥، يجعل إلتقاء الجيشين على نهر سبعين بالقرب من تل السلطان. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ١، ص ٢١٢ ـ ٢١٣.

(٦) العظيمي: تاريخه، ص ٣٥٧. ابن القلانسي ـ المصدر السابق، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٧٦.

التقىٰ الجيشان يوم السبت التاسع من جمادىٰ الأولىٰ سنة ٤٨٧ هـ/٢٨ أيار ١٠٩٤م، ويبدو أن آق سنقر كان قليل الثقة بمن معه من العرب فنقلهم أثناء المعركة من الميمنة إلى الميسرة، ثم نقلهم إلى القلب فلم يغنوا شيئاً، وانقض جيش تتش على جيش آق سنقر، ودارت الدائرة على آق سنقر وعساكره، وانتصر تتش وأصحابه وانهزم العرب وكربوقا بوزان وعساكرهما فارين إلى حلب، ووقع القتل فيهم وتحكمت السيوف بهم، وأسر قسيم الدولة وأكثر أصحابه وجماعة من خواصه ووزيره أبو القاسم بن بديع[1]، كما أسر شبل بن جامع أمير بني كلاب فوهبه تتش لابن أخيه وثاب بن محمود، ويبدو أن الخيانة لعبت دوراً في انتصار تتش وهزيمة آق سنقر وعساكره[2].

٣ ــ مقتل آق سنقر:

حين أحضر آق سنقر إلى تتش قال له لو ظفرت بي ما كنت صانعاً فيّ! قال: أقتلك، قال فإني أحكم عليك بحكمك فيَّ، وأعدمه تاج الدولة بيده وقطع رأسه وذلك في جمادىٰ الأولىٰ سنة ٤٨٧ هـ/أيار ــ حزيران ١٠٩٤م، ودفن بمشهد قرنبيا مدة، ثم نقله ابنه الأتابك زنكي إلى المدرسة الزجاجية بحلب[3].

توجه تتش في الحال إلى حلب بينما كان كربوقا وبوزان الهاربين من المعركة قد اجتمعا بأهل حلب والأحداث وتقرر بينهم الاعتصام بالمدينة والاستنجاد بالسلطان بر كياروق[4]، إلا أن «سرعة وصول تتش إلى أسوار حلب أحدث ارتباكاً بين أهلها وأحداثها وتركمانها، وفي أثناء ذلك قفز جماعة من الأحداث وفتحوا أحد أبواب حلب ونادوا بشعار تاج الدولة»[5]، فتسلمها يوم الاثنين الحادي عشر من جمادىٰ الأولىٰ سنة ٤٨٧ هـ/ ٣٠ أيار ١٠٩٤م، وتسلم أيضاً قلعة الشريف وبات فيها كما أن نوحاً والي القلعة الكبيرة منذ أيام ملكشاه سلمها

سبط ابن الجوزي ــ المصدر السابق نفسه. ابن كثير: البداية النهاية، جـ١٢، ص ١٤٤ ــ ١٤٥.

(١) الغزي: نهر الذهب، جـ٣، ص ٧٧.

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٥. يعشوف: تحف الأنباء، ص ٤٧، ويقول إنه عندما اقتتلوا تآمر بعض عسكر آق سنقر وساروا مع تتش.

(٣) ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ٢٠٨. ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص ٢٣٢. ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٥. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ٢، ص ٤٧٦. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ١، ص ٥١٤ ــ ٢١٥. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ٢، ص ٢١٦. الذهبي: العبر، جـ٣، ص ٣١٤ ــ ٣١٥. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص ١٤١. الفارقي: تاريخ الفارقي، ص ٢٣٤. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، جـ٣، ص ٣٨٠. ابن أبي الهيجاء: مخطوط ــ ب ــ ١٣٤. سبط ابن الجوزي ــ المصدر السابق نفسه. الغزي ــ المصدر السابق نفسه. يعشوف ــ المصدر السابق نفسه. سهيل زكار: المدخل، ص ٢٢٧.

(٤) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٠٨. سهيل زكار: المدخل، ص ٢٢٧.

(٥) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٠٨. اليافعي اليمني المكي: مرآة الجنان، جـ٣، ص ١٢٣. سهيل زكار: المدخل، ص ٢٢٨.

إلى تتش بعد أن وثق به، كما سلمت إليه جميع الحصون في الشام بعد ذلك قتل بوزان حاكم الرها واعتقل كربوقا حاكم الموصل في حمص[1]، ثم استناب على حلب أبا القاسم حسن بن علي الخوارزمي، وعيّن المستحفظين فيها، وسار بقواته إلى ناحية الفرات لطلب السلطنة[2].

بمقتل قسيم الدولة آق سنقر إنتهت فترة من فترات حكم السلاجقة المباشر في حلب، نعمت فيها بالاستقرار والأمان الذين لم تعرفهما منذ قرن ونيف كما نشطت الحياة الاقتصادية فيها ورخصت الأسعار بالرغم من المتاعب التي تحملها أهلها بسبب الضرائب والأتاوات التي كان يتطلبها حكم آق سنقر بغية صرفها على جنوده وأتباعه ومظاهره. وبالرغم من الخلاف الذي كان بينه وبين تتش وما تتطلبه ذلك من قيام أهل حلب بمساعدته.

ثانياً ــ حلب في ظل حكم الملك رضوان بن تتش

إثر مقتل آق سنقر في معركة سبعين خلت حلب من القيادة كما لم يعد فيها مقاومة تذكر ولذلك توجه تتش إليها وتسلمها وقلعتها، وشعر بأن الشام كله أصبح ملكاً له[3]، ولذلك فإنه أخذ في تنظيم أموره وتوزيعها بين كبار رجاله، فجعل معرة النعمان واللاذقية لياغي سيان، وعيّن أبا القاسم الحسن الخوارزمي وزيراً بحلب[4] ونائباً عنه فيها، ثم توجه إلى خراسان ليعمل على الحصول على السلطنة التي كانت غايته الأولىٰ، وفي طريقه إليها استولىٰ على حران والرها وميافارقين والمدن الواقعة بين حلب وبغداد[5]، وعندما وصل إلى همدان كتب إلى ولده رضوان[6] يستدعيه من دمشق فتوجه إليه ومعه بقية من تخلف من أصحابه في الشام[7].

تابع تتش تنفيذ مخططه، فأرسل يوسف بن آبق على رأس قوة عسكرية نحو بغداد للاستيلاء عليها وتوجه بنفسه إلى أصبهان حيث استقرت الأمور لبركياروق، وعسكّر على بعد أربعة فراسخ من الري[8].

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٣٣. ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص ١٥. أبو الفداء ــ المصدر السابق، جـ ١، ص ٢١٤ ــ ٢١٥ يعشوف ــ المصدر السابق، ص ٤٧.

(٢) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥ م، ص ٧٥٧. ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ٢٠٩. ابن الأثير: الكامل جـ ١٠، ص ٢٣٢. ابن أبي الهيجا: مخطوط ــ ب ــ ١٣٤. اليافعي اليمني المكي ــ المصدر السابق، ص ١٤٣. الغزي ــ المصدر السابق، ص ٧٧. يعشوف ــ المصدر السابق، ص ٤٧. سهيل زكار: المدخل، ص ٢٢٨.

(٣) ستيفن رونسمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ ١، ص ١٢٧.

(٤) سهيل زكار: المدخل، ص ٢٢٨

(٥) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٠٩. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٢٣.

(٦) ولد رضوان بن تتش بن ألب أرسلان بن جغري بك بن سلجوق بن دقاق أبو المظفر التركي السلجوقي في سنة ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ ــ ١٠٨٣ م، وتسلم الحكم في حلب بعد مقتل أبيه تتش وذلك سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م.

(٧) ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ٢٠٩. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٨٢ ــ ٤٨٣.

(٨) ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ٢٠٩. ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ٢٤٥.

سار بر كياروق على رأس جيشه إلى الري للقاء عمه تتش[1]، وجرىٰ اللقاء في يوم الأحد ١٧ صفر سنة ٤٨٨ هـ/٢٧ شباط ١٠٩٥ م[2]، عند قرية يقال لها داشلو على بعد اثني عشر فرسخاً من الري، فانهزم عسكر تتش وقتل على يد أحد أصحاب آق سنقر ثأراً لزعيمهم[3]، وبمقتل تتش أصبح بر كياروق سلطان الدولة السلجوقية دون منازع[4].

إن مقتل تتش وآق سنقر. ختم مرحلة طويلة من الصراع على الحكم في بلاد الشام بين الحكام السلاجقة خلّف صفحات سوداء قاتمة من القتل والخراب والدمار لتبدأ مرحلة جديدة من الصراع على الحكم في هذه البلاد بين رضوان ودقاق ابنا تتش، وستستمر هذه الصراعات تنهش في جسد البلاد وتنهك قواها، حتىٰ يقيض لها حكام قادرون على تجاوز خلافاتهم ومتطلعون لبنائها والدفاع عنها.

١ ــ وصول رضوان إلى الحكم في حلب:

أوصىٰ تاج الدولة تتش أثناء خروجه لطلب السلطنة أصحابه وبعض الأمراء كنجم الدين إيلغازي[5] بطاعة ابنه رضوان، ولكنه ما لبث أن وجد نفسه بحاجة إلى مزيد من القوات. فاستدعاه وطلب منه الإقامة بدار المملكة[6] في بغداد ليكون نائباً عنه فيها وليبقىٰ قرب الخليفة حتىٰ يعود إليها بعد أن يقضي على ابن أخيه بر كياروق ويصبح سلطان البلاد.

وتنفيذاً لأوامر تتش تحرك رضوان إلى العراق ومعه الأمير نجم الدين إيلغازي الأرتقي، والأمير وثاب بن محمود بن صالح بن مرداس، وجماعة من أمراء حلب القسيمية[7]. وتوجه إلى بغداد

---

(١) ابن الأثير ــ المصدر السابق، ص ٢٤٥.

(٢) ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ٢١٢. الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٩٧. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٨٣. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ١٧. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٢، ص ١٤٨.

(٣) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢١٢. العظيمي: تاريخه، ص ٣٥٧. الفارقي: تاريخ الفارقي، ص ٢٤٣، ويجعل مقتل تتش سنة ٤٨٩ هـ بدلاً من ٤٨٨ هـ. الأصفهاني: البستان الجامع، ص ٩٣. ابن الجوزي: المنتظم، جـ ٩، ص ٨٧. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٤٥. ابن أبي الدم: تاريخ ابن أبي الدم ــ مخطوط، ص ١٤٠. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٨٣. أبو الفداء: المختصر، جـ ١، ص ٢١٦ ــ ٢١٧. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ١٧. الذهبي: العبر، جـ ٣، ص ٣١٩. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، جـ ٣، ص ٣٨٠. الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ٣٨٠. الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ١٠١. يبشوف: تحف الأنباء، ص ٤٨، ويقول: ولبث تتش فقتله بركياروق والأصح كما ورد لدىٰ غالبية المؤرخين.

(٤) الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ١٧. الذهبي: العبر، جـ ٣، ص ٣١٩. يبشوف ــ المصدر السابق، ص ٤٨.

(٥) هو إيلغازي بن أرتق خلف أباه أرتق بعد وفاته في إمارة القدس مع أخيه سكمان، وكان قد توجه إيلغازي لمساندة تتش أثناء تحركه لطلب السلطنة لكنه أبقاه عند ابنه رضوان للاعتماد عليه عند الحاجة. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٤٦.

(٦) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٤٦. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ١٢٥. الذهبي: العبر، جـ ٣، ص ٣١٩. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٧٠.

(٧) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢١٠، والأمراء القسيمية هم أتباع قسيم الدولة آق سنقر.

عن طريق الرحبة في أول سنة ٤٨٧ هـ/ لأوائل سنة ١٠٩٤ م، فلما قارب هيت ورده خبر مقتل أبيه، فاضطرب لهذا الخبر وقلق، وخاف أن يلحق به جند بر كياروق فأسرع في العودة بقسم من قواته طالباً من بقية العسكر اللحاق به إلى حلب، وجد بالسير إلى أن وصل إليها وذلك سنة ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥ م[1]، حيث كان الرجل الأول فيها الوزير أبا القاسم[2] الخوارزمي ففتح له أبوابها، فدخلها وأخذ بالاستعداد لمواجهة ما يستجد من أمور[3].

وحول وصول رضوان إلى حلب وتسلمها ذكرت عدة روايات منها:

ـ رواية ابن الأثير التي يقول فيها: «فلما قارب هيت بلغه قتل أبيه فعاد إلى حلب ومعه والدته، فملكها وكان بها أبو القاسم بن علي الخوارزمي قد سلمها إليه تتش وحكمه في القلعة والبلد، ولحق برضوان زوج أمه جناح الدولة الحسين بن أيتكين السليماني، وكان مع تتش فسلم من المعركة، وكان مع رضوان أيضاً أخواه الصغيران: أبو طالب وبهرام، وكانوا كلهم مع أبي القاسم كالأضياف لتحكمه في البلد. واستمال جناح الدولة المغاربة وكانوا أكثر جند القلعة، فلما انتصف الليل هاجموا دار أبي القاسم ونادوا بشعار الملك رضوان، واحتاطوا على أبي القاسم، وأرسل إليه رضوان يطيب قلبه فاعتذر، فقبل عذره، وخطب لرضوان على منابر حلب وأعمالها ولم يكن يخطب له بل كانت الخطبة لأبيه بعد قتله نحو شهرين»[4]. أما رواية ابن القلانسي فتقول: «... ورحل مجداً في سيره في نفر من سرعان خيله، وغلمانه، وترك باقي عسكره من ورائه ولم يزل مغذاً في قصده إلى أن دخل حلب، وفتح الوزير أبو القاسم النائب في القلعة أبوابها وأصعده إليها وأخذوا الأهبة لمن يقصدها»[5]. وأما ابن العديم فيقول: «... وصله الخبر بمقتله وهو نازل على الفرات فقلق وخاف وحط مضاربه في الحال ثم رحل مجداً حتى وصل حلب فسلمه وزير أبيه أبو القاسم بن بديع المدينة والقلعة وصعد إليها وتأهب لملاقاة من يقصدها»[6]. أما رواية أبي الفداء فتقول: «... فلما بلغه مقتل أبيه رجع

---

(١) انظر الصفحة السابقة

(٢) هكذا ورد اسمه عند ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢١٢. أما ابن العديم فيقول عنه «أبو القاسم بن بديع». وكان ابن بديع من أولاد الديلم الذين كانوا في حلب أيام سيف الدولة وقد ولد أبوه بحلب. وابن الأثير يسميه «أبو القاسم الحسن بن علي الخوارزمي».

(٣) ابن القلانسي ـ المصدر السابق، ص ٢١٢. الفارقي: تاريخ الفارقي، ص ٢٤٣. الأصفهاني: البستان الجامع، ص ٩٣. ابن أبي الدم: تاريخه ـ مخطوط، ص ١٤٠. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٨٣. أبو الفداء: المختصر، جـ ١، ص ٢٠٦. اليافعي اليمني المكي: مرآة الجنان، جـ ٣، ص ١٤٥. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ١٧. الذهبي: العبر، جـ ٣، ص ٣١٩. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، جـ ٣، ص ٣٨٠. بيتشوف: تحف الأنباء، ص ٤٨. عبد الكريم غرايبة: العرب والأتراك، ص ٢٢٧. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٧٠.

(٤) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٤٦.

(٥) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢١٢.

(٦) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٨٣.

إلى حلب وبها من جهة والده تتش أبو القاسم حسن بن علي الخوارزمي ... وكانوا كلهم كالضيوف مع أبي القاسم حسن الخوارزمي وهو المستولي على البلد. ثم أن رضواناً كبس أبا القاسم الخوارزمي نصف الليل واحتاط عليه وطيب قلبه وخطب لرضوان بحلب»[1]. وتقول رواية الذهبي: «... ثم استمال رضوان جند القلعة إليه فلما انتصف الليل نادوا بشعار الملك رضوان واحتاطو على أبي القاسم وخطب لرضوان على منابر حلب»[2].

من خلال عرض الروايات السابقة يتبين عدة أمور منها:

١ ــ أجمعت الروايات كلها على أن رضوان عاد مسرعاً إلى حلب خوفاً من فقدانها، ولو تأخر لحصل ما كان خائفاً منه.

٢ ــ إن روايات ابن الأثير وأبي الفداء والذهبي تشير صراحة إلى أن أبا القاسم لم يكن ينوي تسليم حلب لرضوان بدليل أنه أبقىٰ الخطبة لتتش لمدة شهرين بعد مقتله، كما أنه كان متحكماً بحلب ويعمل للإنفراد بحكمها، يؤيد هذا الافتراض أن رضوان ومن معه «أمه، وزوجها جناح الدولة وأخوي رضوان أبا طالب وبهرام» حسب ما جاء عند ابن الأثير وأبي الفداء كانوا كالضيوف عند أبي القاسم الذي فوجيء كما يبدو بعودة رضوان (دون عسكره) فلم يتمكن من أن يحتاط للأمر ولم يعاملهم كحكام قادمين إلى عاصمة ملكهم، ويبدو أن أبا الفداء والذهبي نقلا في روايتهما عن ابن الأثير.

٣ ــ اختلفت الروايات حول أسلوب تسلم رضوان للقلعة، فبينما يذكر ابن القلانسي وابن العديم أن أبا القاسم فتح أبواب القلعة لرضوان وسلمه إياها، يذكر الذهبي أن رضوان قام بالدور الرئيسي في هذا الاستلام عندما استمال جنود القلعة الذي احتاطوا على أبي القاسم الخوارزمي، أما ابن الأثير فإنه يذكر تفصيلاً عملية تسلم القلعة وأن ذلك كان عنوة عندما أسرع جناح الدولة «المدبر لأمر رضوان» لانتزاع زمام المبادرة من أبي القاسم واتفق مع الجنود المغاربة المسيطرين على القلعة وأقنعهم بالإنضمام إلى رضوان وتأييده فانضموا إليه وأيدوه، واحتاطوا على أبي القاسم مما اضطره للتسليم والاعتذار عن تصرفاته.

٤ ــ إن رواية ابن الأثير أكثر واقعية وانسجاماً مع ما كان يحدث داخل حلب من غيرها، إلا أنه يبقىٰ السؤال الذي لم يجب عليه ابن الأثير؟ هو كيف تمكن جناح الدولة من استمالة جنود القلعة وما الأسلوب الذي اتبعه؟ المصادر حتىٰ الآن لم توضح ذلك وإن

(١) أبو الفداء: المختصر، جـ ١، ص ٢٠٦.

(٢) الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ١٢٥.

كان من المرجح أنه أعطاهم الوعود وأغراهم بالمال وهذا هو الأسلوب المتبع في مثل هذه الحالات ؟!

بعد عودة رضوان وتسلمه حلب وصل إليه أخوه دقاق مع عدد من جماعة أبيه الهاربين من المعركة[١]، وأقام عند أخيه مدة يسيرة، وقد طلب إليه نائب أبيه في دمشق وقلعتها الأمير ساوتكين سراً القدوم إلى دمشق وحكمها، وقد تحرك دقاق قاصداً دمشق دون علم أخيه رضوان الذي أرسل خلفه عدداً من الجند للقبض عليه، ولكنه تمكن من الإفلات ووصل إلى دمشق وتسلمها من ساوتكين وذلك سنة ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥ م، وقد وصل إلى دمشق في نفس العام الأمير ظهير الدين طغتكين، فاستقبله دقاق وأركان دولته وقد اتفق الاثنان على التخلص من ساوتكين، كما أن ياغي سيان حاكم أنطاكية أشار على دقاق بالإنفراد بحكم دمشق مستقلاً عن رضوان، وفي حلب أقدم رضوان على قتل أخويه أبي طالب وبهرام خوفاً من أن يفعلا ما فعله دقاق[٢].

والسؤال هنا، لماذا راسل ساوتكين دقاق بالذات من دون رضوان وهو الذي كان تتش قد أوصىٰ الأمراء بطاعته إذا أصابه مكروه؟ ثم لماذا أشار ياغي سيان على دقاق بحكم دمشق بعيداً عن أخيه رضوان وهو الذي كان معه أثناء حملته على سروج والرها وحران؟، وكان هؤلاء الأمراء يدركون تماماً رغبة رضوان في إبقاء دمشق ضمن أملاكه، فهي المدينة التي ولد وترعرع ونشأ فيها، ويعتبرها قاعدة لملكه.

يبدو أن ساوتكين كان يرغب بتسليم دمشق إلى دقاق لأنه كان يرىٰ أنه لن يكون له أمر مع رضوان، وكان يبغي التحكم في البلد والتفرد بحكمها بعيداً عن رضوان وسطوته، وهو الذي خبره أثناء غياب والده تتش لطلب السلطنة، ولم يكن يعلم أن الأمر لن يتم له وأنه سيفقد حياته على يد دقاق وطغتكين.

أما ياغي سيان فكان هدفه إضعاف رضوان حتىٰ لا يتمكن من عزله عن أنطاكية أو التخلص منه، خاصة وأنه استعان برجل قوي هو سكمان[٣] الذي ترك له سروج وأقطعه

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٤٧، ويقول عن دقاق: «وأما دقاق بن تتش فإنه كان قد سيره إلى عمه السلطان ملكشاه ببغداد وخطب له ابنة السلطان، وسار بعد وفاة السلطان مع خاتون الجلالية وابنها محمود إلى أصبهان، وخرج إلى السلطان بركياروق سراً وصار معه، ثم لحق بأبيه، وحضر معه الوقعة التي قتل فيها، فلما قتل أبوه أخذه غلام لأبيه اسمه أيتكين وسار إلى حلب ...».

(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢١٣. الفارقي: تاريخ الفارقي، ص ٢٤٣. الأصفهاني: البستان الجامع، ص ٩٣. ابن أبي الدم: تاريخه ــ مخطوط، ص ١٤٠. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٤٨. اليافعي اليمني المكي: مرآة الجنان، جـ ٣، ص ١٥٢. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ١٧. الذهبي: العبر، جـ ٣، ص ٣١٩. يعقوب: تحف الأنباء، ص ٤٨.

(٣) سكمان بن أرتق: خلف أباه أرتق بعد وفاته في إمارة القدس لمدة سبع سنوات، أقطعه تتش سروج سنة ٤٨٦ هـ، وكان السند الأقوىٰ

معرة النعمان بعد أخذها من ياغي سيان، كل ذلك جعل ياغي سيان ينظر بعين الريبة والشك إلى رضوان، وجعله يشجع دقاق سراً على الإنفراد عن أخيه بحكم دمشق وبذلك يتفرق الصف ولا يواجه ياغي سيان خصماً قوياً وعنيداً، وهكذا عاد الصراع السياسي ثانية بين حكام حلب ودمشق، وأصبح العمل الأهم لرضوان هو إعادة السيطرة على دمشق وقد بذل في سبيل ذلك الكثير من طاقاته وإمكاناته. أما دقاق فكان همه الحفاظ على ملكه في دمشق والرد بالمقابل على تحديات أخيه رضوان باعتبار أنه وريث والده تتش في دمشق في الوقت الذي كان من الواجب توحيد الجهود وتوفيرها لمقاومة الغزو الجديد الذي بدأت تظهر بوادره من الغرب وكان أول من تلقىٰ الضربة منهم ياغي سيان صاحب أنطاكية.

٢ ـ حلب في ظل حكم الملك رضوان:

آ ـ محاولة رضوان استعادة أملاك أبيه:

١ ـ محاولته استعادة ديار بكر ومعرة النعمان:

استعان رضوان في تدبير أمر المملكة بجناح الدولة حسين فقام هذا الأمير بعمله على أحسن وجه وسار فيها سيرة حسنة، وكان ياغي سيان قد اختلف مع رضوان وجناح الدولة ثم تصالح معه[1] لكن رضوان وقع بين تعارض آراء رجاله وتفضيل كل منهم لمصلحته ومحاولتهم الدس على بعضهم بعضاً بقصد البقاء على حكم مناطقهم، ومن ذلك أن ياغي سيان كان يرىٰ توجيه قوات رضوان إلى ديار بكرٍ ويعلل ذلك بخلوها من والٍ يحفظها، وعدم وجود من يدافع عنها فاضطر رضوان للاستجابة لرأي ياغي سيان وسارا وبرفقتهما جناح الدولة وعدد من أمراء الأطراف من رجالات والده تتش وقصدوا جميعاً بادىء الأمر مدينة «سروج» لكن سكمان الأرتقي سبقهم إليها[2]، وكانت بأمرته منذ أن أقطعه إياها تتش، وقد عمل جاهداً للحفاظ على ملكه مع عدم المساس أو إغضاب سيده رضوان ولذلك فإنه عمل على تقوية دفاعات المدينة وبذل جهداً كبيراً في الدفاع عنها ولم يكتفِ بذلك بل لجأ إلى خطة سلمية حكيمة تتم عن دراية ومعرفة بأمور الحرب والسياسة مستعيناً بأهالي المدينة ليبعد رضوان عنها، إذ أمرهم بالخروج إلى رضوان ليقدموا شكواهم وتظلمهم عن الأعمال التي يمارسها جنوده وخاصة إفساد الغلال راجين من وراء ذلك إبعاد القوات عن سروج، فاستجاب

لرضوان أثناء حكمه بحلب وتحركه لاستعادة دمشق من أخيه دقاق، كما أقطعه معرة النعمان وأعمالها بعد تخليصها من ياغي سيان. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٧٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٤٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٤٧. بيطشوف: تحف الأنباء، ص ٤٨.

رضوان لطلبهم، ورحل عنهم قاصداً الرها[1]. وقد يكون فعل ما فعل لأنه خرج مكرهاً بضغط من رجاله وحاشيته، ولم يكن يرى بأساً في حكم سكمان بن أرتق لهذه المدينة، وذلك لمواقف هذا الأخير المؤيد لأبيه تتش فيما سبق[2].

بعد ذلك تحرك رضوان إلى الرها وحران لاستعادتهما، وقد وردت حول ذلك روايتان متناقضتان:

الأولى لابن الأثير يقول فيها: إن رضوان توجه ومن معه من الأمراء إلى الرها فاستولى عليها وأعطاها وقلعتها لياغي سيان، وبعد ذلك تلقى رضوان رسالة من أهل حران يستدعونه لتسليمها له، وقبل الوصول إليها اختلف جناح الدولة حسين وياغي سيان وأضمر كل منهما الغدر بالآخر، فعاد جناح الدولة هارباً إلى حلب ودخلها، وكذلك عاد رضوان وياغي سيان إلى حلب، فلما سمعا بدخول جناح الدولة إليها، انفصل ياغي سيان عن رضوان وتوجه إلى أنطاكية صحبه أبي القاسم الخوارزمي، بينما دخل رضوان حلب[3]. أما ابن العديم فإنه يذكر: إن رضوان ومعه جناح الدولة وياغي سيان ويوسف بن آبق توجهوا إلى الرها ليتسلمها رضوان من المقيمين فيها من أصحاب والده مقابل إعادة عدد من الرهائن من أهل الرها، ويبدو أن هذه الرهائن كانت بحوزة ياغي سيان ويوسف بن آبق منذ أيام تتش أو قبل ذلك. وعند وصولهم إلى الرها حاول ياغي سيان ويوسف بن آبق الكيد لرضوان وجناح الدولة والتخلص منهما، لكن الأخيرين عرفا بالمكيدة وهربا منهما وعادا إلى حلب بينما عاد ياغي سيان ويوسف بن آبق إلى أنطاكية[4].

ومن خلال مناقشة الروايتين يتبين عدة أمور منها:

١ ــ إنَّ ابن العديم لا يشير إلى تحرك رضوان إلى سروج أو حران واكتفى بالإشارة إلى وصوله إلى الرها مما يجعل الرواية ناقصة عمّا أراده رضوان من تحركه نحو ديار بكر.

٢ ــ إنَّ رواية ابن الأثير أشمل وأدق من رواية ابن العديم في هذه النقطة، لأن رضوان كان يريد استعادة أملاك أبيه جميعها والتي كانت بحوزة سكمان بن أرتق وبوزان.

٣ ــ إن الخلاف بين رضوان ومعه جناح الدولة مع ياغي سيان ومعه يوسف بن آبق حدث قبل تسلم الرها حسب رواية ابن العديم، وكانت مؤامرة من ياغي سيان ويوسف

---

(١) عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٧١.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٤٧. ييتشوف: تحف الأنباء، ص ٤٨.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٨٦.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٨٧.

للتخلص من رضوان وأتابكه وهذا يعني أن رضوان لم يتسلم الرها ولم يدخلها.

٤ ـ إلا أن رواية ابن الأثير تجعل هذا الخلاف بعد الاستيلاء على الرها والتوجه إلى حرّان وقبل الاستيلاء عليها وذلك أقرب إلى تسلسل الأحداث التي تشير إلى رغبة رضوان بالاستيلاء على أملاك أبيه.

٥ ـ يبدو أن الخلاف برز بعد أن أعطى رضوان الرها وقلعتها لياغي سيان بناء على طلبه وخوف جناح الدولة من حصوله أيضاً على حران بعد الاستيلاء عليها، مما أثار غضب جناح الدولة الذي أخذ يشكك بنوايا ياغي سيان تجاه رضوان، ومما لا يستبعد أن يكون ياغي سيان قد حدثته نفسه بالتخلص من رضوان للاستيلاء على أملاك تتش.

٦ ـ يقول ابن الأثير إن جناح الدولة هرب إلى حلب، وعاد رضوان وياغي سيان ويوسف ابن آبق إلى حلب، أما ابن العديم فيشير إلى عودة رضوان وجناح الدولة هاربين إلى حلب بينما عاد ياغي سيان ويوسف إلى أنطاكية وهو أقرب أيضاً إلى الأحداث التالية، لكن الروايتين تثبتان أن كل أمير من الأمراء كان يحاول التفرد بالحكم لوحده، وهو ما سيظهر في الصفحات القادمة مما جعل البلاد تعاني من التفرقة والتمزق عشية قدوم الفرنجة الصليبيين إلى بلاد الشام.

بعد عودة رضوان وجناح الدولة إلى حلب جهز جناح الدولة بأمر من الملك رضوان جماعة من العسكر وسيرها إلى المعرة لاسترجاعها من ياغي سيان وكان قد أقطعه إياها تتش عندما دخل حلب سنة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤م، كما استنجد جناح الدولة بالأمير وثاب بن محمود وأفراد قبيلته للمساعدة في استرجاع المعرة، وقد تسلمت قوات حلب المعرة بعد أن خرج منها ابن ياغي سيان وأصحابه[١]، وبذلك عادت تبعية المعرة إلى الملك رضوان، وفي هذه الأثناء أرسل رضوان إلى سكمان وهو مقيم «بسروج» يستدعيه إلى حلب لمساعدته والوقوف إلى جانبه فتحرك سكمان على الفور وقطع الفرات مع عساكره باتجاه حلب، وخشي ياغي سيان من تحالف رضوان وسكمان، ويبدو أنه شعر أن هذا التحالف موجه ضده، فأسرع بإرسال يوسف بن آبق في أعداد كبيرة من العسكر ليفاجىء سكمان ويمنعه من الوصول إلى حلب، وما أن إلتقى به حتى خافه سكمان وانضم إليه، فلم يكن من رضوان إلا أن أرسل جناح الدولة حسين بعسكره مع وثاب وأنصاره. اشتبك مع قوات يوسف في مرج دابق، وفسح بذلك المجال لسكمان وعسكره من الإنضمام إلى قوات جناح الدولة،

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٤٨٧.

وبهذا ضعفت قوات ياغي سيان بقيادة يوسف بن آبق فهرب إلى أنطاكية ونهب عسكره، وعاد جناح الدولة وسكمان ووثاب إلى حلب، وقد أدّى هذا العمل من قبل سكمان إلى إكرامه من رضوان فأقطعه معرة النعمان وأعمالها[1]، ومنذ ذلك الوقت أصبح سكمان الحليف الأساسي لرضوان وخاصة أثناء زحفه على دمشق لتخليصها من أخيه دقاق.

٢ ــ محاولته استعادة دمشق:

منذ أن تسلم رضوان الملك بحلب كان يتطلع إلى دمشق، ولذلك فإنه عمل على عدم وصول أخيه إليها وتمكنه من الاستقرار فيها وحكمها، ولكنه أخفق في مساعيه، وعن رغبة رضوان في ضم دمشق لأملاكه يقول ابن القلانسي: «وكان فخر الملوك رضوان مائلاً إلى دمشق ومحباً لها، ومؤثراً العودة إليها ولا يختار عليها سواها لمعرفته بمحاسنها وترعرعه فيها، فجمع وحشد واستنجد بالأمير سكمان بن أرتق، وبرز طالباً لدمشق والنزول عليها، وانتهاز الفرصة فيها»[2].

حين توجه الملك رضوان إلى دمشق أبقى زوج أمه جناح الدولة حسين في حلب، وقد وصل رضوان وسكمان بقواتهما إلى أطراف دمشق وذلك سنة ٤٨٩ هـ/١٠٩٥م، بينما كان دقاق مع قواته ومعه ياغي سيان ونجم الدين إيلغازي في مهمة خارج دمشق وقد ترك فيها الوزير زين الدولة محمد بن أبي القاسم وعدد قليل من العساكر والأجناد والأحداث، ولا تشير المصادر إلى المكان الذي كان فيه دقاق وجيشه وحليفيه، وأغلب الظن أن جيش رضوان استطاع أن يتحاشى جيش دقاق وأنصاره، وأن يصل إلى أسوار دمشق ليفاجيء الأهالي الذين تولوا صد القوات المهاجمة، وقد دافع أبناء المدينة عن مدينتهم بعزم وإصرار ليمنعوا رضوان عنها، ويصف ابن القلانسي دفاع أبناء دمشق وصفاً دقيقاً وحياً فيقول: «... وأغلقت الأبواب، وارتكبت الأسوار، وصاحوا ورشقوهم بالسهام، وكانوا قد بلغوا في الزحف (أي قوات رضوان) إلى سوق الغنم، وقربوا من السور وباب الصغير، وطلب جماعة من العسكرية وأحداث البلد الخروج إليهم والدفع لهم عن البلد، فمنعهم السلاّ بختيار شحنة البلد، والرئيس أمين الدولة أبو محمد بن الصوفي رئيس البلد من الخروج، وقاتلوهم على الأسوار ومنعوهم من الوصول إليها، واتفق الأمر أن حجر المنجنيق وقع في رأس حاجب الملك رضوان وهو قائم يحرض على العرب فقتله، فسكنت الحرب، واشتغلوا بأمره، وعادوا إلى مخيمهم لأجله، ولم يتم

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٤٨٧. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص٧١.

(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص٢١٥.

لهم أمر، ولا تسهل لهم غرض، وبلغهم أن دقاق عائد في العسكر إلى دمشق، فرحل رضوان في العسكر عائداً إلى حلب خائباً في الأمر الذي طلب»[1]. أما ابن العديم فإنه يجعل عود رضوان عن حصاره لدمشق هو بسبب قبض دقاق على إيلغازي واعتقاله لتهمة وقعت به وحول ذلك يقول: «عندما وصلا إلى قرب دمشق علما أن دقاق قبض على نجم الدين إيلغازي ابن أرتق واعتقله لتهمة وقعت به. فعاد رضوان إلى حلب، وسار سكمان إلى بيت المقدس، وتسلمها من نواب أخيه وأقام بها»[2].

وهنا يرد التساؤل حول أمرين الأول: عملية القبض على إيلغازي وتأثيره في حوادث الحصار. والثاني هو عودة رضوان عن حصاره لدمشق وأسباب ذلك، وبالنسبة للأمر الأول وهو القبض على إيلغازي، فإن الروايتين لم تذكرا نوع التهمة التي وجهت لإيلغازي وكانت سبباً في القبض عليه. مما يثير عدة احتمالات لمعرفة حقيقة التهمة التي كانت سبباً في اعتقاله منها:

١ ـ إنَّ دقاق خاف على ما يبدو أن يتمكن رضوان وسكمان من استمالة إيلغازي وضمه إليهما خاصة وأن رضوان كان يعتمد اعتماداً أساسياً على قوات حليفه سكمان وهو أخو إيلغازي.

٢ ـ تخوف دقاق من مؤامرة يدبرها إيلغازي عند وصوله إلى دمشق مدفوعاً إلى ذلك بتأثير من أخيه سكمان.

٣ ـ ربما كانت بسبب قيام إيلغازي في إثارة المشاغبات والإنقسامات في صفوف قوات دقاق مما يضعف موقفها أمام قوات أخيه. وقد تكون هذه الاحتمالات جميعاً أدت إلى الاعتقال.

وبالنسبة للأمر الثاني وهو عودة رضوان عن حصاره لدمشق فيبدو أن لها أيضاً أسباب منها:

١ ـ إنَّ رضوان فوجيء بالمقاومة العنيدة والصلبة لأهل دمشق فاضطر للعودة خائباً.

٢ ـ إنَّ رضوان قد أراد الاستعانة بقوة إيلغازي ففاجأه القبض عليه ورأى أنه لن يستطيع إتمام مشروعه في استعادة دمشق فعاد عنها.

٣ ـ إنَّ رضوان عندما علم بعودة دقاق وقواته إلى دمشق اضطر للانسحاب وتخلى عن الحصار.

---

(١) ابن القلانسي ـ المصدر السابق، ص ٢١٥.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٨٨.

٤ ـ أن يكون رضوان عاد عن حصاره لدمشق بضغطٍ من حليفه سكمان ليتمكن من التوسط لإطلاق سراح أخيه.

بعد أن تخلىٰ رضوان عن حصار دمشق عاد وحليفه سكمان إلى حلب وقد اختلفت الروايات حول الطريق التي سلكها والوجهة التي سار فيها، فابن القلانسي يقول: «وطلب في رحيله مرج الصفر وطلب حوران، فعاث العسكر فساداً في أطرافها، وطلب التوجه إلى بيت المقدس وعاد شمس الملوك دقاق لما إنتهىٰ إليه الخبر في العسكر ووصل إلى دمشق، وتبع عسكر الملك رضوان على أثره، فوصل وتقارب المدىٰ بين الفريقين وفصل الملك رضوان منكفئاً إلى حلب، فوصل إليها في آخر ذي الحجة من السنة٤٨٩ هـ»[1]. أما ابن العديم فإنه يذكر أن رضوان قام بهجومين على دمشق كان الأول سنة ٤٨٩ هـ/١٠٩٦م، وكان الثاني سنة ٤٩٠ هـ/١٠٩٧ ــ ١٠٩٨م، وقد عاد بعد الهجوم الأول إلى حلب بينما عاد حليفه سكمان إلى بيت المقدس، أما عن الهجوم الثاني فيقول: «وسارا في أول شهر رمضان إلى دمشق، بينما سار ياغي سيان منجداً لدقاق، وعندما علم رضوان بذلك ضعفت همته، فسار إلى بيت المقدس فتبعه دقاق وياغي، وأشرفت عساكر رضوان على التلف، فانفصل عنه جناح الدولة وهرب إلى حلب، ثم تبعه رضوان بالعساكر، وعاد إلى حلب»[2]. أما ابن الأثير فإنه لا يذكر إلا هجوماً واحداً قام به رضوان على دمشق سنة ٤٩٠ هـ/١٠٩٧ ــ ١٠٩٨م، وعنه يقول: «... فلما قاربها (أي دمشق) ورأىٰ حصانتها وامتناعها علم عجزه عنها، فرحل إلى نابلس وسار إلى القدس ليأخذه، فلم يمكنه، وانقطعت العساكر عنه، فعاد ومعه ياغي سيان، صاحب أنطاكية وجناح الدولة»[3].

مما لا شك فيه أن رواية ابن العديم التي غطىٰ بها فترة رضوان وأعماله في حلب والمناطق المجاورة لها تعتبر أدق مما ورد لدىٰ المؤرخين الآخرين، إلى جانب أن رواية ابن الأثير إضافة لكونها مختصرة، فإنَّ بها بعض المغالطات، فهو يذكر أن ياغي سيان كان مع رضوان والأصوب أن ياغي سيان ومنذ دخول دقاق دمشق كان من مؤيديه ومشجعيه، وبالتالي كان مع دقاق وليس مع رضوان، كما يذكر أن رضوان توجه إلى القدس ليستولي عليها وحليفه

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢١٥.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٨٨. ابن العديم: بغية الطلب، جـ ٦، من مخطوطة أحمد الثالث، ترجمة: رضوان بن تتش وينقل عنه كل من: أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ص ٢٠٩. القرماني: أخبار الدول وآثار الأول، ص ٢٧٧. سهيل زكار: المدخل، ص ٣٨٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٦٩.

سكمان فيها وكان قد تسلمها من نواب أخيه، ومن غير المنطقي أن يذهب رضوان لمقاتلة حليفه سكمان وهو في حالة تراجع أمام عدويه دقاق وياغي سيان، والمرجح أنه توجه فعلاً إلى القدس للاحتماء بحليفه وليس مهاجمتها[1]، ويعارضه في ذلك كما ورد في الروايات المذكورة كل من ابن القلانسي وابن العديم، وهما الأكثر معرفة ودقة في أحداث دمشق وحلب بخاصة وبلاد الشام بعامة.

بعد وصول رضوان وجناح الدولة إلى حلب إلتحق بهما بعد فترة قصيرة سكمان بن أرتق قادماً إليها من القدس عن طريق الصحراء فوصلها أوائل سنة ٤٩٠ هـ/١٠٩٦م، وقد اجتمع فور وصوله بجناح الدولة مدبر شؤون حلب، واتفقا على مهاجمة بلاد ياغي سيان وحليفه دقاق[2].

ولما علم دقاق بنوايا رضوان جمع قواته وقرر التوجه إلى أنطاكية ومعه طغتكين لنجدة ياغي سيان، فوصلا حماه وعاث العسكر فساداً في مناطقها وقراها، وكذلك وصل إليهما ياغي سيان، فتوجه الثلاثة إلى كفر طاب في ٢ ربيع الأول سنة ٤٩٠ هـ/١٨ شباط ١٠٩٧م، وحاصروها حتى تمكنوا من دخولها، وفرضوا غرامة مالية كبيرة على أهلها، ثم توجه ياغي سيان ودقاق إلى المعرة، فهرب أصحاب سكمان منها[3]، فتقدم إليها ياغي سيان واستولى عليها وفرض على أهلها غرامة مالية، وتابعت قواتهما زحفها نحو حلب فتنقلت في الجزر وأعمال حلب وأغارت عليها[4].

أراد رضوان صد هذه القوى الموحدة التي هاجمته، فعمل على ضم أنصار كل من سكمان وسليمان بن إيلغازي صاحب سميساط[5]. وحين اجتمع لرضوان من القوى ما يمكنه من مواجهة خصومه تحرك إلى حاضر قنسرين، بينما تجمعت قوات دقاق بقنسرين[6]، وخشي كل من الطرفين لقاء الآخر فجرت بينهما مراسلات اتفق فيها على الإلتقاء على نهر قويق لإجراء المحادثات، إلا أن المحادثات لم تسفر عن نتيجة ولم يتم الصلح، بل جرى بعض المهاترات بين سكمان وياغي سيان، فقد خاطب الأول الأخير قائلاً: «هؤلاء الملوك يقتتلون

---

(١) عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص٧٣، حاشية رقم /٢/.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٤٨٩. ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٢٦٩. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص٧٣.

(٣) انظر فيما سبق صفحة -١٦٠-

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٤٩٠. عماد الدين خليل- المصدر السابق، ص٧٤.

(٥) سميساط: مدينة على شاطىء الفرات الغربي في طرف بلاد الروم ولها قلعة يسكنها الأرمن، ياقوت الحموي: معجم البلدان- خمسة أجزاء، طبعة دار صادر- بيروت ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، مادة حلب، جـ٢- ص١٥١- ١٥٢.

(٦) قنسرين: انظر الفصل الأول، ص-٤٥-

على ملكهم، أنت يا بياع اللبن دخولك معهم لأي صفة؟ فقال له سكمان غداً تبصر إيش أنا»[1]، والتقىٰ الجيشان صبيحة اليوم التالي الخامس من شهر ربيع الآخر سنة ٤٩٠ هـ/ ٢٣ آذار ١٠٩٧ م، فأبلىٰ سكمان بلاءً حسناً واستمرت المعركة حتىٰ آخر النهار، وأسفرت عن هزيمة ياغي سيان إلى أنطاكية ودقاق وطغتكين إلى دمشق، وفي طريق عودة أنصار ياغي سيان قتل الفلاحون والأرمن منهم عدداً كبيراً[2].

هذا ويذكر ابن الأثير أثناء عرضه لمعركة قويق: «أن رضوان أرسل رسولاً إلى سكمان ابن أرتق، وهو بسروج يستنجده، فأتاه في خلق كثير من التركمان»[3]. وهذا مجانب لسير الأحداث إذ أن سكمان تحرك من القدس مع قواته، وعند وصوله إلى حلب اتفق مع جناح الدولة على مهاجمة أراضي ياغي سيان ولم يكن بسروج[4].

وقد أسفرت معركة قويق عن نتائج وتحالفات جديدة كان من أبرزها:

١ ــ تفوق رضوان على أخيه دقاق، ولذلك فإنه لم يكد يمضي وقت طويل حتىٰ تم عقد اتفاق بين رضوان ودقاق يخطب بموجبه لرضوان بدمشق وأنطاكية قبل دقاق[5].

٢ ــ هروب جناح الدولة حسين إلى حمص مع زوجته أم رضوان[6]، وكان مدبر شؤون رضوان وحلب ليؤسس لنفسه ملكاً خاصاً به، ولئلا يكون تابعاً لأحد، وبذلك فإنه اجتزأ جزءاً جديداً من أملاك رضوان.

٣ ــ عمل ياغي سيان على إنهاء الخلاف بينه وبين رضوان، وقبل رضوان بذلك وأكد ذلك بالزواج من ابنته خاتون جيجك[7]. ووصل هو أيضاً إلى حلب.

بعد وصول ياغي سيان إلى حلب شرع في تدبير أمورها، وأصبح صاحب الأمر والنهي فيها، قرر رضوان وبمشورة ياغي سيان محاصرة شيزر، وقد حاصراها قرابة شهر، واستعدا للزحف مرة أخرىٰ على دمشق لكن الأمراء ومقدمي العسكر اختلفوا فيما بينهم، فتفرقوا وعاد كل منهم إلى بلده دون الاستيلاء حتىٰ على شيزر، وعاد الملك رضوان إلى حلب[8].

---

(١) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ٢، ص ٤٩٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٦٩. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٩٠. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ص ٢٠٩ ــ ٢١٠. اليافعي اليمني المكي: مرآة الجنان، جـ٣، ص ١٥٢. الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ٧٩. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٧٤.

(٣) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ٢٦٩.

(٤) انظر فيما سبق صفحة ــ ١٦٢ ــ

(٥) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٦٩. اليافعي اليمني المكي: مرآة الجنان، جـ٣، ص ١٥٢. بيعشوف: تحف الأنباء، ص ٤٨.

(٦) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ٤٩٠.

(٧) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢١٧. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ٢، ص ٤٩٠.

(٨) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢١٧، كانت شيزر تحت حكم الأسرة المنقذية منذ أن استولىٰ عليها سديد الملك في عهد مسلم بن

ب ـ موقف رضوان من رجاله:

١ ـ موقف رضوان من يوسف بن آبق:

كان يوسف بن آبق حاكماً على الرحبة، وقد استنجد به آق سنقر لمساعدته ضد تتش فجاءه يوسف في سنة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م[١]، ومعه ألفان وخمسمائة فارس، وبعد إنجلاء المعركة إنضم يوسف إلى تتش، وأعلن الطاعة له، وأصبح من أبرز القادة المعتمدين لديه، كما كان في جملة قواده في حربه مع ابن أخيه بر كياروق[٢]، ويبدو أن يوسف بن آبق إنضم إلى تتش بعد أن وجد أنه أصبح الأقوى وأنه مهيء لتولي السلطنة، وهذا يدل على أن كثيراً من المواقف تتغير بتغير المعايير السياسية.

في صفر سنة ٤٨٨ هـ/ شباط ــ آذار ١٠٩٥ م، أرسل تتش يوسف بن آبق ليستولي على بغداد ويعدها لمقدمه إليها ، ولكن يوسف لم يستطع أن يقوم بهذه المهمة بسبب موقف الأمير العربي صدقة بن مزيد أمير الحلة من هذا الأمر، فتظاهر يوسف بتركها والتوجه إلى خراسان، وقام في طريقه ببعض الأعمال العسكرية، وما أن ترك صدقة بغداد إلى الحلة حتى عاد يوسف بن آبق ودخل بغداد، وأراد نهبها والاعتداء على سكانها، فمنعه أمير تركماني كان معه من ذلك[٣]. في هذه الأثناء سمع يوسف بمقتل تتش، فترك بغداد وعاد إلى الموصل[٤]، ومنها راسل الملك رضوان الذي كان قد وصل إلى حلب يطلب منه السماح له بالقدوم إلى حلب ليكون تحت تصرفه ويساعده في تدبير ملكه فأذن له، وقد وصل يوسف إلى حلب وأقام بها سنة ٤٨٩ هـ/ ١٠٩٥ ــ ١٠٩٦ م[٥]. إلا أنه انفصل عن رضوان وعاد مع ياغي سيان إلى أنطاكية أثناء الهجوم على الرها[٦].

بعد عودة رضوان من حصاره لدمشق، اتصل به يوسف بن آبق مرة ثانية يطلب منه العفو والصفح، واضعاً نفسه بخدمته فوافق رضوان إلا أنه ما لبث أن شعر أن يوسف يتآمر عليه، ويحاول خيانته لذلك طلب من رئيس أحداث حلب بركات بن فارس الفوعي الملقب

قريش، راجع الفصل التالي، صفحة ـ ١١٦ ـ.

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٧٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٣٤، ويقول عنه يعقوب بدلاً من يوسف، وكانت المعركة قرب سرخاب في شوال سنة ٤٨٧ هـ/ تشرين أول ــ تشرين ثاني سنة ١٠٩٤ م.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٤٤.

(٤) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٤٤.

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٨٨.

(٦) انظر فيما سبق صفحة ـ ١٥٨ ـ

بالمجن أن يقتل يوسف بن آبق ليتخلص منه، فهاجم المجن وأتباعه دار يوسف وقتلوه ونهبوا ما بها[١]. وقد أجمع المؤرخون على أن الذي قتله هو المجن، إلا أنهم اختلفوا حول أسباب قتله، فابن الأثير يذكر أن سبب القتل هو وشاية المجن إلى جناح الدولة واتهامه ليوسف بمراسلة ياغي سيان والتآمر معه[٢]، أما ابن العديم فيقول: إن سبب قتله هو توهم رضوان منه الارتداد عن الإسلام، فخاف منه رضوان وجناح الدولة فطلبا من المجن قتله، فهجم عليه وأصحابه وقتلوه[٣].

يبدو أن يوسف بن آبق كان ضحية خلاف بين جناح الدولة حسين وياغي سيان صاحب أنطاكية، وكان المستفيد من قتل يوسف هو الملك رضوان الذي كان يحاول التخلص من المشاغبين على حكمه والمنافسين له الواحد تلو الآخر، فبدأ بدقاق ولما عجز عنه قتل أخويه لئلا يفعلا فعله. والآن قتل أحد قواد أبيه يوسف بن آبق خوفاً منه، وسيأتي دور جناح الدولة وغيره ... بعده.

٢ ــ موقف رضوان من جناح الدولة حسين:

عندما توجه تتش شرقاً لطلب السلطنة كان برفقته جناح الدولة حسين بن أيتكين، فلما قتل تتش في حربه مع ابن أخيه بر كياروق، عاد جناح الدولة حسين مسرعاً إلى حلب وقد سلم من المعركة[٤] ليلحق برضوان الذي تمكن بمساعدته من دخول حلب وقلعتها[٥].

اعتمد رضوان في الفترة الأولىٰ من حكمه على جناح الدولة حسين في تسيير أمور مملكة حلب حتىٰ أصبح صاحب الكلمة الأولىٰ فيها، وكان بصحبة رضوان في حملاته على ديار بكر وسروج والرها وحران ودمشق[٦] وقد اختلف مع منافسه ياغي سيان الذي كان يتطلع هو الآخر للهيمنة على رضوان والتحكم بأمور حلب، ونتيجة الخلاف عاد ياغي سيان إلى أنطاكية ومعه أبو القاسم الخوارزمي وذلك سنة ٤٨٨ هـ/١٠٩٥م، بعد أن أخفق في مسعاه.

بعد عودة ياغي سيان إلى أنطاكية، برز في حلب المجن الفوعي كمنافس خطير لجناح الدولة وخاصة بعد قيامه بقتل يوسف بن آبق وكان هو الآخر يحدث نفسه بالإنفراد بحكم

---

(١) العظيمي: تاريخه، ص٣٥٨. ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ١٠، ص٢٥٥. الغزي: نهر الذهب، جـ٣، ص٧٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٢٥٥.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٤٨٨.

(٤) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٢٤٦.

(٥) انظر فيما سبق من صفحة ١٥٤ وما بعد.

(٦) انظر فيما سبق من صفحة ١٥٨ وما بعد.

حلب، ولذلك فإنه عمل على الإيقاع بين الملك رضوان وجناح الدولة حسين، وقد شعر جناح الدولة بتغير رضوان تجاهه، فخاف منه على نفسه، فهرب إلى حمص مع زوجته أم رضوان وجملة من مؤيديه وخواصه، وقد تسلمها من نائبه قراجه، وكانت حمص لجناح الدولة منذ أن سلمه إياها تاج الدولة تتش بعد مقتل آق سنقر، وقد قام جناح الدولة بتحصينها والاستعداد لأي مواجهة قادمة[1]. وبعد وصوله إلى حمص قام بمهاجمة عسكر رضوان في سرمين وأسر أرباب دولته وديوانه ووزيره ابن الموصول»[2]، ثم أطلقهم.

لم يقبل رضوان بهرب جناح الدولة واستقلاله بحمص، وأراد استعادتها. ومن أجل ذلك فإنه أخذ يفتش لنفسه عن حلفاء لانتزاع حمص من جناح الدولة ومن ثم يقصد دمشق لانتزاعها من أخيه دقاق، ومن أجل ذلك تصالح مع ياغي سيان، واتصل بالقاهرة لمساعدته في ذلك إلا أنه فشل في خطته[3].

ظل جناح الدولة حسين أميراً على حمص حتىٰ سنة ٤٩٥ هـ/١١٠١ ــ ١١٠٢م، حيث قتل بجامعها على يد نفر من الباطنية، وكان قتله بتدبير وتشجيع من الملك رضوان[4].

فور مقتل جناح الدولة حسين أسرع أهل حمص بمراسلة الملك دقاق ملك دمشق طالبين منه الإسراع في الوصول إلى حمص لتسلمها، فأسرع إليها وتسلمها وأحسن إلى أولاد جناح الدولة، وبهذا فشلت خطة رضوان في استعادة حمص وتحقيق حلمه فيها.

٣ ــ موقف رضوان من المجن الفوعي:

وكان المجن الفوعي قبل بداية ظهوره على مسرح الأحداث في حلب من عداد اللصوص والشطار وقطاع الطرق الذعار، فاستنابه قسيم الدولة آق سنقر وولاه رئاسة حلب لشهامته وكفايته ومعرفته بالمفسدين[5]. وقد ظل كذلك طيلة حكم آق سنقر، كما أبقاه تتش في منصبه، وكذلك ظل في أيام رضوان، وقد علت مرتبته وقويت شوكته، حتىٰ أن أوامره كانت

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢١٦. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٥٥. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٩٠.

(٢) العظيمي: تاريخه، ص ٣٦١. ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ المجلد الرابع، ترجمة: جناح الدولة حسين.

(٣) ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ٢١٧، ويقول: «وكان الملك رضوان قد بنىٰ الأمر في ذلك على الاجتماع مع العسكر المصري، والنزول على دمشق لأخذها من أخيه الملك دقاق». ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ٢٧٠، ويقول: «... وأتته رسل المصريين يدعونه إلى طاعتهم، ويبذلون له المال وانفاذ العساكر إليه يملك دمشق...». ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٩١، ويقول: «... وفي هذا الوقت وصله رسول الأفضل من مصر يدعوه إلى طاعة المستعلي وإقامة الدعوة له ومعه هدية سنية من مصر، ووعده بأن يمده بالعساكر والأموال...».

(٤) العظيمي: تاريخه، ص ٣٦٩. ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٣٠، ويجعل مقتله سنة ٤٩٦ هـ. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٣٤٥. ابن أبي الدم: تاريخه ــ مخطوط، ص ١٤٢، يجعل مقتله سنة ٤٩٩ هـ، وهو خطأ. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ص ٢١٦.

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ ٢، ص ٥٠٢ ــ ٥٠٣.

تسري على القضاة والوزراء ومن دونهم، ومع ذلك فإنه وصف بأنه «كثير السعاية في قتل النفوس، وسفك الدماء وأخذ الأموال وارتكاب الظلم»[1].

بعد هروب جناح الدولة إلى حمص أصبح المجن الفوعي الشخصية الأولى والمؤثرة في أحداث حلب، وقد حدثته نفسه بالإنفراد بالحكم والتخلص من الملك رضوان مستغلاً تصرفات رضوان وأعماله وخاصة تقريبه أتباع الإسماعيلية النزارية واعتماده عليهم، فأعلن الثورة على رضوان يؤيده قسم من الحلبيين والأحداث، وقد أشار المؤرخون إلى ذلك دون ذكر الثورة صراحة، فالعظيمي يقول: «وعصى بحلب رئيسها بركات المجن على رضوان، ثم ضعف واختفى»[2] وابن الأثير يقول: «... فلما إنفرد المجن بالحكم تغير عليه رضوان، وأراد منه أن يفارق البلد، فلم يفعل وركب في أصحابه، فلو هم بالمحاربة لفعل...»[3] وكذلك يقول ابن العديم: «أمر رضوان منادياً نادى بالقلعة بأن الملك قد ولى رئاسة حلب صاعد بن بديع، فانقلب الأحداث عن المجن...»[4].

بالمقابل كان رضوان يعد العدة للتخلص من المجن وأتباعه، كما فعل بغيره من قبل وقد تهيأ للأمر وبمجرد سماعه بما قام به المجن أعلن من القلعة عزله عن رئاسة حلب وتولية صاعد ابن بديع. وقد تمكن صاعد هذا من كسب الأحداث إلى جانبه خاصة وأنه كان رأساً من رؤوسهم لذلك تركوا المجن وانقلبوا عليه، ومالوا إلى الرئيس الجديد، ووقف معهم وأيدهم غالب الحلبيين. وطلب منه رضوان أن يغادر البلد فلم يفعل.

ضعف موقف المجن الفوعي بانفلال الأحداث عنه، وهم القوة الرئيسية والداعمة في موقفه، فاختفى عن الأنظار، إلا أن رضوان أمر بتتبعه حتى ألقى القبض عليه وعلى أولاده وأقربائه ومن بقي معه، وزجه في السجن في ذي القعدة من سنة ٤٩٠ هـ/تشرين ثاني ـــ كانون أول ١٠٩٧ م[5]. وقد تعرض المجن لشتى أنواع التعذيب وأقساها، وقتل ابنان له أمام عينيه، ولكن قناته لم تلن ولم يضعف أمام رضوان، ولما قدم للقتل نادى بالناس يعفيهم من الأموال التي له معهم، ولم يسمح لرضوان بالاستفادة من درهم واحد من ماله إلا ما اعترف

---

(١) ابن العديم ـــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٠٣ ـــ ٥٠٤.

(٢) العظيمي: تاريخ العظيمي، ص ٣٥٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل، طبعة صادر ودار بيروت ـــ المجلد العاشر، ص ٢٥٥.

(٤) ابن العديم ـــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٠٣ ـــ ٥٠٤.

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ ٢، ص ٥٠٣ ـــ ٥٠٤.

ـ ٥٠٤.

به من قبل بعض الناس وهو قليل[1].

يبدو أن المؤرخين لم ينصفوا المجن في رواياتهم، بل إنهم ظلموه وقسوا عليه، وخاصة ابن العديم عندما يقول عنه إنه كان في بداية أمره من اللصوص والشطار وقطاع الطرق والذعار إذ كيف يكون من هؤلاء ثم يختاره قسيم الدولة آق سنقر، ويوليه رئاسة حلب لشهامته وكفايته وقسيم الدولة كان معروفاً ومشهوراً بمكافحة اللصوصية وغيرها من الأعمال المخلة بالأمن، وإذا كان كثير السعاية في قتل النفوس، وسفك الدماء وأخذ الأموال وارتكاب الظلم، كما يتهم؟ فكيف يصبر عليه آق سنقر ويعطيه ثقته، ومن بعده تتش، ثم رضوان الذي كلفه أيضاً بقتل يوسف ابن آبق. أليس رضوان أولىٰ بنعته بهذه الصفات من المجن، وما قام به من هذه الأعمال معروف، وإذا التمسنا العذر لابن القلانسي وهو المؤرخ الدمشقي البعيد عن حلب والذي يقول: إن قتل المجن كان مجازاة للساعي في قتل النفوس وسفك الدماء، فإن ابن العديم كان أقرب لإنصاف المجن من غيره إلا إذا كانت أعمال الحكام في تلك الأيام مبررة. كما أن ابن الأثير كان أكثر حياداً في موقفه إذ يعزي القتل لتغير رضوان على المجن عندما إنفرد بالحكم، وأن رضوان طلب منه مغادرة البلد لكنه رفض، ولو رغب بسفك الدماء وكان من قطاع الطرق لفعل ذلك وقاتل مع أتباعه حتىٰ قتل، ولما أعلن عن إعفاء كل من له دين بذمته، ولكنه على ما يبدو أراد أن يكسب الجولة ضد الملك رضوان سلمياً ودون سفك دماء معتمداً على مساعدة الأحداث والأهالي لكنه أخفق في ذلك.

لقد ألصق رضوان التهم بالمجن الفوعي، وإلصاق التهم هو الأسلوب الذي كان يلجأ إليه الحكام للقضاء على معارضيهم، وبخاصة إذا كانوا من أبناء البلد وهم من الغرباء، وقد حقق رضوان من قتله المجن عدة أغراض:

١ ــ التخلص من أحد أبرز المعارضين لسياسته وتصرفاته.

٢ ــ الحصول على الأموال التي كانت لدىٰ المجن بدليل أنه «أراد أن يستصفي ما له لكن المجن لم يعترف بدرهم واحد لرضوان، إلا ما اعترف به غلام أو جارية وهو شيء يسير»[2]، وبذلك فوت على رضوان، هذه الفرصة، وزاد على ذلك أنه سامح الناس بديونه قبل موته.

٣ ــ أراد رضوان من تعذيبه وقتله وأبنائه أن يكون عبرة لغيره من المعارضين، لكنه أعطىٰ

---

(١) العظيمي: ص ٣٥٩. ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٢٠.
ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٥٦. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٠٣ ــ ٥٠٤، ويجعل مقتله سنة ٤٩١ هـ.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ ٢، ص ٥٠٣.
٥٠٣

رضوان درساً في الصلابة والمقاومة عندما رد على سؤال وهو تحت التعذيب «كيف تجد طعم الحديد، والمثقب يدور في كعبه؟ قال: قولوا: للحديد كيف يجد طعمي»[1].

لا شك أن من تكن هذه مواقفه وصفاته يستحق الاهتمام به أكثر مما ورد لدى المؤرخين، ولن يكون ذلك ممكناً إلا إذا ظهرت معلومات أوفى مما ظهر حتى الآن.

في الوقت الذي كان رضوان غارقاً في تصفية خصومه، كان الفرنجة الصليبيون يحتلون القسم الأكبر من أراضي إمارة حلب ويجردونها من المناطق المحيطة بها، ورضوان لا يحرك ساكناً، وماذا كان يفيده لو بقي دون منازع ولكن دون أرض أيضاً؟.

٣ ــ العلاقات بين رضوان والقوى المحيطة بحلب:

آ ــ العلاقة بين الملك رضوان والخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية:

في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي فقدت الخلافة العباسية هيبتها، وانحلت قوتها، وتلاشى تدريجياً نفوذ العنصر العربي فيها نتيجة لازدياد نفوذ العنصر التركي، حتى أصبح الخلفاء العباسيون أداة طيعة ومنفذة بين أيدي الأمراء الأتراك ومن ثم البويهيين، ولذلك أخذت القبائل العربية في الشام والجزيرة تعمل على استعادة نفوذها، وكوّن بعضها دويلات شبه مستقلة، كدولة بني حمدان في الموصل وحلب (سنة ٣١٧ ــ ٣٩٤ هـ/ ٩٢٨ ــ ١٠٠٤ م)، ودولة بني عقيل في الموصل وديار بكر والجزيرة (سنة ٣٨٠ ــ ٤٨٩ هـ/ ٩٩٠ ــ ١٠٩٦ م)، ودولة بني مرداس الكلابيين في حلب (سنة ٤١٤ ــ ٤٧٢ هـ/ ١٠٢٣ ــ ١٠٨٠ م)[2]، ومنذ دخول السلاجقة إلى بغداد، أخذت موازين القوى في العالم العربي الإسلامي تتغير لصالح الخلافة العباسية من خلال قوة السلاجقة القادمة من المشرق في الوقت الذي دب الضعف في جسم الخلافة الفاطمية وازداد هذا الضعف في الشدة المستنصرية العظمى مما أثر تأثيراً كبيراً على قوة مصر وأحوالها الاقتصادية وبالتالي تقلص تأثيرها في أحداث شمالي الشام، بينما كان السلطان السلجوقي ألب أرسلان المهيمن على أمور الخلافة العباسية في أوج قوته، وأصبح أكثر تأثيراً وتدخلاً في أحداث شمالي بلاد الشام، مما أدى بالأمير المرداسي محمود بن نصر إلى تغيير ولائه السياسي باتجاه السلاجقة بالرغم من محاولته الإبقاء على علاقة جيدة بالفاطميين، وبالرغم من الجهود التي بذلها المرداسيون

---

(١) سهيل زكار: المدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٤٤، نقلاً عن ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ المجلد ٦، ص ٩٢.

(٢) بيتشوف: تحف الأنباء، ص ٤٤. خاشع المعاضيدي: دولة بني عقيل، ص ٤٨. محمد جمال سرور: الحضارة الإسلامية في الشرق، ص ٧٢.

للاحتفاظ بإمارة حلب وتوطيد نفوذهم فيها إلا أنهم عجزوا عن ذلك بسبب هجوم السلاجقة عليها، مما دفع مسلم بن قريش للاستيلاء على حلب سنة ٤٧٣ هـ/ ١٠٨٠ ـ ١٠٨١ م، بعد أن حظي بموافقة السلطان ملكشاه مقابل مبلغ من المال. وبالرغم من أن مسلم بن قريش حاول إنشاء دولة قوية توحد بين الموصل ودمشق وحلب من خلال إقامة التوازن بين القوتين الكبيرتين، إلا أنه لم يتمكن من تحقيق ما يصبو إليه وانتهى على أيدي السلاجقة[١].

بعد مقتل مسلم بن قريش أصبحت حلب تابعة للسلاجقة اسماً وفعلاً، وكان أشهر من حكمها من السلاجقة قسيم الدولة آق سنقر ورضوان بن تتش، وبينما كان الأول معيناً من قبل السلطان وحكم باسمه، إنفرد رضوان بحكم حلب وبعيداً كل البعد عن السلطان والخلافة.

حاول الملك رضوان بن تتش الاستقلال عن الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية، ولم تذكر المصادر أية علاقات مباشرة أو غير مباشرة بين رضوان من جهة وبين خليفة بغداد الذي لا حول له ولا قوة أو السلطان بر كياروق الذي تسلم السلطنة سنة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م، ولم يطلب هذا الأخير من رضوان إلا إطلاق سراح كربوقا وأخيه التونتاش وكانا سجينين في حلب منذ أيام تتش[٢]. واقتصرت العلاقات على بعض الوفود الشامية بشكل عام والحلبية بشكل خاص التي كانت تصل إلى بغداد للاستغاثة والاستنجاد بالخلافة العباسية، والتي كانت أعجز من أن تمد يد المساعدة لمن يستغيث بها، ومن الوفود الشامية العامة التي أمّت بغداد الوفد الذي ذكره ابن الأثير في حوادث سنة ٤٩٢ هـ/ ١٠٩٨ ـ ١٠٩٩ م، بقوله: «وورد المستنفرون من الشام، في رمضان إلى بغداد صحبة القاضي أبي سعد الهروي، فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون، وأوجع القلوب، وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا، وبكوا وأبكوا... فعادوا من غير بلوغ أرب، ولا قضاء حاجة»[٣]، ويصور ابن كثير أيضاً موقف خلفاء العباسيين من استنجاد أهالي الشام بهم فقال: «إنه في سنة ٤٩٢ هـ/ ١٠٩٨ ـ ١٠٩٩ م، قدم بغداد وفد من الشام إلى العراق مستعينين على الفرنج إلى الخليفة والسلطان، منهم القاضي أبو سعد الهروي فلما سمع الناس في بغداد هذا الأمر الفظيع هالهم ذلك وتباكوا، وندب الخليفة الفقهاء إلى الخروج إلى البلاد ليحرضوا الملوك على الجهاد، فخرج ابن عقيل

---

(١) انظر الفصل الثاني، صفحة ١١٣ .تأسيس الإمارة العقيلية في حلب.

(٢) ابن الأثير: الكامل، طبعة صادر ودار بيروت ـ المجلد العاشر، ص ٢٥٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل، طبعة صادر ودار بيروت ـ المجلد العاشر، ص ٢٨٤.

وغير واحد من أعيان الفقهاء فساروا في الناس فلم يفد ذلك شيئاً»[1] ويبدو أن الوفد كان شامياً فيه وجهاء من كل مدن الشام ومنها حلب ودمشق لأنه وصل إلى بغداد على أثر احتلال الصليبيين لبيت المقدس خاصة وأن ابن الأثير يذكر أن المستنفرين كانوا من الشام... كما أوردت عدة مصادر تفاصيل استنجاد أهالي حلب بالخلافة العباسية عندما ضاق بهم الأمر وحوصروا من قبل الصليبيين الفرنجة، ومن هؤلاء ابن العديم الذي قال في هذا الصدد: «وضاق الأمر بأهل حلب ومضىٰ بعضهم إلى بغداد، واستغاثوا أيام الجمع ومنعوا الخطباء من الخطبة مستصرخين بالعساكر الإسلامية على الفرنج»[2]، أما كل من ابن الأثير والذهبي فقد قالا: «فسار جماعة من أهل حلب إلى بغداد مستنفرين على الفرنج، فلما وردوا إلى بغداد اجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم، فقصدوا جامع السلطان واستغاثوا، ومنعوا من الصلاة وكسروا المنبر»[3]. أما ابن القلانسي فقد أشار إلى هذا الوفد بقوله: «ولما كان أول جمعة من شعبان حضر رجل من الأشراف الهاشميين من أهل حلب، وجماعة من الصوفية والتجار والفقهاء إلى جامع السلطان ببغداد فاستغاثوا وأنزلوا الخطيب عن المنبر وكسره...»[4] وأمام ذلك استنكر الخليفة المستظهر بالله ما قام به الفرنجة الصليبيون[5] وأرسل إلى السلطان يطلب منه معالجة الأمر الذي جاء من أجله الحلبيون والاهتمام بهذا الفتق ورتقه[6]، وقد اهتم السلطان محمد فعلاً بالأمر، وأعطىٰ الأوامر للملوك والأمراء بالتجهز والاستعداد للتحرك نحو بلاد الشام وكان في المقدمة الأمير مودود صاحب الموصل ومعه ولده مسعود، كما إلتحق بهما الأمراء أحمد يل وسكمان وإيلبكي وزنكي برسق، وأبو الهيجاء وإياز، وتوجه الجميع إلى الفرات وقطعوه، وخاضوا عدة معارك مع الفرنجة الصليبيين[7]، ثم وصلوا إلى حلب، وبدلاً من أن يرحب بهم رضوان وينزلهم في بلاده ويتقوىٰ بهم على أعدائه ويقدم لهم ما يريدونه من الخدمات، فإنه لم يلتفت إليهم وأغلق أبواب حلب في وجوههم وأخذ رهائن من أهل حلب

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٢، ص ١٥٦.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ ٢، ص ٥٢١.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٤٨٢. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ٣٣، ويبدو أن الذهبي نقل حرفياً عن ابن الأثير، أو عن مصدر مشترك نقل منه كليهما.

(٤) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٧٦، وقد أورد فيليب حتي قول ابن القلانسي بنفس المعنىٰ تاريخ العرب مطول، جـ ٢، ص ٥٧٦.

(٥) ابن القلانسي ـــ المصدر السابق، ص ٢٧٧.

(٦) الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ٨٢.

(٧) انظر فيما يأتي صفحة ١٩٨، فقرة موقف السلطان محمد من الصليبيين، والسلطان محمد هو أخ للسلطان بركياروق وقد خطب له في بغداد يوم ١٧ ذي الحجة سنة ٤٩٢ هـ، ثم خطب له مرة ثانية يوم ١٤ رجب سنة ٤٩٣ هـ، وقد صفيت له السلطنة بعد وفاة أخيه بركياروق وقد توفي في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة ٥١١ هـ، ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٥٢٥.

يمنعهم من تسليمها للقادمين[1]، وهم من طلب واستصرخ واستنجد للحصول على هذه المساعدات.

من خلال استعراض النصوص السابقة يتبين عدة أمور منها:

١ ــ عدم قدرة الخليفة العباسي على مساعدة المستغيثين عسكرياً لأن هذه القوة كانت بيد السلطان السلجوقي، وأقصىٰ ما كان يستطيع فعله الخليفة هو حض السلطان على مد يد العون والمساعدة للمناطق المستغيثة.

٢ ــ إن الوفود الحلبية التي كانت تذهب إلى بغداد لطلب المساعدة لم يكن رضوان راضياً عنها، وذلك لأن رضوان كان يخشىٰ على ملكه من جنود السلطنة.

وهكذا نرىٰ أن العلاقات بين إمارة حلب في عهد رضوان والخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية كانت علاقات ضعيفة ومحدودة لا تظهر إلا في أوقات الأزمات والشدة من خلال الوفود التي تصل بغداد للاستنجاد والاستغاثة، كما أنها لم تكن في الغالب رسمية وإنما علاقات شعبية.

ب ــ العلاقة بين الملك رضوان والخلافة الفاطمية:

حاول رضوان اتباع سياسة مستقلة عن الخلافة في بغداد والسلطان بر كياروق الذي اكتفىٰ بحكم فارس وبغداد دون أن يحاول ضم بلاد الشام إليه[2]، وكذلك عن الخلافة الفاطمية أيضاً، وبدأت إمارة حلب تستعيد دورها القيادي في بلاد الشام.

عرف الفاطميون النزعة الاستقلالية للملك رضوان وأنه لا يرغب بالخضوع للعباسيين وسلاطين السلاجقة. فأرسلوا إليه يدعونه لطاعتهم، مقابل تقديم العساكر والأموال، وقبل رضوان العرض لأنه كان بحاجة إلى حليف خارجي، فخطب للخليفة الفاطمي المستعلي[3]، ثم للأفضل[4] ثم لنفسه وذلك اعتباراً من يوم الجمعة ١٧ رمضان سنة ٤٩٠ هـ/ آب

---

(١) العظيمي: تاريخه، ص ٣٦٥. ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٧٩. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٤٨٦. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ــ قسم أول، جـ ٨، ص ٣٥ ــ ٣٦. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٣٣. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ٣٣. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٢، ص ٢٢٥. الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ٨٢. يعشوف: تحف الأنباء، ص ٥١. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٢٢٤. حسن حبشي: نور الدين والصليبيين، ص ١٦، سعيد برجاوي: الحروب الصليبية في المشرق، ص ٢٢١.

(٢) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص ١١٣.

(٣) المستعلي بالله: خليفة مصر واسمه أحمد وكنيته أبو القاسم بن المستنصر بالله معد بن الظاهر بالله علي بن الحاكم بأمر الله منصور السادس من خلفاء الفاطميين بني عبيد، بُويع بالخلافة بعد موت أبيه المستنصر معد في يوم الغدير سنة ٤٨٧ هـ. ابن خلكان ــ المصدر السابق، جـ ١، ص ١٧٨. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٥، ص ١٤٣.

(٤) الأفضل: هو الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش أبو القاسم ابن أمير الجيوش بدر الجمالي الأرمني وزير مصر وكان القائم بأمر المستعلي بالله

١٠٩٧ م[١]، ويورد ابن العديم ذلك بشيء من التفصيل فيقول: «وفي هذا الوقت سار رسول الأفضل من مصر يدعوه إلى طاعة المستعلي وإقامة الدعوة له ومعه هدية سنية من مصر، ووعده بأن يمده بالعساكر والأموال، فأمر رضوان بالدعوة للمستعلي على سائر منابر الشام التي في يده، ودعا خطيب حلب أبو تراب[٢] حيدرة بن أبي أسامة بحلب للمستعلي، ثم للأفضل، ثم لرضوان يوم الجمعة ١٧ رمضان سنة ٤٩٠ هـ/ ٢٩ آب ١٠٩٧ م، ودامت الدعوة للفاطميين بحلب إلى رجب من سنة ٤٩٢ هـ/حزيران ١٠٩٩ م، وقيل لم تدم أكثر من أربع جمع ولم يصله شيء مما طلبه من المصريين ولذلك فإنه أعاد الخطبة للإمام المستظهر ثم للسلطان بر كياروق ثم لنفسه»[٣] أما ابن القلانسي فيقول: «في هذه السنة ورد على فخر الملوك رضوان كتاب المستعلي بالله صاحب مصر مع رسوله يلتمس فيه الدخول في طاعته، وإقامة الدعوة لدولته، وكذلك كتاب الأفضل يتضمن مثل هذه الحال، فأجابهما إلى ما التمساه وأمر أن يدعىٰ للمستعلي على المنبر وللأفضل بعده ولنفسه بعده، وأقام الخطبة على هذه القضية تقدير أربع جمع، وكان الملك رضوان قد بنىٰ الأمر من ذلك على الاجتماع مع العسكر المصري النزول على دمشق لأخذها»[٤]، ولم يكتفِ رضوان بهذا الانقلاب بل عزله بأن عزل أبا غانم عن القضاء والخطابة بحلب (وكانت ولايته من الخليفة العباسي سنة ٤٨٦ هـ/ ١٠٩٣ م). وولىٰ مكانه في الخطابة أبا تراب وهو إمامي المذهب[٥] وولىٰ القضاء القاضي فضل الله الزوزني العجمي الحنفي وأرسله رضوان إلى مصر وناب عنه أحمد بن أسامة الحلبي[٦]، وعندما قطع رضوان خطبة الفاطميين أعاد أبا غانم إلى القضاء والخطابة في حلب، لا شك أن هذه الخطوة وهي الدعوة للفاطميين والتي أقدم عليها رضوان كانت خطوة خطيرة، لأنها جاءت من قبل ملك سلجوقي، والسلاجقة كان هدفهم الأول القضاء على الخلافة الفاطمية وإحلال الخلافة العباسية محلها، وكانت بلاد الشام وشمالها على وجه الخصوص محطتهم الأولىٰ والرئيسية لتحقيق هدفهم.

خليفة مصر، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٥، ص ١٤٣.

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٧٠. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٢، ص ٢١٠. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٢، ص ١٥٤. الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ٧٥. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٧٥.

(٢) حيدرة بن الحسن أحمد بن علي بن عبيد الله بن محمد بن عبد الله بن محمد بن جلول الحلبي أبو تراب العدل الخطيب ابن أبي أسامة... وكان إمامي المذهب. ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ المجلد السادس، ص ٣٣.

(٣) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢١٧. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٧٠. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٩٣.

(٤) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢١٧. وفي تاريخ العظيمي «وخطب للمصريين شهراً وعادت الخطبة للعباسيين».

(٥) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ مجلدة السادسة، ص ٣٣.

(٦) ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ ٢، ص ٤٩٢ ــ ٤٩٣.

والسؤال الذي يطرح نفسه؟ لماذا أقدم رضوان على هذه الخطوة؟ يبدو أن هناك عدة احتمالات لذلك:

الأول : أن رضوان كان يريد الاستقلال عن السلطنة في المشرق، ووجد أن مصلحته تقضي بالتقرب من الفاطميين ولذلك دعا لهم...

الثاني : أن رضوان الذي ولد وشب في بلاد الشام وتعرف على مذاهب السكان فيها، قد يكون تأثر بالدعوة الفاطمية[1]، فدعا لهم بعد أن عرضوا عليه ذلك.

الثالث : هو أن رضوان عندما وجد نفسه محاطاً بالأعداء[2] أخذ يفتش عن حليف خارجي، وقد وجد بالبعثة الفاطمية مراده، وتم الاتفاق على الخطبة للفاطميين مقابل تقديم العون له وبينما نفذ رضوان الاتفاق، فإن ما قدمه الفاطميون لم يتعد الوعود والرسائل، ولذلك وبمجرد أن زادت الضغوط عليه، ولمس عدم جدوى الاتصالات مع الفاطميين قطع الدعوة لهم وأعادها للعباسيين.

ويبدو مما تقدم أن الاحتمال الثاني أضعف من الاحتمالين الآخرين، لأنه لمجرد أن حضر عنده سكمان وياغي سيان وأنكرا عليه ذلك واستعظماه تراجع وأعاد الخطبة للعباسيين في السنة نفسها[3] وأما القول بأن رضوان أعاد الخطبة العباسية وقطع خطبة الفاطميين خوف العاقبة[4]، فهو قول غير صحيح لأنه لم يكن أمام رضوان من يخاف منه من السلاجقة، إذ أن السلطان بر كياروق اهتم بالمشرق، ولم يلتفت إلى بلاد الشام ومشاكلها[5] مما جعل رضوان يحاول السيطرة عليها كما والده تتش من قبل، ولكنه لم يتمكن بسبب مقاومة أخيه دقاق له من جهة، ووصول الفرنجة الصليبيين إلى شمالي بلاد الشام وتهديدهم لأراضي إمارة حلب من جهة أخرى.

قد يكون لكل احتمال مما تقدم نصيب في دفع الملك رضوان للإقدام على خطوته التي تعتبر انتصاراً للدبلوماسية الفاطمية في الوقت الذي عجزت فيه الحملات والجيوش في استرجاع حلب للحظيرة الفاطمية.

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٧٠، ويقول إنه كان لرضوان منجم يقال له الحكيم أسعد، وكان يميل إليه فحسن له مذاهب العلويين المصريين.

(٢) الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ١٢٥. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٧٥.

(٣) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢١٧. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٩٣. أبو الفداء: المختصر، جـ ٢، ص ٢١٠. الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ٧٩. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ٢، ص ١١٧.

(٤) الغزي ــ المصدر السابق، ص ٧٩.

(٥) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ٢، ص ١١٣.

ويمكن القول إنه على الرغم من توقف محاولة الفاطميين السيطرة على حلب، فإن الحكام الذين سيطروا عليها وجدوا أنفسهم بحاجة لنوع من أنواع المساعدة من الفاطميين (مسلم بن قريش ــ رضوان بن تتش). لكن الملاحظ أن الفاطميين لم يقدموا مساعدات ملحوظة، ويعزىٰ ذلك لعجز عسكري واقتصادي أصاب الخلافة الفاطمية، كما قد يكون مرده عدم وجود قناعة فاطمية بجدوىٰ التحالف مع حكام إمارة حلب. والحقيقة أن ظهور الغز السلاجقة في شمالي بلاد الشام أوقف المصالح الفاطمية هناك، وعزز وقوىٰ هذا الإيقاف ظهور الفرنجة الصليبيين والصراع الذي تلا ذلك.

ج ــ العلاقة بين الملك رضوان والإسماعيلية النزارية:

عندما توفي الخليفة الفاطمي المستنصر بالله سنة ٤٨٧ هـ/١٠٩٤ م، انقسم أتباع الدعوة الإسماعيلية إلى قسمين هما النزارية والمستعلية نسبة إلى ولدي الخليفة (نزار ــ المستعلي)، وقد انحاز أتباع الدعوة الإسماعيلية في فارس والشام ومقدمهم الحسن بن الصباح إلى جانب نزار ولذلك سموا بالنزارية[١].

كان هدف الحسن بن الصباح وأتباعه إقامة دولة كبيرة وقوية، وقد نظم جماعته على مبدأين أساسيين هما السرية التامة والطاعة العمياء[٢]، وقد امتد نشاط أتباع النزارية إلى بلاد الشام، وكان أول وأكبر دعاتهم في الشام هو الحكيم أسعد أبي القنج الباطني وأبو طاهر الصائغ، وقد تمكن الداعيتان من التأثير في الملك رضوان ملك حلب، فكسبا عطفه وتأييده، وحمايته لهما ولأتباعهما[٣].

ويبدو أن رضوان كان يتطلع إلى حليف قوي في الداخل يعتمد عليه في دعم حكمه وتخلصه من منافسيه وخصومه، فوجد ضالته في أتباع الحكيم أبي القنج المنجم وأبي طاهر الصائغ، فأطلق لهما حرية العمل وسمح لهما ولأول مرة ببناء دار دعوة لهم بحلب[٤]، وقد أدىٰ موقف رضوان منهم إلى ازدياد قوة الدعوة النزارية وكثرة أتباعها. ويشير فيليب حتي إلى ذلك

---

(١) علي بن حنظلة بن أبي سالم الواداعي؛ سمط الحقائق في عقائد الإسماعيلية، دمشق ١٩٥٣ م، ص ١٢. أبو يعقوب السجستاني: الينابيع، تحقيق وتقديم: مصطفىٰ غالب، الطبعة الأولىٰ، بيروت ١٩٦٥ م، ص ٢٣. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص ٥٥٠، وقد دعيت هذه الحركة أحياناً بالباطنية، وأخرىٰ بالحشاشين. محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية ــ تاريخها، نظمها، عقائدها، الطبعة الأولىٰ، القاهرة ١٩٥٩ م، ص ٦٣ ــ ٦٤.

(٢) أبو يعقوب السجستاني: الينابيع، ص ٢٤. محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية، ص ٧٣، ٢٤.

(٣) محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية، ص ٩٢. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص ٥٥٤.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ــ القسم الأول، جـ ٨، ص ٤٦. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، جـ ١، القسم الأول، ص ١٨. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٥، ص ٢٠٥. محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية، ص ٩٣.

بقوله: «إنه قبل ختام القرن الحادي عشر الميلادي تمكن الحشاشون من تثبيت أقدامهم في الشام، وقد استمالوا إلى فرقتهم رضوان بن تتش»[1] كما يشير إلى ذلك عبد الكريم غرايبه بقوله: «وقويت دعوة الباطنية في حلب وانضم إليهم بعض الأحداث، وحاكوا من مركزهم عدداً من الاغتيالات السياسية كان بعضها لمصلحة رضوان»[2].

لقد عمل أتباع النزارية في نشر مذهبهم وتقوية مركزهم وتنفيذ خططهم وتحقيق أهدافهم من خلال القضاء على منافسيهم ومعارضيهم منطلقين من مركزهم في حلب، وكان أول ضحاياهم قاضي حلب فضل الله الزوزني العجمي الحنفي لأنه كان يندد بمعتقدهم مما دفع برضوان إلى إعادة أبي غانم إلى القضاء[3] سنة ٤٩٥ هـ/ ١١٠١ ــ ١١٠٢ م.

وفي سنة ٤٩٦ هـ/١١٠٢ ــ ١١٠٣ م، قتل أتباع النزارية جناح الدولة حسين أمير حمص وهو قادم لصلاة الجمعة[4]، ويشير بعض المؤرخين إلى أن هذا القتل كان لمصلحة رضوان وبتدبير منه بغية ضم حمص إلى ملكه ولكنه فشل، ومن هؤلاء ابن القلانسي الذي يقول: «وقد كان المعروف بالحكيم المنجم الباطني صاحب الملك فخر الملوك رضوان صاحب حلب أول من أظهر مذهب الباطنية في حلب والشام، وهو الذي ندب الثلاثة نفر لقتل جناح الدولة بحمص...»[5]، أما ابن العديم فيقول: «وعاد جناح الدولة إلى حمص فسيّر الحكيم المنجم الباطني ثلاثة أعجام من الباطنية فاغتالوه يوم الجمعة ٢٢ رجب سنة ٤٩٦ هـ/ أيار ١١٠٣ م، وقت الصلاة، وقتلوا بعض أصحابه وقُتِلوا، وقيل إن ذلك كان بأمر من رضوان ورضاه...»[6] بينما يشير في بغية الطلب إلى أن القتل كان بتدبير أبي طاهر الصائغ رئيس النزارية تقرباً إلى الملك رضوان[7]، وهذا يعني أن الأمر لم يكن بتدبير رضوان بينما يذكر في زبدة الحلب أنه كان بأمر رضوان ورضاه ويبدو أن ذلك هو الأصوب والأصح.

---

(١) فيليب حتي: تاريخ العرب مطول، جـ٢، ص٥٣٨.

(٢) عبد الكريم غرايبه: العرب والأتراك، ص٢٢٨.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ٤٩٢. الغزي: نهر الذهب، ص ٨٠.

(٤) العظيمي: تاريخه، ص ٣٦١. محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية، ص ٩٤، ويقول إنّ جناح الدولة كان أول ضحية للفدائيين الإسماعيلية في بلاد الشام.

(٥) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٣٠، وهو يجعل مقتل جناح الدولة سنة ٤٩٥ هـ.

(٦) ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ٢، ص ٥١٠ ــ ٥١١.

(٧) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ المجلد الرابع، ترجمة: جناح الدولة حسين.

كان قتل جناح الدولة حسين أول عمل كبير لأتباع النزارية في بلاد الشام، وكانوا بهذا العمل يريدون ليس فقط إرضاء رضوان والحوز على ثقته، وإنما أيضاً إشعاره بأنه غير قادر على الاستمرار في الحكم بدونهم، وأن وجودهم على مسرح الأحداث أمر ضروري ولا مناص منه، أما رضوان فإنه كان يظن أن مركزه يقوى ويتدعم بهذه الأعمال؟ إلا أن الواقع كان غير ذلك إذ لم يؤيد أهالي حلب سياسة رضوان تجاه أتباع النزارية، كما أدى ذلك إلى إضافة عامل جديد من عوامل التفكك والفوضى التي تعرض لها شمال بلاد الشام وأضعفت إمكانات الوقوف بوجه الفرنجة الصليبيين[1].

لم يقتصر نشاط أتباع النزارية على مدينة حلب، بل امتد إلى مناطق أخرى وحاولوا امتلاك عدد من الحصون كان أولها حصن أفامية حيث سيطروا عليه بعد أن قتلوا أميره خلف بن ملاعب، وساعدهم في ذلك داعية من دعاتهم يقال له أبو القنج السرميني، ونادوا بشعار الملك رضوان وذلك سنة ٤٩٩ هـ/ ١١٠٥ ـــ ١١٠٦ م[2]، وظلت أفامية بيد النزاريين حتى تسلمها الفرنجة الصليبيون وذلك في ١٣ محرم سنة ٥٠٠ هـ/ ١٥ أيلول ١١٠٥ م[3]، وقتلوا أبا القنج السرميني وأسروا أبا طاهر الصائغ ثم أطلقوا سراحه[4]. وهذا دليل آخر على أنهم كانوا ينفذون سياستهم بموافقة رضوان ودعمه، فهل كان ذلك لمصلحة رضوان؟ أم أنهم كانوا يعملون لأبعد من ذلك ورضوان لا يرى أبعد من أنفه؟ لا شك أن الجواب يكمن في مجريات الأحداث القادمة.

تابع النزاريون نشاطهم، وقد ثار جماعة منهم كانوا في حصن شيزر سنة ٥٠٢ هـ/ ١١٠٨ ـــ ١١٠٩ م، على حين غفلة من أهل الحصن وعددهم مقدار مائة رجل، فاستولوا على الحصن وأخرجوا من كان فيه، ثم صعدوا القلعة فامتلكوها لكن أهل الحصن بزعامة بني

---

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص ٥٥٤.

(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٤٢. العظيمي: تاريخه، ص ٣٦٣، محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية، ص ٦٣. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ـــ القسم الأول، جـ ٨، ص ١٦. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥١٥، ويجعل ذلك سنة ٤٩٨ هـ. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ٢٨، ويجعل سنة ٤٩٩ هـ، أول ظهور الإسماعيلية بالشام، والتاريخ الذي وضعه الذهبي متأخر عشر سنوات عن بدء نشاطهم في الشام. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٥، ص ٢٩. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص ٥٥٥. محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية، ص ٩٤.

(٣) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٤٣. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥١٦. الذهبي: العبر، جـ ٤، ص ٤.
(٤) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ـــ المجلد الخامس.

منقذ تمكنوا من استرداد الحصن والقلعة، وقتلوا الثائرين وكل من وقف معهم[1].

اعتمد الملك رضوان على أتباع النزارية عندما قرر منع الجيش السلجوقي بقيادة مودود من دخول حلب بالرغم من أنهم قدموا إليها لنجدته وبناء على طلبه، ويشير ابن العديم إلى ذلك بقوله: «ورتب قوماً من الجند والباطنية الذين في خدمته لحفظ السور، ومنع الحلبيين من الصعود إليه»[2]. وفي ربيع الأول من نفس السنة ٥٠٥ هـ/ ١١١١ ــ ١١١٢م، اعتدى أحد أتباع النزارية على تاجر كبير يقال له الخجندي وكان هذا التاجر قد وصل إلى حلب ومعه خمسمائة جمل محملة بأصناف البضائع، وقد اتهم رضوان بتدبير هذا الاعتداء ليستولي على أموال وبضائع هذا التاجر، وقد أنكر رضوان ذلك وقد أورد ابن العديم هذه الحادثة بقوله: «فأخبر رضوان بذلك فأبلس، وأتى السنة والشيعة إلى الخجندي وأظهروا إنكار ما تم عليه، وعبث أحداثهم بجماعة من أحداث الباطنية فقتلوهم، ولم يتجاسر رضوان على إنكار ذلك... ونقص في أعين الناس فتوثبوا على الباطنية من ذلك اليوم»[3]، ولم يكتفِ رضوان بذلك بل أوعز إلى أتباع النزارية بقتل منافسه طغتكين ولكنهم فشلوا، كما أن طغتكين نفسه اتهم باستخدام أتباع النزارية في قتل ضيفه الأمير مودود في جامع دمشق وذلك سنة ٥٠٧ هـ/ ١١١٣ ــ ١١١٤م[4].

وهكذا نرى أن العلاقات بين رضوان وأتباع النزارية كانت علاقات متميزة، تمكنوا بواسطتها من كسب واستمالة عدد كبير من الناس إليهم في سرمين والجزر وجبل السماق وبني عليم، وظلت هذه العلاقات على ما هي عليه حتى وفاة رضوان، ولم يتعكر صفو هذه العلاقات طيلة فترة حكم رضوان إلا مرة واحدة وذلك عندما بلغه أنه لعن في مجلس السلطان محمد بن ملكشاه لمشايعته أتباع النزارية وذلك سنة ٥٠١ هـ/١١٠٧ ــ ١١٠٨م، فأوعز رضوان إلى أبي الغنائم ابن أخي أبي الفتح أن يخرج من حلب مع جماعته، وقد قتل منهم جماعة أثناء خروجهم[5].

في جمادى الآخرة سنة ٥٠٧ هـ/ ١٠ كانون أول ١١١٣م، توفي الملك رضوان

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٤٧٢. محمد مختار باشا: التوفيقات الإلهامية ــ المجلد الأول، ص ٥٣٢. محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية، ص ٩٦.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ ٢، ص ٥٢٣.

(٣) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٢٧.

(٤) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٩٨. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٤٩٦. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٢، ص ١٧٣، يجعل مقتل مودود سنة ٥٠٥ هـ. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص ٥٥٥.

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥١٧. محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية، ص ٩٤.

فاضطرب أمر حلب لوفاته[١] وأحس أتباع النزارية أنهم أصبحوا مكروهين في حلب بعد وفاة مناصرهم، وأن موقفهم أصبح حرجاً، فحاولوا الاستيلاء على شيزر مرة ثانية ولكنهم أخفقوا في ذلك[٢].

حاول شمس الملوك ألب أرسلان بن رضوان وخليفته الاستمرار على نهج أبيه في مهادنة النزارية حتىٰ أنهم طلبوا منه تسليمهم قلعة حلب[٣] فوافق على طلبهم، لكن موقف القاضي ابن الخشاب منعه من ذلك ويشير ابن شداد لهذه الحادثة بقوله: «فطلبوا منه أن يعطيهم هذه القلعة فأجابهم إلى ذلك، فقبح القاضي أبو الحسن بن الخشاب فعله»[٤]. كما أن السلطان ملكشاه كتب إلى ابن رضوان وقال له: «وكان والدك يخالفني في الباطنية وأنت ولدي فأحب أن تقتلهم»[٥]، وقد أشار ابن بديع مقدم الأحداث بحلب على ألب أرسلان والخادم لؤلؤ بالتخلص من أتباع النزارية، وتم الاتفاق للقضاء عليهم والتنكيل بهم، ويقول ابن الأثير في ذلك: «في سنة ٥٠٧ هـ، توفي الملك رضوان وكان يستعين بالباطنية في كثير من أموره، وكان الباطنية قد كثروا بحلب في أيامه، حتىٰ خافهم ابن بديع رئيسها وأعيان أهلها، فلما توفي «قال: ابن بديع لألب أرسلان في قتلهم والإيقاع بهم، فأمره بذلك، فقبض على مقدمهم أبي طاهر الصائغ وجماعة من أعيانهم، وأخذ أموال الباقين وأطلقهم، فمنهم من قصد الفرنج وتفرقوا في البلاد»[٦]، ويشير إلى ذلك ابن العديم بقوله: «وشرع الرئيس ابن بديع متقدم الأحداث في الحديث مع ألب أرسلان في أمرهم، وقرر الأمر معه على الإيقاع بهم والنكاية فيهم، فساعده على ذلك فقبض أولاً على أبي طاهر الصائغ وقتله، وقتل إسماعيل الداعي وأخا الحكيم المنجم والأعيان من أهل هذا المذهب بحلب، وقبض على ما يقارب مائتي نفس منهم وحبس بعضهم واستصفىٰ أموالهم، وشفع في بعضهم فمنهم من أطلق ومنهم من رُمي من أعلىٰ القلعة، ومنهم من قتل، فأفلت جماعة منهم فتفرقوا في البلاد»[٧]، أما سبط

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٠١.

(٢) محمد كامل حسين: طائفة الإسماعيلية، ص ٩٦. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص ٥٥٥، كانت للمرة الأولىٰ سنة ٥٠٢ هـ/ ١١٠٨ ــ ١١٠٩ م انظر فيما سبق صفحة ـ ١٧٨ ـ.

(٣) معروف رزوق: تاريخ شيزر، ص ١٦٥.

(٤) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ــ القسم الأول، جـ ١، ص ١٨.

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٣٢.

(٦) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٤٩٩. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ٣٣، ويقول: «وتملك بعده أخوه ألب أرسلان، وكان أخرس فقتل أخويه له، وقتل رأس الإسماعيلية أبا طاهر الصائغ وأعوانه، فنزحت الإسماعيلية من حلب، وكان أبوه رضوان يقربهم وينتصر بهم، وكان ظالماً غاشماً». ويخطىء الذهبي بقوله أخوه والصواب هو أن ألب أرسلان الأخرس ابن رضوان.

(٧) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٣٢، ومثل هذا النص يرد عند ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٠٢.

ابن الجوزي فيقول: «وكان رضوان قد بنىٰ لهم دار الدعوة وأطمعهم في حلب، فلما مات أشار البديع رئيس حلب على لؤلؤ والصبي بقتل كل من في حلب منهم، وأغلق دار الدعوة، فخاف لؤلؤ والصبي، وجسر عليهم البديع، فقتل خلقاً كثيراً فخاف الصبي فسار في خواصه وغلمانه إلى دمشق»[1]، ويقول ابن شداد في هذه الحادثة: «فأخرجهم منها بعد أن قتل منهم ثلاثمائة نفس وأسر مائتين وطيف برؤوسهم في البلد وذلك سنة ٥٠٨ هـ»[2].

إن ما ورد في نصوص المؤرخين عن علاقة أتباع النزارية برضوان يوضح عدة أمور منها:

١ ــ إن السلطان محمد بن ملكشاه كان يعادي النزارية، ولكنه لم يتمكن من التأثير على رضوان في أمرهم.
٢ ــ إن رضوان كان قد استمالهم لتحقيق مآربه وأطماعه، وظلوا على أخلاقهم له طيلة حياته تقريباً.
٣ ــ كان أهل حلب وخاصة رئيسها ابن بديع وقاضيها ابن الخشاب لا يوافقون رضوان على سياسته تجاه النزارية.
٤ ــ أحدثت أعمال النزاريين ردة فعل وحقد عليهم ظهرت بعد وفاة حاميهم رضوان.
٥ ــ ساهمت أعمالهم بإضعاف المقاومة ضد الفرنجة الصليبيين حيث سقط عدد من الأمراء صرعىٰ بخناجرهم أمثال الأمير مودود.

ومن تفحص جميع الأعمال التي قام بها ونفذها النزارية نلاحظ أنهم لم يكونوا مرتزقة عند رضوان، وإنما قاموا بما وافق سياستهم وخدم مصالحهم من بعض الوجوه، فعندما قتلوا مودوداً إنما فعلوا ذلك لأنهم على ما يبدو كانوا يخشون من قيام تحالف بين حلب والموصل ودمشق، لأن مثل هذا التحالف كان سيوجه قواه ضدهم ويقطع عليهم طرق المواصلات مع مركز قيادتهم في المشرق، وهذا يؤدي أيضاً إلى القول إن الموقف الذي اتخذه رضوان من الجيوش السلجوقية القادمة لنجدته، وبناء على طلبه بقيادة الأمير مودود، بإغلاق أبواب حلب بوجوههم وعدم السماح لهم بدخولها إنما كان بتأثير من أتباع النزارية خوف أن يدخل القادمون حلب ويؤثروا على رضوان ويعملوا على تغيير مواقفه تجاههم.

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ــ القسم الأول، جـ٨، ص٤٧.
(٢) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ــ الجزء الأول ــ القسم الأول، ص١٨.

٤ ــ مواقف رضوان من الفرنجة الصليبيين :

في الوقت الذي كانت فيه الخلافات على أشدها بين الملك رضوان من جهة وأخيه دقاق وجناح الدولة وياغي سيان من جهة أخرىٰ، كانت الأخبار «تتوارد بظهور عساكر الافرنج من بحر القسطنطينية، في عالم لا يحصىٰ عدده كثرة»[١]، وقد قلق النـاس في بلاد الشام لسماع هذه الأخبار وانزعجوا لها، وفعلاً وصلت الحملة الأولىٰ في سنة ٤٩١ هـ/١٠٩٧ ــ ١٠٩٨ م، واستطاعت تأسيس أربع إمارات لها في بلاد الشام والجزيرة، وكان على رضوان ملك حلب أن يعد العدة لمواجهة الغزاة القادمين لأن بلاده كانت هدفهم الأول بعد بيت المقدس، إلا أنه ترك أمرهم ونهض لإيجاد الحلفاء له بغية إنتزاع حمص من جناح الدولة، ودمشق من أخيه دقاق، وقد تمكن من تحسين علاقاته مع ياغي سيان واستمالته إلى جانبه لقتال جناح الدولة، وعزز هذا التقارب بزواجه من خاتون جيجك ابنته[٢].

تحرك رضوان وياغي سيان ومعهما سكمـان سنـة ٤٩٠ هـ/١٠٩٦ ــ ١٠٩٧ م، قاصدين حمص وعندما وصلوا إلى شيزر حدث خلاف بين الأمراء[٣] وساءت العلاقات من جديد بين رضوان من جهة وياغي سيان وسكمان من جهة ثانية، ويعزو ابن العديم الخلاف إلى الدور الذي قام به وزير رضوان النجم بن بديع[٤] حيث أثار الشكوك لدىٰ رضوان من حليفيه ياغي سيان وسكمان فعاد رضوان إلى حلب، بينما عاد كل من ياغي سيـان وسكمان إلى بلديهما. أما ابن القلانسي فلا يذكر وجود سكمان مع رضوان وياغي سيان كما أنه أورد سبباً آخر هو الخلف بين مقدمي العسكر فعاد كل منهما إلى بلاده وفي ذلك يقول: «وبرز الملك رضوان وياغي سيان من حلب في العسكر إلى ناحية شيزر... فأقاموا على شيزر تقدير شهر، ووقع الخلف بين مقدمي العسكر فتفرقوا وعاد كل منهم إلى مكانه، وعاد الملك إلى حلب»[٥].

إن رواية ابن العديم بالإضافة إلى كونها أكثر دقة وتفصيلاً فإنها وضحت أسباب الخلاف بين الأمراء وعودتهم إلى بلدانهم، على حين أن ابن القلانسي ذكر فقط وقوع الخلف بين مقدمي العسكر، وقد كان لهذه العودة أثر في تغير التحالفات فانحاز ياغي سيان إلى دقاق

---

(١) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥ م، ص٣٥٨. ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص٢١٨.

(٢) انظر فيما سبق صفحة - ١٦٤ -

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ٢، ص ٤٩٠.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ٢، ص ٤٩٠.

(٥) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص٢١٧.

وكذا جناح الدولة .

كان ياغي سيان لا يزال في طريق عودته إلى أنطاكية قادماً من شيزر عندما علم بوصول عدد كبير من الفرنجة الصليبيين إلى الشام الشمالي وذلك سنة ٤٩٠ هـ/١٠٩٦ ـــ ١٠٩٧ م ، وكان عددهم فيما يقال ثلاثمائة وعشرون ألف إنسان وأن هذه الحشود نزلت على بغراس ، وأغارت على القرىٰ المحيطة بأنطاكية[١] .

أسرع ياغي سيان إلى أنطاكية ، وأرسل فوراً ابنه شمس الدولة إلى دقاق وطغتكين ، كما بعث ابنه محمد إلى ملوك الشرق وأمرائه وإلى كربوقا وكذلك بعث يكتب إلى كل من جناح الدولة ، ووثاب بن محمود وبني كلاب يستحثهم على القدوم إليه للجهاد ضد الفرنجة الصليبيين[٢] .

يبدو أن ياغي سيان أرسل إلى القوىٰ التركانية والعربية يستنجدها باستثناء رضوان ، ولعل السبب هو الخلاف الذي نشب بينهما في شيزر أولاً وخوف ياغي سيان أن يعمل رضوان على تصفيته وإعادة تبعية أنطاكية إليه ثانياً ، وهكذا نرىٰ أن الخلافات والأطماع الشخصية حالت دون إسهام رضوان في صد الخطر المحدق وتوحيد جهوده مع جهود الآخرين في مقاومته ، وهو الأقوىٰ والأقرب إلى أنطاكية مما أضعف موقف الآخرين أمام الغزاة الجدد .

كانت أنطاكية تحت حكم البيزنطيين منذ سنة ٣٥٩ هـ/٩٦٩ ـــ ٩٧٠ م ، وقد استمرت بأيديهم إلى أن استنقذها منهم سليمان بن قتلمش سنة ٤٧٧ هـ/١٠٨٤ ـــ ١٠٨٥ م ، وظلت بيده حتىٰ قتل سنة ٤٧٩ هـ/١٠٨٦ ـــ ١٠٨٧ م[٣] . فانتقلت تبعيتها إلى السلطان السلجوقي ملكشاه ومن ثم تتش ، وقد رتب ياغي سيان حاكماً عليها وظل يحكمها لمدة عشر سنوات فلما توفي ملكشاه وتتش إنتقلت تبعيتها إلى الملك رضوان ملك حلب ، إلا أن ياغي سيان كان يحاول الاستقلال عن رضوان وظل كذلك حتىٰ خرج منها مهزوماً أمام الفرنجة الصليبيين وقتل أثناء هربه سنة ٤٩١ هـ[٤]/١٠٩٧ ـــ ١٠٩٨ م .

عندما أغارت جموع الفرنجة الصليبيين على القرىٰ المحيطة بأنطاكية ، أعلن من كان في الحصون والقلاع المجاورة لأنطاكية من الأرمن العصيان وقتلوا من بها من أتباع ياغي سيان

---

(١) ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص ٢١٨ . سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ـــ مخطوط مكتبة أحمد الثالث ـــ استانبول ـــ رقم ٢٩٠٧ س ، جـ ١٣ .

(٢) ابن القلانسي ـــ المصدر السابق ، ص ٢١٨ . سبط ابن الجوزي ـــ المصدر السابق ، جـ ١٣ . ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٤٩٣ ـــ ٤٩٤ . رونسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٣٢٣ .

(٣) ابن القلانسي : تاريخ دمشق ، ص ١٩٤ . ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ١٤٧ . العظيمي : تاريخه ، ص ٣٥٣ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٧٥ . ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ١٢٤ . رونسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٣٥٠ . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ، ص ٢٠٤ .

وهرب من هرب منهم، ومثل ذلك فعل أهل أرتاح وقد طلبوا المساعدة والمعونة من الفرنجة الصليبيين، ويعزو كل من ابن القلانسي وابن العديم موقف أهالي المناطق المحيطة بأنطاكية من الأرمن إلى سوء سيرة ياغي سيان وقبح أعماله وظلمه في بلاده [1].

آ ــ موقف الملك رضوان من احتلال الفرنجة الصليبيين لأنطاكية:

وصل الفرنجة الصليبيون إلى أسوار أنطاكية وبدأوا حصارها في ٢٨ شوال سنة ٤٩٠ هـ/ ٨ تشرين أول ١٠٩٧ م [2]، وكان الحصار شديداً قاسياً دام سبعة أشهر، وقد «جعل الفرنج بينهم وبين أنطاكية خندقاً لكثرة الغارات عليهم من عسكر أنطاكية وكثرة الظفر بهم بحيث لا يكاد يخرج عسكر أنطاكية ويعود إلا ظافراً» [3].

أعد ياغي سيان عدته لحصار طويل، وفي أثناء الحصار أظهر شجاعة وحزماً وسداد رأي وقدرة على حسن التدبير ما شهد له به المؤرخون [4]، وقد أرسل دقاق نجدة لياغي سيان وصلت إلى ناحية شيزر وقد اشتبكت قوات النجدة مع الفرنجة الصليبيين عند البارة لكنها عادت دون تحقيق نتيجة تذكر [5] في الوقت الذي كان الفرنجة الصليبيون يدخلون أنطاكية وأصبحوا قاب قوسين من حلب، ونهض دقاق لنجدة ياغي سيان، كان رضوان قابعاً في حلب يفكر في كيفية استرداد حمص ودمشق، بينما الاعتداءات والسلب والنهب تشمل أراضي مملكته وأطرافها كل ذلك بسبب من تغليبه أطماعه وأهدافه الشخصية ونسيانه مصلحة المملكة بصورة خاصة، وبلاد الشام بصورة عامة.

لم يكتف الفرنجة الصليبيون بالأعمال العسكرية بل نشطوا دبلوماسياً أيضاً، فأرسلوا إلى الفاطميين ليطمئنوهم [6] وأعطوهم صورة غير حقيقية عن أطماعهم في بلاد الشام، كما أنهم أرسلوا إلى كل من رضوان ملك حلب، ودقاق ملك دمشق وقالوا: «بأننا لا نقصد غير البلاد التي كانت بأيدي الروم (يقصد البيزنطيين) لا نطلب سواها مكراً منهم وخديعة حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية» [7]، وبذلك يتمكنون من الاستيلاء على ممالكهم وإماراتهم

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢١٩. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٩٥. ر. سي. سميل: فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر، دمشق ١٩٨٥م، ص ٨٩.

(٢) أومان: الامبراطورية البيزنطية، ص ٢٠٦.

(٣) العظيمي: تاريخه، ص ٣٥٩، ويجعل مدة الحصار ثمانية أشهر بدءاً من أواخر شوال. ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ٢١٩. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٩٦. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ١٩.

(٤) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٧٤. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ١٩.

(٥) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢١٩. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٩٥. معروف رزوق: تاريخ شيزر، ص ١٥٦.

(٦) رونسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ ١، ص ٣٤٤. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ١٩٩.

(٧) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٧٥.

ومدنهم الواحدة تلو الأخرىٰ.

بعد الأحداث العاصفة التي تعرض لها شمال بلاد الشام نتيجة الاحتلال الصليبي للرها(*) وأنطاكية والتي امتدت إلى القرىٰ القريبة من مدينة حلب لم يتمكن رضوان من الاستمرار طويلاً في موقفه السلبي، وبالرغم من علاقاته السيئة مع ياغي سيان فإن أنطاكية تعتبر من أملاكه، وياغي سيان تابعاً له، كما أن ياغي سيان وجد أنه بحاجة إلى قوة رضوان ليساعده في إنقاذ أنطاكية فأرسل ابنه إلى حلب يستنجد الملك رضوان[1]، ويسترضيه ويعتذر له عمّا مضىٰ.

أمام ذلك وجد رضوان أنه لا بد من تناسي الماضي، وقرر أن يسرع لإنقاذ أنطاكية، وقد أعد قواته وتحرك باتجاهها ورافقه في حملته سكمان بن أرتق الذي قدم إليه من ديار بكر، كما وصله أمير حماه، وقوات من حمص، ومقاتلين من الأراتقة في إقليم الجزيرة[2]، وكان مركز تجمع هذه القوات والتقائها في حارم. وقد وضع رضوان وبقية الأمراء خطة للقتال تقضي بمهاجمة جيوشهم للقوات الصليبية فجأة، بينما تخرج قوات ياغي سيان من المدينة لمهاجمة الصليبيين من الاتجاه المقابل، وبذلك يقع الفرنجة الصليبيون بين نيران ياغي سيان وقواته من الداخل، ونيران قوات رضوان وحلفائه من الخارج[3].

علم الفرنجة الصليبيون بتفاصيل خطة رضوان وحلفائه، عن طريق السريان والأرمن الموجودين في المنطقة، ووضعوا خطة لمواجهة الموقف المستجد، تقضي بأن يبقىٰ قسم من مشاة الفرنجة الصليبيين محاصراً لأنطاكية، بينما يخرج القسم الآخر لصد رضوان وحلفائه، وقد اختار الفرنجة الصليبيون موقعاً حصيناً بين بحيرة العمق ومجرىٰ نهر العاصي، وفي اليوم التالي جرىٰ قتال بين الطرفين إنتهىٰ بهزيمة رضوان ومن معه حيث تراجعوا إلى حارم وذلك في أواخر صفر سنة ٤٩١ هـ/أوائل شباط ١٠٩٨ م، وتبعهم الفرنجة الصليبيون إلى حارم، فتراجعوا إلى حلب بينما احتل الفرنجة الصليبيون حارم، بمساعدة الأرمن[4]، وفي شهر ربيع

(*) عند عينتاب انفصل قسم من الجيش الفرنجي الصليبي واتجه رأساً إلى الشرق بقوده الأمير بلدوين، وقد استطاع بلدوين الاستيلاء على حصني راوندان وتل باشر سنة ١٠٩٧ م، ثم تابع تقدمه باتجاه الرها التي احتلها في السادس من شباط سنة ١٠٩٨ م، وبذلك تم تأسيس أول إمارة فرنجية صليبية في المشرق. رونسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ ١، ص ٣٠٦.

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٩٦. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٢٠٠. رونسيان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ ١، ص ٣٣٨.

(٢) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٢٠٠.

(٣) سعيد عاشور ــ المرجع السابق، جـ ١، ص ٢٠٠.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٩٦، ويقول: «بينا سيطر الأرمن من أهل حلب عليها». سعيد عاشور ــ المرجع السابق، ص ٢٠١.

الأول سنة ٤٩١ هـ/ شباط ١٠٩٨ م، أي بعد هزيمة رضوان بأيام، وصل عدد كبير من الأرمن إلى تل قباسين بناحية الوادي، فقتلوا من فيه فتصدىٰ لهم السكان وجماعة من التركمان فقتلوا منهم عدداً، ولجأ باقي الأرمن إلى بعض الحصون الخربة، فتتبعهم جنود من عساكر حلب وقاتلوهم يومين، فقتل عدد منهم وأُخذ الباقي أسرىٰ إلى حلب فقتلوا وعددهم أكثرْ من ألف وخمسمائة شخص(*).

لقد أخفق رضوان وحلفاؤه أمام الصليبيين، وكان سبب إخفاقه وحلفائه أن خطتهم تسربت إلى الصليبيين عن طريق الأرمن الموجودين في المنطقة، إلى جانب تأخرهم في إعداد الحملة، وعدم سرية تحركاتهم التي وصلت إلى عدوهم مما أتاح الفرصة للفرنجة الصليبيين بمواجهة الموقف.

والسؤال الذي يتوارد هنا، لماذا وقف الأرمن هذا الموقف الخياني والمعادي للقوىٰ المحلية ولماذا ساعدوا الفرنجة الصليبيين؟ لا شك أن كرههم لياغي سيان حاكم أنطاكية بسبب تصرفاته وأعماله كان السبب المباشر لموقفهم، كما يبدو أنه كان لدىٰ بعضهم طموحات للاستقلال بالأماكن الموجودين فيها كأرتاح وغيرها وهو دافع قوي لموقفهم أيضاً.

ب ـــ حملة كربوقا وموقف الملك رضوان منها:

أمام إخفاق رضوان ومن معه اضطر ياغي سيان للاستنجاد مرة أخرىٰ بالسلطان بر كياروق والأمير كربوقا أمير الموصل وإعلامهما بما وصلت إليه الأمور والأحوال في أنطاكية، وما لبث كربوقا[١] أن جمع الجيوش لنجدة أنطاكية وتحرك بها غرباً، وقد وصل بقواته إلى مرج دابق، وكان قد وصلها كل من دقاق[٢] وأتابكة طغتكين وأرسلان تاش أمير سنجار، وجناح الدولة جسين، وسكمان بن أرتق، وفي الوقت نفسه وصل إلى تل منس وثاب بن محمود ومعه جماعة من العرب وقاتلوا أهلها لأنهم كاتبوا الصليبيين وأطمعوهم في الشام[٣]، ويقول ابن الأثير عن تجمع الأمراء الكبير «وغيرهم من الأمـــراء ممن ليس مثلهم»[٤].

(*) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٩٦.

(١) لا تشير المصادر هل كان تحرك كربوقا بإيعاز من السلطان أم تحرك من تلقاء نفسه، وتذكر فقط أن كربوقا أعد عدته وتحرك لنجدة أنطاكية.

(٢) كان مجيء دقاق على رأس نجدة قدمت لإنقاذ أنطاكية ويصحبه طغتكين، وأمير حمص جناح الدولة وذلك في المحرم سنة ٤٩١ هـ/ كانون أول ١٠٩٧ م. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٩٥. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ١٩٣.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٩٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٧٦.

أما رضوان فإنه ظل بعيداً عن هذا التجمع السلجوقي الكبير، والسبب الظاهر لعدم إنضمام رضوان لحملة كربوقا هو العداء الذي كان بينه وبين دقاق، ولكن يبدو أن السبب الأهم والأعمق من ذلك هو حسابات رضوان، وخوفه من أطماع كربوقا المتزعم لهذا التحالف على حلب ذاتها وإنهاء حكمه فيها. وبالرغم من مخاوف رضوان ومهما كانت مبرراته، فواجب الدفاع عن البلاد التي كانت تابعة له، يستدعي منه تناسي أحقاده، وتأجيل حساباته والإنضمام إلى القوات السلجوقية المتوجهة لقتال الصليبيين وفك الحصار عن أنطاكية، كما أن تأمين مستقبله ومستقبل إمارته كان يحتم عليه أن يأخذ موقفاً أكثر إتزاناً وحكمة تجاه ما يجري على أرض مملكته خاصة وأن حلب واقعة بين الرها في الشرق وأنطاكية في الغرب، وكلتاهما بأيدي الصليبيين[1].

وصل كربوقا وحلفائه إلى جسر الحديد وذلك يوم الجمعة أول رجب سنة ٤٩١ هـ/ ٤ حزيران ١٠٩٨ م. لكن الأنباء وصلتهم بسقوط أنطاكية قبل وصولهم بيوم واحد حيث لجأ الصليبيون إلى أسلوب الخديعة والإغراء عندما يئسوا من أسلوب القتال، وتمكنوا من دخول أنطاكية نتيجة خيانة أحد حراس الأبراج[2] وذلك يوم الخميس ٣٠ جمادىٰ الآخر سنة ٤٩١ هـ/ ٣ حزيران ١٠٩٨ م، وقتل ياغي سيان أثناء هربه مع عدد كبير من الرجال[3].

تابع التحالف السلجوقي بزعامة كربوقا زحفه إلى أنطاكية وحاول إقتحامها ولكنه أخفق في ذلك[4] فأحكموا الحصار عليها وشددوه وبدأ الفرنجة الصليبيون يفقدون قدرتهم على المقاومة

---

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٢٠٩.

(٢) اختلف المؤرخون حول اسم هذا الحارس ودينه وعلى طريقة المراسلة بينه وبين الصليبيين، وسبب خيانته. ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٢٠. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٧٤. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ـــ مجلدة ١٣. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٩٧. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ١٦. ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ١٢٣. يعشوف: تحف الأنباء، ص ٥٠. سيد علي الحريري: الأخبار السنية، ص ٣١. سهيل زكار: المدخل، ص ٢٣٨.

(٣) العظيمي: تاريخه، ص ٣٩٥. حوادث سنة ٤٩١ هـ. الفارقي: تاريخ الفارقي، ص ٢٦٨. الأصفهاني: البستان الجامع ـــ مكتبة أحمد الثالث رقم ٢٩٥٩، قطعة غير منشورة، ص ١١٥. ابن الجوزي: المنتظم، جـ ٩، ص ٨٧. ابن أبي الدم: تاريخه ـــ مخطوط، ص ١٤١، ويجعل دخول الصليبيين إلى أنطاكية سنة ٤٩٠ هـ. ابن العبري: مختصر تاريخ الدول، ص ١٩٦. ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ١٢٣ ـــ ١٢٤. اليافعي اليمني المكي: مرآة الجنان، جـ ٣، ص ١٥٤. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٢، ص ١٥٥. الغزي: نهر الذهب في تاريخ حلب، جـ ٣، ص ٧٩. سيد علي الحريري: الأخبار السنية، ص ٣١. فيليب حتي: تاريخ العرب مطول، جـ ٢، ص ٧٥٥. زابوروف: الصليبيون في الشرق، دار التقدم ـــ موسكو ١٩٨٦ م، ص ٦٢. عبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي ـــ الاسكندرية ١٩٦٧ م، ص . معروف رزوق: تاريخ شيزر، ص ١٥٦. رفيق اليمني: الحروب الصليبية، ص ٤٥ ـــ ٤٨.

(٤) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٧٦. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٠٠. ابن العبري: مختصر تاريخ الدول، ص ١٩٦. سعيد برجاوي: الحروب الصليبية في الشرق، ص ١٤٦.

نتيجة قلة المؤن لديهم حتى اضطر بعضهم للهرب[١].

عندما وصل الفرنجة الصليبيون إلى وضع يائس وأشرفوا على الاستسلام شعر كربوقا أنه بحاجة إلى مساعدة رضوان ملك حلب الذي ظل بعيداً عن المواجهة مع الفرنجة الصليبيين لتدعيم موقفه، وقد تعددت المراسلات بين الطرفين، مما أثار مخاوف دقاق[٢] الذي رغب في العودة إلى دمشق لمراقبة توسع الفاطميين في فلسطين، كما أن جناح الدولة أمير حمص خاف من إنتقام أتباع يوسف بن آبق أمير الرحبة ومنبج والذي كان في حلب مؤيداً لرضوان، كما ظهر الاختلاف والتنافر بين تركان كربوقا وبين العرب الذين مع وثاب بن محمود بسبب مواقف كربوقا وسوء معاملته، وبتدبير من رضوان الذي كان يهمه إخفاق التحالف السلجوقي بزعامة كربوقا[٣].

إثر تزعزع صفوف السلاجقة، واستهانة كربوقا بالفرنجة الصليبيين[٤]، ونتيجة لحسن تنظيمهم، إنهزم ومن معه، ووصل إلى حلب كسيراً، فاستقبله الملك رضوان الذي هوّن عليه المصيبة وأعطاه ما هو بحاجة إليه وأمّنه[٥]، بعدها عاد إلى الموصل لينتهي هناك بأحلامه وآماله.

وهكذا تمكن الفرنجة الصليبيون من احتلال أنطاكية وقبلها احتلال الرها[٦] وتأسيس إمارتين صليبيتين تحيطان بحلب من الشرق والغرب وكان المساعد الأكبر لهم على ذلك الخلافات والأطماع الشخصية للملوك والأمراء التركان التي أثرت في قوة البلاد وأضعفت إمكاناتها للوقوف بوجه الغزو الفرنجي الصليبي.

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٢١. ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ٢٧٦. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٠١. يعشوف: تحف الأنباء، ص ٥٠. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٢٠٧. زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص ٩٣، ٩٧. سهيل زكار: المدخل، ص ٢٥٧.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٠٠ ــ ٥٠١.

(٣) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٠٠ ــ ٥٠١. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص ٢٠٩. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٧٦. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٠٠. يعشوف: تحف الأنباء، ص ٥٠. سعيد عاشور ــ المرجع السابق، جـ ١، ص ٢٠٩.

(٤) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥ م، ص ٣٥٩. ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٢١. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٧٧ ابن أبي الدم: تاريخ ابن أبي الدم ــ مخطوط، ص ١٤٢ ــ ١٤٣. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٢، ص ١٥٥. المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ ٣، ص ٢٣. الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ٨٠. يعشوف: تحف الأنباء، ص ٥١، ويبدو أنه ينقل حرفياً عن ابن الأثير. فيليب حتي: تاريخ العرب مطول، جـ ٢، ص ٧٥٥. سيد علي الحريري: الأخبار السنية، ص ٣٤. زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص ٩٨.

(٥) سعيد برجاوي: الحروب الصليبية في الشرق، ص ١٤٨.

(٦) كان احتلال الرها من قبل الأمير الصليبي بلدوين في ربيع الأول ٤٩١ هـ / ٦ شباط ١٠٩٨ م، أي قبل سقوط أنطاكية بأربعة أشهر.

جـ ــ نشاط الفرنجة الصليبيين بعد هزيمة كربوقا :

بعد هزيمة كربوقا وحلفائه، استأنف الفرنجة الصليبيون نشاطهم العسكري ضد المناطق المحيطة بحلب فخرجت فرقة منهم في شعبان سنة ٤٩١ هـ/ تموز ١٠٩٨ م، وهاجمت المعرة، وساعدها في هجومها أهل تل منس والنصاري من أهل المعرة، فلما علم الملك رضوان بذلك أرسل إليهم جيشاً من حلب، والتقى الفريقان بين تل منس والمعرة، وقد إنهزم فرسان الفرنجة الصليبيين، بينما ثبتت مشاتهم، فقتل منهم أكثر من ألف رجل وحملت رؤوسهم إلى داخل المعرة[١].

بعد فشل الفرنجة الصليبيين في هجومهم الأول على المعرة تابعوا تحرشاتهم وتعدياتهم على قرى ريف حلب، وفي سنة ٤٩١ هـ/١٠٩٨ م، أرسل الملك رضوان جيشاً لمحاصرة والي اعزاز واسمه عمر بسبب عصيانه فاستنجد الوالي بالفرنجة الصليبيين، فأرسلوا نجدة أجبرت القوات الحلبية على إنهاء الحصار عن اعزاز والانسحاب وقد نهب الفرنجة الصليبيون ما قدروا عليه، وعادوا إلى أنطاكية بعد أن أخذوا ابن عمر والي اعزاز رهينة فمات عندهم، بينما تمكن رضوان من أسر عمر وأخذه من تل هراق وقتله[٢].

ــ حصار المعرة ونهبها :

ساهم الفرنجة صليبيو الرها في الإغارة على المناطق المحيطة بحلب، ففي ذي الحجة سنة ٤٩١ هـ/ تشرين أول ــ تشرين ثاني ١٠٩٨ م، وصلت فرقة من صليبي الرها إلى البارة وحاصروها، وقد إلتحق بهم فرنجة صليبيون وأرمن قادمين من أنطاكية فاستولوا على البارة دون قتال وانتقموا من أهلها وأخذوا أموالهم، وأسروا قسماً منهم، وقتلوا قسماً آخر، ثم وصلوا إلى معرة النعمان في ٢٨ ذي الحجة سنة ٤٩١ هـ/٢٧ تشرين ثاني ١٠٩٨ م، وكان عددهم فيما قبل مائة ألف[٣]، فحاصروها وأتلفوا مزروعاتها وقطعوا أشجارها، وقد استغاث أهلها برضوان وجناح الدولة فلم يغثهم أحد[٤].

اعتمد أهل المعرة على قوتهم الذاتية وصمدوا أمام الحصار وقاوموه، إلا أن الفرنجة الصليبيين صعّدوا من حصارهم وأقاموا برجاً من الخشب وصعدوا بالسلالم على السور، وتمكنوا من احتلالها بعد المغرب من ليلة الأحد ٢٤ محرم سنة ٤٩٢ هـ/ ٢١ كانون أول

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٠٢.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٠٣.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٠٥، لعل هذا العدد فيه مبالغة واضحة. سيد علي الحريري: الأخبار السنية، ص ٣٤.

(٤) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٢١. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٧٨. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٠٦.

١٠٩٨ م[١]. بعد أن تركت وحيدة دون مساعد أو مغيث، وقد إلتجأ قسم من أهلها إلى بعض الدور الحصينة، وطلبوا الأمان من الفرنجة الصليبيين الذين فرضوا على كل دار مبلغاً من المال، وعندما اطمأن الأهالي لهم، غدروا بهم وأعملوا فيهم السيف، فقتلوا أكثر من عشرين ألف إنسان، واعتدوا على حرمة النساء، وسبوا الأعداد الكثيرة، ولم يوفوا بوعودهم التي قطعوها للناس، وأي وعد ينتظر تحقيقه من العدو؟ وظل الفرنجة الصليبيون في المعرة قرابة أربعين يوماً[٢]. عاثوا فيها فساداً وتخريباً. ثم عادوا إلى أنطاكية والرها دون أن يجدوا من يقف في طريقهم ويردعهم، وظل الملك رضوان دون حراك وكأنَّ الأمر لا يعنيه في الوقت الذي أصبح الفرنجة الصليبيون على أبواب حلب.

بعد سقوط المعرة وما عمله الفرنجة الصليبيون فيها، جهز رضوان جيشاً وتحرك أواخر رجب سنة ٤٩٣ هـ/أوائل حزيران ١١٠٠ م، إلى الأثارب وحاصرها أياماً ثم توجه إلى كلا في ٢٥ شعبان من نفس السنة أي بعد شهر من حصاره للأثارب بغية إخراج الفرنجة الصليبيين منها إلا أن الفرنجة الصليبيين اشتبكوا مع رضوان وقواته فهزموه واستباحوا عسكره وقتلوا منهم العدد الكبير، كما أسروا قرابة خمسمائة إنسان وفيهم بعض الأمراء[٣]. وقاموا بعملية مرتدة فزحفوا بدورهم إلى بلد الجزر واحتلوا كفر طاب وبرج الحاضر وسيطروا على أغلب المناطق المحيطة بحلب، وكانت فرقة من صليبيي أنطاكية قد قامت بحصار قلعة أفامية في رجب من سنة ٤٩٣ هـ/أيار ـــ حزيران ١١٠٠ م، فخربتها ونهبتها ثم عادت عنها إلى أنطاكية[٤].

د ـــ حصار الفرنجة الصليبيين لحلب:

لم يكتفِ الفرنجة الصليبيون بالاستيلاء على المدن والقرىٰ المحيطة بحلب، بل تجمعوا بالجزر وسرمين وضواحي حلب ثم ألقوا الحصار على المدينة سنة ٤٩٥ هـ/[٥] ١١٠١ ـــ ١١٠٢ م، ومما شجع الفرنجة الصليبيون على محاصرتها هو ضعف الملك رضوان وعدم قدرته على الدفاع

---

(١) العظيمي: تاريخه، ص ٣٦٠. حوادث سنة ٤٩٢ م. ابن الجوزي: المنتظم، جـ ٩، ص ٨٧. ابن العديم ـــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٠٦. اليافعي اليمني المكي: مرآة الجنان، جـ ٣، ص ١٥٤. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٢، ص ١٥٥، ويجعل احتلال الصليبيين للمعرة سنة ٤٩١ هـ. المقريزي: اتعاظ الحنفا، جـ ٣، ص ٢٣. الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ٨٠. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٢١٣.

(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٢١. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٧٨. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٠٦. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٢، ص ١٥٥. ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ١٢٤، ويقول إن الفرنجة الصليبيين فتكوا بأكثر من مائة ألف إنسان وظلوا بها أربعين يوماً واحتووا على غنيمة وافرة. الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ٨٠. فيليب حتي: تاريخ العرب مطول، جـ ٢، ص ٧٥٥. زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص ١١١.

(٣) العظيمي: تاريخه، ص ٣٦٠. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٠٧ ـــ ٥٠٨. الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ٨٠.

(٤) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٣٠١. الجندي: تاريخ المعرة، جـ ١، ص ١٥٧.

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٠٨.

عن البلد.

نزل الفرنجة الصليبيون في المشرفة المطلة على حلب، وعمدوا إلى تحويل بعض المشاهد كالحيف والدكة وقرنبيا إلى حصون يهددون حلباً منها، لكنهم ما لبثوا أن تركوا الحصار وغادروا حلب بسبب وصول الأنباء إليهم، بأن أنوشتكين الدانشمند حاصر ملطية التي يعتبرها البيزنطيون معقلاً من معاقلهم، فوصلوا إليها قادمين من حلب للدفاع عنها[1]. وعند وصول الفرنجة الصليبيين إلى أرض مرعش إلتقىٰ بهم عسكر أنوشتكين فحدثت بين الطرفين معركة حامية انتصر فيها أنوشتكين وقواته، فأسر قسماً من الفرنجة الصليبيين وقتل آخرين وولىٰ الباقون هاربين من قرىٰ حلب[2] وقد إنتهز الملك رضوان فرصة هزيمة الفرنجة الصليبيين، فاستولىٰ على الغلال والعتاد والمؤن التي جمعوها، وتابع تقدمه إلى سرمين.

وكان الملك رضوان قد عين والياً جديداً لاعزاز بعد قتله لواليها عمر إثر عصيانه عليه، وقد هاجم والي اعزاز الجديد ناحية الجومة[3] في سنة ٤٩٦ هـ/١١٠٢ ــ ١١٠٣م، فالتقاه جماعة من صليبي أنطاكية يدعمهم بعض من صليبي الرها، وقد وصلوا إلى المسلمية[4]. فاعتدوا عليها وقتلوا بعضاً من سكانها، وعسكروا قريباً من حلب أياماً، وقد راسلوا الملك رضوان في أمر الصلح، وعندما وجد نفسه غير قادر على دفعهم اتفق معهم على أن يدفع لهم غرامة مقدارها سبعة آلاف دينار وعشرة رؤوس من الخيل ويطلق الأسرىٰ الفرنجة الصليبيين[5].

كانت هذه هي المرة الأولىٰ التي يدفع فيها الملك رضوان غرامة للفرنجة الصليبيين نتيجة ضعفه وعدم قدرته على وضع حد لتعدياتهم، وكانت الغرامة مقابل إيقافهم لتعدياتهم وغاراتهم على بلاده، وبالرغم من ذلك لم يتوقفوا بل زادوا من نشاطهم الحربي، فقد قام الفرنجة الصليبيون الموجودين في تل باشر بالإغارة على أطراف حلب الشمالية والشرقية عدة مرات، وقد استولوا في هذه الغارات على حصن بسرفوث وهو في الطريق إلى كفر لاثا القريبة من جبل عليم، وقد قام بنو عليم بهجوم مضاد على الفرنجة الصليبيين في كفر لاثا فتراجعوا إلى

---

(١) العظيمي: تاريخه، ص ٣٦٠. ابن أبي الدم: تاريخه ــ مخطوط، ص ١٤٢. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ص ١٤٢. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٠٧ ــ ٥٠٨. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٢، ص ١٥٨، ويجعل ذلك سنة ٤٩٤ هـ، سميح وجيه الزين: تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً منذ أقدم الأزمنة حتىٰ العصر الحاضر ــ بيروت، ص ١١١. الجندي: تاريخ المعرة، ص ١٥٧.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٠٩.

(٣) الجومة: من نواحي حلب بالقرب من العمق وهي من قرىٰ أنطاكية، ياقوت الحموي: جـ ٢، ص ١٨٩. وابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥١١، حاشية رقم / ١ /.

(٤) المسلمية: قرية على طريق حلب تبعد عنها أحد عشر كيلو متراً. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥١٢، حاشية رقم / ٢ /.

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥١١. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٤٠٢.

بسرفوت .

في هذه الأثناء كانت معركة أخرىٰ تدور رحاها بين الفرنجة الصليبيين من جهة، وسكمان بن أرتق أمير ماردين وجكرمش[1] أتابك الموصل على ضفاف الخابور، وقد وصل الملك رضوان بقواته إلى الفرات «بانتظار ما يكون من خبر الفرنجة الصليبيين»[2]، ولا تشير المصادر لماذا لم يشترك رضوان في المعركة، وقد انتصر التركمان في هذه المعركة نصراً حاسماً على الفرنجة الصليبيين الذين أرادوا احتلال حران وأسروا أحد قمامصتهم[3].

إنتهز رضوان وهو على الفرات إنتصار التركمان فأسرع للاستفادة من الموقف، وقرر استرداد القلاع والمدن القريبة من حلب، فأرسل إلى أهل الجزر وقرىٰ حلب الأخرىٰ التي في أيدي الفرنجة الصليبيين، وطلب منهم القبض على من عندهم من الفرنجة الصليبيين، وفعلاً نفذ أهل الفوعة[4]، وسرمين ومعرة مصرين وغيرها أوامر وتعليمات الملك رضوان، حتىٰ أن بعض الصليبيين طلبوا منه أن يؤمنهم على أنفسهم من القتل، فأمنهم وأخذهم أسرىٰ، كما تمكن شمس الخواص[5] أمير رفنيه من إتمام ما قام به رضوان، فهاجم صوران واستردها، فما كان من الحاميات الفرنجية الصليبية الموجودة في لطمين وكفر طاب والمعرة والبارة إلاَّ أن هربت إلى أنطاكية، وعادت سيطرة رضوان على هذه المناطق ماخلا «هاب»[6]، بعد أن أصبحت القوات الفرنجية الصليبية على مشارف حلب.

ثم عمد رضوان إلى استرجاع بالس والفايا، وتسلم حماه والسلمية وكانت كلها تابعة لجناح الدولة[7] وقد عين عليها نواباً من قبله، وهكذا عاد الأمان إلى مناطق حلب، وقويت سلطة

---

(١) كان جكرمش أمير جزيرة ابن عمر وقد ساعد كربوقا في تسلمه الموصل من الأمير علي بن قريش، وبعد وفاة كربوقا تسلم المدينة موسىٰ التركماني، ولما علم جكرمش سار إلى الموصل وحاصرها أياماً ثم تسلمها صلحاً، وذلك سنة ٤٩٥ هـ. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٣٤٣.

(٢) ابن العديم ـــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥١٢.

(٣) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٣٢. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٣٧٣ ـــ ٣٧٥. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ ١٣. حوادث سنة ٤٩٧ هـ. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥١٢. الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ٨٠. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٤٠٤. سعيد برجاوي: الحروب الصليبية في المشرق، ص ٢١٤. عبد السلام التدمري: تاريخ طرابلس، ص ٢٩٨. الجندي: تاريخ المعرة، جـ ١، ص ١٥٨.

(٤) الفوعة: قرية كبيرة من نواحي حلب وهي مع سرمين ومعرة مصرين في بقعة واحدة من أعمال حلب في جهة الجنوب على مرحلة منها، ولهذه البقعة الأشجار الكثيرة من الزيتون والتين وغير ذلك، ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٤، ص ٢٨٠.

(٥) شمس الخواص: أحد الأمراء التركمان من جماعة تتش تسلم رفنية، ويبدو أنه كان قاسياً فخاف أهل حماه منه فاستدعوا رضوان لتسلمها، ثم أصبح مقدم جيوش حلب أيام لؤلؤ اليايا.

(٦) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥١٢.

(٧) حدث خلاف بين أهل حماه، فخافوا من مجيء شمس الخواص إليهم فراسلوا رضوان وسلموه البلد.

رضوان واستعاد هيبته، واستمر في غاراته على أنطاكية[1] تدفعه في ذلك عدة عوامل مساعدة هي:

١ ــ هزيمة الفرنجة الصليبيين في معركة البليخ وانكسار شوكتهم.

٢ ــ الخلافات التي نشبت في حماه بين أنصار جناح الدولة وعدم قدرتهم على الاحتفاظ بما تحت أيديهم.

٣ ــ تدخل شمس الخواص واستيلائه على صوران.

هـ ــ معركة أرتاح ونتائجها:

بعد الانتصارات التي حققها رضوان وصلته رسالة من سكان حصن أرتاح يبدون فيها رغبتهم بتسليم الحصن له لما لاقوه من ظلم واضطهاد الفرنجة الصليبيين لهم، فأرسل نائباً عنه إلى الحصن[2] وتسلمه. كما جهز رضوان جيشاً كبيراً وقصد طرابلس لمساعدة فخر الملك ابن عمار لفك الحصار الذي ضرب حول طرابلس[3]. وذلك في شهر رجب سنة ٤٩٨ هـ/ آذار ونيسان ١١٠٥ م.

استاء الفرنجة الصليبيون كثيراً من ازدياد قوة رضوان وتصرفاته، وزاد موقفهم سوءاً بتسلم رضوان الحصن فقرروا استعادته، ولذلك تحركوا بزعامة أميرهم تنكرد من أنطاكية، بعد أن إنضم إليه جميع من في المناطق التابعة له من الفرنجة الصليبيين باتجاه حصن أرتاح وحاصروه، وضيقوا كثيراً على سكانه، فأرسل نائب الحصن إلى رضوان يشرح له الموقف، ويطلب منه القدوم لنجدة الحصن ومن فيه.

عندما وصلت رسالة نائب حصن أرتاح إلى رضوان عاد عن مشروعه لفك الحصار عن طرابلس وتوجه بجيشه إلى قنسرين وقد وصلها في شعبان سنة ٤٩٩ هـ/ نيسان ــ أيار ١١٠٥ م، وقد وصل قريباً من الفرنجة الصليبيين، فلما رأى تنكرد كثرة جيش رضوان

---

(١) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ٢، ص٥١٣. الجندي: تاريخ المعرة، جـ١، ص١٥٨، وهو ينقل عن ابن العديم حرفياً.

(٢) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥ م، ص ٣٦٢. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ١، ص ٤٠٥، ويقول إن أرتاح قلعة ذات موقع هام بالنسبة لأنطاكية. ر. سي. سميل: فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر (١٠٩٧ ــ ١١٩٣ م)، ص ٩٠.

(٣) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٣٩. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، المجلد ١٣. حوادث سنة ٤٩٨ هـ. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ٥١٤، ويقول عن عودة رضوان: «وعاد عن طرابلس»، وهذا يعني أنه وصلها. عبد السلام التدمري: تاريخ طرابلس، ص ٢٩٨، يقول: «أما فخر الملوك صاحب حلب، فقد جمع خلقاً كثيراً، وخرج في رجب من السنة نفسها يريد طرابلس، ولكنه اصطدم بالصليبيين بالقرب من حصن أرتاح»، أي أنه لم يصل إلى طرابلس، ويبدو أن قول ابن العديم هو أكثر دقة لقربه من الأحداث، ولأن التدمري يقول إنه اصطدم بالصليبيين ولم يشر إلى الاستغاثة التي طلبها نائب الحصن والتي اضطرت رضوان للعودة إليه.
عبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ص ٨٨.

راسله طالباً الصلح ولكن رضوان رفض بتأثير من أحد قواده[1]، والتقىٰ الجيشان بالقرب من مدينة تيزين وجرت بينهما معركة حامية[2] ثبت فيها مشاة رضوان بينما لاذت خيالته بالفرار وبالرغم من أن النصر كان بجانب قوات رضوان في بداية المعركة، إلا أن الفرنجة الصليبيين ما لبثوا أن قاموا بهجوم معاكس، وتمكنوا من مشاة رضوان، فقتلوا نحواً من ثلاثة آلاف بين فارس وراجل وانهزم رضوان مع فلول جيشه منكفئاً إلى حلب، فلما علم من بأرتاح بهزيمة رضوات وقواته، هربوا من الحصن وتركوه خالياً فاحتله الفرنجة الصليبيون[3]، ولم يكتفوا بذلك بل تابعوا زحفهم إلى حلب فنهبوا وسلبوا، وخاف الناس في قرىٰ حلب واضطربت الأحوال من ليلون إلى شيزر، وهرب سكانها إلى حلب، فتبعهم الفرنجة الصليبيون، فقتلوا منهم جماعة وسبوا أخرىٰ وأعادوا احتلالهم لأغلب الحصون، ولم يبق مع رضوان إلا حماه والأثارب[4]. كما احتلوا أفامية دون قتال وذلك في الثالث من المحرم سنة ٥٠٠ هـ/ الرابع من أيلول ١١٠٦ م، وكان رضوان قد استولىٰ عليها سنة ٤٩٩ هـ/ ١١٠٥ ــ ١١٠٦ م[5].

و ــ تحالف الملك رضوان مع الصليبيين:

بعد النكبة التي أصابت رضوان إثر معركة أرتاح وصلته الأنباء أن جاولي سقاوه[6] قصد أراضي إمارة حلب للاعتداء عليها، وقد اتفق مع بلدوين على أن يساعد كل منهما الآخر لتحقيق أهدافه. وقد بدأ جاولي مع حليفه بلدوين بالاعتداء على أملاك رضوان، وعندما علم رضوان بنوايا جاولي تجاهه أخذ يبحث لنفسه عن حليف بين صفوف الصليبيين كما فعل

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٣٩٣. يبشوف: تحف الأنباء، ص ٥١.

(٢) الغزي: نهر الذهب في تاريخ حلب، جـ ٣، ص ٨٠. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٢١١. معروف رزوق: تاريخ شيزر، ص ١٦٠. سعيد برجاوي: الحروب الصليبية في المشرق، ص ٢١٦.

(٣) العظيمي: تاريخه، ص ٣٦٣، ويجعل معركة أرتاح سنة ٤٩٨ هـ، وأن خسائر المسلمين فيها عشرة آلاف رجل. ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٤٠. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٣٩٤. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥١٤ ــ ٥١٥. الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ٨١. يبشوف: تحف الأنباء، ص ٥١. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٤١٢. عبد السلام التدمري: تاريخ طرابلس، ص ٢٩٨. عبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ص ٩٩.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ــ المجلد ١٣. حوادث سنة ٤٩٨ هـ. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ٢٨.

(٥) ابن القلانسي ــ المصدر السابق، ص ٢٤٢. الأصفهاني: البستان الجامع، ص ١١٦. ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ٤١٠. ابن أبي الدم: تاريخ ابن أبي الدم ــ مخطوط، ص ١٤٣. الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ٨١. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٤٥٣. سعيد برجاوي: الحروب الصليبية في الشرق، ص ٢١٧. معروف رزوق: تاريخ شيزر، ص ١٦١.

(٦) كان جاولي أميراً على الموصل لكنه عصىٰ على السلطان محمد فسار السلطان لمقاتلته فاضطر جاولي إلى ترك الموصل، وأخذ يعمل على تأسيس إمارة له فاتفق مع بلدوين وجوسلين على أن يساعداه في هدفه مقابل مساعدته لبلدوين ليعود إلى إمارة الرها، بعد أن أطلق سراحه جاولي بسبب رفض طلبه من قبل تنكرد أمير أنطاكية والوصي على عرش إمارة الرها. سعيد عاشور ــ المرجع السابق، ص ٤٤٩.

جاولي بتحالفه مع بلدوين، فلم يجد رضوان سوى خصمه القديم تنكرد أمير أنطاكية الذي استنجد بدوره برضوان فأمده بقوات من حلب تقدر بستمائة فارس[1]. وهكذا إنقسم التركمان والفرنجة الصليبيون إلى فريقين: **الأول** من جاولي وبلدوين، **والثاني** من الملك رضوان وتنكرد حاكم أنطاكية.

نشبت المعركة بين الطرفين غربي الفرات قرب منبج، وذلك في صفر سنة ٥٠٢ هـ/أيلول ١١٠٨ م، وكان النصر فيها نصيب رضوان وحليفه، بينما إنهزم جاولي وحليفه بعد أن قتل من عساكرهما العدد الكبير وخسر الفرنجة الصليبيون من الطرفين ألفي رجل[2]، وتسلم رضوان بالس من أصحاب جاولي[3].

يبدو أن مواقف رضوان تجاه الفرنجة الصليبيين كانت متأرجحة، فتارة يشن الحرب والغارات عليهم حفاظاً على مصالحه عندما يجد نقطة ضعف لديهم ينفذ منها، وتارة يقف متفرجاً دون أن يتدخل بالرغم من أنهم يعيثون في أراضي إمارته، وتارة ينشد التفاهم معهم ويحالفهم تفادياً لشرهم وشر الأمراء التركمان خصومه أمثال كربوقا وجاولي. غير أن هذه السياسة المتأرجحة أوصلت الأمور إلى الحد الذي حاصر فيه الفرنجة الصليبيون حلباً أكثر من مرة، واضطر أن يدفع لهم الأتاوات مقابل الحفاظ على عرشه مما أدى بأهل حلب إلى إتهامه بالتقصير في حماية البلاد ضد الخطر الفرنجي الصليبي الداهم.

ز ــ عودة الخلاف بين رضوان والفرنجة الصليبيين:

في سنة ٥٠٣ هـ/١١٠٩ ــ ١١١٠ م، حدثت معركة كبرى على ضفاف الفرات بين عساكر السلطان محمد[4] يقودهم الأمراء سكمان القطبي أمير أرمينية، ومودود أمير الموصل، ونجم الدين إيلغازي رافقهم عساكر من دمشق وبين الفرنجة الصليبيين الذين تجمعوا من كل المواقع الخاضعة لهم، وعلى رأسهم الأمراء تنكرد وبلدوين وابن صنجيل على حين بقي رضوان بعيداً يرقب الأحداث، وقد انتصرت عساكر السلطان ومن معهم على الفرنجة الصليبيين نصراً مؤزراً، فقتلوا وأسروا العدد الكبير وغنموا من المؤن والعتاد الشيء الكثير[5]. عندما وصلت

---

(١) ابن الأثير: الكامل، طبعة صادر ودار بيروت ــ المجلد العاشر، ص ٤٦٤ ــ ٤٦٥.

(٢) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٤١٧. سعيد برجاوي: الحروب الصليبية في المشرق، ص ٢١٩.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥١٧ ــ ٥١٨.

(٤) تقررت له السلطنة بعد وفاة أخيه السلطان بركياروق منذ سنة ٤٩٨ هـ/١١٠٤ ــ ١١٠٥ م. ناصر بن علي الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية، ص ٧٩.

(٥) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٧٠ ــ ٢٧٢. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ــ مخطوطة أحمد الثالث، جـ ١٣. حوادث سنة ٥٠٣ هـ.

أخبار هزيمة الفرنجة الصليبيين على الفرات إلى الملك رضوان أراد أن يستغله لصالح إمارته، ولذلك أسرع وتحرك على رأس قواته لاستعادة قرىٰ حلب التي كانت بأيدي الفرنجة الصليبيون، ولم يكترث بالهدنة التي كانت بينه وبينهم، فاستولىٰ على بعضها بدون قتال، وقاتل ما امتنع عليه منها، ثم أغار على أنطاكية والمناطق التابعة لها، فغنم ما يصعب حصره، وقد أرسل له الفرنجة الصليبيين يلومونه على نقضه الهدنة، ولم يكتفوا بالكلام بل ترجموه إلى عمل عدائي، فسار تنكرد الذي كان قد نجا من المعركة على الفرات إلى أعمال حلب وأفسد فيها، ثم قصد المناطق الواقعة إلى الشرق منها، فقتل عدداً من أهلها، وسبىٰ أهل النقرة وأخذ ما قدر عليه من المواشي، مما اضطر أهاليها إلى الفرار نحو بالس، ثم توجه إلى حصن الأثارب فحاصره[2].

عجز رضوان عن صد هذا الهجوم الفرنجي الصليبي المضاد، ولذلك فإنه عرض فدية على الفرنجة الصليبيين مقدارها عشرون ألف دينار مقابل رحيلهم، ولكنهم رفضوا، وفرضوا على رضوان شروطاً أقسىٰ من الأولىٰ، وقال تنكرد: «قد خسرت ثلاثين ألف دينار، فإن دفعتموها إليّ، وأطلقتم كل عبد بحلب منذ ملكت أنطاكية فأنا أرحل»[3] فاستعظم ذلك رضوان وانتظر ما تأتي به الأيام.

وقد أرسل أهل الأثارب يخبرون رضوان بحصار الصليبيين لهم، لكن الكتاب وقع بيد أميرهم تنكرد الذي زاد الضغط على رضوان ليضمن قبوله بشروطه أو يحقق أكثر منها، وعندما يئس أهل الأثارب من نجدة تصل إليهم سلموا البلد إلى تنكرد في جماديٰ الآخرة سنة ٥٠٤ هـ / كانون الأول ــ كانون الثاني ١١١٠ ــ ١١١١ م[3]. شعر تنكرد بأهمية نصره في الأثارب فأراد تحقيق المزيد، ولذلك فإنه هاجم حصن زردنا فاحتله ثم قصد منبج وبالس، ولكنه لم يجد بهما سكاناً بسبب خوفهم من هجمات الفرنجة الصليبيين وهربهم، فعاد الفرنجة

ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥١٨ ــ ٥١٩. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٤٥٩. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٢٢١.

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٤٨١. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥١٩ ــ ٥٢٠.

(٢) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥١٩ ــ ٥٢٠.

(٣) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٧٣، ويجعل ذلك سنة ٥٠٣ هـ بدلاً من ٥٠٤ هـ. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٤٨١. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥١٩. أبو الفداء: المختصر، جـ ١، ص ٢٢٤. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ٣٢. الذهبي: العبر، جـ ٣، ص ٤. الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ١٨. يعشوف: تحف الأنباء، ص ٥١. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٤٢٠. حسين حبشي: نور الدين والصليبيون، ص ١٥. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٢٢٢.

الصليبيون عنهما[١]، وبسبب هذه الهجمات المتكررة اضطر رضوان إلى مصالحة تنكرد على عشرين ألف دينار وعشرة رؤوس من الخيل[٢]، ووصل الضعف برضوان أن لبى جميع الشروط التي فرضها عليه تنكرد، ومنها أن يعيد إليه الأسرى الأرمن الذين أسرهم أثناء إغارته على أنطاكية، ووصل الأمر أن طلب تنكرد إعادة نساء الفلاحين العرب المسلمين الذين هربوا من الأثارب إلى حلب فأخرجهن إليه[٣]، ولم تصل الأوضاع بحلب في وقت من الأوقات إلى ما وصلت إليه من الضعف والإنهيار مثل هذه الفترة وقد أدت هجمات الفرنجة الصليبيين على القرى التابعة لرضوان إلى قلة الغلال عنده، مما اضطر معه رضوان إلى بيع ستين ضيعة من قرى حلب لأهلها بثمن زهيد، وذلك لضمان بقائهم فيها، وزيادة إنتاجهم بعد أن أصبحت ملكاً لهم.

بعد وقعة الأثارب وما آلت إليه أوضاع حلب ضاق الأمر بأهلها ولم يبقَ أمامهم إلا الاستنجاد بالسلطان محمد بن ملكشاه، فقصد بعضهم بغداد يستغيثون ويطلبون النجاة وأثاروا الشغب أيام الجمعة، ومنعوا الخطباء من الخطبة واستصرخوا العساكر الإسلامية على الفرنجة الصليبيين[٤]. ويشير ابن القلانسي إلى هذا الوفد بقوله: «ولما كان أول جمعة من شعبان سنة ٥٠٤ هـ/١٨ شباط ١١١١ م، حضر رجل من الأشراف الهاشميين من أهل حلب وجماعة من الصوفية والتجار والفقهاء إلى جامع السلطان ببغداد فاستغاثوا، وأنزلوا الخطيب عن المنبر وكسروه، وصاحوا وبكوا لما لحق الإسلام من الفرنجة الصليبيين ... وعاودوا

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٤٨٢. أبو الفداء: المختصر، جـ١، ص٢٢٤. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ٢، ص٣٢. الغزي: نهر الذهب، جـ٣، ص٨١. بيشوف: تحف الأنباء، ص٥١. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ١، ص٤٢٠.

(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص٢٧٣، ويجعل هذه القطيعة على رضوان سنوية. أبو الفداء: المختصر، جـ١، ص٢٢٤، يقول إن القطيعة كانت اثنين وثلاثين ألف دينار. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ٢، ص٣٢، ويجعل صلح رضوان للصليبيين على قطيعة ثلاثين ألف دينار وثياب وخيل، ومثل ذلك فعل صاحب شيزر وقطيعته عشرة آلاف، وصاحب حماه على دينار. الغزي: نهر الذهب، جـ٣، ص٨١، ويقول إن القطيعة اثنين وثلاثين ألف دينار. بيشوف: تحف الأنباء، ص٥١، ويقول إن القطيعة اثنين وثلاثين ألف دينار. ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٣٢، ويقول: إن رضوان صاحب حلب وجه إلى تنكرد اثنين وثلاثين ألف دينار وعشرين حصاناً عربياً وأربعين قطعة قماش فاخر. وابن منقذ صاحب شيزر أربعة آلاف دينار وعلي الكردي صاحب حماه ألفي دينار، وعقدو الهدنة إلى زمان الحصاد فقط على أن يقدموا الغلة للفرنج الصليبين.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٥٢٠ ــ ٥٢١. خير الدين الأسدي: أحياء حلب وأسواقها، ص٣٥.

(٤) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٤٨٢ ــ ٤٨٣. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ١٣. حوادث سنة ٥٠٤ هـ. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٥٢١. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ٢، ص٣٣. الذهبي: العبر، جـ٤، ص٧. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٢، ص١٥٧. ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٣٣. الغزي: نهر الذهب، جـ٣، ص٨١. فيليب حتي: تاريخ العرب مطول، جـ٢، ص٥٧٦. محمد علي الحريري: الأعلام والتبيين، ص٣٧.

في الجمعة الثانية المصير إلى جامع الخليفة وفعلوا مثل ذلك ...»[1]، كما كان قد وصل قبل أهالي حلب إلى السلطان رسول امبراطور بيزنطة كومنين يحثه على قتال الفرنجة الصليبيين وردهم عن البلاد[2]، ويقول ابن الأثير إن أهل حلب قالوا للسلطان: «أما تتقي الله تعالىٰ أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام حتىٰ أرسل إليك في جهادهم»[3]، ولعل امبراطور بيزنطة كان يرمي من وراء حثه السلطان على محاربة الفرنجة الصليبيين إلى ضرب القوىٰ الإسلامية بالصليبية، ليتمكن هو من تحقيق أطماعه باعتبار بيزنطة الخصم التقليدي للدولة الإسلامية، وبذلك يستعيد سيطرته على أملاك الامبراطورية البيزنطية التي لا يزال أجزاء منها تحت الحكم السلجوقي، ولأن الفرنجة الصليبيين لم يفوا له بوعدهم وهو تسليم أنطاكية له بعد احتلالها[4].

عقب تلك الاستغاثة لبىٰ السلطان محمد بن ملكشاه نداء أهل حلب، وطلب من الأمراء التركان التجهز لقتال الفرنجة الصليبيين، وكان أول من تحرك منهم الأمير مودود صاحب الموصل وقد إنضم إليه في الطريق الأمير أحمد يل الكردي صاحب مراغه[5] بقوات ضخمة، والأمير سكمان القطبي صاحب تبريز وبعض ديار بكر[6]، والأميرين إيلبكي وزنكي ابني برسق أصحاب همذان وما جاورها، والأمير مسعود بن السلطان محمد، كما إلتحق بمسعود الأمير أبو الهيجاء صاحب أربل، والأمير إياز بن إيلغازي أمير ماردين ولم يرافق هو الحملة بسبب إنشغاله بأمور داخلية في بلاده.

تجمعت هذه الجيوش في أرض حران ثم توجهوا إلى الرها فلم يتمكنوا منها لحصانتها، ثم قطعوا الفرات إلى تل باشر فحاصروها[7]، وكان قصدهم جعل الفرنجة الصليبيين يعبرون الفرات ثم ينقضون عليهم.

بالمقابل كان الصليبيون بقيادة تنكرد قد احتلوا حصن بكسرائيل[8]، ثم توجهوا إلى شيزر

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٧٦.

(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٧٧. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٤٨٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٤٨٣.

(٤) زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية، ص ١٨ ــ ١٩.

(٥) مراغة: بلدة مشهورة، أعظم وأشهر بلاد أذربيجان، ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٥، ص ٩٣.

(٦) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٤٨٥. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ــ القسم الأول، جـ ٢، ص ٣٥ ــ ٣٦. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٣، ص ١٧٣. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ١، ص ٢٢٥.

(٧) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٧٩. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٤٨٦. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ــ القسم الأول، جـ ٨، ص ٣٥ ــ ٣٦. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٢٢. ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ١٣٣.

(٨) العظيمي: تاريخه، ص ٣٦٤. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ــ القسم الأول، جـ ٨، ص ٣٥ ــ ٣٦. بكسرائيل: حصن من سواحل

فحاصروها لكن الخبر وصلهم بنزول التركمان على تل باشر فتركوا شيزر وتحركوا إلى الفرات فعبروه فعلاً ووصلوا إلى الرها فحصنوها ودعمّوها بالمؤن والعتاد بعد أن كادت تسقط بأيدي التركمان[1]، وهذا أحد الأخطاء الحربية التي ارتكبها التركمان في تخليهم عن حصار الرها قبل سقوطها.

أثناء حصار التركمان لتل باشر، أرسل الملك رضوان إلى مودود وبقية الأمراء، يعلمهم بالوضع المأساوي الذي وصلت إليه الأمور بحلب وطلب منهم المبادرة إلى ترك تل باشر والتعجيل بقدومهم إلى حلب لنجدته، ويشير ابن العديم إلى رسالة رضوان هذه بقوله: «إنني قد تلفت، وأريد الخروج من حلب، فبادروا إلى الرحيل»[2].

فشل حلف التركمان في الاستيلاء على تل باشر فترك حصارها بعد أن انسحب أحمد يل الكردي[3]، وتوجه بقية التركمان إلى حلب، وقد استغل جوسلين انسحاب مودود وبقية الأمراء، فخرج على رأس قوة صليبية هاجمت مؤخرة الجيش التركماني، فقتلت قرابة ألف رجل، ثم عاد إلى تل باشر مثقلاً بالغنائم[4].

وصل مودود وحلفاؤه إلى حلب، وكان من المنتظر أن يستقبله الملك رضوان ويضع معه الخطط الكفيلة برد الفرنجة الصليبيين عن الأراضي التابعة لإمارته على الأقل، إلا أن الملك رضوان تصرف بغرابة، إذ أغلق أبواب حلب بوجه مودود ورفض استقباله[5]. كما أخذ بعض الأشخاص من أهل حلب كرهائن لديه[6] حتى لا يجرؤوا على تسليم حلب لجيوش مودود، كذلك وضع حراساً من أتباعه ومن أتباع الإسماعيلية النزارية لحفظ سور البلد، ومنع الحلبيين من الصعود إليه، وظلت أبواب حلب مغلقة سبعة عشر يوماً من سنة ٥٠٥ هـ/ ١١١ ــ

حمص مقابل جبلة في الجبل، ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ١، ص ٤٧٤.

(١) الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ٨٢.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٢٣.

(٣) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٧٩. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ــ القسم الأول، جـ ٨، ص ٣٥ ــ ٣٦. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٤٨٦. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٢٢٤.

(٤) عماد الدين خليل ــ المرجع السابق، ص ٢٢٤.

(٥) العظيمي: تاريخ العظيمي، ص ٣٦٥. حوادث سنة ٥٠٥ هـ. ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٧٩. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٤٨٦. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ــ القسم الأول، جـ ٨، ص ٣٥ ــ ٣٦. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٢٣. أبو الفداء: المختصر، جـ ١، ص ٢٢٥. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ٣٣. الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ٨٢. يعشوف: تحف الأنباء، ص ٥١. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٢٢٤. حسن حبشي: نور الدين والصليبيون، ص ١٩. سعيد برجاوي: الحروب الصليبية في الشرق، ص ٢٢١.

(٦) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ــ القسم الأول، جـ ٨، ص ٣٥ ــ ٣٦.

١١١٢م، وبقي الناس في المدينة ثلاث ليال لم يجدوا فيها شيئاً يأكلونه فكثر اللصوص والمجرمين، وخاف الأغنياء والوجهاء على أنفسهم من السلب والنهب[١]، ويصف ابن العديم تصرفات وأعمال الملك رضوان مع أهل حلب في تلك الفترة فيقول: «وساء تدبير الملك رضوان، فأطلق العوام ألسنتهم بسببه وتعييبه، وتحدثوا بذلك فيما بينهم، فاشتد خوفه من الرعية أن يسلموا البلد، وترك الركوب بينهم»[٢]. ووصل به الخوف إلى ارتكاب جرائم قتل لأقل هفوة حتىٰ أنه «ضرب عنق رجل لأنه أطلق صفيراً من السور، ورمىٰ برجل آخر من السور لأنه أعطىٰ ثوبه إلى آخر»، كما مارس جنده النهب والسلب بأطراف حلب مما خلفه الصليبيون وراءهم[٣].

أصيب مودود وحلفاؤه بخيبة أمل من موقف رضوان، فقاموا بمهاجمة بعض المواقع التي كانت بأيدي الفرنجة الصليبيين حول معرة النعمان[٤]، ثم وصلوا إلى المعرة آخر صفر من سنة ٥٠٥هـ/السادس من أيلول ١١١١م، وأقاموا حولها أياماً، فوجدوا فيها ما ملأ صدورهم مما يحتاجون إليه من المؤن والعتاد ما عجزوا عن حمله[٥].

والسؤال الذي يطرح هنا؟ لماذا استنجد رضوان بالأمير مودود وحلفائه؟ ولماذا أغلق أبواب حلب في وجوههم؟ لا شك أن الجواب يكمن **أولاً في**: شخصية رضوان المتشككة في كل شيء، حتىٰ أقرب المقربين إليه ولذلك فمن باب أولىٰ أن يشك بنوايا أمراء أقوياء أمثال مودود وغيره. **ثانياً**: أن رضوان كان يعتبر نفسه نداً للسلطان محمد ولا يريد أن يحقق السلطان أمجاداً على حسابه. **ثالثاً**: عدم ثقته بأهل حلب وخوفه أن يسلموا البلد للأمير مودود بسبب تصرفاته الرعناء تجاههم، وموقفه الضعيف، ودعمه لأتباع الدعوة النزارية وتهاونه معهم.

أثناء وجود الأمير مودود وبقية الأمراء في معرة النعمان جاءهم طغتكين حاكم دمشق، فرحب به الأمير مودود، إلا أن الملك رضوان تدخل أيضاً، وراسل بعض الأمراء ولكن ليس للدعم والمؤازرة وإنما لبث الفرقة بينهم[٦]، وقد طلب منهم طغتكين المسير إلى طرابلس على أن يقدم لهم الأموال والمؤن فلم يقبلوا، وعاد أحمد يل وبرسق بن برسق وقوات سكمان القطبي.

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٧٩. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ٥٢٤.

(٢) سهيل زكار: المدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٩٣، نقلاً عن ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ المجلد السادس.

(٣) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٧٩. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ٥٢٣ ــ ٥٢٤.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ١٣. حوادث سنة ٥٠٤هـ. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٢٤.

(٥) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٧٩.

(٦) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٨٢. ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص ٤٨٧. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ٥٢٥.

ولم يبق إلا مودود وطغتكين[1] اللذين تركا المعرة، ونزلا على العاصي شرقي شيزر وذلك في يوم الخميس ٩ ربيع الأول سنة ٥٠٥ هـ/ ١٥ أيلول ١١١١ م، ويشير سبط بن الجوزي وغيره إلى سبب قدوم طغتكين إلى مودود وبقية الأمراء أنهم كاتبوه عندما كانوا على الفرات ليوافيهم ويساعدهم، «ويدبر الأمور» وأن السلطان أرسل إليه بمثل ذلك «فجمع وحشد رجاله ورجال حمص وحماه ورفنية، وصار في جمع كثيف طلباً للجهاد، وتحرك نحوهم فوصل أبواب حلب، فسروا بوصوله، وقويت نفوسهم، فلم يرَ منهم عزيمة صادقة في جهاد ولا حمية، وأما سكمان فإنه عاد إلى بلاده، وتوفي في طريقه قبل وصوله إلى الفرات»[2].

بعد نزول مودود وطغتكين على العاصي شرقي شيزر، تجمعت الجيوش الصليبية بقيادة أمراء الرها وأنطاكية وطرابلس وملك بيت المقدس، وعسكروا تجاه الجيوش التركمانية عند أفامية على الضفة المقابلة لنهر العاصي، فخرج أبو العساكر ابن منقذ من شيزر بعسكره وأهله، واجتمع بمودود وطغتكين وأخذ يحثهما على قتال الفرنجة الصليبيين، ودارت بين الطرفين معارك متعددة هرب على أثرها الفرنجة الصليبيون يحمي بعضهم بعضاً، بينما عاد مودود وطغتكين إلى شيزر[3] وذلك سنة ٥٠٥ هـ/ ١١١١ ــ ١١١٢ م.

بعد هزيمة الفرنجة الصليبيين أمام مودود وطغتكين هاجم تنكرد مع قواته قلعة اعزاز وحاصرها، وحاول رضوان دفعه عنها مقابل فدية مقدارها عشرين ألف دينار وخيلاً، ولكن تنكرد رفض عرض رضوان[4]، فأرسل هذا إلى طغتكين، وكان لا يزال بالقرب من حماه يستنجده فاستجاب طغتكين واجتمع الأثنان في حماه[5] واتفقا معاً على مساعدة كل منهما لصاحبه بالمال والرجال، وأن يخطب طغتكين لرضوان في دمشق، ويضرب السكة باسمه. ثم ترك طغتكين حليفه واضطر للعودة إلى دمشق بسبب محاصرة الفرنجة الصليبيين لصور مما

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٨٢. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٤٨٧، ويقول سكمان القطبي مرض على أبواب حلب، فعاد مريضاً وتوفي في بالس. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٤٣ ــ ٥٢٥، ويقول إن سكمان توفي أثناء حصار تل باشر. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٢٢٤، ويقول إنه بقي مع مودود إياز بن إيلغازي وطغتكين.

(٢) أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار، جامعة برنستون ــ الولايات المتحدة الأمريكية ١٩٣٠ م، ص ٦٨. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ــ القسم الأول، جـ ٨، ص ٣٥ ــ ٣٦. معروف رزوق: تاريخ شيزر، ص ١٦٤.

(٣) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٨٣، ويذكر تفاصيل هذه المعارك، ويجعل حدوثها أواخر سنة ٥٠٤ هـ. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٤٨٧. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٢٥. معروف رزوق: تاريخ شيزر، ص ١٦٤. حسن حبشي: نور الدين والصليبيين، ص ١٧.

(٤) سهيل زكار: المدخل، ص ٣٩٤، نقلاً عن ترجمة: رضوان بن تتش. ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ المجلدة السادسة.

(٥) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٩٠. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٢٧.

جعل اليأس يتسرب إلى نفس رضوان، لأنه لم يعد قادراً على فعل شيء تجاه استغاثة أهل اعزاز الذين أبدوا مقاومة عنيفة بوجه الحصار، ولما يئسوا من وصول النجدة إليهم، طلبوا الأمان من الفرنجة الصليبيين وانسحبوا من اعزاز التي احتلها الصليبيون وانتزعوها من ممتلكات رضوان ملك حلب.

بعد عودة طغتكين إلى دمشق كثرت تعديات الفرنجة الصليبيين على بعض القرىٰ المحيطة بدمشق، فأرسل طغتكين إلى الأمير مودود يعلمه بأعمال الفرنجة الصليبيين، فجمع هذا جيشه، وعبر الفرات متوجهاً إلى الشام، فلقيه طغتكين عند السلمية واتفقا على مقاتلة الفرنجة الصليبيين، وطلبا نجدة من رضوان بناء على الاتفاق الذي تم بين رضوان وطغتكين، وحدثت معركة كبيرة بين الطرفين بالقرب من بحيرة طبرية انتصر فيها التركمان وخسر الفرنجة الصليبيون قرابة ألفي قتيل وذلك يوم السبت الحادي عشر من محرم سنة ٥٠٧ هـ/ ٢٩ حزيران ١١١٣م، أما نجدة رضوان فقد وصلت متأخرة ولم تكن تتجاوز المائة فارس، وخالف بذلك ما كان وعد به، ويشير ابن القلانسي إلى رد فعل مودود وطغتكين حيال تأخر رضوان بإرسال النجدة إليهم بقوله: «فأنكر ظهير الدين أتابك وشرف الدين مودود ذلك منه، وأبطلا العمل بما كانا عزما عليه من الميل إليه وإقامة الخطبة له وذلك في أول شهر ربيع الأول سنة ٥٠٧ هـ[1]/ ١٦ آب ١١١٣م». أما ابن العديم فيقول: «فأنكر طغتكين ذلك وتقدم بإبطال الدعوة والسكة باسم رضوان في دمشق في أول ربيع الأول سنة ٥٠٧ هـ[2] ١٦ آب ١١١٣م».

يبدو أنها كانت الفرصة الأخيرة التي أتيحت لرضوان ليكون سيد بلاد الشام دون منازع، من خلال اعتراف حاكم دمشق به، وإقامة الخطبة له في مساجد دمشق وضرب السكة باسمه، ولعل السبب الذي دفع طغتكين لعرض ذلك على رضوان هو حالة الفراغ السياسي الذي كانت تعيشه دمشق منذ أن توفي دقاق[3]. وأصبح الحكم فيها لأبنائه وكانوا صغاراً، وبذلك يبقىٰ طغتكين الحاكم الفعلي لدمشق باسم رضوان. إلا أن رضوان لم يتمكن من استثمار هذه الفرصة لصالحه بسبب حالة الوهن والضعف الذي وصلت إليه الأوضاع في

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص٢٩٦.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٥٢٨.

(٣) العظيمي: ص٣٦٣. ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص٢٣٣، ويجعل وفاته في الثاني عشر من رمضان سنة ٤٩٧ هـ. ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٣٧٥، يقول ابنه تتش بن دقاق كان له من العمر سنة واحدة. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٥١٤. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص١٦٣. محمد مختار باشا: التوفيقات الإلهامية، جـ١، ص٥٢٩.

إمارة حلب والتي لم تمكنه حتىٰ من إرسال نجدة إلى طغتكين ومودود ليظهر لهما حسن النية والإلتزام بما اتفق عليه مع طغتكين في حماه، وهذا يدل أيضاً على أن زمام الأمور في حلب لم يعد بيده، وإنما أصبح بأيدي قوىٰ أخرىٰ وهو ما سيتم التعرض له في الفقرة التالية.

وهنا يمكن القول أيضاً إنه في الوقت الذي كانت تندفع فيه القوات الصليبية مخترقة كالسهم بلاد الشام من شمالها إلى جنوبها كانت الوحدة الداخلية مفقودة بين الأمراء والملوك السلاجقة في هذه البلاد (حلب ـــ دمشق) وكانوا في خلافات دائمة ومؤامرات لا تنقطع، كما أن الأمراء العرب في شيزر وطرابلس وغيرهما كانوا متخوفين من السلاجقة لذلك وقفوا موقف الحياد إن لم نقل المؤيد للصليبيين في صراعهم مع حكام بلاد الشام من السلاجقة، وهذا ولا شك كان عاملاً هاماً ومساعداً على تحقيق الفرنجة الصليبيين لأهدافهم وأطماعهم.

٥ ـــ وفاة الملك رضوان:

تسلم الملك رضوان الحكم في حلب بعد مقتل أبيه تتش وذلك سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، وبقي ملكاً عليها لمدة عشرين عاماً حيث توفي في ٢٨ جمادىٰ الآخرة سنة ٥٠٧هـ/ ١٠ كانون أول ١١١٣م[*]، وقد اضطرب أمر حلب لوفاته وتأسف لفقده أصحابه، ويقال إنه وجد في خزانته من الأموال والأدوات ما قدر بستمائة ألف دينار[1].

ومهما قيل عن الملك رضوان من أنه كان ظالماً، قبيح السيرة، ليس في قلبه رحمة ولا شفقة على المسلمين، وأنه لا يخرج للفرنجة الصليبيين الذين يغيرون على حلب، وأنه رأىٰ العبر في نفسه[2]، بالرغم من كل ذلك فقد حفلت مدة حكم رضوان بكثير من الأحداث السياسية والاجتماعية كان من أبرزها:

١ ـــ استقلال رضوان عن السلطنة السلجوقية في المشرق.

٢ ـــ قتل أخويه بعد هرب أخيه دقاق إلى دمشق.

(*) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٠١. العظيمي: تاريخه، ص ٣٤٨. الفارقي: تاريخ الفارقي، ص ٢٧٨، ويجعل وفاته سنة ٥٠٥هـ، وهو مخالف لما أجمع عليه المؤرخون. الأصفهاني: البستان الجامع، ص ١١٧. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٤٩٩. ابن أبي الدم: تاريخه ـــ مخطوط، ص ١٤٣. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ـــ القسم الأول، جـ ٨، ص ٤٦ ـــ ٤٧. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٢٨. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٢، ص ٢٢٧. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ٣٣. الذهبي: العبر، جـ ٤، ص ٤. اليافعي اليمني المكي: مرآة الجنان، جـ ٣، ص ١٩٤. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٢، ص ١٧٦. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٥، ص ٢٠٥. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، جـ ٤، ص ١٦. الغزي: نهر الذهب في تاريخ حلب، جـ ٣، ص ٨٢. يعقوب: تحف الأنباء بتاريخ حلب الشهباء، ص ٥١. محمد غنار باشا: التوفيقات الإلهامية، جـ ١، ص ٥٣٩.

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٠١. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٢٨.

(٢) سبط ابن الجوزي ـــ المصدر السابق، ص ٤٦ ـــ ٤٧.

٣ ــ العمل على التخلص من كل من يوسف بن آبق، والمجن الفوعي وجناح الدولة حسين.
٤ ــ محاولته القضاء على ياغي سيان لإعادة سيطرته على أنطاكية.
٥ ــ خطبته للخليفة الفاطمي ثم عودته عن هذه الخطوة.
٦ ــ محاولته استعادة دمشق وحمص وفشله في ذلك.
٧ ــ تقريبه أتباع النزارية واعتماده عليهم في تنفيذ سياسته.
٨ ــ بيعه الأراضي والقرىٰ للحلبيين ليستقروا فيها ويدافعوا عنها، وفرضه ضرائب جديدة لم تكن من قبل.
٩ ــ موقفه من الفرنجة الصليبيين والذي تراوح بين قتالهم ومحاربتهم وبين دفع الأتاوات لهم.

وخلال الفترة الطويلة التي حكم فيها الملك رضوان نعمت حلب بنوع من استقرار الحكم فيها لم تعرفه من قبل، كما لن تنعم به خلال السنوات القادمة كما سيأتي لاحقاً.

٦ ــ إمارة حلب بعد وفاة الملك رضوان وحتىٰ وصول الأراتقة إليها:

عندما توفي الملك رضوان ترك مملكة حلب في وضع لا تحسد عليه، وقد خلفه في حكمها ابنه ألب أرسلان وعمره ست عشرة سنة، وقد عرف بالأخرس لأنه كان ألثغاً لا يحسن الكلام، وليت البلاء في لسانه فقط، بل كان متهوراً قليل العقل سفاكاً للدم، منهمكاً في المعاصي[١] افتتح عهده بقتل أخويه ملكشاه ومبارك، وقبض على جماعة من خواص والده، فقتل بعضهم، وصادر أموال الآخرين ومنهم صاعد بن بديع رئيس حلب، وكان وجيهاً ومتنفذاً عند أبيه رضوان بعد أن ضيّق عليه، ثم أطلقه بعد أن افتدىٰ نفسه بالمال، فتوجه وأهله إلى مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر، وعيّن بدلاً عنه في رئاسة حلب أحد أعيانها ووجوهها وهو إبراهيم الفراتي. وليجعل لنفسه قاعدة يستند عليها، فإنه أزال عن أهل حلب الرسوم والضرائب التي كان والده رضوان قد فرضها عليهم[٢].

تولىٰ تدبير أمور ألب أرسلان خادم لأبيه رضوان اسمه لؤلؤ اليايا، وكان هو الآخر سيء التدبير، فلم يتمكن من تسيير دفة الحكم بالشكل المطلوب، ولذلك فإن الأمر لم يستقم له ولألب أرسلان إلا بعد أن قتلا عدداً لا بأس به من الخدم والمقربين[٣] الذين ساءتهم هذه السياسة، ومنهم كمشتكين البعلبكي مقدم عسكر حلب وعدد من ضباطه، وكذلك الوزير

---

(١) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، جـ ٤، ص ١٦. الأصفهاني: البستان الجامع، ص ١١٧. بيعشوف: تحف الأنباء، ص ٥١.
(٢) العظيمي: تاريخه، ص ٣٦٦.
(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٣٣.

أبي الفضل بن الموصول، ولم تكن سياسته الخارجية تجاه الصليبيين لتقل سوءاً عن سياسته الداخلية، بل كانت مشابهة لسياسة أبيه رضوان، إذ سارع إلى دفع الأتاوة إلى أمير أنطاكية الصليبي والتي كانت مقررة لهم على حلب[1].

شعر ألب أرسلان أنه غير قادر على الاستمرار في الحكم بنفسه، وأن المملكة بحاجة إلى من يدبر أمورها ويرعى شؤونها. ولم يجد أمامه سوى طغتكين أتابك دمشق، فبعث إليه[2] يستعطفه ويضع أموره بين يديه، ويطلب منه القدوم إلى حلب، وقد رحب طغتكين بالطلب باعتبار أن ألب أرسلان لا يزال صغيراً، ولا يخشاه الأعداء، كما أنه لا رأي له، وإظهاراً لموافقته وترحيبه بدعوة ألب أرسلان، فقد دعا له على منابر دمشق بعد الدعوة للسلطان، كما ضرب النقود باسمه وذلك في شهر رمضان سنة ٥٠٧ هـ/شباط ١١١٤م.

لم ينتظر ألب أرسلان وصول طغتكين بل خرج بنفسه مع المقربين إليه قاصداً دمشق، ليجتمع به ويؤكد علاقته الطيبة معه[3]. وقد وصلها في منتصف شهر رمضان سنة ٥٠٧ هـ/ ٢٤ شباط ١١١٤م. ويصف ابن القلانسي الترحيب الذي لقيه ألب أرسلان في دمشق بقوله: «فلقيه أتابك بما يجب لمثله من تعظيم مقدمه، وإجلال محله، وأدخله إلى قلعة دمشق، وأجلسه في دست عمه شمس الملك دقاق، وقام هو والخواص بخدمته، وحمل إليه ما يمكن حمله من تحف وألطاف تصلح لمثله، وكذلك لجميع من وصل بصحبته، وأقام أياماً على هذه الحال...»[4].

ترك ألب أرسلان دمشق عائداً إلى حلب وبصحبته طغتكين، وذلك في أول شوال سنة ٥٠٧ هـ/ ١١ آذار ١١١٤م. وقد طلب طغتكين من ألب أرسلان أن يهبه القائد كمشتكين فوهبه إياه بعد أن أطلق سراحه. وأثناء وجود طغتكين في حلب رأى الكثير من سوء سيرة ألب أرسلان وفساد تدبيره، كما شعر بأنه يتآمر عليه ولا يعمل بمشورته بالرغم من أنه أصبح المدبر لأموره، ووجد أنه سيكون هو المسؤول عن تصرفاته سواء أكان إنهماكه في المعاصي أو اغتصاب الحرم[5] أو القتل. لذلك آثر ترك حلب والعودة إلى دمشق، ومعه والدة رضوان التي رغبت بذلك.

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص٣٠٢. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٥٣٣.

(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص٣٠٢. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٥٣٣.

(٣) ابن القلانسي ـ المصدر السابق، ص٣٠٣، وفي ابن العديم: زبدة الحلب، ص٥٣٣، ما يشبه هذا القول.

(٤) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص٣٠٤. ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٥٠٨. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٥٣٨.

(٥) الأصفهاني: البستان الجامع، ص١١٧. الغزي: نهر الذهب، جـ٣، ص٨٣. يعشوف: تحف الأنباء، ص٥٢.

كان للؤلؤ اليايا المستولي على أمور حلب والمتسلط عليها الدور الأكبر في تأليب ألب أرسلان على طغتكين، وإجباره على العودة إلى دمشق، وبذلك تخلص من أحد منافسيه الكبار وتمكن من تحقيق أطماعه في السلطة، والإنفراد بالحكم، وبدأ أعماله التعسفية بعد مغادرة طغتكين فصادر أموال عدد من الأعيان وأعاد الوزارة إلى أبي الفضل بن الموصول وقد بدأ العمل للتخلص من ألب أرسلان خشية منه، فاتفق مع جماعة من أصحابه على الفتك به في الوقت المناسب، وعندما سنحت لهم الفرصة إنقضوا عليه، وقتلوه بقلعة حلب أثناء نومه وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٥٠٨ هـ/ آب ١١١٤م، بعد حكم دام أقل من ثلاثة أشهر. وقام لؤلؤ بتنصيب سلطانشاه أخو ألب أرسلان ملكاً على حلب وعمره ست سنوات، بينما ظل هو المدبر لأمور المملكة مع ما فيه من سوء التدبير، حتىٰ وصلت الأوضاع بحلب إلى أسوأ حال، وأصبحت مهددة بالاحتلال من قبل الفرنجة الصليبيين.

عندما شعر لؤلؤ ومقدمو العسكر بأن الأمر وصل إلى حافة الهاوية، كاتب طغتكين وغيره يستدعيهم لتسليمهم حلب لرد تعديات الفرنجة الصليبيين عنها، فلم يجد هذا الاستجداء قبولاً من أحد، لأنهم كانوا يدركون أن المعونة ستقدم لحاكم لا يستحقها، وبعد أن كان الملوك والأمراء يتقاتلون على ملك حلب قبل عدة سنوات. نراهم الآن يعرضون عنها، بسبب سوء أوضاعها الداخلية وسيطرة الفرنجة الصليبيين على أطرافها.

وأخذ لؤلؤ يتردد في تعيين الوزراء وعزلهم فقبض على الوزير ابن الموصول بالرغم من أنه هو الذي عينه في الوزارة وسيره إلى قلعة جعبر، وعين مكانه ابن السرطان الرحبي ثم طرد هذا الأخير وأهانه وأعاد ابن الموصول إلى الوزارة[١]، ولم تكن الأوضاع الاقتصادية في حلب بأحسن من الأوضاع السياسية، فأصاب البلاد جفاف أثر على محصولاتها الزراعية، وسيطر الفرنجة الصليبيون على المدن والقرىٰ المحيطة بها، وأخذوا يهددون الباقي، ونفذت الأموال من الخزينة، ولما كان الجند والموظفون بحاجة إلى المال، اضطر لؤلؤ لبيع قرىٰ كثيرة في نواحي حلب إلى الأغنياء والمتنفذين من أهلها، وأشرف على بيعها القاضي أبو غانم محمد بن هبة الله ابن أبي جرادة قاضي حلب، وصرف لؤلؤ قيمتها في مصالح القلعة والجند والبلد[٢].

إن مصادرة أموال وممتلكات ابن الموصول وابن السرطان وغيرهم، دليل قاطع على الحالة المتدهورة التي وصلت إليها حلب، كما يدل على تخبط لؤلؤ في تصرفاته، وخير مثال على هذا

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٥٣٧.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٥٣٦.

التخبط، أنه أرسل إلى السلطان محمد يعرض عليه تسليمه حلب ويطلب منه إرسال العساكر إليه وذلك سنة ٥٠٩ هـ/ ١١١٥ ـ ١١١٦م.

وكان السلطان محمد قد سيّر الجيوش بقيادة برسق لقتال إيلغازي وطغتكين[١]، ومن ثم الفرنجة الصليبيين، فلما وصله طلب لؤلؤ أوعز إلى برسق بالتوجه إلى حلب، وما إن علم لؤلؤ أن جيوش السلطان قادمة وأن قائدها برسق حتىٰ تراجع عن طلبه، وكتب إلى طغتكين في دمشق وإيلغازي ـ الذي كان يحاصر قراجة أمير حمص لتخليص ابنه إياز[٢] ـ يستصرخهما ويستنجدهما، ووعد طغتكين بتسليمه حلب مقابل عوض من أعمال دمشق، فأسرع طغتكين وإيلغازي ووصلا حلب[٣]. ويبدو أن طغتكين لبىٰ الدعوة هذه المرة لأنه وعد بتسليمه حلب، فهل كان لؤلؤ جاداً في وعده؟ ولماذا تراجع عن طلبه لجيوش السلطان، يبدو أن لؤلؤاً كان يظن أن السلطان سيرسل له معونة عسكرية ويترك له قيادتها، وأنه حين وجد أن الأمر دخل مرحلة الجد والتنفيذ واقتربت جيوش السلطان من حلب خاف على نفوذه، وأرسل مرة أخرىٰ إلى طغتكين وإيلغازي اللذين كانا على خلاف مع السلطان[٤].

وصلت جيوش السلطان إلى بالس متوجهة إلى حلب، وعند سماعها بوصول طغتكين وإيلغازي إليها سارت إلى المعرة ثم إلى حماه، فتسلمتها وتسلمت رفنية من أولاد علي الكردي[٥] صاحب حماه وسلمتها إلى خير خان بن قراجا. ثم تحركت هذه الجيوش باتجاه حلب.

أما طغتكين الذي خاف من أن تقصد جيوش السلطان دمشق، فإنه تحرك مع عسكر حلب بقيادة شمس الخواص، وإيلغازي بن أرتق إلى أنطاكية للاستنجاد بأميرها وغيره من الفرنجة الصليبيين ليساعدوهم في الدفاع عن حماه ضد جيوش السلطان، ولم يكونوا على علم بسقوطها ونزلوا جميعاً على أفامية[٦]. وكان الأولىٰ بطغتكين وإيلغازي أن يقابلا برسق وأمرائه ويتفقا على مقاتلة الصليبيين وإلحاق الهزيمة بهم، لا أن يلجأ إليهم بدافع من تغليب الأطماع الشخصية والتناقضات الثانوية على المصلحة العليا للبلاد.

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٥٠٢ ـ ٥٠٤، ويذكر أن سبب إرسال هذه الجيوش هو إنزعاجه من إيلغازي الذي خلص ابنه إياز من أسر البرسقي بعد أن انتصر عليه، كما أن طغتكين كان قد استوحش من السلطان لأنه نسب إليه قتل مودود.

(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٠٥. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٥٠٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٥٠٩. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٣٨، ولكنه لا يذكر وجود إيلغازي مع طغتكين أثناء دخوله حلب، ولكنه يذكره عندما ذهبا ومعهما شمس الخواص مقدم عسكر حلب للاستنجاد بأمير أنطاكية.

(٤) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٥٠٤.

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٣٨.

(٦) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٥١٠. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٣٨. الأصفهاني: البستان الجامع، ص ١١٧.

نزلت جيوش السلطان بأرض شيزر وأراد طغتكين تأخير الصدام مع الفرنجة الصليبيين لأن إنتصارهم على جيوش السلطان السلجوقي يعني احتلال الفرنجة الصليبيين كل بلاد الشام لعدم وجود قوة تقف بوجههم، كما أن إنتصار جيوش السلطان قد تؤدي إلى فقدانه حكمه[1]، وهكذا أخذت كل قوة تتربص بالأخرىٰ، وفي الوقت الذي تهيب فيه الفرنجة الصليبيون من مواجهة الجيوش السلطانية، ضاق أمراء ومقدمو جيوش السلطان ذرعاً، وملوا الإنتظار والمصابرة دون قتال، فتحركوا باتجاه حصن الأكراد وأشرفوا على أخذه، بينما اتفق طغتكين وحلفاؤه الفرنجة الصليبيون على عدم القتال، ورجع كل منهم إلى بلاده[2]، فعاد طغتكين إلى دمشق وعاد الفرنجة الصليبيون إلى أنطاكية وإيلغازي إلى ماردين.

وهكذا ضاعت فرصة أخرىٰ أمام الجيوش السلجوقية التي كانت وصلت بلاد الشام بمعنويات عالية وتجهيزات حسنة، إلا أن الدور المراوغ الذي قام به طغتكين للحفاظ على مصالحه وأطماعه هو الذي ضيع الفرصة، كما ضيّعها قبله رضوان عندما وصل إليه مودود على رأس القوات السلجوقية المتحالفة.

عاد عسكر حلب إثر ذلك ومقدمهم شمس الخواص إليها، فتحرك لؤلؤ بسرعة وألقىٰ القبض على شمس الخواص واعتقله، ويبدو أن اعتقاله كان بسبب خوف لؤلؤ منه، وأنه أصبح مركز ثقل في حلب، ويمكن أن يتخلص منه ويحل محله فيها.

أما جيوش السلطان فقد حاولت استعادة بعض المناطق من الفرنجة الصليبيين فتركت حصن الأكراد لمناعته، وتوجهت إلى كفر طاب فاستولت على حصنها وقتلت من فيه، ثم سارت إلى قلعة أفاميا فوجدتها حصينة منيعة فعادت عنها إلى المعرة وهي تحت سيطرة الفرنجة الصليبيين أيضاً[3]، فانتشرت هذه الجيوش في مناطقها وقراها تعيث فيها فساداً ونهباً، ووقع الخلاف والتنافر والتباغض فيما بينها. وفي هذه الأثناء وصل إلى برسق رسول من بزاعا[4]، وهي تحت سلطة أتباع شمس الخواص يستدعيهم لتسليمها ويعلمهم أن لؤلؤاً اعتقل شمس الخواص وأودعه السجن، وأن لؤلؤاً يتجسس على جيوش السلطان لحساب الفرنجة

---

(1) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٥٣٩.

(2) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٥١٠. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٥٣٩.

(3) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٥١٠. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٥٤٠.

(4) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٥٤٠.

الصليبيين[1]، وبناء على هذه المعلومات تحرك برسق قائد الجيوش وجامدار صاحب الرحبة نحو دانيث[2] صباح الثلاثاء العشرين من ربيع الآخر سنة ٥٠٩ هـ/١٣ آب ١١١٥م، لكن الصليبيين كانوا على علم بتحركاتهم ساعة بساعة، لذلك فوجئت جيوش السلطان بالفرنجة الصليبيين تتقدم نحوهم من جبل السماق وهم في غفلة من أمرهم، فلم يصمدوا أمامهم فتراجعوا عن دانيث إلى تل السلطان، وتفرق بعض العساكر السلطانية في الضياع فتعرضوا لنهب الفلاحين في أموالهم وعتادهم، ومثل ذلك غنم الفرنجة الصليبيين، ويصف ابن العديم هذه الحادثة بقوله: «واستتر قوم في الضياع من العسكر، فنبهم الفلاحون وأطلقوهم، وغنم أهل الضياع مما طرحوه وقت هزيمتهم ما يفوق الإحصاء، وأخذ الكفار من هذا ما يفوق الوصف، وغنموا من الكراع والسلاح والخيام والدواب، وأصناف الآلات والأمتعة ما لا يحصىٰ، ولم يقتل مقدم ولا مذكور وقتل من المسلمين نحو خمسمائة وأسر نحوها، وعادت العساكر إلى السلطان وبلادهم»[3].

بعد هزيمة جيوش السلطان أطلق لؤلؤ شمس الخواص من سجنه، وأعاد إليه ما كان أقطعه إياه من بزاعا وغيرها، غير أن شمس الخواص ترك حلب وتوجه إلى دمشق، فانفرد لؤلؤ بحكم حلب، ولما كانت أعماله فيها غير محمودة، أخذ يلازم القلعة ولا ينزل منها إلا في بعض الأحيان خوفاً على نفسه، لكن الخدم والجند كانوا يتربصون به، وينتظرون الفرصة المواتية للتخلص منه، وبينما هو في طريقه إلى بالس سنة ٥١٠ هـ/١١١٦ ــ ١١١٧م، ليمارس الصيد رماه الجند بالسهام فقتلوه[4]. وقد وردت لدىٰ المؤرخين عدة روايات لخروجه ومقتله، فابن القلانسي يقول: «وفيها وردت الأخبار من ناحية حلب، بقتل لؤلؤ الخادم الذي كان غلب أمره فيها، وعمل على قتل مولاه الملك أرسلان بن رضوان في ذي الحجة منها ...»[5] أما ابن الأثير فيقول: «في هذه السنة قتل لؤلؤ الخادم، وكان قد استولىٰ على قلعة حلب وأعمالها، بعد وفاة الملك رضوان وولي أتابكية ولده ألب أرسلان، فلما مات أقام بعده في

---

(١) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ٢، ص ٥٤٠.

(٢) دانيث: بلد من أعمال حلب بين حلب وكفر طاب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٢، ص ٤٣٤.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ٥٤١. الذهبي: العبر، جـ٤، ص ١٦، ويورد ما يشبه نص ابن العديم.

(٤) الأصفهاني: البستان الجامع، ص ١١٧، ويقول قتله سنقر وملك بعده ابن الملحي حلب أياماً. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ــ القسم الأول، جـ٨، ص ٦٣. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ٥٤٢. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ٢، ص ٢٣٠. الذهبي: العبر، جـ٤، ص ١٦. اليافعي اليمني المكي: مرآة الجنان، جـ٣، ص ١٩٤. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص ١٨٠. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ٥، ص ٢١١. الغزي: نهر الذهب، جـ٣، ص ٨٣. يعقوب: تحف الأنباء، ص ٥٢.

(٥) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣١٥.

الملك سلطانشاه، وحكم في دولته أكثر من حكمه في دولة أخيه ... فلما كان عند قلعة نادر نزل يريق الماء، فقصده جماعة من أصحابه الأتراك، وصاحوا أرنب، أرنب! وأوهموا أنهم يتصيدون، ورموه بالنشاب فقتل»[1]، وفي تاريخ العظيمي: «خرج لؤلؤ الخادم لزيارة صفين فقتلته الوساقية عند قلعة نادر»[2]، ويقول ابن العديم في روايته: «وقيل إن لؤلؤاً قد خاف على نفسه فأخذ أمواله وخرج طالباً بلاد الشرق للنجاة بأمواله فلما وصل إلى قلعة نادر قال: سنقر الجكرمشي: تتركونه يقتل تاج الدولة، ويأخذ الأموال ويمضي! وصاح بالتركية: أرنب أرنب فضربوه بالسهام فقتلوه»[3].

يبدو أن ابن العديم ينفرد برواية محاولة لؤلؤ الهرب، وهي أقرب الروايات للواقع الذي عاشه، وتتوافق مع الأوضاع السياسية والاقتصادية القلقة التي كانت تعيشها حلب في تلك الأوقات العصيبة من تاريخها حيث الاغتيال والتآمر والقتل والنهب والسلب وكان ابن العديم دقيقاً في وصفه لهذه الأحداث، وإشارته إلى أن جنود حلب كانوا لا يؤيدون لؤلؤاً منذ توليه الحكم وكانوا بانتظار الفرصة السانحة للتخلص منه.

عندما خرج لؤلؤ من حلب بقيت القلعة تحت أمرة آمنة خاتون ابنة رضوان لمدة يومين، فأسرع أحد القواد وهو ياروقتاش[4] كان خادماً للملك رضوان، فدخل حلب ونزل القصر وألقى القبض على بعض من قتل لؤلؤ، وكانوا قد عادوا إليها، بينما كان بعضهم الآخر قد وصل إلى الرحبة، وأعلموا آق البرسقي* بمقتل لؤلؤ، فأسرع في المسير إلى حلب للاستيلاء عليها إلا أن ياروقتاش كان قد سبقه إليها.

وصل آق سنقر البرسقي ومن معه إلى بالس في أول محرم سنة ٥١١هـ/٥ أيار ١١١٧م[5]. وعندما علم ياروقتاش بما عزم عليه البرسقي خاف منه، فأرسل إلى نجم الدين إيلغازي بن أرتق يستدعيه من ماردين ليقف بوجه البرسقي، كما كاتب روجار الصليبي

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٣٥١، ويقول إن قتله كان سنة ٥١١هـ.

(٢) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥م، ص ٣١٧.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٤٢.

(٤) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣١٦، ويسمي ياروقتاش: «الأصفهسلا ياروقتاش الخادم متولي أصفهسلارية حلب». ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٥٣١، يقول عن ياروقتاش «شمس الخواص ياروقتاش». أبي الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٢، ص ٢٣٠. الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ٨٤، ويسميه شمس الدين الخواجي ياروقتاش. يعقوب: تحف الأنباء، ص ٥٢.

(٥) العظيمي: تاريخه، ص ٣٦٨. ابن القلانسي ـ المصدر السابق، ص ٣١٦. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٤٢.

* أبو سعيد آق سنقر البرسقي الغازي، الملقب قسيم الدولة سيف الدين، صاحب الموصل والرحبة وتلك النواحي، ملكها بعد مودود، ودفع الفرنج عن حلب وقد ضايقوها بالحصار ثم عاد إلى الموصل وأقام بها إلى أن قتل بجامع الموصل يوم الجمعة التاسع من ذي القعدة سنة ٥٢٠هـ. ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ١، ص ٢٤٢.

مغتصب أنطاكية والذي وصل إلى قرىٰ حلب الشرقية واحتلها، وهكذا أحاط الصليبيون بحلب وانتزعوا منها كل ما حولها، ولم يكتفِ ياروقتاش بذلك بل هادن روجار وحمل إليه مالاً يقويه به، وسلمه حصن القبة، وحين علم البرسقي بما أقدم عليه ياروقتاش تخلىٰ عن مشروعه بدخول حلب وعاد إلى الموصل[1]، أما الملك سلطانشاه فكان قابعاً في قصره لا يدري شيئاً عمّا يحدث في مملكته.

صعد ياروقتاش إلى قلعة حلب، وعزم على القيام بمؤامرة للتخلص من مقدمي الجيش لينفرد بحكم حلب كما فعل قبله لؤلؤ، فدعاهم إلى وليمة في القلعة، إلا أن المقدمين أحسوا بما يبيته لهم ياروقتاش فقبضوا عليه بأمر من بنات رضوان بعد شهر واحد من ولايته[2] وأخرجوه من حلب، وسلموا القلعة إلى خادم من خدم رضوان، وكانت هذه هي المرة الأولىٰ التي تتدخل النساء في حلب بأمور السياسة منذ أن خرجت السيدة والدة الأمير محمود المرداسي إلى السلطان السلجوقي ألب أرسلان سنة ٤٦٣ هـ/ ١٠٧٠ ــ ١٠٧١م.

بعد إخراج ياروقتاش من حلب. أصدر الملك سلطانشاه أمراً بتعيين أبي المعالي المحسن بن الملحي مقدماً لعسكر حلب[3]، ومدبراً لأمورها، فدبر الأمور وساسها، وقد وصلت حلب في هذه الفترة إلى أضعف ما وصلت إليه من زعامة ورياسة بين الدول حتىٰ الآن وخربت مناطقها وقلت وارداتها.

كان إيلغازي قد تحرك من ماردين في المحرم من سنة ٥١١ هـ/أيار ١١١٧م، بناء على الدعوة التي كان قد وجهها له ياروقتاش، فوصلها على رأس جيشه في نفس الشهر، وتمكن من تسلم حلب، إلا أنه لم يجد فيها مالاً ولا ذخيرة، فاضطر إلى مصادرة أموال وممتلكات بعض الحاشية (الخدم)، وعندما وجد أنه غير قادر على مواجهة الصليبيين هادنهم لمدة قصيرة، ثم ترك حلب في أواخر شهر صفر سنة ٥١١ هـ/أوائل تموز ١١١٧م. عائداً إلى

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣١٦. العظيمي: تاريخه، ص ٣٦٨. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٤٢. ابن العبري: تاريخ الزمان، ص ١٣٧.

(٢) العظيمي: تاريخه، ص ٣٦٧، يقول: «وتسلم أتابكية حلب ياروقتاش الخادم شهراً وعزل». ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٤٣. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ٢، ص ٢٣٠. يعقوب: تحف الأنباء، ص ٥٢.

(٣) العظيمي: تاريخه، ص ٣٦٧، ويقول: «وولي الأتابكية أبو المعالي بن الملحي السلمي الدمشقي». ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣١٦، ويقول: «... إلى الأمير أبي المعالي المحسن بن الملحمي العارض الدمشقي». ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٥٣١، ويقول: «... وولي بعده أبو المعالي الملحي الدمشقي». ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٤٣. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٢، ص ٢٣٠. الغزي: نهر الذهب، جـ٣، ص ٨٤، ويسميه أبو المعالي ابن القلمي الدمشقي ويبدو أنه تصحيف عن الملحي.

ماردين، وقد ترك فيها ابنه حسام الدين تمرتاش نائباً عنه[1] ليعود إليها مرة أخرى ومعه الجيوش الكافية لمقاتلة الصليبيين وإيقاف مدهم، ولتبدأ مرحلة جديدة من حكم حلب على رأسها أبناء أرتق.



(١) العظيمي: تاريخه، ص ٣٦٨. ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣١٧. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٥٣٢. الأصفهاني: البستان الجامع، ص ١١٨. الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ٨٤. يعشوك: تحف الأنباء، ص ٥٢.

الفصل الرابع

إمارة حلب في عهد الأراتقة

١ ـ ولاية إيلغازي في حلب وموقفه من الصليبيين :

ـ موقعة ساحة الدم .

ـ سليمان بن إيلغازي في حلب .

ـ عصيان سليمان على أبيه .

ـ مرض إيلغازي ووفاته .

٢ ـ حلب في عهد سليمان بن عبد الجبار بن أرتق (بدر الدولة) .

٣ ـ الأمير بلك بن بهرام في حلب وموقفه من الصليبيين :

ـ بلك وحسان بن كمشتكين أمير منبج .

ـ مقتل بلك بن بهرام .

٤ ـ حسام الدين تمرتاش في حلب وموقفه من الصليبيين :

ـ صلح تمرتاش مع الصليبيين .

ـ حصار حلب وموقف الحلبيين من الحصار .

٥ ــ آق سنقر البرسقي في حلب وموقفه من الصليبيين :

ــ أعمال البرسقي في حلب .

ــ مقتل البرسقي .

ــ عز الدين مسعود البرسقي في حلب .

ــ حلب بعد وفاة عز الدين مسعود البرسقي حتىٰ وصول عماد الدين زنكي إليها .

١ ــ ولاية إيلغازي في حلب وموقفه من الصليبيين :

وصلت حلب إلى درجة كبيرة من الضعف والتفتت بعد وفاة الملك رضوان سنة ٥٠٧ هـ/ ١١١٢ ــ ١١١٣ م، إذ تعاقب على الحكم بعده أبناؤه الضعفاء الذين تحكم بهم أوصياؤهم وخدامهم من التركان، فقد كان لؤلؤ المدبر لأمور ولدي رضوان ألب أرسلان الأخرس وأخيه سلطانشاه الحاكم الفعلي لحلب، ولكنه ما لبث أن قتل سنة ٥١١ هـ/ ١١١٧ ــ ١١١٨ م، واستولىٰ على مقاليد السلطة فيها ياروقتاش[١]، والذي رأىٰ بثاقب بصره أن الأمور لن تستقر في حلب إلا إذا استدعىٰ من قبله حاكماً من خارجها ليكون له درءاً، ولذلك أرسل يستدعي نجم الدين إيلغازي إليها ليدفع عنها آق سنقر البرسقي[٢]، وفي الوقت نفسه كاتب روجر حاكم أنطاكية الصليبي وهادنه، ولم يكتفِ بذلك بل قدم له المال وسلمه حصن القبة على الرغم من أنه احتل قرىٰ حلب الشرقية، وكان يأمل أن يحميه روجر من أعدائه التركان، لكنه نسي أن الفرنجة الصليبيين هم العدو الأول له ولحلب وللتركان. وفي الداخل قام ياروقتاش بتدبير مؤامرة للتخلص من مقدمي عسكر حلب، لكن المقدمين اكتشفوا المؤامرة وقبضوا عليه، وقام مقامه بتدبير أمور حلب العميد أبي المعالي المحسن بن الملحي[٣].

لم يكن هدف ياروقتاش من مراسلة إيلغازي مصلحة المملكة، لأن أعماله كلها تشير إلى أنه كان يريد ضرب قوات إيلغازي بقوات البرسقي ليضعفا معاً ولا يتمكنا من السيطرة على حلب، وبالمقابل فإن الهدنة التي عقدها مع روجر تبعد هذا الأخير عنها، وكذلك يكون قد تخلص من المقدمين في الداخل، فيصفو له الجو ويصبح الحاكم المطلق لحلب دون أن يتهددها أي خطر خارجي أو داخلي كما يعتقد، لكن الأحداث كانت أسرع من خططه حيث أخفق في تآمره وتخطيطه وأبعد بسبب ذلك عن حلب.

---

(١) ياروقتاش: أحد قواد رضوان، تولىٰ أصفهسلارية حلب بعد وفاة رضوان، ثم تولىٰ تدبير أمور حلب بعد مقتل لؤلؤ اليايا. ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص٣١٦. انظر أيضاً الفصل السابق، صفحة ـ ٢١١.

(٢) انظر الفصل السابق، صفحة ٢١٠. كان قد وصل عدد من قتلة لؤلؤ إلى البرسقي في الرحبة ليعلموه بمقتل لؤلؤ، وقد أسرع البرسقي إلى حلب للاستيلاء عليها إلا أن ياروقتاش سبقه إليها.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص٥٤٣، ويقول: «وورد أمر من سلطانشاه بتدبير الأمور وتقدمة العسكر إلى عارض الجيش العميد أبي الحسن بن الملحي، فدبر الأمور وساسها، وضعفت حلب وقل ارتفاعها، وخربت أعمالها».

في هذه الأثناء تحرك البرسقي مع طغتكين إلى حلب وطلبا تسليمها لهما فرفض أهلها وقالوا: «ما نريد أحداً من الشرق»[1]، وأرسلوا يستنجدون بروجر لرد البرسقي وطغتكين عن المدينة، ولعل رفض أهل حلب كان بسبب ما عانوه من الحكام السلاجقة الذين أنهكتهم صراعاتهم الداخلية وعدم قدرتهم على رد الفرنجة الصليبيين عنها، وعندما علم البرسقي وطغتكين بما قام به أهل حلب آثرا التخلي عن مشروعهما والعودة إلى بلديهما حتىٰ لا يعطيان الفرصة للفرنجة الصليبيين بدخول حلب والتمكن منها، فعاد البرسقي إلى الرحبة، وطغتكين إلى دمشق.

وفي هذه الأثناء وصل إيلغازي بن أرتق إلى حلب بناء على طلب ياروقتاش وذلك سنة ٥١١ هـ/ ١١١٧ ــ ١١١٨ م، وتولىٰ مقاليد الأمور فيها فوجد خزائنها خالية من الأموال فلم يجد بداً من الاستعانة بأموال الأغنياء فقبض على أبي المعالي المحسن بن الملحي وصادر أمواله، وأموال عدد آخر من المتنفذين، كما فرض سيطرته على بالس والقليعة، ثم عقد هدنة مع الفرنجة الصليبيين مقابل مبلغ من المال تتيح له فرصة التوجه إلى ماردين كي يحشد قوات جديدة فلما تم له ذلك غادر أراضي مملكة حلب بعد أن استخلف فيها ابنه تمرتاش[2]. فقام الجند الذين كانوا في بالس[3] بالشغب والإفساد والعصيان في قرىٰ حلب ومناطقها، وخرجوا عن سلطة إيلغازي ووصل بهم الأمر إلى حد استدعاء الفرنجة الصليبيين ليسهموا معهم في النهب والشغب والتخريب وليتسلموا بالس من حاميتها التركانية، فلما سمع إيلغازي بذلك عاد على رأس قوة من جنده إلى بالس، فانسحب الفرنجة الصليبيون ومن فيها من التركمان الخارجين على سلطة إيلغازي. ولم يغادرها إلا بعد أن باعها لابن مالك العقيلي، ثم تابع طريقه إلى ماردين، وقد قام بذلك لئلا تقع لقمة سائغة بيد الفرنجة الصليبيين لعدم وجود من يدافع عنها.

عاد الفرنجة الصليبيون إلى عادتهم في الإغارة على قرىٰ حلب فنهبوها وعاثوا فيها فساداً وتخريباً ولما كان إيلغازي في ماردين أرسل أهل حلب إلى طغتكين يستنجدونه، فوعدهم

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٤٤.

(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢١٧، ويقول: «وفسد عليه ما أرادوه فخرج منها وبقي ولده حسام الدين تمرتاش». العظيمي: تاريخه، ص ٣٦٩، ويقول: «فخرج منها ورهن ولده تمرتاش». ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٥٣٢، ويقول: «واستخلف بحلب ابنه حسام الدين تمرتاش». سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ ٨، القسم الأول، ص ٦٩، ويقول: «فخرج منها وبقي ولده تمرتاش حسام الدين فيها». ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٤٤، ويقول: «وعاد إلى ماردين بينما بقي ابنه تمرتاش رهينة في حلب». عبد الكريم غرايبة: العرب والأتراك، ص ٢٢٨.

(٣) يبدو أن إيلغازي كان لا يزال في الطريق ولم يقطع الفرات بعد.

خيراً، وتحرك فوراً إليها، إلا أن القوات الفرنجية الصليبية بقيادة جوسلين تصدت له، وأرغمته على التراجع، فلما علم أهل حلب ما حل بطغتكين، استنجدوا بأمير الموصل (جيوش بك) لكنه لم ينجدهم، فطلبوا المعونة من ابن قراجا أمير حمص الذي وعدهم بالنجدة وقدم إليهم، ولكنه ما لبث أن عاد إلى حمص، خوفاً من إنتقام إيلغازي أولاً، وتحسباً من هجوم يقوم به طغتكين على حمص[1] ثانياً، وعدم قدرته على مجابهة الفرنجة، ثالثاً.

وهنا تطرح تساؤلات كثيرة لماذا رفض أهل حلب طغتكين أولاً ثم استدعوه؟ ولماذا هزم الفرنجة الصليبيون طغتكين؟ من كان يقود حلب في تلك الفترة؟ ومن الذي كان يطلب المعونات؟.

يبدو أنَّ أهل حلب كانوا مطمئنين إلى أن الفرنجة الصليبيين لن يهاجموا مدينتهم والمناطق التابعة لها بعد الاتفاقات التي عقدوها مع ياروقتاش وإيلغازي، لكن أهل حلب فوجئوا بنقض الفرنجة الصليبيين الهدنة مما اضطر أهل حلب للاستنجاد بطغتكين مع أنهم، الذين كانوا قد عارضوا دخوله إلى حلب سابقاً، وكان سبب استنجادهم بقوىٰ خارجية أنه لم يكن لدىٰ تمرتاش بن إيلغازي القوة الكافية لرد العدوان أو القبض على زمام الأمور بحلب، بينما كان سلطانشاه بن رضوان ومقدمي العسكر وأبناء البلد هم الذين يقودون حلب ويدبرون الأمور فيها ويطلبون المعونات من القوىٰ المحيطة، وليس تمرتاش الذي تقول بعض الروايات إن إيلغازي تركه رهينة في حلب[2].

بعد أن هزم الفرنجة الصليبيون طغتكين وردوه عن حلب أغاروا على اعزاز، وكادت تقع بأيديهم، وتخوف أهل حلب من هذا الحصار كثيراً لأن اعزاز ومنطقتها كانت المنفذ الوحيد الباقي لهم، والذي تصل المؤن عبره إليهم، لأن أغلب مناطق حلب الجنوبية والغربية وجزء من المناطق الشرقية كانت بأيدي الفرنجة الصليبيين، بينما القسم الأكبر من المناطق الشرقية كان مخرباً ومجدباً[3] بسبب كثرة مرور الجيوش عليها وقلة الأمطار فيها لقربها من الصحراء.

عندما وصلت الأمور بحلب إلى هذه الحالة، ويئس أهلها من نجدة عدد من الأمراء والملوك التركمان استقر رأيهم على إرسال وفد من الأعيان والمقدمين للطلب من إيلغازي الإسراع في العودة إلى حلب وقدموا له الوعود بأن يجمعوا الأموال من أهلها ليصرفها على قواته.

---

(١) العظيمي: تاريخه، ص٣٦٩. ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ٢، ص٥٤٤.

(٢) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ٢، ص٤٤٨.

(٣) عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص٢٣٨.

لبىٰ إيلغازي الدعوة ووصل إلى حلب مع عدد قليل من الجند، لكنه فوجىء بوجود فئة منعته من دخول المدينة، فلما وجد أن أبواب حلب قد أغلقت في وجهه قرر العودة إلى ماردين لكن القاضي أبا الفضل بن الخشاب ــ وكان هو المرجوع إليه في أمور حلب وحفظ المدينة في ذلك الوقت ــ وعدد من قادة الجيش لحقوا به وألحوا عليه بالعودة حتىٰ أقنعوه[1] «ونادىٰ الناس بشعاره»[2].

يبدو أنه كان لي حلب في ذلك الوقت أكثر من سلطة وأكثر من متنفذ، فأناس يمنعون إيلغازي من دخول حلب، وآخرون يلحون عليه بالعودة، ولعل أنصار الملك رضوان وأبناءه كانوا يقفون ضد دخوله إلىٰ حلب حتىٰ لا يقضي على ما تبقىٰ لهم من أمل في استعادة ملكهم وهذا ما أكدته إجراءات إيلغازي بعد دخوله، لكن غالبية أهل حلب ومنهم آل الخشاب وعدد من المقدمين مهدوا الأمور لدخوله لأنهم يريدون شخصاً قوياً قادراً على حمايتهم من الفرنجة الصليبيين.

دخل إيلغازي حلب وتسلم قلعتها، وبدأ بسلسلة من الإجراءات منها: أنه أخرج من حلب سلطانشاه بن رضوان، وبناته وأصحابه والجند الموالين له وفرض عليهم الإقامة الجبرية ثم ألقىٰ القبض على كثيرٍ من المتحكمين والمتنفذين، والذين أساؤوا إلى حلب ونهبوا أموالها، واستأثروا بتركات رضوان المادية والمعنوية، وكذلك أموال من استولىٰ على حلب من بعد رضوان أمثال لؤلؤ وياروقتاش، ويبدو أنَّ إيلغازي كان يهدف من إجراءاته تحقيق عدة أمور منها:

١ ــ تأمين سيطرته على حلب ودب الرعب والخوف في نفوس أهلها، ليخضعوا له، وخاصة المتنفذين والذين تضررت مصالحهم من دخوله.

٢ ــ القضاء نهائياً على خصومه ومنافسيه من حكام حلب السابقين من بيت رضوان بن تتش.

٣ ــ جمع الأموال التي تمكنه من تأمين الصرف على قواته التي سيجابه بها الفرنجة الصليبيين.

٤ ــ إشعار الفرنجة الصليبيين والملوك والأمراء الأعداء والأصدقاء أنه هو صاحب الكلمة الأولىٰ والأخيرة في حلب، وهو ما أخذوا يحسبون حسابه فعلاً.

وبعد أن استقر الأمر في حلب لإيلغازي أخذ يعمل على إبعاد الفرنجة الصليبيين عنها، وبدأ بمفاوضتهم في الرحيل عن اعزاز مقابل مبلغ من المال فلم يقبلوا منه لشعورهم بضعف القوىٰ

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ٥٥٠.

(٢) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥م، ص ٣٦٩.

المحيطة، وعلى حد تعبير ابن العديم «لقوة أطماعهم في أمر الإسلام ... وكان إيلغازي يعجز عن قوت الدواب وحلب على حد التلف»[1] فلما عرف أهل اعزاز ما آلت إليه المفاوضات، وتعنت الفرنجة الصليبيين في موقفهم، وضعف إيلغازي عن حمايتها، وافقوا على تسليمها للفرنجة الصليبيين وذلك في شهر رمضان من سنة ٥١٢ هـ[2]/ كانون أول ـ كانون ثاني ١١١٨ ـ ١١١٩م بعد أن عقدوا معهم هدنة كانت شروط الفرنجة الصليبيين فيها قاسية ومهينة لأنهم كانوا يفاوضون من موقع القوة، وهذه الشروط أوردها ابن العديم[3] وهي:

١ ـ تسليمهم تل هراق.

٢ ـ تأدية المبلغ المفروض على حلب منذ أربعة أشهر، وذلك عندما هادنهم إيلغازي قبل رحيله إلى ماردين[4].

٣ ـ التنازل عن المناطق الشمالية والغربية المحيطة بحلب[5]، وقد أجاب أهل اعزاز إلى مطالب الفرنجة الصليبيين خوفاً على أنفسهم.

في هذه الأثناء كانت دمشق أيضاً تتعرض لهجمات الفرنجة الصليبيين، ولذلك راسل طغتكين إيلغازي ليساعده في ردهم عنها، وقد وصل إيلغازي فعلاً إلى دمشق سنة ٥١٢ هـ[6]/ ١١١٨ ـ ١١١٩م، واجتمع بطغتكين فاتفقا وتعاهدا على اللقاء في صفر من سنة ٥١٣ هـ/أيار ـ حزيران ١١١٩م لمقاتلة الفرنجة الصليبيين المحيطين بحلب ووضع حد لتعدياتهم وغطرستهم بعد أن يحشد كل منهما قواته.

وقد أورد المؤرخون عدة روايات حول اجتماع إيلغازي بطغتكين، فابن القلانسي وسبط بن الجوزي يقولان: إن إيلغازي وصل إلى دمشق واجتمع بحليفه طغتكين فيها[7]، أما ابن العديم فإنه يذكر أن اللقاء بين الحليفين كان في قلعة دوسر حيث شَخِصَ إليها طغتكين ليجتمع بإيلغازي وهو في طريقه إلى الشرق[8]، ويبدو أن روايتي ابن القلانسي وسبط بن الجوزي أكثر

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ٢، ص ٥٥٠.

(٢) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥م، ص ٣٦٩.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ٢، ص ٥٥٠.

(٤) انظر فيما سبق صفحة ـ ٢١٦ ـ

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ٥٥٠، ونصه يقول: «ويكون لهم من حلب شمالاً وغرباً»، ولا يذكر ما المقصود بشمالاً وغرباً، ويبدو أن المقصود منها هي زردنا والأثارب والبلاط وحصن الدير وتل أغدي ومرج دابق وأرتاح.

(٦) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣١٨.

(٧) ابن القلانسي ـ المصدر السابق، ص ٣١٨. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ـ القسم الأول، جـ٨، ص ٧٣.

(٨) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ٥٥٠، لكنه يخطئ إذ يقول: «وتوجه إيلغازي إلى ماردين ومعه أتابك ...» لأن أتابك طغتكين عاد إلى دمشق.

انسجاماً مع الأحداث القادمة من رواية ابن العديم.

عاد الحليفان من دمشق إلى حلب ليشرفا على عملية مراسلة الأمراء وحشد التركمان، وفي هذه الأثناء وصلت الأخبار بأن الفرنجة الصليبيين هاجموا حوران فتقرر أن يعود طغتكين إلى دمشق لحماية بلاده، وأن يغادر إيلغازي إلى ماردين ليجمع العساكر، وقد غادر حلب في العشر الأول من رمضان سنة ٥١٢ هـ(١)/ الموافق العشر الأخير من كانون الأول ١١١٨ م.

• موقعة ساحة الدم:

جمع إيلغازي بعد ذهابه إلى ماردين أكثر من أربعين ألف مقاتل سنة ٥١٣ هـ(٢)/ ١١١٩ ــ ١١٢٠ م، وعبر الفرات وبصحبته أسامة بن مبارك بن شبل الكلابي والأمير طغان ابن أرسلان بن المكر صاحب بدليس وارزن(٣)، وقد انتشرت هذه القوات في تل باشر ثم تقدمت إلى تل خالد والمناطق الشرقية من حلب، وأخذت تقوم بهجمات متعددة على مواقع الفرنجة الصليبيين كانت نتائجها كسب الكثير من الأموال والمواد العينية، وفي هذه الأثناء استقبل إيلغازي وفداً حلبياً يستحثه الاستعجال في الوصول إلى حلب لأن القوات الفرنجية الصليبية تضغط على المناطق الغربية من جهة الأثارب حتىٰ استولىٰ اليأس على أهلها.

أعطىٰ إيلغازي الأوامر لقواته بالتقدم إلى المناطق المحيطة بحلب شرقاً بدءاً من مرج دابق حتىٰ قنسرين مروراً بالمسلمية، وذلك أواخر صفر سنة ٥١٣ هـ/ النصف الأول من حزيران ١١١٩ م، وقد اتخذ إيلغازي من قنسرين قاعدة لشن هجماته على حارم وجبل السماق(٤)، وقرىٰ أنطاكية، بينما تمركزت القوات الفرنجية الصليبية عند أرتاح وجسر الحديد، وقد ثقلت وطأة هجمات إيلغازي على إمارة أنطاكية مما دفع بأميرها الفرنجي الصليبي إلى الاستنجاد بالأمراء الفرنجة الصليبيين في الرها وطرابلس وبملك بيت المقدس، فلبوا النداء.

أراد روجر قائد صليبي أنطاكية أن يعسكر في موقع حصين، فتحرك على رأس قواته قبل أن تصل إليه النجدات وتمركز في تل عفرين، وذلك يوم الجمعة التاسع من ربيع الأول سنة ٥١٣ هـ/ ٢١ حزيران ١١١٩ م، وهذا الموقع الذي اختاره ليس له إلا طريق واحدة ضيقة تصل إليه، ومن الصعب على قوات إيلغازي اختراقه(٥).

---

(١) ابن القلانسي ــ المصدر السابق ونفس الصفحة. سبط ابن الجوزي ــ المصدر السابق ونفس القسم والجزء والصفحة، ولكنه وابن الأثير لا يذكر الشهر. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٥٤٤.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٥٠. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٥٥٤، ويجعل العدد عشرين ألفاً.

(٣) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ٥٥٤. سيد علي الحريري: الأخبار السنية، ص ٥٦.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٥٢. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٢٤٢.

(٥) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٥٢.

أخذ روجر قائد الفرنجة الصليبيين يماطل في هجومه ريثما تصل إليه النجدات التي طلبها من الرها وطرابلس وبيت المقدس، وقد أرسل إلى إيلغازي رسالة يقول فيها: «لا تتعب نفسك بالمسير إلينا، فنحن واصلون إليك»[1]، وقد أراد القائد الفرنجي الصليبي إظهار قوته وإقدامه وعدم خوفه من إيلغازي، وليكون موقعه أكثر حصانة أخذ ببناء حصن مطل على تل عفرين لمراقبة تحركات إيلغازي في الوقت نفسه الذي عمل فيه على بث الحماس في نفوس مقاتليه[2].

وبالمقابل فإن إيلغازي كان ينتظر حليفه طغتكين ليتقوىٰ به ويتفق معه على خطط القتال. كانت فترة الانتظار فترة حرجة للطرفين، حتىٰ أن الأمراء والمقدمين الذين كانوا برفقة إيلغازي ملوا الانتظار، وأخذوا يمارسون الضغط عليه ليسرع بمهاجمة العدو، فوافق على طلبهم بعد أن حلفوا له مجدداً بنفوس طيبة على أن يقاتلوا العدو ويصبروا على مناجزته وأن لا يتخلوا عن القتال، ويبذلوا الأرواح في الجهاد[3]، وقد بدأ تحركه بسرية تامة حتىٰ أن أعداءه لم يتمكنوا من معرفة مكان معسكره تماماً. وجرىٰ تحرك قواته السري كتيبة إثر كتيبة مخلفين خيامهم في قنسرين، وذلك يوم الجمعة ١٦ ربيع الأول سنة ٥١٣ هـ/٢٨ حزيران ١١١٩ م، واتخذوا مكانهم قريباً من الفرنجة الصليبيين، ولم ينسَ مع ذلك أن يعمل على إثارة الحماسة في نفوس قواته فطلب من أبي الفضل الخشاب أن يحرض الجند على القتال، فتقدم الصفوف وألقىٰ على العساكر خطبة حماسية بليغة استنهض فيها العزائم والهمم فأبكىٰ الناس وعظم في أعينهم[4].

كما عمل العظيمي قصيدة حماسية يحث فيها إيلغازي على لقاء الفرنجة الصليبيين يقول فيها:

ألا أبلغ طغاة الشرك أنك آخذ ... بثاراتنـــا منهم عليها فرائـــد
وأنهم لم ينــــج منهم مخبر ... بحيث أحاطتهم لديك المصائد[5]

يبدو أنَّ المعركة كانت هامة بالنسبة للطرفين، وذلك واضح من السرية التامة التي كانت مفروضة على تحركات القوات، حتىٰ أن الفرنجة الصليبيين عجزوا عن معرفة أماكن تمركز

ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٥٥٤. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٥٢، ويقول: إن تل عفرين قريب من موقع البلاط الذي يقع بين جبلين ما يلي سرمدا شمالي الأثارب. ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣١٩، ويقول: نزلوا في الموضع المعروف بسرمدا وقيل دانيث البقل بين أنطاكية وحلب.

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٥٥٤. سيد علي الحريري: الأخبار السنية، ص ٥٦، ويأتي بنفس العبارة التي وردت عند ابن الأثير ويبدو أنه ينقل عنه حرفياً.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٥٢.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٥٢.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٥٢.

(٥) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥ م، ص ٣٦٩.

القوات التركمانية إضافة لاهتمام الطرفين وحثهم العساكر على القتال بالخطب الحماسية والمواعظ.

وما إن أشرقت شمس يوم السبت السابع عشر من ربيع الأول سنة ٥١٣ هـ/ ٢٩ حزيران ١١١٩م، حتىٰ فوجيء الفرنجة الصليبيون بجيوش إيلغازي وقد أحاطت بهم من كل جانب(*)، وبدأ الهجوم ظهر السبت حين نزل طغان أرسلان أمير أرزن خلف معسكر العدو، فهاجم خيامهم ونهبها وقتل من فيها، بينما زحفت القوات التركمانية من الجهات الأخرىٰ، فأذهلت المفاجأة الفرنجة الصليبيين وأربكت صفوفهم واختلت تنظيماتهم، فتفرقوا مذعورين لا يلوون على شيء، فقتل كل من إنهزم عائداً إلى معسكره[1]، ويصف ابن العديم هجوم التركمان بقوله: «وحمل الترك بأسرهم حملة واحدة من جميع الجهات، وكانت السهام كالجراد، ولكثرة ما دفع في الخيل والسواد من السهام عادت الخيل منهزمة، وغلبت فرسانها، وطحنت الرجالة والأتباع والغلمان بالسهام»[2]، وكانت نتائج المعركة بالنسبة للفرنجة الصليبيين: قتل قائد القوات الفرنجية الصليبية روجر، ومقتل ما يقارب من خمسة عشر ألفاً، وأسر غالبية من نجا منهم، ولم يعد إلى أنطاكية على ما يقال سوىٰ عشرين نفراً. أما خسائر العرب المسلمين فكانت عشرين نفراً بينهم سليمان بن مبارك بن شبل[3].

اشتهرت هذه المعركة لدىٰ مؤرخي الحروب الصليبية بمعركة ساحة الدم[4]، وقد وقع بأيدي الجند التركمان من الغنائم الشيء الكثير، ونزل القائد المنتصر إيلغازي في مقر روجر الصليبي، وحمل إليه العسكر ماغنموه فلم يأخذ منه إلا بعض الأسلحة التي أهداها لملوك العرب المسلمين[5].

اهتبل التركمان فرصة انتصارهم في المعركة فاجتاحوا بعدها مباشرة أراضي أنطاكية

(*) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٥٢. ابن أبي الدم: تاريخه ــ مخطوط، ص ١٤٤. حسن شميساني: مدينة ماردين، ص ١٦٤.

(١) يعشوف: تحف الأنباء، ص ٥٤. سيد علي الحريري: الأخبار السنية، ص ٥٦. حسن شميساني ــ المرجع السابق، ص ١٦٤.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٥٣.

(٣) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٢٠. العظيمي: تاريخه، ص ٣٧٠. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٥٥٥. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ ٨، القسم الأول، ص ٧٩. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٢، ص ١٨٤، ويقول: «وفيها سارت الفرنج إلى مدينة حلب ففتحوها عنوة وملكوها»، وهو غير صحيح لأن حلب لم يدخلها الصليبيون، ولم يملكوها طيلة وجودهم في بلاد الشام. الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ٨٤. يعشوف: تحف الأنباء، ص ٥٤. أحمد مختار باشا: التوفيقات الإلهامية، ص ٥٤٥. ر. س. سميل: الحروب الصليبية، ترجمة: سامي هاشم، بيروت ١٩٨٢م. ر. س. سميل: فن الحرب عند الصليبيين، في القرن الثاني عشر (١٠٩٧ ــ ١١٩٣م)، دمشق ١٩٨٥، ص ٦٣.

(٤) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٥٠٦.

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٥٤.

وضواحيها كالسويدية وغيرها، فقتلوا وأسروا ودمروا ونهبوا وجمعوا من ذلك ما يفوق الإحصاء «ولم يبقَ أحد من الترك إلا وامتلأ صدره ويداه بالغنائم والسبي»[*]. وكانت الفرحة بالنصر عظيمة في حلب وبغداد، وقد نظم الشعراء القصائد في مدح إيلغازي ومنهم العظيمي المؤرخ الذي قال:

قل ما تشاء فقولك المقبول ... وعليك بعد الخالق التعويل

واستبشر القرآن حين نصرته ... وبكى لفقد رجاله الإنجيل

كما أرسل إليه الخليفة المسترشد بالله العباسي الخلع، وشكره على قتاله الفرنجة الصليبيين[1]. ويمكن تعليل انتصار التركمان في هذه المعركة بالعوامل التالية:

١ ـ القيادة الحكيمة لإيلغازي وحسن تنظيمه للقوات التركمانية.

٢ ـ السرية التامة التي أحاطت بتحركات القوات التركمانية.

٣ ـ المفاجأة في الهجوم التي أذهلت العدو وأربكت صفوفه.

كانت معركة ساحة الدم من أهم المعارك التي خاضها الأراتقة ضد الصليبيين حتى عصرها، وكانت نتائجها على الطرفين عظيمة لأنه على ضوء هذه النتائج تقرر مصير حلب وشمال بلاد الشام، وهذه النتائج هي:

١ ـ ابتعاد الخطر الصليبي عن حلب ولو مؤقتاً.

٢ ـ اضعاف قوة الصليبيين في شمالي بلاد الشام.

٣ ـ استعادة التركمان وأهالي حلب ثقتهم بأنفسهم.

٤ ـ ضعف حامية أنطاكية.

٥ ـ كانت نقطة البداية في تقدم العرب المسلمين لاسترداد أراضيهم وانكماش التقدم الفرنجي الصليبي.

كان بإمكان إيلغازي لو أراد استثمار نصره كاملاً أن يزحف باتجاه أنطاكية حيث لم يكن ما يمنعه من الوصول إليها[2]، وأن يستغل إضافة لنصره وضعف حاميتها تذمر المسيحيين المحليين من سكانها من السريان والأرمن والأرثوذكس من الفرنجة الصليبيين، وعملهم على التخلص من حكمهم[3].

---

(٦) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٥٦٨.

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٥٦٨. سعيد برجاوي: الحروب الصليبية في المشرق، ص٢٣٥.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٥٥٤.

(٣) سعيد برجاوي: الحروب الصليبية في المشرق، ص٢٣٥.

والسؤال الذي يرد حول معركة ساحة الدم؟ لماذا لم يتابع إيلغازي زحفه إلى أنطاكية، بعد أن عدمت من يدافع عنها؟ لعل الإجابة على هذا السؤال تكمن في طبيعة تركيب قوات إيلغازي التي ملت الانتظار، واضطر هو لأخذ الإيمان والمواثيق من أمرائها ومقدميها قبل بدء المعركة كما سبق، إلى جانب كون العسكر قد تعبوا من القتال ورغبوا بالعودة إلى أهليهم بعد أن أثقلوا بالغنائم[1]، إضافة إلى ذلك خوفه من وصول القوات الفرنجية الصليبية من طرابلس والرها وبيت المقدس، ولذلك فضّل إيلغازي العودة إلى حلب، ومن ثم إلى ماردين[2] ليجمع العساكر من جديد ويعود بهم كما سيأتي.

في أثناء عودة بعض قوات إيلغازي إلى حلب صادفت نجدات فرنجية صليبية قادمة لنجدة روجر وهي لا تعرف ما حل به، فتصدت لها قوات إيلغازي، فقتلت بعضاً من فرسانها، وتفرق الباقون بين الشعاب والجبال المجاورة، وقد ساهم أمراء شيزر في الهجمات ضد المواقع الفرنجية الصليبية في أفامية وغيرها، كما توجه أبو العساكر سلطان أمير شيزر للاجتماع بإيلغازي[3].

أما طغتكين حليف إيلغازي فإنه لم يشارك في معركة ساحة الدم لعدم تمكنه من الوصول في الوقت المناسب، ولعل ذلك بسبب أحداث جدت في دمشق ومنها تحركات الفرنجة الصليبيين في جنوب بلاد الشام[4].

واصل إيلغازي عملياته الحربية ضد المواقع الفرنجية الصليبية، فتحرك إلى أرتاح وهناك وصل إليه حليفه طغتكين واجتمع به، ثم تحركا بقواتهما وبعضٍ من أحداث حلب إلى الأثارب حيث استعادوها وتسلموا قلعتها[5]، ثم تابعوا زحفهم إلى زردنا الحصينة والتي كان أميرها الصليبي غائباً عنها مما دفع بإيلغازي إلى الإسراع في حصار المدينة، فاضطر أهلها إلى تسليمها بعد منحهم الأمان، والسماح لهم بالتوجه إلى أنطاكية، فوافق وتسلمها ورتب بعضاً

---

(١) سعيد برجاوي: الحروب الصليبية في المشرق، ص٢٣٦، ويقول: إن إيلغازي أضاع فرصة الهجوم على أنطاكية بشربه الخمر لتركها تفوت، ولا شك أن هذا القول مجانب للحقيقة لأن إيلغازي كان من الحنكة والمعرفة بأمور الحرب ما لو كان بمقدوره الاستمرار في الزحف على أنطاكية لما توقف. غير أن الذي يخوض المعارك يختلف عن ذاك الذي يكتب عنها من بعد. ر. س. سميل: الحروب الصليبية، ص ٣١، ويقول: إن غازي الثاني لم يستطع استخلاص الفائدة التامة من انتصاره. ذلك أن سكره المتواصل حرم جيشه من زعامته.

(٢) حسن شميساني: مدينة ماردين، ص١٦٥.

(٣) ابن منقذ: الاعتبار، ص ٤٠ ـــ ٤١.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٢، القسم الأول، ص٧٩.

(٥) العظيمي: تاريخه، ص ٣٧٠. ابن الأثير: الكامل ـــ المجلد العاشر، ص٥٥٥.

من أعوانه فيها.

تابع إيلغازي سيره مع حليفيه وطغان أرسلان إلى دانيث فعلم أن الصليبيين حشدوا فيها وحصنوها، وجرت فيها معركة بين الطرفين في الرابع من جمادىٰ الأولىٰ سنة ٥١٣ هـ/ ١٤ تموز ١١١٩ م، كان النصر فيها لإيلغازي وحلفائه فتسلموا دانيث بعد أن قتلوا معظم الفرنجة الصليبيين فيها من فرسان ورجاله[١]، وغنموا أكثر ذخائرهم.

بعد هذا النصر اشتبك إيلغازي وحلفائه بقوة من الفرنجة الصليبيين يقودها أمير زردنا فانهزمت هذه القوة بعد أن قتل منها عدد كبير، ولجأ الباقي إلى حصن هاب أيضاً، وسقط أمير زردنا نفسه عن فرسه فحمله قوم من جبل السماق إلى إيلغازي في ظاهر حلب، فأرسله مكبلاً إلى طغتكين حيث قتله صبراً، ولعل إيلغازي فعل ذلك إرضاء لحليفه طغتكين الذي كان بينه وبين صاحب زردنا عداء مستحكم.

بعد هذه المعارك المتلاحقة عاد حلفاء إيلغازي إلى بلادهم، أما هو فقد دخل حلب، وأحضر الأسرىٰ بين يديه، فأفرد أمراء القلاع والمقدمين وابن بوهيمند صاحب أنطاكية وغيرهم ممن معه مال، فأخذ منهم المال وأطلق سراحهم، وتخلص من البقية وعددهم نيف وثلاثون شخصاً، وتوجه إلى ماردين في جمادىٰ الأولىٰ سنة ٥١٣ هـ/ آب ــ أيلول ١١١٩ م، ليجمع الجند من التركمان ويعود بهم إلى حلب[٢].

استغل الفرنجة الصليبيون فرصة عودة إيلغازي إلى ماردين، وعدم وجود قوة كافية لحربهم في حلب فأرادوا الإنتقام لأنفسهم من معركة ساحة الدم، فأغاروا على مناطق متعددة غربي حلب، وهاجموا المعرة وسبوا جماعة من أهلها، وقد تصدت لهم فرقة من الجند التركمان فاضطرتهم إلى الانسحاب[٣]، لكنهم استمروا في تحرشاتهم وتعدياتهم على المواقع والقرىٰ المحيطة بحلب ومعرة النعمان، فاخترقوا زورا[٤]، ثم توجهوا إلى كفر روما، فاستولوا حصنها أيضاً وقتلوا من فيه وتابعوا زحفهم إلى كفر طاب ثم سرمين ومعرة مصرين، فدخلوها دون قتال، وتقدموا إلى زردنا ومنها عادوا إلى أنطاكية[٥] كذلك لم تسلم مناطق حلب الشرقية في هذه الفترة من تعديات الفرنجة الصليبيين، حيث هاجموا وادي بطنان والمناطق الواقعة بين

---

(١) العظيمي: تاريخه، ص ٣٧٠. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٥٥٥. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٥٦. ر. س. سميل: الحروب الصليبية، ص ١٧١.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٥٦. حسن شميساني: مدينة ماردين، ص ١٦٥.

(٣) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٥٦.

(٤) زورا: حصن غربي البارة. ابن الشحنة: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، ص ٢١٨.

(٥) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٥٧. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٢٥١.

حلب وغرب الفرات، كما أغاروا على منبج والنقرة، وغنموا الغنائم الكثيرة وأسروا عدداً من الرجال والنساء ثم تقدموا إلى الراوندان، وهم يطاردون قوة من التركمان عبرت الفرات، لكن القوة التركمانية هزمتهم وقتلت قمساً منهم[*].

وإذا كانت قوات الفرنجة الصليبيين قد استغلت غياب إيلغازي في ماردين، وقامت بالكثير من الأعمال العدوانية، فإن أهالي حلب أيضاً قاموا بغارات متواصلة على القوات الفرنجية الصليبية حققوا من خلالها بعض الانتصارات، وحازوا على بعض الغنائم، كما أنه في صفر من سنة ٥١٤ هـ/مايس ١١٢٠م، حدثت مشاحنة ومعركة بين والي الأثارب بلاق ابن اسحاق الذي تحرك بقواته إلى أنطاكية وبين الفرنجة الصليبيين الذين تصدوا له وهزموه وطاردوا فلوله المنهزمة إلى حلب[١].

يبدو أن أعمال الفرنجة الصليبيين في هذه الفترة كان القصد منها إعادة الاعتبار لقواتهم التي اندحرت أمام إيلغازي، ومن ثم تخريب ما تبقىٰ من هذه المناطق حتىٰ لا يقوىٰ أهلها على مساعدة أي قائد آخر يأتي لحربهم.

في هذه الأثناء كان إيلغازي قد جمع قوة كبيرة من التركمان، وعبر الفرات باتجاه حلب وذلك في الخامس والعشرين من صفر سنة ٥١٤ هـ/ ٢٦ أيار ١١٣٠م، وقد توقف في تل باشر عدة أيام، ثم اجتاح المنطقة ما بين تل باشر وكيسوم حيث أتىٰ على الصليبيين فيها بعد أن خرّب ضياعهم وقراهم وتابع تقدمه إلى اعزاز، وكانت تعليماته لقواته مشددة تقضي بألا يتعرض أحد من الجنود لاستغلال ضياع اعزاز أو نهبها؛ بعدها توجه إلى أنطاكية، فلما قاربها هرب كثير من أهلها إلى المواقع القريبة منها[٢]، وانتشر جنده في قرىٰ وبلدان الروج، إلا أن نجدة وصلت إلى الفرنجة الصليبيين من ملك بيت المقدس أجبرت إيلغازي على العودة إلى قنسرين، مما أثار القلق والتذمر بين جند إيلغازي التركمان، وتمرد البعض على سلطته فعاقبهم وقد أدىٰ ذلك إلى تفرق أكثرهم عنه.

يبدو أن سبب تذمر الجند التركمان هو:

١ ــ عدم حصولهم على غنائم كثيرة كالتي حصلوا عليها في السنة الماضية[٣]، خاصة وأن المعارك التي حدثت في هذه الفترة بين الطرفين لم تكن معارك كبيرة إنما كانت

(*) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٥٥٩. ابن الشحنة: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، ص٢١٨.

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٥٥٩. ابن الشحنة: الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، ص٢١٨.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ١، ص٥٥٩. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ١، ص٥٠٨. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص٢٥٢.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ١، ص٥٥٩.

مناوشات وحروباً محدودة.

٢ ــ معاقبتهم بسبب إساءتهم لبعض القرىٰ التي دخلوها خلافاً لأوامره.

٣ ــ طول مقامهم بعيداً عن أهلهم وبلادهم دون تحقيق مغانم تذكر، وفي هذه الصدد يقول ابن الأثير: «كان إيلغازي لا يطيل المقام في بلد الفرنج لأنه كان يجمع التركان للطمع، فيحضر أحدهم ومعه جراب فيه دقيق وشاة، ويعد الساعات لغنيمة يتعجلها ويعود، فإذا طال مقامهم تفرقوا، ولم يكن له من الأموال ما يفرقها عليها»[1].

لا شك أن ابن الأثير كان قاسياً في حكمه على الجند التركان، ولم ينصفهم ويعطهم حقهم فيما بذلوه أثناء حروبهم، وتفانيهم أحياناً في المعارك، وهو ما شهدت عليه أعمالهم، أما أن جمعهم كان للطمع فهو أمر كان مألوفاً في ذلك الوقت بخاصة وأنه لم يكن بالإمكان إعطاء رواتب (جعالات) نقدية أو عينية لهم عن طريق الحاكم أو قائد الجيش.

استغل الفرنجة الصليبيون فرصة إنفضاض غالبية عسكر إيلغازي وتفرقهم عنه، فهاجموا دانيث للحصول على بعض المكاسب، في هذا الوقت وصل طغتكين على رأس قواته واجتمع بحليفه إيلغازي فقرر محاصرة الفرنجة الصليبيين في دانيث ثم سمحا لهم بالخروج خوفاً من استماتتهم في القتال، فخرج الفرنجة الصليبيون دون أية مضايقة[2] وساروا نحو معرة مصرين فوصولها. وأثناء تحركهم كان الجند التركان يقتلون كل من تخلف من القوات الفرنجية الصليبية[3] بعدها توجه الفرنجة الصليبيون إلى أنطاكية، ويشير ابن العديم إلى هذه الحادثة بقوله: «وحدثت معركة بين الفرنج الذين خرجوا إلى دانيث بعد ما رأوا من تفرق عسكر إيلغازي، فوصل إليهم طغتكين وعسكر دمشق واجتمعوا مع إيلغازي لمقاومة الفرنج، فهزموهم شر هزيمة، فسار الفرنج نحو معرة مصرين ثم إلى أنطاكية، أما الترك فقد عاذوا إلى حلب»[4]. وفي الوقت الذي يذكر ابن الأثير أن إيلغازي سمح لهم بالخروج دون قتال، يذكر ابن العديم أنه هزمهم شر هزيمة، ولعله يريد بذلك حصر الفرنجة الصليبيين وتطويق إيلغازي لهم وقتل من خرج أو تخلف عن قواتهم، كما أن رونسيمان يشير إلى أن قدوم نجدة من صليبيي بيت المقدس إلى أنطاكية كان له أكبر الأثر في عدم متابعة التركان للصليبيين[5] إلى أنطاكية.

يبدو أنَّ إيلغازي لم يكن بوضع عسكري يسمح له بمتابعة الفرنجة الصليبيين أثناء عودتهم

(١) ابن الأثير: الكامل ــ المجلد العاشر، ص٥٦٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل ــ المجلد العاشر، ص٥٦٩.

(٣) عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص٢٥٣.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ٢، ص٥٦٠.

(٥) رونسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ١، ص١٥٨.

إلى أنطاكية، بسبب قلة عسكره وتذمرهم، فآثر العودة وطغتكين إلى حلب[*].

كان إيلغازي بحاجة للعودة إلى ماردين والسبب الظاهر في عودته هو الملل والتذمر اللذان انتشارا بين صفوف قواته، وبالرغم من وجاهة هذا السبب الذي يتضح منه حاجة إيلغازي إلى تجنيد الجند من جديد للوقوف إلى جانبه في قتال الصليبيين، إلا أن هناك أموراً أكثر خطورة على أملاكه في ماردين التي أصبحت مهددة. من الكرج القفجاق الذين كانوا يتقدمون باتجاهها بقوات ضخمة عبر أرمينية. وهذا ما اضطره إلى عقد هدنة مع بلدوين الثاني أمير أنطاكية حتىٰ نهاية سنة ٥١٤ هـ/ ١١٢٠ ـ ١١٢١ م، ليأمن فيها عدم مهاجمة حلب في غيابه، وقد تنازل مقابل ذلك للفرنجة الصليبيين عن المواقع التي كسبها في معاركه الأخيرة معهم شرقي العاصي، وهي المعرة وكفر طاب والجبل والبارة وضياعاً من جبل السماق وليلون ومنطقة اعزاز[١]، وهكذا حقق بلدوين الثاني نجاحاً للفرنجة الصليبيين لم يتمكن من تحقيقه بالقتال، ولم يستطع إيلغازي أن يستغل نصره في ساحة الدم وكانت نتيجة علاقاته مع الفرنجة الصليبيين لصالحهم.

• شمس الدولة سليمان بن إيلغازي في حلب:

قام إيلغازي بترتيب أمور حلب الإدارية قبل أن يتركها إلى ماردين، فعين ابنه سليمان والياً عليها، وجعل مكي بن قرناص الحموي رئيساً للمدينة[٢]، كما استجاب لشكوىٰ أهل حلب بإلغاء بعض الرسوم والضرائب التي فرضت عليهم أيام رضوان ولم يكن لها مماثل في الدول المجاورة، كما لم تكن مفروضة عليهم أيام آق سنقر قسيم الدولة، فطلب معرفة مقدارها فأخبر بأنها مبلغ اثني عشر ألف دينار سنوياً فأمر بإلغائها ووقع لهم منشوراً بذلك[٣].

بعد أن نظم إيلغازي أمور حلب الداخلية وهادن الفرنجة الصليبيين وأمر بهدم حصن زردنا خشية استيلاء الفرنجة الصليبيين عليه واستخدامه لتهديد حلب[٤]. توجه إلى ماردين ليعبىء

(*) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٦٠. أبو الفداء: المختصر، جـ ٢، ص ٢٤٣. الذهبي: العبر في خبر من غبر، جـ ٤، ص ٢٨. الغزي: نهر الذهب، جـ ٢، ص ٨٤. محمد راغب الطباخ: أعلام النبلاء، جـ ١، ص ٤٣٥ ـ ٤٣٨. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٥٠٨. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٢٥٤.

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٦٠. ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ٢١٨. أما ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٢٢. وسبط ابن الجوزي في: مرآة الزمان، جـ ٨، ص ٩١، فيشيران فقط إلى الصلح دون ذكر المواقع.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٥٩٢، يقول عن ابن قرناص: «إنسان من أهل حماه من بيت قرناص كان قد قدمه إيلغازي على أهل حلب، وجعل له الرئاسة».

(٣) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ ٨، القسم الأول، ص ٩١. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٦٠. ابن أبي الدم: تاريخه ـ مخطوط، ص ١٤٤.

(٤) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٢٣.

قوات جديدة يعود بها لمحاربة الفرنجة الصليبيين ، حيث كان على قناعة تامة بأنهم سينقضون الهدنة في غيابه ، وليدفع عن ماردين المغيرين ، وبالفعل ما لبثت الأخبار أن وصلته بأن الفرنجة الصليبيين اعتدوا على فلاحيّ المناطق التي استولىٰ عليها من خلال المعاهدة . وصادروا أموالهم وغلالهم وتقووا بها ، خاصة وأن الضياع التي كانت بأيدي العرب المسلمين قبل المعاهدة قد ازدهرت وانتعشت لاطمئنان أهلها بالصلح ، ويمكن القول إن حلب والمناطق المحيطة بها تعرضت في هذه الفترة لهجمات متتابعة مركزة من قبل أميري أنطاكية والرها .

زاد الفرنجة الصليبيون بقيادة جوسلين أمير الرها ، من تعدياتهم على المواقع العربية فاعتدوا على النقرة والأحص من قرىٰ منبج وذلك في شوال سنة ٥١٤ هـ/ كانون الثاني ١١٢١ م ، وأحرقوا مناطق واسعة فيها ، وقتلوا وسبوا عدداً من سكانها ، ووصلوا إلى وادي بطنان وعملوا به كما عملوا في النقرة والأحص ، وقد ذكر ابن العديم ما فعله قائد الصليبيين في هذه الجولة فقال : «وأسر المشايخ والعجائز والضعفاء ، ونزع عنهم ثيابهم وتركهم في البرد عراة فهلكوا بأجمعهم»[١] ، ثم قصدوا تل باشر وعادوا منها إلى الرها حيث عبأوا قواتهم من جديد ليفعلوا كما فعلوا من قبل ، وعلل جوسلين عدوانه بأنه كان رداً على تصرف من والي منبج الذي أسر أحد أتباعه ورفض إطلاق سراحه بالرغم من مطالبة جوسلين بذلك .

حين قام جوسلين بهذه الإعتداءات أرسل سليمان بن إيلغازي إلى بلدوين الثاني احتجاجاً شديداً . يقول فيه : «إن نجم الدين إيلغازي لم يترك هذه البلاد خالية من العسكر إلا ثقة بالصلح»[٢] فكان جواب بلدوين الثاني أن جوسلين لم يكن طرفاً في الهدنة[٣] .

لا شك أن رسالة سليمان بن إيلغازي إلى بلدوين الثاني أظهرت أن حلب مكشوفة تجاه العدو وليس لها قوات تدافع عنها ، مما جعل بلدوين الثاني يتنصل من الأعمال التي يمارسها جوسلين دون أن يكلمه في التوقف عنها . كما أن الرسالة كشفت عن الخطأ العسكري الفادح الذي ارتكبه إيلغازي بتركه حلب في هذه الظروف دون قوة تدافع عنها أو على الأقل يجند جنداً من أبناء حلب يدافعون عنها ريثما يعود إليها ، وهذا يماثل ما ارتكبه كل الأمراء التركمان الذين تعاقبوا على حكم حلب ، واعتمدوا فيها على القوات التركمانية التي يجمعونها دون إشراك أو زج أبناء البلاد الفعليين في الدفاع عنها ، كما دلت الرسالة على مدىٰ الغباء السياسي

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ، جـ ٢ ، ص ٥٦١ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ، جـ ٢ ، ص ٥٦١ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب من تاريخ حلب ، جـ ٢ ، ص ٥٦١ . عماد الدين خليل : الإمارات الأرتقية ، ص ٢٥٥ .

والعسكري الذي اتصف به سليمان بن إيلغازي بإعلامه خصمه وعدوه خلوّ حلب من قوات تدافع عنها مما أدىٰ إلى طمعه بها.

وهكذا استمرت غارات جوسلين وتعدياته على المناطق الشرقية، وتبعتها غارات صليبيي أنطاكية على شيزر، فأسروا وغنموا، وطالبوا ابن منقذ بتأدية المبالغ التي كان يؤديها لهم قبل معركة ساحة الدم، فوافق ابن منقذ على الطلب مقابل أن يردوا له ما أخذوه من الضياع، فلم يجيبوه فعقد معهم صلحاً جديداً اشترىٰ فيه امتناعهم عن الإعتداء على أراضيه مقابل مبلغ من المال، ودام الصلح إلى آخر سنة ٥١٤ هـ[١]/ ١١٢١م كان هجوم الفرنجة الصليبيين على شيزر بمثابة رد وانتقام على مساهمة أمراء شيزر في الهجوم على أفامية والمواقع الصليبية أثناء معركة ساحة الدم[٢] خاصة وأن أمراء شيزر فيما سبق كانوا يقفون على الحياد بين الفرنجة الصليبيين والتركان منذ استقلالهم بإمارتهم.

تأخر إيلغازي في القدوم إلى حلب بسبب إنشغاله أثناء وجوده في ماردين مع عدد من الأمراء التركان في قتال الكرج والقفجاق[٣]، وقد دفع هذا الفرنجة الصليبيين للتمادي في تحرشاتهم فخرب صليبيو أنطاكية المناطق المحيطة بحلب واحتلوا معظمها، ثم هاجموا الأثارب، وقتلوا عدداً من حاميتها وسكانها وأسروا من لم يتمكن من اللجوء إلى القلعة، وأشعلوا الحرائق في البلدة، وفي ربيع الآخر من سنة ٥١٥ هـ/ حزيران ــ تموز ١١٢١م، أي بعد شهر فقط زحفوا على نواز[٤]، وهاجموا الأثارب مرة أخرىٰ، فأحرقوا الدور والغلال، ثم أغاروا على حلب فأسروا نحواً من خمسين رجلاً، وصادروا كثيراً من الدواب والماشية، فتصدت لهم قوة من الحلبيين وتمكنت من استرداد المواشي وأجبرتهم على التراجع والعودة إلى مواقعهم[٥]، كما أغار جوسلين أمير الرها على صفين وسبىٰ من العرب والتركان وغنم من أموالهم ودوابهم ومواشيهم، ونزل بزاعة وأحرق بعضاً من بيوتها أثناء عودته إلى الرها[٦].

إن خروج القوة الحلبية وإن لم تكن نظامية وتصديها للفرنجة الصليبيين يؤكد عدم صحة ما كتبه سليمان بن إيلغازي لبلدوين من أن حلب خالية من العسكر ومن المدافعين عنها،

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ٢، ص ٥٦١.

(٢) انظر فيما سبق صفحة ٢٢٠.

(٣) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٤٦. ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص ٥٦٧. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٢٥٦.

(٤) نواز: قرية كبيرة فيها تفاح كبير، وهي في جبل السماق، من أعمال حلب، ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٥، ص ٣٠٦.

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ٥٦٢. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ١، ص ٥٠٩، ويقول: إن حاكم منبج الأرتقي دأب على الإغارة على أراضي إمارة الرها مما دفع بجوسلين أن يرد عليه بالإغارة على أراضي منبج وصفين.

(٦) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٢٣. ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص ٥٨٧. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ٥٦٢.

وكان بإمكانه حشد قوات متطوعة ومقاتلة من مؤيديه ومن أهالي حلب وأحداثها ليدفع بهم تعديات الصليبيين عن المناطق الحلبية، ريثما يصل والده إيلغازي، دون أن يعلل تقاعسه وجبنه عن محاربة الفرنجة الصليبيين بعدم وجود العساكر في حلب، والأصح أنه كان لا يثق بأبناء حلب وأحداثها، كما لا يثق بمقدرته على صدهم.

كانت أخبار تحرشات الفرنجة الصليبيين تصل إلى إيلغازي بالتتالي، فلما علم بتشديد قبضتهم على حلب وإحاطة قواتهم بها أرسل إلى ابنه شمس الدولة سليمان ونوابه يأمرهم بالتفاوض مع الفرنجة الصليبيين ومصالحتهم على ما يريدون، وفعلاً عقد سليمان الصلح مع الفرنجة الصليبيين، وكانت بنود الصلح مهينة لأهل حلب حيث حصل الفرنجة الصليبيون بموجب هذا الصلح على سرمين والجزر وليلون ومدن الشمال، ونصف الأراضي الزراعية المحيطة بحلب، كما نص الصلح على هدم تل هراق بحيث لا يكون خاضعاً لأحد الطرفين كما طالبوا بالأثارب فلبيّ طلبهم إلا أن حاميتها وسكانها رفضوا ومانعوا الفرنجة الصليبيين من دخولها فبقيت بأيديهم(١).

والسؤال الذي يطرح هنا؟ لماذا طلب إيلغازي الصلح مع الصليبيين على ما يريدون؟ وهو الذي لقنهم وأذاقهم من بأسه وحربه في معركة ساحة الدم ما لم يذوقوه من غيره، يبدو أن هناك أسباباً دفعته لذلك منها:

١ ــ إن خبرة إيلغازي بشؤون الحرب مع الفرنجة الصليبيين وبأوضاع شمال بلاد الشام المتردية عسكرياً وسياسياً جعلاه يدرك أن بقاء حلب بيده الآن هو المدخل لأية نجاحات في الجهاد ضد الصليبيين، ولذلك ضحى بالمناطق المحيطة ليمنع سقوط حلب نفسها.

٢ ــ إن القوات الموجودة في حلب وحولها غير قادرة على الوقوف بوجه الصليبيين الذين يحيطون بحلب من الشمال والشرق والغرب.

٣ ــ أن يعطي لنفسه المهلة ليجمع المقاتلين من حوله ثم يعود بهم ليستأنف جهاده ضد الفرنجة الصليبيين، ويرد عادية المغيرين عن ماردين.

وقّع الصلح عن الفرنجة الصليبيين جوسلين أمير الرها، أما بلدوين الثاني فكان في القدس أثناء التوقيع، فلما وصل إلى المنطقة قَبِل بشروط الصلح، وشرع في عمارة دير قديم بالقرب من سرمدا كان خرباً ثم حصنه وسلمه للسير آلان دمسخين حاكم الأثارب السابق(٢).

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٥٦٢. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص٢٥٩. سعيد برجاوي: الحروب الصليبية في المشرق، ص٢٣٨.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٥٦٢. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص٢٥٩.

بعد عقد الصلح مع الفرنجة الصليبيين أرسل إيلغازي إلى ابنه سليمان وإلى رئيس حلب مكي بن قرناص الحموي يأمرهما بهدم قلعة الشريف وإخراج من فيها من الجند الموالين للملك رضوان وأبنائه، فتم تخريب القلعة، وإخراج الجند منها بحجة القيام بالإغارة على مواقع الفرنجة الصليبيين وذلك في جمادى الآخرة سنة ٥١٥ هـ(*)/ آب ـ أيلول ١١٢١ م.

• عصيان سليمان بن إيلغازي على أبيه:

يبدو أن إيلغازي كان يعمل لترتيب الأمور بحلب بحيث تكون خالصة له قبل وصوله إليها، إلا أن الأمور كانت تجري بعكس ما يريد، إذ أعلن ابنه سليمان عصيانه(١) واستقلاله بحلب وذلك في النصف الثاني من سنة ٥١٥ هـ/النصف الثاني من سنة ١١٢١ م، وتختلف الروايات حول أسباب العصيان، فابن الأثير يقول إن الذي دفعه للعصيان جماعة من عنده(٢)، أما ابن العديم فيقول: «وقيل إن دبيس بن صدقة لما سار مع إيلغازي إلى الكرج. سأل إيلغازي في الطريق أن يهب له حلب مقابل مائة ألف دينار، حتى يجمع إيلغازي التركمان ويعاضده حتى يفتح أنطاكية، فأجابه إلى ذلك. فلما وقعت كسرة الكرج بداله من ذلك، فأرسل إلى ولده سليمان وكان خفيفاً وقال له: أظهر أنك قد عصيت عليَّ حتى يبطل ما بيني وبين دبيس... فحمله على أن عصى ونابذ أباه ووافقه مكي بن قرناص والحاجب ناصر وكان شحنه حلب وغيرهما»(٣).

إن رواية ابن العديم تشير إلى أن إيلغازي قبل التنازل عن حلب لدبيس بن صدقة مقابل المال وهذا يدل على حاجته للمال أولاً، وأنه هو الذي طلب العصيان من ابنه حتى يتحلل من وعده لدبيس ثانياً، ومما تقدم نستنتج:

١ ـ أن إيلغازي كان غير مستقر وغير راغب بحلب فعلاً ولذلك نراه يتنازل عنها لمجرد أن عرض عليه دبيس المال.

٢ ـ أن سليمان بن إيلغازي لم يكن قادراً على تولي الأمور بحلب وكان مسيراً من بعض المتنفذين فيها.

٣ ـ أن رئيس المدينة والمتنفذين فيها وجدوا الفرصة للإنفراد بحكم حلب عن إيلغازي، بعد أن قبلوا التظاهر بالعصيان ليتحكموا بسليمان وهو الضعيف والجاهل.

(*) ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ ٢، ص ٥٦٢.

(١) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥ م، ص ٣٧١.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٥٩١.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ ٢، ص ٥٤٤.

وبمجرد أن أعلن سليمان عصيانه على أبيه واستقل بحلب فعلاً قام ببعض الإجراءات منها:

١ ــ إبعاد سلطانشاه وإبراهيم أحفاد رضوان وبعض الأمراء المؤيدين لهما وأرسلهم إلى جعبر.

٢ ــ ألقىٰ القبض على حجاب أبيه وأهانهم.

٣ ــ صادر أموال بعض الأهالي في حلب وأساء بتصرفاته إلى الآخرين.

٤ ــ عمل على التقرب من الصليبيين، فأطمعهم بأمور حلب.

وبالمقابل استغل الفرنجة الصليبيون عصيان سليمان على أبيه، وعادوا إلى تعدياتهم وتحرشاتهم، وقد وصلوا إلى زردنا فاحتلوها وعمروا حصنها واتخذوها قاعدة لانطلاقهم نحو حلب، وأثناء توجههم إليها هاجموا في طريقهم خيام قبيلة طيء وغيرها، فتصدت لهم جماعة من حلب يقودها الحاجب ناصر الذي كان من مشجعي سليمان بن إيلغازي على العصيان، فانهزم الفرنجة الصليبيون وقتل منهم جماعة وفي جمادىٰ الآخرة سنة ٥١٥ هـ/آب ــ أيلول ١١٢١ م، هاجم بلدوين الثاني على رأس قوة صليبية خناصرة فاحتلّها وخربها ثم تابع تقدمه إلى برج سيناء وحصون النقرة والأحص، فسبىٰ وأحرق ونهب، ثم وصل إلى صلدع على نهر قويق[1].

وجد سليمان نفسه عاجزاً عن الوقوف في وجه الفرنجة الصليبيين فأرسل رجلاً من رجاله[2] إلى بلدوين ليعرض عليه الصلح، فرفض إلا إذا تنازل له سليمان عن الأثارب، وأنه مقابل ذلك يذب عن سليمان ويحفظه ويقاتل دونه، كما أوضح أن سليمان عاجز عن حفظها، وليؤكد شرطه هذا توجه إليها فعلاً وحاصرها ثلاثة أيام لكنه ترك الحصار وعاد إلى أنطاكية[3] لأمور جدت هناك.

إن ما تقدم يدل دلالة واضحة على مدىٰ الضعف الذي وصل إليه أمير حلب المتمرد، كما يدل على مدىٰ الاستهتار والوقاحة من جانب بلدوين الثاني الذي يعرض الدفاع والذب عن سليمان والمقاتلة دونه، فهل حقاً كان ينوي بلدوين ذلك؟ لا شك أن بلدوين كان يعرف أنه إذا تسلم الأثارب برضىٰ سليمان فإنه سينتقل إلى المرحلة التالية وهي الاستيلاء على حلب واحتلالها، وهو حلم راود قادة الفرنجة الصليبيين منذ احتلالهم أنطاكية.

ما إن علم إيلغازي بأخبار تعديات الفرنجة الصليبيين وإصرار ابنه على العصيان حتىٰ

---

(١) العظيمي: تاريخه، ص ٣٧١. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٦٥. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٢٥٩.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٦٥، ويسمىٰ الموفد (أترز بن ترك).

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٦٥.

«ضاقت الأرض عليه»[1] «فسار مجداً لوقته فلم يشعر سليمان به حتىٰ هجم عليه، فخرج إليه معتذراً فأمسك عنه»[2]، ودخل إيلغازي حلب أول شهر رمضان سنة ٥١٥ هـ/ ١٣ تشرين الثاني ١١٢١ م، فأحسن إلى أهلها وسامحهم بشيء من الضرائب، وأقال شحنتها الذي كان يظلم الناس ويؤذيهم، وأعاد الملوك والأمراء المبعدين إلى حلب، كما قام بإلقاء القبض على الرئيس مكي بن قرناص وأهله وصادر ما عنده من أموال، وقبض على الأمير ناصر الحاجب «فقلع عينيه وقطع لسانه»[3]، وقطع أرجل طاهر بن الزائر أحد أعوان مكي ابن قرناص وعاقب مؤيديه ومشجعيه، ثم عمل على تنظيم أمور الإدارة والمال بحلب فجعل نائبه فيها ابن أخيه سليمان بن عبد الجبار الملقب «بدر الدولة» وولىٰ رئاستها سليمان بن عبد الرزاق العجلاني البالسي، ثم عقد صلحاً جديداً مع الفرنجة الصليبيين مدته سنة كاملة تنازل لهم بموجبه عن عدد من المواقع منها الأثارب وزردنا، ثم غادر حلب متوجهاً إلى ماردين[4]، وذلك في المحرم سنة ٥١٦ هـ/ آذار ــ نيسان ١١٢٢ م. وهكذا فإن إيلغازي لم يحسن إلى حلب بهذه الجولة، وأن ابنه لو تنازل للصليبيين لم يتنازل لهم أكثر مما تنازل لهم والده.

كان هدف إيلغازي من القدوم إلى حلب هو إنهاء عصيان ابنه والتخلص من بعض الأمراء الذين وقفوا ضده، ومعالجة الأوضاع التي جدت في حلب أثناء غيابه، وبالتالي كسبه لعطف أهل حلب ومحبتهم، ومن ثم عقد الصلح مع الفرنجة الصليبيين بغية كسب الوقت ليعود إلى ماردين ويجمع قوات تركمانية جديدة يعود بها لقتال الفرنجة الصليبيين، والسؤال الذي يرد هنا هل كانت عودة إيلغازي إلى ماردين لجمع الجند فقط، ثم لماذا لم يجمع الجند طيلة الفترة التي قضاها في ماردين؟ وهل كان بإمكانه أن يضمن عدم تحرش الفرنجة الصليبيين بحلب بعد هذا الصلح، وبالتالي لماذا قدم كل هذه التنازلات للفرنجة الصليبيين في الوقت الذي غضب فيه من تنازلات ابنه.

يبدو أنه هناك أسباباً أخرىٰ إلى جانب جمع الجند هي التي دفعت إيلغازي للعودة إلى

---

(١) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥ م، ص ٣٧١. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٦٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٥٩١.

(٣) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ٥٩١. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ ٢، القسم الأول، ص ٩١، يجعل ذلك أواخر سنة ٥١٤ هـ. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٦٤، ويقول عنه إنه شحنة حلب.

(٤) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٥٩٢، ويقول: «واستناب بحلب ابن أخيه عبد الجبار بن أرتق ولقبه (بدر الدولة)». ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٦٧. ابن العبري: مختصر تاريخ الدول، ص ٣٥٩. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٢، ص ٢٤٦. ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ ٥، ص ٤٨٨. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٢٦٠.

ماردين[١]. كما أنه لم يبقَ طويلاً في ماردين وأسرع عائداً إلى حلب، كما أن التنازلات التي قدمها للفرنجة الصليبيين كانت كما يبدو لكسب الوقت وترتيب أموره في ماردين والعودة بأعداد أكبر من الجند لمحاربتهم واسترداد ما تنازل عنه لهم.

لم يطل مقام إيلغازي كثيراً في ماردين، فقد تمكنَ من حشد قوات تركمانية كبيرة وتوجه بها إلى حلب مستصحباً معه ابن أخيه بلك بن بهرام[٢]، وكان من المنتظر أن يهاجم إيلغازي حصن زردنا لكنه تابع طريقه إلى حلب، فلما وصلها عزل وزيرها الجديد أبا الرجاء بن السرطان الذي تولى الوزارة ـ بعد وفاة ابن موصول ـ بسبب وشاية له عليه[٣] وبدأ يستعد للزحف على زردنا.

علم أمير زردنا الصليبي بنية إيلغازي، فجمع أصحابه وأخذ منهم الأيمان بأن يقاتلوا ويدافعوا عنها، ويصبروا على الحصار لمدة خمسة عشر يوماً لأنه سيذهب إلى بلدوين الثاني لطلب النجدة، وسيعود إليهم بقوات جديدة وسيفتديهم بنفسه لتخليصهم ولو تطلب الأمر منه اعتناق الإسلام[٤].

وصل أمير زردنا الصليبي إلى بلدوين فاعتذر عن نجدته بسبب الصلح المعقود بينه وبين إيلغازي وطلب منه فقط أن يزوده بالمعلومات التي تتوفر لديه عن تحركات إيلغازي، فاضطر للعودة إلى زردنا ليجد أن إيلغازي قد أحاط بها واستولى على بعض القرى والمزارع القريبة منها، فأرسل صاحبها إلى بلدوين يعلمه بحصار إيلغازي لها[٥].

تخلص بلدوين من بعض مشاكله مع أمير طرابلس ثم توجه مع جوسلين باتجاه زردنا وعسكرا في أحد المضائق التي يصعب الوصول إليها.

ترك إيلغازي حصار زردنا وتوجه لمجابهة الفرنجة الصليبيين، وطلب منهم الخروج إلى أرض مكشوفة فلم يستجيبوا[٦]، فتركهم عائداً إلى زردنا، وحين شعر الفرنجة الصليبيون ببعده عنهم

---

(١) انظر فيما سبق صفحة ـ ٢٢٨ ـ

(٢) العظيمي: تاريخه، ص ٣٧١. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٦٧، ويقول: إن بلك كان أميراً في خرتبرت وما جاورها ولم يكن يصحبه معه عادة.

(٣) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٢٩.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٦٨. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٢٦١، ويورد قول أمير زردنا لجماعته: «والله لكم عليّ من الشاهدين لئن لم يخلصكم إلا إسلامي إن قلبه ـ يعني إيلغازي ـ أسلمت على يديه خلاصكم».

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٣٦٩. عماد الدين خليل ـ المرجع السابق، ص ٢٦١.

(٦) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥م، ص ٣٧١. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٢٦١.

تحركوا نحوه، فتحرك إلى الفنيدق بعد أن إلتحق به طغتكين أتابك دمشق[١]، في هذه الأثناء قام الفرنجة الصليبيون ببعض الأعمال العدوانية في المنطقة، وهاجموا ربض الأثارب وأحرقوا الغلال في بيادرها وهدموا بعضاً من بيوتها، ويبدو أنهم استولوا عليها دون قلعتها[٢]، ثم تركوها إلى أبين ودانيث التي حاصروها عدة أيام، ولما شعروا بعدم جدوى بقائهم تفرقوا عائدين إلى أنطاكية[٣].

عندما عاد الفرنجة الصليبيون إلى أنطاكية، عاد إيلغازي ونزل زردنا وقتل عدداً من حاميتها فما كان من الفرنجة الصليبيين إلا أن تجمعوا ثانية للقاء إيلغازي الذي عسكر في نواز وأقام فيها ثلاثة أيام يناور الفرنجة الصليبيين ويناوشهم دون أن يتراجعوا، ولم تقع معركة كبيرة بينهم هذه المرة[٤].

• **مرض إيلغازي ووفاته:**

وفيما كان إيلغازي يقارع الصليبيين أصيب بمرض في معدته، فعاد إلى حلب للتداوي[٥]، بينما عاد طغتكين إلى دمشق، وبلك بن بهرام إلى بلاده، فخرجت قوة من عساكر حلب مؤلفة من ألف فارس ومعهم بعض الأمراء منهم دولب بن قتلمش[٦] إلى تبل[٧] فنهبوا المنطقة، وفي عودتهم إلتقتهم جماعة فرنجية صليبية يقدر عددها بأربعين فارساً يقودهم كليام صاحب اعزاز فانهزم الحلبيون بعد أن قتل منهم جماعة بينهم دولب[٨]، كما تصدى والي بزاعة وأهاليها لفرقة فرنجية صليبية هاجمت تل قباسين فقتلوا تسعين شخصاً من الفرنجة الصليبيين.

ما أن شعر إيلغازي بتحسن صحته حتى غادر حلب إلى ماردين ومنها إلى ميافارقين، وفي الطريق عاوده المرض ثانية بشكل أشد، وتوفي بالقرب من ميافارقين بقرية يقال لها عجولين في أول شهر رمضان من سنة ٥١٦ هـ[٩] / تشرين الثاني ١١٢٢ م.

---

(١) عماد الدين خليل ــ المرجع السابق، ص ٢٦١.

(٢) العظيمي ــ المصدر السابق، ص ٣٧١، ويسميه: يوسف الحرامي. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٦٩.

(٣) العظيمي ــ المصدر السابق، ص ٣٧١. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٦٩. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٢، ص ٢٢٨.

(٤) العظيمي ــ المصدر السابق، ص ٣٧١. ابن العديم ــ المصدر السابق، ص ٥٦٩.

(٥) العظيمي ــ المصدر السابق، ص ٣٧١. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٦٩، ويقول: «إن إيلغازي أكل لحم قديد كثيراً، وجوزاً أخضر وبطيخاً وفواكه، فانتفخ جوفه، وضاقت نفسه، واشتد به الأمر فرحل إلى حلب».

(٦) العظيمي ــ المصدر السابق، ص ٣٧١، ويقول: «وأخبار دولات قتلمش على بلد اعزاز». ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٦٩.

(٧) تبل: من قرى حلب ثم من ناحية اعزاز بها سوق ومنبر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٢، ص ١٤.

(٨) العظيمي ــ المصدر السابق، ص ٣٧١.

(٩) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٣٠، ويقول: «وورد الخبر بوفاة الأمير نجم الدين إيلغازي بن أرتق بعلة عرضت له وهو نازل بقرية

يظهر من سرد الوقائع والأحداث التي تتالت منذ عودة إيلغازي الأخيرة من ماردين ومعه ابن أخيه بلك بن بهرام، أنه لم يكن قادراً على حسم الأمور كما حدث في معركة ساحة الدم واقتصر صراعه مع الفرنجة الصليبيين على مناوشات وحروب محدودة، ويبدو أن ذلك عائد إلى ضعف قواته وعدم فاعليتها بعد أن أنهكتها المسيرات الطويلة، وكذلك إلى عدم قدرته على تموين هذه القوات وإرضائها بما يدعوها للتفاني في القتال، حتىٰ أنها عجزت عن تخليص زردنا بعد تفرق الفرنجة الصليبيين عنها، مما اضطرهم للعودة إليها. لكنه مع ذلك ظل ذلك القائد الذي حسب الفرنجة الصليبيون حسابه بعد ما خبروه في ساحة الدم وفي الأوقات التي كان بعيداً فيها عن حلب.

كانت وفاة إيلغازي ضربة كبيرة تلقتها دولة حلب، ولم يصدم أهلها بمثلها طيلة حكم السلاجقة في حلب وقد «عظم عليهم المصاب وأغلقوا الأبواب، وأيقنوا بتوالي الشدائد عليهم لأن إيلغازي كان قد حسم مادة الفرنج عن حلب وقطع أطماعهم فيها...»[1].

لا شك أن عظم المصاب ناتج عن سوء الأوضاع الاقتصادية والعسكرية والسياسية التي كان يعاني منها أهل حلب عندما اضطروا للاستنجاد بإيلغازي فطلبوه لينقذهم مما هم فيه، فأمّن لهم الاستقرار الداخلي، وألغىٰ قسماً من الضرائب التي كانت مفروضة عليهم إلى جانب حزمه وشدته في محاسبة المتآمرين وضربهم بيد من حديد، ولو كانوا من أقرب المقربين إليه أو المخلصين له، كما أنه رد عن أهل حلب أخطار الفرنجة الصليبيين بالحروب والقتال أحياناً، وبالموادعة والمصالحة أحياناً أخرىٰ ولذلك حزن أهل حلب على إيلغازي حزناً شديداً.

بعد وفاة إيلغازي إنقسمت إمارته بين أولاده وابن أخيه، فملك ابنه سليمان بن إيلغازي ميافارقين وملك ابنه الثاني تمرتاش ماردين، أما بلك بن بهرام وهو ابن أخ إيلغازي فكانت له منطقة خرتبرت مضافاً إليها حران[2]، بينما إنتقلت إمارة حلب إلى ابن أخيه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق وأصبحت معزولة عن القوىٰ التركمانية في ديار بكر[3].

تعرف بالفحول من عمل ميافارقين من ديار بكر في السادس من شهر رمضان من السنة ٥١٦ هـ».
سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ ٨، ص ١٠٢ ــ ١٠٣، ويجعل وفاته سنة ٥١٧ هـ. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٧٠.
أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٢، ص ٢٣٦. الذهبي: العبر، جـ ٤، ص ٣٦. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، جـ ٥، ص ٢٢٣.
ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، جـ ٤، ص ٤٨. حسن شميساني: مدينة ماردين، ص ١٦٦.

(١) عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٢٦٢، نقلاً عن مخطوط تاريخ الفرات، جـ ٢، ص ٦٦.

(٢) العظيمي: تاريخه، ص ٣٧٢. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٦٠٤. الفارقي: تاريخ ميافارقين ــ مخطوط، ص ١٧١. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٧٣. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٢، ص ٢٣٦. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٥١٢. حسن شميساني: مدينة ماردين، ص ١٦٦.

(٣) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٢، ص ٢٣٦. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٢٦٣.

٢ ــ حلب في عهد سليمان بن عبد الجبار بن أرتق (بدر الدولة):

لم يكن سليمان بن عبد الجبار كعمه في القوة والتصميم، لذلك فإنّه لم يتمكن من حماية حلب من المعتدين، وقام بحسب ما رأىٰ بتنظيم أمور حلب، فجعل على رأس الوزارة أبا الرجاء سعد الله بن هبة الله بن السرطان في صفر سنة ٥١٧ هـ[١]/ نيسان ١١٢٣ م، بعد أن أطلق سراحه وعفا عنه.

استغل الفرنجة الصليبيون وفاة إيلغازي فحشد أمير أنطاكية قواته، وأضاف إليها جماعة من الأرمن، وهاجم وادي بزاعة شمال شرقي حلب، فعاث فيه وخرّب، ولم يغادر المنطقة إلا بعد أن دفع له أهلها مبلغاً من المال، ثم غزا بالس جنوب شرقي حلب وطلب من أهلها مالاً عجزوا عن دفعه، وقد فاجأته قوة من التركمان وفرسان حلب، فقتلت جماعة من أتباعه فاضطر أمير أنطاكية إلى ترك بالس وعاد إلى وادي بزاعة ثم توجه إلى البيرة شرقي حلب فاحتلها وأخذ أهلها أسرىٰ إلى أنطاكية[٢]، وتوالت غارات الفرنجة الصليبيين على ضواحي حلب ومناطقها إلى آخر سنة ٥١٦ هـ/١١٢٣ م، وأصبحت حلب شبه محاصرة بممتلكات الفرنجة الصليبيين وقواتهم[٣]. وفي بداية سنة ٥١٧ هـ/١١٢٣ م، شدد الفرنجة الصليبيون هجماتهم على المناطق القريبة من حلب وأكثروا فيها التخريب والحرق مستغلين عدم قدرة والي حلب الجديد سليمان بن عبد الجبار على دفعهم وحماية حلب من تعدياتهم.

يبدو أن الصليبيين هدفوا من تشديد غاراتهم إلى أمرين أيهما تحقق فإنهم سوف يحصلون على مكاسب جديدة.

١ ــ إجبار والي حلب على طلب الصلح معهم وفق الشروط التي يفرضونها.

٢ ــ إضعاف حلب وبالتالي احتلالها، وبذلك يزيلون العقبة التي تقف في طريق اتصالهم مع إمارة الرها.

وفعلاً تمكنوا من تحقيق أحد أهدافهم حين طلب الأمير سليمان بن عبد الجبار الصلح من الأمير الصليبي بلدوين الثاني، وعرض عليه التنازل عن الأثارب وقلعتها مقابل توقف الفرنجة الصليبيين عن الهجوم والإغارة على أراضي حلب فوافق الأمير الصليبي على ذلك وتم عقد الصلح في العاشر من صفر سنة ٥١٧ هـ/التاسع من نيسان ١١٢٣ م[٤]، وتسلم الفرنجة

(١) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٧٣، «وكان إيلغازي قد قبض على ابن السرطان وصادره كما مر سابقاً».

(٢) العظيمي: تاريخه، ص ٣٧٢. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٧٣.

(٣) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٥١٢، ومن الغريب أن المؤرخ لم يشر إلى معركة بالس رغم أنها وردت عند مؤرخي حلب. العظيمي وابن العديم، وهما من مصادره الأساسية.

(٤) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٣١. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٦١٠. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٧٤.

الصليبيون الأثارب، ويشير ابن الأثير إلى ذلك بقوله: «إنهم كانوا قد أكثروا قصد حلب وأعمالها بالإغارة والتخريب والتحريق وكان بحلب، حينئذ بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار ابن أرتق وهو صاحبها، ولم يكن له بالفرنج قوة، فخافهم وهادفهم على أن يسلم الأثارب ويكفوا عن بلاده، فأجابوه إلى ذلك وتسلموا الحصن وتمت الهدنة بينهم»[1]، وكان أمير حصن الأثارب الحاجب التركاني جبريل بن يرق، فعوضه سليمان بن عبد الجبار عن الحصن بتعيينه رئيساً لشحنكية حلب[2].

يبدو أن هذا الصلح قد أعاد الطمأنينة إلى السكان في إمارة حلب، فنشطت الزراعة والتجارة من جديد «واستقام أمر الرعية بأعمال حلب، وجلبت إليهم الأقوات وغيرها»[3].

٣ ـ الأمير بلك بن بهرام في حلب وموقفه من الفرنجة الصليبيين:

وصلت أخبار الصلح بين سليمان بن عبد الجبار أمير حلب، وبلدوين الثاني أمير أنطاكية الصليبي إلى بلك بن بهرام أمير خرتبرت، وكان بلك قد شارك في حملة إيلغازي الأخيرة، وأسر في إحدىٰ معاركه مع الفرنجة الصليبيين جوسلين أحد أمرائهم[4]، كما أنه تمكن أيضاً من أسر بلدوين الثاني أمير أنطاكية والوصي على إمارة الرها آنذاك، وهي المعركة التي حدثت بينهما في يوم الأربعاء التاسع عشر من صفر سنة ٥١٧ هـ/ ٢٠ نيسان ١١٢٣ م، عند موقع اسمه أورش بالقرب من قنطرة سنجه[5]، أي بعد تسعة أيام فقط من عقد الصلح بين بلدوين وسليمان بن عبد الجبار.

يبدو أن بلدوين بعد عقده الصلح فكر في التوجه شرقاً لفك أسر جوسلين أمير الرها وظن أن الأمور هناك تشبه مثيلتها في حلب، ولكنه أخطأ التقدير فوقع في الأسر وتشتت قواته[6].

الغزي: نهر الذهب، جـ٣، ص٨٥. بيشوف: تحف الانباء، ص٥٣. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ١، ص٥١٢. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص٢٦٦.

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص ٦١٠.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ٥٧٤.

(٣) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص٣٣١. ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٦١٠. الغزي: نهر الذهب، جـ٣، ص٨٥. بيشوف: تحف الأنباء، ص٥٣. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ١، ص٥١٢. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص٢٦٦.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص١٨٨، وكان ذلك سنة ٥١٥ هـ، سيد علي الحريري: الأخبار السنية، ص٥٨، ويقول: كان أسر بلك لجوسلين سنة ٥١٥ هـ/ ١١٢١ م، بعد تركه لحصار الرها والتقائه بجوسلين وصهره غاليران وقواتهما، وحدثت معركة بين الطرفين في أرض موحلة، فانتصر بلك وأسر القائدين الصليبيين وسجنهما في قلعة خرتبرت.

(٥) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٣٢. ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٥٩٣، ويقول إنه أسر مع بلدوين ابن خالته كليام وجماعة من فرسانه. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ٥٧٤. معروف رزوق: تاريخ شيزر، ص ١٦٩.

(٦) معروف رزوق: تاريخ شيزر، ص ١٦٩.

كان أسر بلدوين من قبل بلك ضربة كبرىٰ للفرنجة الصليبيين في الشام حيث أصبح أمراؤهم في أسر بلك وتحت قبضته، أما بلك فقد قويت معنوياته وتطلع إلى توحيد ملك الأراتقة من جديد[1]، فسار إلى حران وتمكن من الاستيلاء عليها في ربيع الأول سنة ٥١٧ هـ/ أيار ١١٢٣م[2]، كما أنه كان غير راضٍ عن صلح سليمان بن عبد الجبار مع بلدوين واعتبره عاجزاً عن حماية حلب، وأدرك أن حروبه مع الفرنجة الصليبيين لن تحقق النتائج التي يريد إذا لم تكن حلب قاعدة لعملياته الحربية في بلاد الشام فقرر الاستيلاء عليها[3].

وصل بلك إلى حلب فحاصرها وأغلق حدودها، وتنقل بين بانقوسا، وأرض النيرب وجبرين، وعندما لم يتمكن من الاستيلاء عليها بواسطة الحصار وحده، استخدم العنف مع أهلها، وعمل على ضربهم في اقتصادهم ونفوسهم، فأمر بإحراق الغلال في البيادر واستولىٰ على دوابها، وأرسل فرقة من جنده إلى قرية حدادين، فحاصرت مغارتها التي إلتجأ إليها أهل القرية، فاختنق منهم مائة وخمسين شخصاً، كما اختنق في مغارة تل عبود وتعجين عددٌ آخر نتيجة الحصار، كما سبىٰ نساء وأولاد عفرتنور وباع بعضهم بينما أخذ البعض الآخر عبيداً، واستولىٰ على ثلاثمائة رأس من الجوالق[4] الفخم، وسبب حريق الزرع والغلات غلاءً عظيماً[5]، وضعفاً في نفوس السكان مما أدىٰ بهم إلى الاستسلام إليه، فدخل المدينة في جمادىٰ الأولىٰ سنة ٥١٧ هـ[6] / تموز ١١٢٣م.

إن الأسلوب الذي مارسه بلك مع أهل حلب بغية الاستيلاء عليها يثير الشك والارتياب في نوايا هذا القائد الذي جاء ليحمي حلب من غارات الفرنجة الصليبيين، فإذا به يذيقهم من الظلم والتخريب والتحريق أكثر مما ذاقوه على أيدي الفرنجة الصليبيين. لمجرد أن والي حلب رفض تسليمه إياها. والغريب أن عماد الدين خليل يحاول تسويغ أعمال بلك في ضواحي حلب، بأنه أقدم على تخويف الحلبيين واستخدم العنف معهم لتحقيق هدفه في قتال الفرنجة الصليبيين[7]، إلا أن أي مسوغ في مثل هذه الحالة غير مقبول للأمرين التاليين:

---

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ١، ص٥١٣.

(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص٣٣٢. ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٦١١.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٦١١.

(٤) الجوالق: جمع جولق وهي الفرس ذات الشعر المسترسل الكثيف، المعجم المدرسي ـــ وزارة التربية، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م، ص٢١٩.

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٥٧٦، ويقول: إن سبب محاصرة مغارة حدادين هو أن أحد عساكر بلك أخذ عنزاً لفلاح، فرماه بعض الفلاحين بسهم فقتله، فحوصرت مغارتها.

(٦) ابن أبي الدم: تاريخه ـــ مخطوط، ص١٤٤. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ٢، ص٢٣٧.

(٧) عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص٢٦٨.

١ ـــ إن ما ذاقه وعاناه أهل حلب ومناطقها من التخريب والنهب والقتل على أيدي الفرنجة الصليبيين كان يكفيهم دون شك.

٢ ـــ إن كسب ودّ الأهالي من قبل قائد يحارب أعداءه هو الأمر الطبيعي، وليس العكس وهو ما مارسه قبله إيلغازي الذي استدعاه أهل حلب واستقبلوه في كل مرة كان يدخل فيها حلب، وكما فعل آق سنقر قسيم الدولة عندما كسب ثقة أهل حلب بنشر الطمأنينة بينهم ليتفرغ لمنافسيه، وكذلك عندما خرج أهل حلب لاسترضاء البرسقي كما سيأتي.

وهكذا يمكن القول إن ما قام به بلك قبيل استيلائه على حلب إنما يدل أيضاً على أمرين:

١ ـــ إما أن بلك كان يريد حكم حلب والبقاء فيها بالقوة وهو خلاف ما أعلن عنه لأحد أمراء حلب حين قال له وهو في طريقه إليها بأن هدفه ليس ملك حلب وإنما محاربة الفرنجة الصليبيين وكشفهم عنها، وقتالهم حتىٰ الهزيمة.

٢ ـــ أما إذا كان استخدامه العنف للاستيلاء على حلب في أقصر مدة ليتفرغ لقتال الفرنجة الصليبيين، فإن ما قام به لا يدل على الصفات القيادية كالحذق والذكاء والفهم لمتطلبات الحروب والتي كان على قائد مثل بلك أن يتمتع بها، ويؤكد ذلك تمكن الأمير الفرنجي الصليبي جوسلين من الهرب من سجنه من قلعة خرتبرت ليقوم بشن غارات إنتقامية على القرىٰ والمناطق الغربية من حلب، وكان عليه أن يشدد عليه في السجن وأن لا يدع له فرصة للهرب مهما كانت الأسباب.

تسلم بلك بن بهرام حلب من ابن عمه سليمان بن عبد الجبار، ومن الأمراء مقلّد بن سقويق، ومفرج بن الفضل وغيرهم، وذلك صباح الثلاثاء أول جمادىٰ الأولىٰ سنة ٥١٧ هـ/ ٢٧ حزيران ١١٢٣ م، وتسلم قلعتها يوم الجمعة الرابع من نفس الشهر[١]، أي بعد يوم واحد من نزول بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق منها[٢].

بدأ بلك حكمه في حلب بتنظيم أمورها الإدارية، ثم أرسل سلطانشاه بن رضوان إلى حران خوفاً من أن يثير بوجهه المتاعب.

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٣٢. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٦١١. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٧٦. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٢، ص ٢٤٨. ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ ٥، ص ٤٩٠. الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ٨٥. محمد راغب الطباخ: أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، جـ ١، ص ٤٤٧ ـــ ٤٤٨. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٥١٤. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٢٦٨.

(٢) ابن العديم ـــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٧٦.

بعد أن استقر بلك في حلب بدأ يشن الهجمات على المواقع الفرنجية الصليبية القريبة منها، فهاجم البارة وأسر حاكمها الأسقف ووضع عليه الحراسة، لكنه ما لبث أن هرب من حراسه والتجأ إلى كفر طاب، فقرر بلك مهاجمتها واستعادة الأسقف الهارب، وذلك يوم الثلاثاء ١٢ جمادىٰ الأولىٰ سنة ٥١٧ هـ/ ٨ تموز ١١٢٣ م(*).

أثناء مهاجمة بلك لكفر طاب وصله خبر بأن أسرىٰ الفرنجة الصليبيين وعلى رأسهم بلدوين الثاني وجوسلين وغاليران هربوا من حصن خرتبرت واستولوا عليه، ونهبوا كل ما كان لبلك فيه وأن بلدوين بقي في الحصن بينما أرسل جوسلين لطلب النجدة من الفرنجة الصليبيين والعودة بأسرع ما يمكن، وما أن سمع بلك الخبر حتىٰ أسرع إلى خرتبرت وقاتل الفرنجة الصليبيين واستعاد حصنها بالقوة وقتل من كان به من أصحابه الذين خانوه ومن الفرنجة الصليبيين، وأبقىٰ فقط على الأميرين بلدوين الثاني وغاليران وكذلك ابن أخت تنكريد حيث أرسلهم إلى حران واعتقلهم هناك(١).

وصل جوسلين إلى القدس ثم عاد بحشد من الفرنجة الصليبيين لينتقم من بلك. فاستقر أمره على مهاجمة حلب ومناطقها في غياب بلك عنها، فهاجم بزاعة والمناطق المحيطة بها وأحرق بعض بيوتها وقطع أشجارها، ثم تقدم إلى قرية حيلان(٢) والجهة الشمالية من حلب فخرب مشاهدها وبساتينها، ثم وصل إلى الجانب الغربي في البقعة السوداء فخرب مشاهده وبساتينه أيضاً، وكذلك فعل بالجانب القبلي، وكانت تخرج إليه يومياً قوة من جند حلب تقاتله أشد القتال، وتنتصر عليه(٣).

يبدو من مجريات الأحداث أنه لم يبقَ في حلب جيش منظم إثر ذهاب بلك إلى خرتبرت، وأصبحت الساحة خالية في شمال بلاد الشام أمام الفرنجة الصليبيين إلا من بعض الجند من أهل حلب الذين كانوا يذهبون مع اللصوص وقطاع الطرق للإغارة على معسكرات الفرنجة الصليبيين ومواقعهم لتهديدهم وإبعادهم عن مدينة حلب وكانوا يعودون ومعهم أسرىٰ في بعض

(*) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٣٣. العظيمي: تاريخه، ص ٣٧٢. ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ٢١٨.

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٣٣. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٦١٣، ويذكر أن الذي ذهب إلى بيت المقدس للنجدة هو بلدوين الثاني وليس جوسلين، ولم يورد هذه الرواية غيره، بينما يذكر ابن القلانسي، وابن العديم: أن جوسلين هو الذي ذهب إلى القدس لطلب النجدة. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٧٧. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٢، ص ٢٣٧، ويقول: استولىٰ الفرنج على خرتبرت وكان بها جوسلين وغيره من الفرنج محبوسين وخلصوهم. معروف رزوق: تاريخ شيزر، ص ١٦٩، ويقول إن خمسين من الأرمن دخلوا قلعة خرتبرت متنكرين فتغلبوا على حاميتها وسيطروا عليها.

(٢) حيلان: من قرىٰ حلب، تخرج منها عين فوارة كثيرة الماء، تسيح إلى حلب، وتدخل إليها في قناة وتتفرق إلى الجامع وإلى جميع مدينة حلب، ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٢، ص ٣٣٢.

(٣) ابن العديم ـ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٧٨.

الأحيان[*].

وفي الأول من رمضان سنة ٥١٧ هـ/٢٣ تشرين أول ١١٢٣ م، اعتدىٰ جوسلين على منطقة السعدي وقطع أشجارها، فهرب أهلها أمامه فاستولىٰ على دوابهم وأدواتهم، ووصل الأمر بجماعته إلى حد الاعتداء على القبور ونبشها وإحراق أمواتها، مما أثار حمية أهل حلب فاضطر قاضيها ابن الخشاب إلى إصدار أمر وافقه عليه مقدمو حلب يقضي بتحويل الكنائس التي بحلب إلى مساجد، وسمىٰ كنيستهم العظمىٰ مسجد السراجين[١].

تابع جوسلين إنتقامه فتوجه في ١٩ رمضان سنة ٥١٧ هـ/١١ تشرين الثاني ١١٢٣ م، إلى الوادي والنقرة والأحص فاستولىٰ على بعض الخيول وكثيراً من البقر والغنم والجمال والدواب، وقتل وسبىٰ وخرب وعاد إلى تل باشر. كما أغار على الجبول وما حولها وأخذ كثيراً من الدواب ثم توجه إلى دير حافر فهرب أهلها واجتمعوا بمغارة القرية فأشعل النار ببابها فخنقهم بالدخان[٢]. ولم يفت صاحب الأثارب الصليبي المساهمة بهذه الغارات والهجمات، فقد توجه بقواته إلى مناطق الحانوتة وحلفا ونهب عدداً من الخيول واستولىٰ على قافلة كانت محملة بالغلال والمواد قادمة من شيزر.

في هذه الأثناء كان الأمير بلك قد حشد قواتاً ضخمة، وعبر الفرات إلى الشام وذلك في يوم الأربعاء ١٦ ذي القعدة سنة ٥١٧ هـ/١٤ كانون الثاني ١١٢٤ م، والتقىٰ به كل من طغتكين وآق سنقر البرسقي بقواتهما، وتوجهوا جميعاً إلى اعزاز فحاصروها، بينما تجمع الصليبيون وتوجهوا صوب التركمان ليبعدوهم عنها، والتقىٰ الجيشان في معركة حامية كان النصر فيها حليف الفرنجة الصليبيين وهزم بلك وحلفاؤه وتراجعوا بعد أن قتل عدد منهم وأسر عدد آخر[٣].

كان أهل حلب ومناطقها ينتظرون الكثير من تجمع بلك وحلفائه ليخلصوهم من أعمال الفرنجة الصليبيين ويضعوا حداً لتعدياتهم، إلا أن آمالهم خابت من جراء الهزيمة التي لحقت

(*) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٨٠.

(١) العظيمي: تاريخه، ص ٣٧٣. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٧٩، وكان اسمها في زمنه مدرسة الحلاويين، ومدرسة الحدادين (كنيسة الحدادين ومدرسة ابن المقدم «المقدمية»). ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، جـ ١، القسم الأول، ص ١١٠، ويجعل ذلك سنة ٥١٨ هـ. ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ٨٣، يذكر أماكن وجود الكنائس التي أصبحت مساجد وهي: الحلاوية، الحدادين، الحطابين، المسجد القريب من حمام موغان.

(٢) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٧٩.

(٣) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٨٠. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٢٧٢، وهو يقول: إن طغتكين والبرسقي وصلا إلى بلك قبل قطعه الفرات ثم قطعوه معاً، بينما يذكر ابن العديم: أن بلك قطع الفرات ثم إلتقىٰ بحلفائه وهو الأصوب.

بهم، ويبدو أن سبب الهزيمة عائد إلى التعب الذي أصاب هذه القوات في تنقلاتها، إضافة إلى عدم إخلاصها في القتال من جهة، وإلى الدعم والمساعدة التي كان الفرنجة الصليبيون يتلقونها من جميع صليبيي بلاد الشام وخاصة بيت المقدس وطرابلس من جهة أخرى.

بعد الهزيمة التي مني بها بلك وحلفاؤه قام بعمارة بعض الحصون وتقويتها كحصن الناعورة بالنقرة وحصن المغارة على شط الفرات، ثم دخل حلب وتزوج بالخاتون فرخنده بنت رضوان وذلك في يوم ٢٣ ذي الحجة سنة ٥١٧ هـ/ ١٢ شباط ١١٢٤ م، ليضفي على حكمه صفة الشرعية[١].

اتخذ بلك قراره بالإقامة والاستقرار في حلب، ولذلك قام ببعض الأمور السياسية والإدارية ومنها:

١ ــ قبض على نائب بهرام داعي الباطنية بحلب وأمر بإخراج أتباعه منها، فباعوا متاعهم ورحالهم وغادروها[٢].

٢ ــ في المحرم من سنة ٥١٨ هـ/ شباط ــ آذار ١١٢٤ م، عزل رئيس حلب سليمان العجلاني وعيّن مكانه رجلاً من حران اسمه محمد بن سعدان[٣].

٣ ــ قضى على اللصوص وقطاع الطرق ونشر الأمن وحسم أرباب الفساد.

٤ ــ نقل أسراه الفرنجة الصليبيين بلدوين الثاني ومن معه من سجن حران إلى قلعة حلب.

نتيجة لهذه الإجراءات أعاد بلك للدولة هيبتها، وأمر بفتح أبواب حلب ليلاً ونهاراً[٤]، فدبت الحياة من جديد في النشاط الاقتصادي لحلب ومناطقها، ثم استأنف نشاطه ضد الفرنجة الصليبيين، فأرسل قوة من التركمان إلى ناحية اعزاز فاشتبكت معهم في منطقة مشحلا[٥]، فانتصر التركمان وقتلوا من أعدائهم أربعين مقاتلاً من الخيالة والمشاة واستولوا على خيلهم ومتاعهم وهرب الآخرون إلى اعزاز وجلّهم من الجرحى[٦].

---

(١) الناعورة: موضع بين حلب وبالس، فيه قصر مسلمة بن عبد الملك، وماؤه من العيون وبينه وبين حلب ثمانية أميال. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٥، ص ٢٥٣. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٨٠.

(٢) العظيمي: تاريخه، ص ٣٧٣. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٨٠.

(٣) العظيمي: تاريخه، ص ٣٧٣. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٨٠.

(٤) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٨١.

(٥) مشحلا: قرية من نواحي اعزاز من أعمال حلب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٥، ص ١٣٢.

(٦) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٦١٧. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٨١.

• بلك بن بهرام وحسان بن كمشتكين أمير منبج:

وبينما كان بلك يتلقىٰ خبر انتصار قواته في مشحلا وصله نبأ من منبج أن حاكمها حسان بن كمشتكين كان يغتابه بما لا يسر، فتنكر له بلك وأرسل إليه قوة من جيشه يقودها ابن عمه حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق، وطلب منه إعمال الحيلة للقبض على حسان وأخذ منبج منه، وحاول حسام الدين تمرتاش أن يعمل الحيلة مع خصمه فطلب منه الخروج معه للإغارة على تل باشر فلما خرج إليه ألقىٰ القبض عليه واعتقله في حصن بالو[1].. بعد أن أذاقه العذاب، دخل حسام الدين تمرتاش بقواته إلى منبج[2]، ولكنه لم يتمكن من حصنها لاعتصام عيسىٰ أخو حسان بها، وقيامه بتنظيم أموره الدفاعية. لكنه بالرغم من كل ذلك فإنه أدرك أن تمرتاش لن يترك الحصن حتىٰ يأخذه، ولذلك فإنه اتصل بالفرنجة الصليبيين وتحالف معهم لفك الحصار وقيل إنه نادىٰ بشعارهم، وكتب إلى جوسلين يستنجده وقال له: «إن وصلتني وكشفت عني عسكر بلك سلمت إليك منبج»[3].

وهكذا دفع أسلوب بلك أحد نوابه في منبج للاستنجاد بالفرنجة الصليبيين واستعدائهم على العرب المسلمين لمجرد أن سمع بلك وشاية عنه، وكان الأحرىٰ ببلك أن يحاول تفهم الأمور واستيضاحها ومعالجتها بالسياسة والتدبير حتىٰ لا يدفع رجاله دفعاً لدعوة الفرنجة الصليبيين لحمايتهم، ومهما كانت قوته العسكرية وتمكنه من الانتصار على الفرنجة الصليبيين، فإن ذلك لا يعادل خسارته لنوابه وأصحابه وثقة الآخرين به، خاصة وأن الأمر وشاية، وقد تكون من تدبير الفرنجة الصليبيين أنفسهم للوصول إلى ما وصلوا إليه، بدليل أن حسان لبىٰ أمر بلك وخرج لمحاربة الفرنجة الصليبيين لمجرد أن تلقىٰ الدعوة من تمرتاش، ولو كان في نيته التمرد على بلك لما خرج لقتالهم.

كان جوسلين ينتظر مثل هذا العرض من عيسىٰ بن حسان ليعمل على احتلال منبج ولذلك فإنه مضىٰ إلى بيت المقدس وطرابلس وبقية المواقع الفرنجية الصليبية وحشد ما يزيد على عشرة آلاف مقاتل بين فرسان ومشاة وتقدم نحو منبج ليبعد القوات التركمانية عنها، حيث كان بلك قد وصل إليها وقاد الحصار بنفسه، فلما اقترب جوسلين من منبج توجه إليه بلك

---

(١) بالو: قلعة حصينة وبلدة من نواحي أرمينية بين أرزن وخلاط، ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ١، ص ٣٣٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٦١٩، ويقول: «في هذه السنة في صفر قبض بلك بن بهرام بن أرتق صاحب حلب على الأمير حسان البعلبكي صاحب منبج وسار إليها فحاصرها فملك المدينة وحاصر القلعة». ابن العديم ـ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٨١. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٥١٥.

(٣) ابن العديم ـ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٨٢.

بقواته، والتقى الجيشان يوم الاثنين الثامن عشر من ربيع الأول سنة ٥١٨ هـ/٦ أيار ١١٢٤ م. في معركة حامية كان النصر فيها لبلك وقواته، وقد لحق بالقوات المنهزمة وشن عليهم في ذلك اليوم خمسين غارة وهجوماً ويصف ابن العديم ذلك بقوله: «وحمل فيهم بلك ذلك اليوم خمسين حملة يفتك فيهم ويخرج سالماً، يضرب بالسيوف ويطعن بالرماح ولا يكلم، وعاد إلى منبج فبات مصلياً مبتهلاً إلى الله تعالى لما جدده على يده من الظفر بالفرنج»[*].

• مقتل بلك بن بهرام:

في اليوم التالي الثلاثاء ١٩ ربيع الأول سنة ٥١٨ هـ/١٧ أيار ١١٢٤ م، أعدم بلك أسرى المعركة، وتوجه إلى الحصن ليتابع الحصار مع الآخرين، وقد نصب عدة الحصار في مقابل الحصن، وبينما هو على الحصار وصله نبأ استيلاء الفرنجة الصليبيين على صور في ٢٣ جمادى الأولى سنة ٥١٨ هـ/٩ حزيران ١١٢٤ م[١]، فعزم على ترك ابن عمه حسام الدين تمرتاش في منبج، بعد أن زوده بالتعليمات والأوامر والمهمات لمتابعة الحصار، بينما استعد هو للتوجه إلى صور فما لبث أن أصابه سهم من الحصن، وقيل إنه كان من يد عيسى فأصاب كتفه اليسرى فانتزعه[٢]، ومات بعد ذلك فتفرق جيشه وحمل إلى حلب ودفن فيها[٣].

في هذه المرة أيضاً وبعد كسر بلك لجوسلين كان بإمكانه أن يظهر كقائد سياسي محنك يريد جمع العرب المسلمين لحرب الفرنجة الصليبيين ويبادر لمصالحة حسان بن كمشتكين ويطلق سراحه ويكسبه إلى جانبه في حربه وبذلك يتمكن من توجيه ضربة حاسمة للفرنجة الصليبيين، وبالتالي يتمكن من فرض سيطرته على غالبية المناطق الشمالية لبلاد الشام، ولكنه فضل متابعة الحصار فخسر حياته أمام الحصن.

بالرغم من أن بلك كان قائداً عسكرياً فذاً ومقاتلاً شديد المراس، إلا أنه لم يمتلك الحنكة الإدارية والدراية السياسية، وقد ظهر ذلك من خلال ما قام به أثناء قدومه للاستيلاء على حلب، ثم ما تصرف به مع حسان بن كمشتكين حاكم منبج، ولو كان سياسياً لاستطاع أن

(*) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٨٣. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٦١٩، أورد شبيه نص ابن العديم.

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٣٧. محمد مختار باشا: التوفيقات الإلهامية، حوادث سنة ٥١٨ هـ، ص ٥٥٠.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٨٣.

(٣) العظيمي: تاريخه، ص ٣٧٤. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٦١٩. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٨٣. الذهبي: العبر في خبر من غبر، جـ ٤، ص ٣٧. اليافعي اليمني المكي: مرآة الجنان، جـ ٣، ص ٢٢٢. ابن العبري: مختصر تاريخ الدول، ص ٣٥٢ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ ٢، ص ٢٣٧. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٢، ص ٢٣٧. الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ٨٦. محمد راغب الطباخ: أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، جـ ١، ص ٤٤٨ ـ ٤٥٥. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٥١٥. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٢٧٤. سعيد أحمد برجاوي: الحروب الصليبية في المشرق، ص ٢٤٣.

يحجم الفرنجة الصليبيين ويحصرهم في مناطق محدودة لكن سرعة مقتله أعطتهم الفرصة لأخذ زمام المبادرة في الهجوم على المواقع العربية الإسلامية من جديد.

٤ ــ حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي في حلب وموقفه من الفرنجة الصليبيين:

بعد مقتل بلك عاد تمرتاش بجيشه إلى حلب فوصلها يوم الأربعاء ٢٠ ربيع الأول سنة ٥١٨ هـ/ ٨ أيار ١١٢٤ م، وقد دخل القلعة ورفع أعلامه عليها ونادى الناس بشعاره[*] ثم أصدر أمراً برفع الحصار عن منبج وقلعتها، فعاد إليها حاكمها حسان بعد أن أطلق سراحه[١]، وبدلاً من أن يقتفي تمرتاش سيرة أبيه في حلب، ويتابع مسيرته، فإنه إنشغل عن كل ذلك بأمور اللهو والدعة والمجون والرفاه[٢]، ويصف ابن العديم الأوضاع بحلب في فترة حكم تمرتاش بقوله: «وأما تمرتاش فإنه لما ملك حلب ألهاه الصبا واللعب عن التشمير والجد والنظر في أمور الملك، ففسدت الأحوال، وضعف أمر المسلمين»[٣]. وأخذ يتخبط في تصرفاته ويعزل ويولي، فعزل محمد بن سعدان الحراني عن رئاسة حلب وعيّن فضائل بن بديع[٤]، كما استوزر أبا محمد بن الموصول وذلك في ربيع الثاني سنة ٥١٨ هـ/أيار ــ حزيران ١١٢٤ م، ثم عزله بعد أقل من ثلاثة أشهر أي في رجب من نفس العام بعد أن صادر أمواله وممتلكاته، واستوزر بدلاً عنه أبا الرجاء بن السرطان، كما أرسل إلى حران من قبض على سلطانشاه بن رضوان[٥]، ثم عيّن تمرتاش نائباً عنه في حلب المقدم عمر الخاص، كما عيّن على قلعة حلب رجلاً اسمه عبد الكريم[٦].

في الوقت الذي كان فيه تمرتاش ينظم أمور الإدارة في حلب، أغار نائب جوسلين في الرها على رأس قوة فرنجية صليبية على أراضي شبختان في ديار بكر، فنهب المنطقة وعاث فيها

(*) العظيمي: تاريخه، ص ٣٧٤. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٨٤. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٢، ص ٢٣٧. الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ٨٦. محمد راغب الطباخ: أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، جـ ١، ص ٤٥٠ ــ ٤٦٠. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٥١٥. محمد مختار باشا: التوفيقات الإلهامية، حوادث سنة ٥١٧ هـ، ويخطىء إذ يجعله سنة ٥١٧ هـ.

(١) العظيمي: تاريخه، ص ٣٧٤. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٦١٩. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٨٤. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٢، ص ١٩٤. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٢، ص ٢٣٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٦١٩.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ ٢، ص ٥٨٤.

(٤) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥ م، ص ٣٧٤.

(٥) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥ م، ص ٣٧٤، ويقول: «وقبض تمرتاش على سلطانشاه بن الملك رضوان وحبسه بماردين فهرب منها إلى داود»، وهو داود بن سكمان صاحب حصن كيفا.

(٦) ابن العديم ــ المصدر السابق، ٢ص ٥٨٤.

فساداً فأرسل إليه تمرتاش نائبه في حلب المقدم عمر الخاص ومعه ثلاثمائة فارس، فانتصر على القوة الفرنجية الصليبية في مرج أكساس، وقتل قائدها وعدداً كبيراً من قواته، وغنم ما معهم وبعث برؤوس القتلىٰ والغنائم إلى تمرتاش في حلب وذلك في العشر الأخير من ربيع الأول سنة ٥١٨ هـ[*]/ نيسان ـ أيار ١١٢٤ م.

• صلح حسام الدين تمرتاش مع الفرنجة الصليبيين:

في مطلع جمادىٰ الأولىٰ من سنة ٥١٨ هـ/ ١٦ حزيران ١١٢٤ م، جرت مفاوضات بين تمرتاش وبين بلدوين الثاني الذي كان أسيراً في حلب منذ أيام بلك تم من خلالها الاتفاق على ما يلي:

١ ـ أن يطلق حسام الدين تمرتاش سراح بلدوين الثاني مقابل ما يلي:

١ ـ تنازل الفرنجة الصليبيين عن بعض المواقع وتسليمها لتمرتاش وهي: الأثارب، زردنا، الجزر، كفر طاب، اعزاز.

٢ ـ أن يتعهد الفرنجة الصليبيون بدفع مبلغ ثمانين ألف دينار يدفع منها عشرون ألفاً مقدماً.

٣ ـ أن يبعد بلدوين الثاني دبيس بن صدقة عن قلعة دوسر[1].

وكان حسام الدين تمرتاش قد وضع هذا الشرط الأخير لأن دبيس بن صدقة كان قد دبر مؤامرة مع جماعة من أهل حلب، وأرسل لهم مبلغاً من المال مقابل مساعدته في تسلم حلب، إلا أن الرئيس فضائل بن صاعد كشف المؤامرة وأعلم بها تمرتاش فقضىٰ عليها في المهد وقبض على المتعاملين مع دبيس فأعدم بعضهم شنقاً، وعذب بعضاً آخر، وصادر أموال وممتلكات بعض آخر[2].

وقد كان أبو العساكر سلطان بن منقذ أمير شيزر هو الوسيط حيث أرسل أولاده وأولاد أخوته إلى حلب كرهائن مقابل كفالته لبلدوين الثاني حتىٰ يفي بما تعهد به.

عندما وصلت الرهائن إلى حلب أطلق تمرتاش سراح بلدوين الثاني وأحضره إلى مجلسه فأكرمه وقدم له الطعام وخلع عليه، وأعاد إليه الحصان الذي أخذه بلك منه يوم أسره، وسار

(*) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٨٥.

(١) العظيمي: تاريخه، ص ٣٧٤، ويقول: «وباع تمرتاش الملك بغدوين بأموال ومعاملة بوساطة ابن منقذ وسلمه إليهم». ابن العديم ـ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٨٥، ويقول: «إن دبيس بن صدقة ترك بلاده منهزماً من المسترشد فحمل ما قدر عليه من العين والعروض على ظهور المطايا، وفد على ابن سالم بن مالك بن بدران إلى قلعة دوسر واستجار به فأجاره وغاضب الخليفة المسترشد والسلطان محمود في أمره». عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٢٧٩، ويورد أن تمرتاش شرط على بلدوين إبعاد دبيس عن قلعة حلب، وهذا وهم لأن دبيس لم يصل إلى حلب ولا قلعتها، لكنه حاول الوصول من خلال التآمر ففشل. معروف رزوق: تاريخ شيزر، ص ١٦٩.

(٢) ابن العديم ـ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٨٥. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٢٧٩.

بلدوين إلى شيزر يوم الأربعاء ٤ جمادىٰ الأولىٰ سنة ٥١٨ هـ/ ٢٠ تموز ١١٢٤ م[1]

عند وصول بلدوين الثاني إلى شيزر أبقاه أبو العساكر تحت الإقامة الجبرية حتىٰ يحضر عدداً من الفرنجة الصليبيين كرهائن ريثما يتم تنفيذ شروط الاتفاق الذي عقده مع تمرتاش، وحضر الرهائن وهم: ابنة بلدوين الثاني وابن جوسلين وعشرة آخرين فتسلمهم أمير شيزر، كما تسلم العشرين ألف دينار المتفق عليها، فأطلق سراحه في السابع عشر من رجب سنة ٥١٨ هـ/ ٣١ آب ١١٢٤ م[2] وأحسن إليه وأكرمه.

عندما رجع بلدوين الثاني إلى مواقعه أرسل رسالة إلى تمرتاش يوضح فيها: إنّ البطريرك ــ الذي لا يستطيع مخالفة تعليماته ــ احتج على قبوله بتسليم اعزاز وحصنها وطلب منه الرجوع عن الاتفاق، وأمره بالدفاع عنها، ومما جاء في رسالته «البطريرك الذي لا يمكن خلافه سألني عمّا بذلت، وما الذي استقر، فحين سمع حديث اعزاز وتسليم حصنها حتىٰ رفض ذلك وأمرني بالدفع عنها... وقال إن خطيئتك تلزمني، ولا أقدر على خلافه»[3].

لا شك أن ما تذرع به بلدوين الثاني لم يكن إلا سبباً واهياً لنقض الاتفاق، وبالتالي ليس العدول عن تسليم اعزاز وحدها؟ بل وغيرها من المناطق والمواقع أيضاً لأن بلدوين وغيره من قادة الفرنجة الصليبيين كانوا يدركون أن تسليم اعزاز وخروجهم منها يعني إنكشاف الطريق إلى أنطاكية وهذا ما لم يسمحوا به، كما أنهم يعرفون دون شك أن تمرتاش غير قادر على تنفيذ بنود الاتفاق بقوة السلاح، ويدل ذلك من جهة أخرىٰ على «مدىٰ قصر نظر تمرتاش وتورطه في إطلاق سراح بلدوين الثاني دون ضمانات سياسية ونقدية مؤكدة»[4]، وكان بإمكان تمرتاش الإبقاء على أسر بلدوين حتىٰ يتسلم المواقع التي جاء ذكرها في الاتفاق ثم يطلق سراحه.

أرسل تمرتاش عدة رسل إلى بلدوين يطالبه بتنفيذ الاتفاق المبرم بينهما، إلا أن بلدوين كان يحاول التسويف والتهرب، ولم يصل معه تمرتاش إلى نتيجة أو جدوىٰ في مراسلاته.

وفي هذه الأثناء ظهرت أطماع دبيس بن مزيد أمير الحلة بإمارة حلب، فاتصل بأمراء الفرنجة الصليبيين بلدوين وجوسلين وأطمعهما بحلب، واتفقوا وتعاهدوا على عدة أمور منها: ١ ــ أن تكونَ إمارة حلب لدبيس باعتبار أن أهلها شيعة ومتىٰ رأوه سلموا إليه البلد باعتباره

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٨٦. ابن المنقذ: الاعتبار، ص ١٠٣، ويقول: إن تمرتاش خلع عليه قباءً ملكياً وحذاءً وأعاد له الحصان.

(٢) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٨٦. معروف رزوق: تاريخ شيزر، ص ١٧٠.

(٣) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٨٦.

(٤) عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٢٨٠.

على مذهبهم وتعهد لهما بالولاء والطاعة وقال لهما: «إنني أكون هنا ـ أي في حلب ـ نائباً عنكم مطيعاً لكم»[1]، وبذل لهما بذولاً كثيرة ليساعدوه في تحقيق هدفه.

٢ ـ أن تكون الأموال والمواقع المحيطة بحلب والقريبة منها للفرنجة الصليبيين، وكان واسطة الاتصال بين الطرفين الأمير مالك بن سلام صاحب قلعة جعبر، وما أن تم الاتفاق بين الطرفين حتىٰ زحف دبيس بقواته ووصل إلى مرج دابق، فتصدىٰ له تمرتاش بقواته فهزمه[2].

عندها أيقن تمرتاش من غدر الفرنجة الصليبيين ونقض بلدوين الثاني للاتفاق المعقود بينهما، فاضطر لمغادرة حلب إلى ماردين في ٢٥ رجب سنة ٥١٨ هـ/ ٨ أيلول ١١٢٤ م، ليستنجد بأخيه سليمان بن إيلغازي ويحشد قوات جديدة يعود بها إلى حلب[3]، أما في حلب نفسها فقد بقي أولاد بني منقذ رهائن في حلب، وفي شيزر بقي رهائن الفرنجة الصليبيين لدىٰ أبي العساكر بن منقذ.

• حصار حلب وموقف الحلبيين من الحصار:

ظلت الرسل تتردد بين تمرتاش وبلدوين دون جدوىٰ، وما لبث أن وصله خبر نقض بلدوين للاتفاق وزحفه بقواته على أرتاح في ١٨ شعبان سنة ٥١٨ هـ/ ٢٩ أيلول ١١٢٤ م، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تابعها إلى قويق، فعاث فساداً فيها وخرب المناطق الزراعية المحيطة بها، وتابع زحفه حتىٰ وصل إلى مشارف حلب في ٢٦ شعبان سنة ٥١٨ هـ/ السادس من تشرين أول ١١٢٤ م، وقد وافاه هناك دبيس وجوسلين قادمين من تل باشر فأفسدا المحاصيل الزراعية في طريقهما كالقطن والدخن، وقدرت قيمة الخسائر بمائة ألف دينار ثم تابعا مسيرهما إلى أن وصلا إلى مشارف حلب حيث اجتمعا ببلدوين، وقد إنضم إليهم أيضاً كل من سلطانشاه بن رضوان مع أنصاره، وياغي سيان بن عبد الجبار بن أرتق أمير بالس، وحاصر الجميع حلب من جميع جهاتها[4]، ولكل مصلحته في حصارها، ويصف ابن

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٦٢٣. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٢، ص ٢٤٩.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٨٥. ابن المنقذ: الاعتبار، ص ١٠٣.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٨٧. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٦١٩، ويقول: «إن تمرتاش عاد إلى ماردين لأنه رأىٰ الشام كثيرة الحرب مع الفرنج، وكان رجلاً يحب الدعة والرفاه...». ويؤيده في ذلك GIBB. OP. CIT. . / ٤٢٥ حيث يشير إلى أن تمرتاش انسحب من حلب بعد أن يئس من الدفاع عنها، وجعل على حراستها قوة قوامها خمسمائة فارس فضلاً عن سكانها. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٢٨١، حاشية رقم / ٤ /.

(٤) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٣٧. العظيمي: تاريخه، ص ٣٧٥. سعيد أحمد برجاوي: الحروب الصليبية في المشرق، ص ٢٤٩.

العديم توزع القوات المتحالفة حول حلب وما قامت به بقوله: «ونزل بلدوين من الجانب الغربي في الحلبة، أما جوسلين فنزل على طريق عزاز وما يجاوره يمنة ويسرة، ونزل دبيس وصحبته عيسىٰ بن سالم بن مالك العقيلي وسلطانشاه بن رضوان بن رضوان مما يلي جوسلين من الشرق، ونزل ياغي سيان بن عبد الجبار بن أرتق صاحب بالس مما يلي دبيس من الشرق، وكانت عدة الخيم ثلاثمائة، للفرنج مائتا خيمة وللمسلمين مائة خيمة»[1]، وقد تعاهدوا أن لا يتركوا الحصار إلا بعد احتلال حلب «ووطنوا أنفسهم على المقام الطويل، وإنهم لا يغادرونها حتىٰ يملكوها، وبنوا البيوت لأجل البرد والحر»[2]، وبدأوا بالإغارة على حلب، وأعملوا فيها النهب، وقطعوا الأشجار، وخربوا المزارات، ونبشوا القبور، ومثلوا بالموتىٰ واعتدوا بأقوالهم وأفعالهم على المقدسات والمحرمات الإسلامية[3]، وقد قام دبيس وأتباعه بدور مشين في هذا الحصار حتىٰ أن أهالي حلب كانوا يصيحون ضده دبيس يا نحيس[4].

وأمام هذه الأعمال استبسل الحلبيون في الدفاع عن أنفسهم ومقدساتهم ومدينتهم بالرغم من المجاعة التي تفشت بينهم لقلة المؤن، وغلاء الأسعار، فكانت تخرج من بينهم سراً جماعات فدائية تغير على معسكرات الفرنجة الصليبيين فتأسر وتقتل وتنهب ثم تعود. وبالرغم من هذه المناوشات المتبادلة، فإن الرسل كانت تتردد أيضاً من أجل التوصل إلى الصلح والاتفاق لكن دون نتيجة.

وهكذا نرىٰ بعضاً من أمراء العرب والتركان يتعاونون مع الفرنجة الصليبيين، ضد سكان حلب وأمرائها الذين كانوا يحكمونها، وتمكن الفرنجة الصليبيون بذلك في تفرقة صفوف العرب المسلمين، وضرب العرب بالتركان بغية إضعافهم جميعاً، فدبيس بن صدقة أمير الحلة كان على خلاف مع الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي في بغداد، وهو يطمع بملك حلب ويقدم نفسه رخيصة لأعدائه ويقول لهم: «إنني أكون هنا نائباً عنكم مطيعاً لكم»[5]، وكان الذي يساعده على اتصاله بالفرنجة الصليبيين الأمير مالك بن سالم أمير قلعة جعبر، والملك سلطانشاه الذي أخرج من حلب كرهاً، وهو يريد استعادة ملكه مهما كانت الوسيلة ومهما غلا الثمن، وكذلك الأمير ياغي سيان بن عبد الجبار بن أرتق أخو سليمان الذي جرده

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٨٨.
(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٣٨. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٦٢٣. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٢، ص ٢٣٧.
(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٨٨، وكذلك ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ المجلدة الأولىٰ، ص ٢٠٩.
(٤) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٨٩.
(٥) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٦٢٣. سيد علي الحريري: الأخبار السنية، ص ٦١.

بلك ومن بعده تمرتاش من إمارة حلب، وهو يريد الانتقام، ويعتبر نفسه أحق بالإمارة من أخيه، فماذا لو تم التفاهم بين هذه القوى مجتمعة؟! مهما كان تعدادها وقوتها وبين من هم داخل حلب بعد أن يتخلوا عن جزء من كبريائهم، لا شك أن الأمور ستكون أفضل كثيراً، وإضافة إلى ذلك لو تنازل أمراء وملوك هذه القرى عن بعضٍ من مطامعهم، وبدلاً من أن يوجهوا قوتهم وأسلحتهم إلى من بحلب ويعيثوا بأرضها فساداً، لو أنهم ضموا قوتهم إلى قوة حلب وتوجهوا جميعاً إلى الفرنجة الصليبيين العدو الأول لهم جميعاً لتمكنوا من تحقيق شيء ما ولو أضفنا إليهم بعض الأمراء الذين وقفوا على الحياد أمثال أمراء شيزر، مما لا شك فيه أن الفرنجة الصليبيين لن يتمكنوا من اكتساح المنطقة وعلى أقل تقدير فإنهم لن يستطيعوا التنصل من تنفيذ التعهدات والاتفاقات التي عقدوها مع تمرتاش وغيره.

عندماحوصرت حلب من جميع جهاتها كان نائب تمرتاش بها الأمير بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار، وبها قوة مؤلفة من خمسمائة فارس يتولى تدبير شؤونها الحاجب عمر الخاص المتولي لشحنكية حلب، وفيها الرئيس القاضي أبو الفضل الخشاب، وكان يشرف بنفسه على حفظ المدينة، وتوزيع المواد التموينية والرواتب على الجند وغيرهم، وكان المتولي لقلعتها من قبل تمرتاش الأمير عبد الكريم.

قاوم أهل حلب الحصار مقاومة بطولية لكن المحاصرين شددوا من حصارهم، وبدأت المواد التموينية بالنفاذ[1]، وتعرض الأهالي للظلم والعسف والجور من قبل والي القلعة الأمير عبد الكريم والحاجب عمر الخاص، وقد صادرا أملاك جماعة من الأعيان وسلطا الجند عليهم، عند ذلك تشاور أهل حلب فيما بينهم واستقر رأيهم على إرسال وفد من وجهاء المدينة إلى ماردين لاستدعاء حسام الدين تمرتاش ليعمل على فك الحصار عنهم باعتباره والياً على حلب، وتم تشكيل الوفد وكان بين أعضائه القاضي أبو غانم محمد بن هبة الله بن أبي جراده، ونقيب الأشراف زهرة وابن الجلّي[2].

خرج الوفد ليلاً من حلب، وفي اليوم التالي علم الفرنجة الصليبيون بأنباء خروج الوفد، فأرسلوا قوة لإلقاء القبض عليه، وتخوف الحلبيون كثيراً على وفدهم بسبب الحالة التي وصلوا إليها، إلا أن الوفد أفلت من الفرنجة الصليبيين، وتمكن من الوصول إلى ماردين، وبعث إلى حلب يعلم بوصوله.

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٣٧. ابن العديم: زبدة الحلب، ص ٥٩٣ ــ ٣٩٤. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٢، ص ٢٤٩. ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ٢١٨ ــ ٢١٩.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٨٩.

عندما وصل الوفد الحلبي إلى ماردين وجد أن تمرتاش يكرس جهوده للاستيلاء على أملاك أخيه سليمان أمير ميافارقين الذي توفي في رمضان سنة ٥١٨ هـ/تشرين أول ــ تشرين ثاني ١١٢٤م، فأرسل إلى آق سنقر البرسقي أمير الموصل للاتفاق معه على قتال الفرنجة الصليبيين وإبعادهم عن حلب. وأخذ في تقديم الوعود للوفد الحلبي والمماطلة دون التنفيذ، أو إتخاذ أي إجراء يدل على قرب تنفيذه لوعوده، وكان أعضاء الوفد يقولون له: «نريد منك أن تصل بنفسك والحلبيون يكفونك أمرهم»[١].

إن عدم إسراع تمرتاش بتلبية طلب أهالي حلب، يؤيد ما أورده ابن الأثير من أن تمرتاش غادر حلب إلى ماردين لأنه رأىٰ الشام كثيرة الحرب مع الفرنجة الصليبيين، وهو رجل يحب الدعة والرفاهية[٢]، ولذلك تعلل بعدة أسباب لعدم الرجوع إليها.

أما الأوضاع في حلب فقد وصلت إلى وضع أصبح من الصعب على الحلبيين تحمله، ويصف ابن العديم هذه الأوضاع وما عاناه الحلبيون بقوله: «فضاق الأمر بالحلبيين إلى وضع أكلوا فيه الكلاب والميتات، وقلت الأقوات ونفذ ما عندهم، وانتشر المرض فيهم، فكان المرضىٰ يئنون لشدة المرض، فإذا ضرب البوق لزحف الفرنج قام المرضىٰ كأنما نشطوا من عقال وزحفوا إلى الفرنج وردوهم ثم عادوا إلى مضاجعهم»[٣]. إن هذا الوصف يدل ليس فقط على حالة الوهن والضعف التي وصل إليها أهل حلب، وإنما يدل أيضاً على الروح المعنوية العالية التي كانوا يتمتعون بها والتي كانت الدافع لهم للمقاومة والصمود، وإلى أن عبء المقاومة وقع على الأهالي دون الأمراء والجند القابعين في مواقعهم، وقد أرسل ابن القاضي أبي غانم رسالة إلى والده في ماردين يعلمه بما آل إليه الوضع في حلب، ولسوء حظ الوفد وقعت الرسالة بيد تمرتاش الذي غضب بعد قراءتها وقال: «انظروا إلى هؤلاء لا يتجلدون عليّ ويقولون إذا وصلت فأهل حلب يكفونك أمرهم ويغررون بي حتىٰ أصل في قلة، وقد بلغ بهم الضعف إلى هذه الحالة»[٤]، ثم أمر مراقبة الوفد وحراسته كي لا يغادر ماردين للاستنجاد بغيره من الأمراء.

ومن الغريب أن تمرتاش الذي كان عليه الإسراع والجد في نجدة أهل حلب عندما وقعت رسالتهم بيده وشعر بأنهم أحوج ما يكونون للمساعدة والنجدة نراه يتقاعس ويراقب الوفد،

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٩١.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٦١٩.

(٣) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٩١.

(٤) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٩١.

فلماذا؟! وهل كان تقاعسه وتهاونه فعلاً بسبب إنشغاله بالاستيلاء على أملاك أخيه واتصالاته بآق سنقر البرسقي، أم بسبب عدم رغبته في العودة إلى الشام كما تقدم، أم لأسباب أخرىٰ؟ إن المصادر المتوفرة لا تشير إلا للأسباب السابقة.

٥ ـ آق سنقر البرسقي في حلب وموقفه من الصليبيين:

قرر الوفد الحلبي ـ الذي يقيم إقامة جبرية في ماردين ـ بعد أن يئس من نجدة تمرتاش الهرب إلى الموصل للاستنجاد بالبرسقي، وتمكن أعضاء الوفد من الهرب ليلاً، وجدوا في السير حتىٰ وصلوا الموصل، ولكنهم فوجئوا بأن البرسقي مريض مرضاً شديداً، وعندما أعلم بوصول أفراد الوفد الحلبي سمح لهم بمقابلته بالرغم من مرضه، فدخلوا عليه وشرحوا له الحالة التي وصل إليها أهل حلب واستنجدوه واستغاثوه، فتأثر لهم وأكرمهم وقال لهم: «ترون ما أنا فيه الآن من المرض، ولكن قد جعلت لله عليّ نذراً إن عافاني من مرضي هذا لأبذلن جهدي في أمركم والذب عن بلدكم وقتال أعدائكم»[١].

لم يمضِ ثلاثة أيام على الوعد الذي قطعه البرسقي للوفد الحلبي حتىٰ تحسنت صحته وشفي من مرضه، فأمر بالتجهز والتأهب لقتال الفرنجة الصليبيين، وفك حصارهم عن حلب، وعندما أتم استعداداته تحرك على رأس قوات ضخمة[٢]، وأرسل إلى طغتكين أتابك دمشق، وصمصام الدين خير خان بن قراجا أمير حمص يستحثهما على اللقاء به مع قواتهما، وعند وصوله إلى الرحبة انضم إليه طغتكين وخيرخان[٣]. وزحفت القوات المتحالفة فوصلت إلى بالس[٤]، ولدىٰ اقتراب البرسقي من حلب هرب دبيس مع قواته إلى مواقع

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٦٢٣. ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٣٧، فإنه لا يشير إلى الوفد، ويقول فقط إن أهل حلب راسلوا الأمير سيف الدين آق سنقر البرسقي. ابن أبي الدم: تاريخه ـ مخطوط، ص ١٤٤. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٩٢، ويقول: «إن البرسقي كان مريضاً مرضاً مدنفاً، والناس قد منعوا من الدخول عليه إلا الأطباء والفروج يدق له لشدة الضعف، ووصل إلى دبيس من أخبره بذلك، فضرب البشارة في عسكره وارتفع عنده التكبير والتهليل، ونادىٰ بعض أصحاب دبيس أهل حلب: قد مات من أملتم نصره، فكادت أنفس الحلبيين تزق». أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٢، ص ٢٣٧، فعظم الأمر على أهلها ولم ينجدهم صاحبها تمرتاش لإيثاره الرفاهة والدعة، فكاتب أهل حلب آق سنقر البرسقي صاحب الموصل في تسليمها إليه.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٦٢٤، ويقول: «إن آق سنقر البرسقي عندما جمع عسكره وقصد حلب أرسل إلى أهلها وهو في الطريق يقول لهم: إنني لا أقدر على الوصول إليكم والفرنج يقاتلونكم إلا إذا سلمتم القلعة إلى نوابي، وصار أصحابي فيها، فإنني لا أدري ما يقدره الله تعالىٰ إذا أنا لقيت الفرنج، فإن إنهزمنا منهم وليست حلب بيد أصحابي حتىٰ أحتمي أنا وعسكري بها، لم يبقَ منا أحد، وحينئذ تؤخذ حلب وغيرها».

(٣) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٥٢٥.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٩٣. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٢٨٤.

الفرنجة الصليبيين الذين توجهوا إلى جبل جوشن، فانقض الحلبيون على خيام دبيس والفرنجة الصليبيين فنهبوها وأخذوا منها ما أرادوا.

استمر البرسقي في تقدمه نحو حلب فوصلها مع حلفائه يوم الخميس الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة ٥١٨هـ/٣١ كانون الثاني ١١٢٥م، فخرج إليه أهل حلب فاستقبلوه ورحبوا به[1]، وقد شن مع حلفائه هجوماً قوياً وخاطفاً على الفرنجة الصليبيين المتمركزين في جبل جوشن فانهزموا أمامه، فأعطى أوامره بعدم ملاحقتهم، وعندما طالبه القاضي ابن الخشاب بملاحقتهم وهم منهزمون والجيوش قادرة على سحقهم كان جوابه «يا قاض تعلم أن في بلدكم ما يقوم بكم وبعسكري لو قدر علينا والعياذ بالله كسرة؟... فقال ابن الخشاب لا فقال: ما يؤمننا أن يرجعوا علينا ويكسرونا ويهلك المسلمون، ولكن قد كفى الله شرهم، وندخل البلد ونقويه وننظر في مصالحه، ونجمع لهم إن شاء الله ونخرج إليهم بعد ذلك»[2].

إن جواب البرسقي لابن الخشاب إنما يدل على خبرة عسكرية وحنكة سياسية كان يتمتع بها البرسقي إذ ليس من الممكن الاستمرار في المعركة ومواصلة القتال إذا لم تكن القاعدة الخلفية والوحدة الوطنية في البلد قادرة على دعم القوات المحاربة، ومدها بالإمكانات اللازمة، وهو ما سعى إليه البرسقي.

كانت عملية مجيء البرسقي لإنقاذ حلب وهو حاكم الموصل أمر له دلالة كبيرة، إذ أن توحيد الموصل وحلب في دولة واحدة كان نقطة تحول كبيرة في تلك الفترة إذ فتح عهداً جديداً من الصراع القائم في المنطقة بين القوى العربية الإسلامية والقوى الفرنجية الصليبية. وسيكون هذا التوحيد بداية النهاية للوجود الفرنجي الصليبي مع بداية ظهور عماد الدين زنكي قادماً من الموصل، وفي الوقت الذي كان الفرنجة الصليبيون يعملون بكل طاقاتهم للاستيلاء على حلب ليسدوا الثغرة بين إمارتي أنطاكية والرها، ولتصبح خطوط مواصلاتهم مؤمنه، وتزداد قدرتهم على التحرك للاستيلاء على المنطقة بكاملها. كان الرد من آق سنقر البرسقي هو جمع حلب والموصل في دولة واحدة مما شكل خطراً كبيراً على الوجود الفرنجي الصليبي في شمال الشام والعراق، كما كان ظهور قوات البرسقي وحلفائه أمام أسوار حلب كافياً لضرب التحالف الفرنجي الصليبي مع بعض القوى المحلية، فبعد معركة جبل جوشن

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص٣٣٨. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ــ القسم المطبوع، ص١١٣. ابن أبي الدم: تاريخه ــ مخطوط، ص١٤٤. ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٦٢٣. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ٢، ص٢٣٨. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ص٥٢٥. سيد علي الحريري: الأخبار السنية، ص٦١ ــ ٦٢. عبد الكريم غرايبه: العرب والأتراك، ص٢٢٨.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٥٩٤.

انسحب دبيس بن صدقة شرقاً بينما عاد الفرنجة الصليبيون إلى أنطاكية[1].

• **أعمال البرسقي في حلب:**

بعد أن دخل البرسقي حلب وتسلم قلعتها قام بعدة إصلاحات وأعمال إدارية وسياسية، فأصدر عدة مراسيم: منها مرسوم برفع الضرائب والمصادرات عن أهل حلب والتي فرضت عليهم أثناء الحصار من قبل بعض المسؤولين فيها[2]، ويقول ابن القلانسي عن أعمال البرسقي في حلب «ودخل حلب وأحسن السيرة فيها، وأجمل المعاملة لأهليها، واجتهد في الحماية لها والمراماة دونها، بحيث صلحت أحوالها، وعمرت أعمالها وأمنت سابلتها. وتواصلت الرفق إليها ببضائعها وتجارتها»[3] أما ابن العديم فيقول: «ونظر في مصالح البلد وقواه وأزال الظلم والمكوس وعدل فيها عدلاً شاملاً وأحسن إليهم إحساناً كاملاً»[4] ثم تولىٰ نائباً عنه الأمير ساوتكين.

أعادت هذه الاصلاحات الإدارية والاقتصادية الاستقرار والرفاهية لسكان حلب وما حولها. بعد أن فقدت ذلك فترة من الزمن، وهكذا فإن مجيء البرسقي لم يكن تحجيماً للفرنجة الصليبيين فقط وإنما كان استعادة للعدل والأمن الشامل في حلب.

أما أعمال البرسقي السياسية فقد بدأها بإطلاق رهائن بني منقذ من الاعتقال، ثم توجه إلى تل السلطان أواخر المحرم سنة ٥١٩ هـ/أوائل آذار ١١٢٥م. حيث إلتقاه هناك خيرخان بن قراجا أمير حمص وأقام به ثلاثة أيام، ثم تحرك إلى شيزر فوصلها في السابع من صفر لهذه السنة، فرحب به أميرها ابن منقذ وقد تسلم رهائن الفرنجة الصليبيين وعلى رأسهم ابنة الملك بلدوين الثاني وابن جوسلين ولي عهد الرها مقابل ثمانين ألف دينار وهو المبلغ الذي نص عليه اتفاق تمرتاش — بلدوين— وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على أن البرسقي أصبح قائد القوىٰ العربية الإسلامية في شمال الشام مما مكنه من استئناف نشاطه العسكري ضد الفرنجة الصليبيين.

أقام البرسقي عدة أيام بأرض حماه واستقبل بها طغتكين، ثم زحف بقواته إلى كفر طاب فاستولىٰ عليها يوم الجمعة ٣ ربيع الآخر سنة ٥١٩ هـ/٨ أيار ١١٢٥م، وسلمها إلى

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص٣٣٨. العظيمي: تاريخ العظيمي، ص ٣٧٥. ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص ٦٢٥. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٥٩٣. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ١، ص٥٢٥.

(٢) عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٢٨٤.

(٣) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص٣٣٨.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ٥٩٤.

صمصام الدين خيرخان ثم زحف على اعزاز وبها جوسلين الصليبي وضرب عليها الحصار، فتنادىٰ الفرنجة الصليبيون من كل حدب وصوب واجتمعوا خيالة ومشاة لقتال البرسقي، والتقىٰ الطرفان في ٦ ربيع الآخر سنة ٥١٩ هـ/ ٢٢ أيار ١١٢٥ م، وجرىٰ بينهما قتال شديد كانت الغلبة فيه للفرنجة الصليبيين وكسر البرسقي كسرة عظيمة، وقتل من قواته أكثر من ألف قتيل وأسر عدد كبير منها، وعاد هو إلى حلب سالماً[*].

بعد عودة البرسقي إلى حلب أقام عدة أيام في منطقة قنسرين حيث غادرت جيوش حلفائه عائدة إلى بلادها، بينما وصل إليه الأمير صارم الدين بابك بن طلماس فولاه حلب بعد أن عزل عنها ساوتكين، ويبدو أن البرسقي فكر في العودة إلى الموصل فأجرىٰ مفاوضات بينه وبين الفرنجة الصليبيين كانت نتيجتها الاتفاق على أن تكون للبرسقي نصف المناطق التي في جبل السماق وغيره مما كان في أيدي الفرنجة الصليبيين، بعد ذلك تحرك عائداً إلى الموصل ليجمع الجيوش بعد أن خلف بحلب ابنه مسعود[1].

استغل الفرنجة الصليبيون فرصة مغادرة البرسقي حلب فهاجموا رفنيه، فاستنجد أميرها شمس الخواص بالبرسقي وطغتكين لكنه لم يتمكن من المقاومة حتىٰ وصول النجـدة، فاستسلمت رفنيه بعد حصار دام ثمانية عشر يوماً، تابع بعدها الفرنجة الصليبيون شن الغارات على القرىٰ والمناطق المحيطة بحمص وقد وصلت أنباء الاعتداءات على رفنيه وقرىٰ حمص إلى البرسقي، فأرسل إلى ولده عز الدين مسعود يأمره بالخروج لنجدة أمير حمص، بينما جمع هو العساكر وحشد القوات وتحرك باتجاه حلب، فوصل الرقة أواخر شهر ربيع الأول سنة ٥٢٠ هـ/ العشر الأخير من آذار ١١٢٦ م، ثم وصل إلى النقرة والناعورة في نفس الشهر، وعسكر في المنطقة لعدة أيام اتفق خلالها مع جوسلين على أن تكون المواقع والقرىٰ ما بين اعزاز وحلب مناصفة، وإذا كان لا بد من الحرب فلتكن في غير هذه المواقع[2].

بعد ذلك دخل البرسقي حلب، فوصل إليه ابنه عز الدين مسعود قادماً من حمص بعد أن أنجد أميرها وتراجع الفرنجة الصليبيون عنها فأبقاه في حلب، بينما ولىٰ على رئاستها الأمير كافور الخادم بعد أن عزل عنها بابك بن طلماس[3].

(*) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٦٢٨. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٩٥. ابن أبي الدم: تاريخه ــ مخطوط، ص ١٤٤. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٢، ص ٢٣٨. سيد علي الحريري: الأخبار السنية، ص ٦٢ ــ ٦٣. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٥٢٧. الجندي: تاريخ المعرة، جـ ١، ص ١٦٤.

(١) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٩٦. الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ٨٧. بيتشوف: تحف الأنباء، ص ٥٤.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٩٦.

(٣) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٩٧.

عادت حلب لأخذ زمام المبادرة في محاربة الفرنجة الصليبيين، فتحركت قوة من التركمان على رأسها بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار وكان بحلب، وصحبه ابن عمه شهريار بك وهاجمت المعرة وأغارت على قوة من الفرنجة الصليبيين فقتلت منهم مائة وخمسين شخصاً وأسرت قائدهم جفري بلانك صاحب حصن بسرفوث وأودعوه سجن حلب (*).

أما البرسقي فقد تحرك بقواته إلى الأثارب في ٨ جمادىٰ الآخرة سنة ٥٢٠ هـ/تموز ١١٢٦ م، وأرسل الأمير بابك بن طلماس على رأس فرقة عسكرية إلى حصن الدير فوق سرمدا فتمكن من فتحه دون قتال، ثم أغار على بعض المواقع فقتل خمسين فارساً ونهب عسكره الغلال والعتاد من المناطق التي وصلت غاراتهم إليها وأرسلوا بالغلال إلى حلب، وتابعت هذه القوة زحفها إلى قلعة الأثارب لتنضم إلى قوات البرسقي في حصارها(١)، حينئذ شعر الفرنجة الصليبيون بالخطر الذي يتهددهم من خلال زحف البرسقي على الأثارب واستيلائه على بعض أطرافها وخافوا من تقدم البرسقي نحو أنطاكية، فأسرع بلدوين الثاني بقواته إليها ووصل إليه جوسلين من الرها، ونزلا على عم وأرتاح، وأرسلا للبرسقي يطلبان منه الرحيل عن الأثارب مقابل إعادة رفنيه إلى سيطرته إضافة للمواقع التي اتفق عليها مع جوسلين في العام الماضي، ومما قالاه له: «ترحل عن هذا الموضع (الأثارب) ونتفق على ما كنا عليه في العام الخالي، ونعيد رفنيه عليك»(٢). وقد وجد البرسقي أن هذا العرض مقبول ومرضٍ ولا سيما أنه خشي أن يحل به وبقواته ما حدث له عند اعزاز، فوافق على الصلح وانسحب عن الأثارب عائداً إلى حلب.

لكن الفرنجة الصليبيين كعادتهم غدروا هذه المرة أيضاً بالبرسقي، كما غدروا بتمرتاش من قبل، وأرسلوا إلى البرسقي يطلبون منه إعادة ماناصفهم عليه في العام الماضي، إلا أنهم في هذه المرة نسوا أنهم يتعاملون ليس مع تمرتاش، وإنما مع قائد سياسي عسكري حنكته التجارب وعركته الأيام، لذلك كان رده على الفرنجة الصليبيين برفض طلبهم، وتحرك بقواته بين قنسرين وسرمين وامتدت هذه التحركات إلى الفوعة ودانيث، وفي هذه الأثناء وصل إليه طغتكين، وقرر المواجهة الشاملة مع العدو، لكن الظروف لم تواتيهما ولم يحدث قتال. أما الفرنجة الصليبيون فإنهم نزلوا على حوض معرة مصرين وعسكروا هناك إلى منتصف رجب من سنة ٥٢٠ هـ/٧ آب ١١٢٦ م، حيث ملوا الانتظار ونفذت مؤنهم فعادوا إلى مواقعهم.

(*) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٩٧.

(١) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٩٧.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٩٧.

• **مقتل البرسـقي:**

عاد البرسقي وبصحبته طغتكين إلى حلب دون قتال ولكنه منتصراً بموقفه من الفرنجة الصليبيين. وقد مرض طغتكين في حلب فرحل إلى دمشق، أما البرسقي فقد عاد إلى الموصل بعد أن أوصىٰ بإمارة حلب إلى ابنه عز الدين مسعود، وقد وصلها في يوم الجمعة تاسع ذي القعدة سنة ٥٢٠ هـ/٢٧ تشرين الثاني ١١٢٦م، وقد دخل مسجدها لأداء صلاة الجمعة فقتل فيه[*].

• **عز الدين مسعود بن البرسقي في حلب ووفاته:**

بعد مقتل البرسقي ملك حلب ابنه عز الدين مسعود بناء على وصية أبيه، وقد عيّن وزيراً له المؤيد أبا غالب بن عبد الخالق بن عبد الرزاق وكان وزيراً لأبيه، كما ولىٰ على حلب من قبله الأمير تومان[1]، وسار إلى السلطان محمود يطلب إليه أن يقره على بلاد أبيه، فأصدر السلطان محمود منشوراً بذلك، فتوجه مسعود إلى الموصل ودخلها أول ذي الحجة سنة ٥٢٠ هـ/ ١٨ كانون أول ١١٢٦م، فرتب أمورها ثم عاد إلى الشام وقصد الرحبة فلم يسلمها إليه واليها، فحاصرها عدة أيام فخرج الوالي وسلمها له، لكنه مات بعد ساعة إثر مرض أصابه، ولم يحكم مسعود إلا أياماً (أقل من شهر) أما والي الرحبة فقد ندم على تسليمه الرحبة لمسعود[2].

• **حلب بعد وفاة عز الدين مسعود حتىٰ وصول عماد الدين زنكي إليها:**

بعد وفاة مسعود تفرق عسكره، ونهب بعضهم بعضاً، بينما وصلت فرقة من عسكره إلى حلب لتعزيز قدرتها الدفاعية، لكن نائبها تومان منعهم من دخولها، بينما وافق رئيسها فضائل ابن بديع على دخولهم، وهذا يدل على ضياع السلطة الشرعية، وتعدد مراكز القوىٰ، مما أدىٰ

(*) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٤١. العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥م، ص ٣٧٦. ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص ٣١. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٦٣٣، ويقول: «في هذه السنة ٥٢٠ هـ ثامن ذي القعدة قتل قسيم الدولة آق سنقر البرسقي...». ابن أبي الدم: تاريخه ــ مخطوط، ص ١٤٥. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ص ١١٣. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٢، ص ٢٣٨. الذهبي: العبر، جـ ٤، ص ٤٦. الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ٨٧. يحشوف: تحف الأنباء، ص ٥٤.

(١) العظيمي: تاريخه، ص ٣٧٧. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٦٣٣، ويسميه «قومان». ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٩٨ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٢، ص ٢٣٩، ويسميه «قيماز»، ابن واصل: مفرج الكروب، ص ٣٧. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٢، ص ١٩٥. الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ٨٧، ويسميه «قيماز» أيضاً. عبد الكريم غرايبه: العرب والأتراك، ص ٢٢٩. يحشوف: تحف الأنباء، ص ٥٤.

(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٤٧. ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ٦٤٣. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٦٠٠.

إلى اضطراب الأمور، وكاد القتال يقع بين المتنفذين فيها.

في هذه الأثناء قدم إلى حلب الأمير خطلغ أبه غلام السلطان محمود ومعه توقيع من عز الدين مسعود البرسقي يدعي أنه حصل عليه قبيل وفاته، ويأمر نائبها تومان بتسليم حلب إلى خطلغ أبه فتسلمها هذا من تومان وأصبح نائباً فيها، وذلك آخر جمادىٰ الآخرة سنة ٥٢١ هـ[*]/ أوائل تموز ١١٢٧ م، أي أن فوضىٰ الحكم استمرت ما يقارب الستة أشهر.

حاول خطلغ أبه استغلال فوضىٰ الحكم التي تعيشها حلب، فصادر أموال الناس واستولىٰ على تركاتهم، واعتقل المناوئين له أمثال شرف الدين أبي طالب العجمي وعمه أبي عبد الله، واتبع سياسة الظلم والاضطهاد مع الناس[1].

أمام تصرفات خطلغ أبه أعلن أهالي حلب الثورة عليه، وحاصروه وطالبوا سليمان بن عبد الجبار بن أرتق وكان مقيماً بحلب أن يتولىٰ الأمور فيها ونادوا بشعاره[2]، وأيده وساعده في ذلك رئيس حلب فضائل بن صاعد بن بديع، وانضم إلى الثورة عدد كبير من سكان المدينة وألقوا القبض على كل من بحلب من أنصار خطلغ أبه وذلك في الثاني من شوال سنة ٥٢١ هـ/ الحادي عشر من تشرين الأول ١١٢٧ م. وبعد أن استقر الأمر لسليمان زحف وأنصاره إلى القلعة وفرض عليها الحصار.

في تلك الأثناء علم الفرنجة الصليبيون بما يحدث داخل حلب فانتهزوا الفرصة، فتحرك أميرا أنطاكية والرها على رأس قواتهما لاحتلالها، فاضطر أهلها لتقديم الأموال للأميرين مقابل تراجعهما وبذلك نجت حلب من خطر محقق[3]. كما أنه في الوقت الذي كان فيه سليمان يحاصر القلعة مع أنصاره، وصل إلى حلب حسان بن كمشتكين وحسن أمير بزاعة للتوسط بين سليمان وخطلغ أبه المحاصر في القلعة فأخفقا فقام الثوار بحفر خندق حول القلعة لمنع الدخول والخروج إليها، وبدأ بنقب جدران القلعة وانضم إليهم في هذا الحصار الملك إبراهيم ابن رضوان السلجوقي وقد استمر الحصار حتىٰ منتصف ذي الحجة سنة ٥٢٢ هـ/ ١٠

(*) العظيمي: تاريخه، ص ٣٧٧. ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٤٧. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٦٤٩. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٦٥١. ابن أبي الدم: تاريخه ـ مخطوط، ص ١٤٥. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٢، ص ٢٣٩، ويجعله بالقاف والطاء «قطلغ».

(١) العظيمي: تاريخه، ص ٣٧٧. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٦٤٩. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٦٠١. أبو الفداء ـ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢٣٩.

(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٤٧. العظيمي: تاريخه، ص ٣٧٧. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٦٤٩. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٦٠١. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٢، ص ٢٣٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٦٥٠. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ٢، ص ٢٣٩.

كانون أول ١١٢٨ م.

كان مقتل البرسقي ضربة أثخنت كاهل حلب وأصابتها في الصميم، فعمت الفوضىٰ وتراجع الهدوء والأمن والاستقرار الذي شهدته فترة حكم البرسقي، كما تعطلت الحياة الاقتصادية ونشطت الفئات الشعبية كالأحداث من جديد حيث تحركت لتشارك في الثورة ضد خطلغ أبه وعاشت القرىٰ والمناطق التي كانت جزءاً من دولة حلب تحت رحمة الفرنجة الصليبيين الذين انتهزوا الفرصة بعد مقتل البرسقي وانشغال أهل حلب بمشاكلهم الداخلية، فعادوا لمحاصرة حلب من جديد بعد أن فقدت عوامل قوتها من خلال وحدتها مع الموصل وقيادتها القوية المتماسكة.

في ذلك الوقت العصيب كانت تباشير عهد جديد تطل على حلب مع قدوم عماد الدين زنكي إليها ليخلصها من الفتنة الناشبة بين خطلغ أبه وبدر الدولة سليمان بن عبد الجبار، وليعيد وحدة حلب والموصل من جديد ويتسلم زمام المبادرة في مواجهة الأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية لشمالي بلاد الشام والعراق، وليكن وصوله إلى حلب بداية الإنحسار الفرنجي الصليبي عن المواقع التي استولىٰ عليها الفرنجة الصليبيون في الفترة السابقة.



الفصل الخامس

أهم مظاهر الحضارة في إمارة حلب
خلال حكم السلاجقة

ـ المقدمـة

١ ـ النظم والإدارة: السلطان ـ الوالي أو الملك ـ الوزير ـ الحاجب ـ المستوفي ـ الشحنة ـ رئيس المدينة ومقدم الأحداث ـ والي القلعة ـ القاضي ـ الجيش.

١ ـ الحياة الاجتماعية:

١ ـ عناصر السكان ـ العرب ـ التركمان ـ الأجناس الأخرى.

٢ ـ الأسر الكبيرة والفئات الشعبية ـ الأحداث ـ الفلاحون ـ باقي الفئات.

٣ ـ الحياة الاقتصادية:

١ ـ الزراعة: الأرض الزراعية ـ الملكية الزراعية ـ طرق الزراعة وأدواتها ـ المحاصيل الزراعية ـ الغابات والمراعي.

٢ ـ الثروة الحيوانية.

٣ ـ الصناعة: المواد الأولية ـ أهم الصناعات والحرف.

٤ ـ التجارة: التجارة الداخلية والأسواق ـ التجارة الخارجية ـ الخانات والفنادق والقيساريات ـ طرق التجارة المارة بحلب.

٥ ـ الموارد المالية.

• المقدمة :

سكن العرب منطقة شمالي بلاد الشام منذ القديم وازدادت أعدادهم بعد الفتوحات الإسلامية، وبمن هاجر إليها في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وكان تحرك العرب من وإلى المنطقة مستمراً، ثم أخذ التركمان في الهجرة إلى الشام الشمالي قبل وقوع الاحتلال السلجوقي حيث مهدوا لقدومه وسهّلوا له المهمة[1].

ومن الجدير بالذكر أنه مع دخول أول مجموعة غزية تركمانية إلى حلب سنة ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٤ ــ ١٠٦٥ م، بدأ النظام والإدارة في حلب يتعرضان لتغير عميق، حيث أخذ نفوذ وسيطرة القبائل العربية بالتراجع والإنحسار وازدادت بالمقابل سيطرة العنصر التركماني على مقاليد الأمور.

كانت إمارة حلب تعيش حياة مد وجزر في اتساعها وشمولها، وكان ذلك يخضع لقوة حكامها وقدرتهم على الدفاع عن البلدان والمناطق التابعة لها[2]، وكانت مدينة حلب مركز الإمارة وأهم مدنها، ولذلك اهتم بها المؤرخون دون غيرها، فتوفرت عنها معلومات ذات قيمة إدارية واقتصادية، على حين أن المناطق الأخرىٰ لم تحظَ بمثل هذه الرعاية.

كانت المنطقة خاضعة قبل وصول التركمان السلاجقة إليها إلى حكم القبائل العربية، فكان الحمدانيون والمرداسيون والعقيليون، وقد تمكن البيزنطيون خلال هذه الفترة من احتلال مناطق متعددة وأخضعوها لسلطانهم، كما حاول الفاطميون فرض سيطرتهم عليها ونافسهم العباسيون، ومع ذلك فقد بقيت الدولة المرداسية هي الحاكم الفعلي للمنطقة قبل الاحتلال السلجوقي لها.

١ ــ النظم والإدارة أثناء فترة الحكم السلجوقي :

كان الحكم أيام المرداسيين حكماً قبلياً بدوياً، وقد اعتمد الأمير المرداسي في حكمه على رجال عشيرته بشكل رئيسي، فكان شيوخ العشيرة في هذه الفترة هم الشخصيات البارزة في

---

(١) انظر الفصل الثاني من هذه الدراسة، صفحة ٧٥ وما بعدها.

(٢) انظر الفصل الأول من الصفحة ٣٨ ــ ٣٩

الدولة وشغلوا أدواراً سياسية هامة في حياة الإمارة [1]، وقد حمل أمير حلب لقب «أمير عرب الشام» [2].

كان للأمير ولي للعهد، وذلك ظاهر من الكتابة التي وجدت على أحد وجهي الدينارين المضروبين أيام الأمير صالح بن مرداس، حيث كتب إلى جانب اسمه، اسم ولده ثمال بن صالح مع اسم الخليفة الفاطمي، مما يستدل على أنه كان ولياً لعهد أبيه [3]، كما كان لصالح كاتب اسمه سليمان بن طوق، ووزير اسمه تادرس بن الحسن، وكذلك كان للأمير نائب لقب «شيخ الدولة» وهو ثقة الأمير وأمينه، كما كان ممثل الأمير في البعثات الدبلوماسية [4]. وكان للأمير بلاطه الخاص به، إلى جانب هؤلاء وُجد رئيس المدينة الذي غالباً ما كان رئيساً لتنظيم الأحداث، وكذلك القاضي... وحين انتقل الحكم إلى العقيليين في شخص الأمير مسلم بن قريش أمير الموصل أصبحت رئاسة حلب بأيدي شيوخها وطاعتهم لمسلم الذي غادرها إلى مركزه في الموصل، وأصبح الحكم الفعلي لحلب بيد لجنة من شيوخها وكانوا مسؤولين عن شؤون الإمارة [5]. وقد أحسن الحلبيون التصرف من خلال هذه الحكومة (اللجنة) واستطاعوا فرض قواعد العدل وتأمين الاستقرار [6].

وقد أعطىٰ ابن الأثير بعض المعلومات عن الإدارة في عهد مسلم بن قريش فقال: «وله في كل قرية وبلدة عامل وقاضٍ وصاحب خبر» [7].

وفي أثناء الحكم المرداسي بدأ التركمان يتوافدون على منطقة حلب كأفراد وجماعات يعملون لحسابهم الخاص في المراحل الأولىٰ، ومن ثم أصبحوا يصلونها ضمن مجموعات بشرية قبلية محاربة.

ومنذ دخول أول مجموعة تركمانية إلى حلب سنة ٤٥٦ هـ/١٠٦٤ م، تعرض النظام السياسي فيها لتغييرات متفاوتة في شتىٰ مناحي الحياة، فكان عميقاً في بعضها كنظام الحكم والإدارة والدفاع حيث أخذت قوة القبائل العربية تضمحل وكيانها يهتز ويتراجع أمام المد

---

(١) سهيل زكار: المدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢١١.

(٢) الذهبي: تاريخ دول الإسلام ــ مخطوطة المتحف البريطاني رقم ١٥٥٨ OR، ص ٥٣.

(٣) سهيل زكار: إمارة حلب، ص ٥٥.

(٤) سهيل زكار: إمارة حلب، ص ٤٣، ٤٧، ويقول: إن ثمال بن صالح أرسل إلى المستنصر سفارة تشكلت من علي بن أحمد الأيسر شيخ الدولة آنذاك مع السيدة زوجة ثمال وابنه وثاب.

(٥) محمد كرد علي: خطط الشام، الطبعة الثالثة، دمشق ١٩٨٣ م، جـ ١، ص ٢٣٩.

(٦) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ١، ص ٢٣٩.

(٧) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ١٤٠.

التركاني، وكان أقل عمقاً في النواحي الاقتصادية والاجتماعية لأن التركان في الأغلب عملوا في مواقع الحكم والإدارة والجيش، بينما ظلت الأعمال الأخرىٰ كالتجارة والزراعة والرعي بيد أبناء البلاد.

وعلى الرغم من ذلك فقد ترك السلاجقة التركان خلال وجودهم في إمارة حلب بصمات في الحكم والإدارة تركت طابعها في تاريخ هذه البلاد، وخلفت آثاراً دامت قروناً طويلة بعد إنتهاء أمرهم فيها، وقد دخلت حلب تحت حكم السلاجقة إثر النزاع الذي حصل بين كل من تاج الدولة تتش والأمير سليمان بن قتلمش للسيطرة عليها، مما دعا السلطان ملكشاه للتدخل وتعيين آق سنقر والياً عليها، وأصبحت حلب بعدها تحت حكم السلاجقة حتىٰ سنة ٥٢٢ هـ[*]/ ١١٢٨م لتبدأ مرحلة جديدة مع قدوم الزنكيين إليها، وأثناء حكم السلاجقة تعرضت إمارة حلب للغزو الفرنجي الصليبي. وقد بحث موقف السلاجقة من هذا الغزو في الفصول السابقة[1].

كان نظام حكم السلاجقة في حلب مستمداً من نظام حكمهم في المشرق، حيث كان **السلطان السلجوقي هو رأس الحكم في السلطة**، ويعين نواباً وولاة عنه في الأقاليم، وكان نائب السلطان في حلب يسمىٰ في بعض الأوقات الوالي كما أطلق على آق سنقر والأمراء الأراتقة، وأحياناً أخرىٰ لُقب بملك كما في عهد رضوان[2].

وفي الفترة السلجوقية كانت علاقة السلطان بالملوك والولاة في الأقاليم علاقة اقطاعية، فالسلطان يقطع أفراد عائلته وكبار قادة جيشه مقاطعات السلطنة، ليعيشوا منها، ويحافظوا عليها ويكونوا مسؤولين عنها مقابل تقديمهم الجند وما يصرف عليهم عندما تستدعي أمور الدولة ذلك دون أن يدفع لهم رواتب نقدية. كما حصل مع تتش عندما أقطعه السلطان ملكشاه الشام وما يفتحه في تلك المناطق ومع كبار قواد جيشه كآق سنقر الذي أقطعه حلب وولاه عليها، وكذلك ياغي سيان وبوزان مما أدىٰ إلى نشوء دويلات تتمتع بالاستقلال الفعلي بينما السيادة الإسمية للسلطان فقط[3].

كان الملك في مملكته والمقطع في إقطاعه يحتذي حذو السلطان في بلاطه من حيث اختياره لأركان دولته وموظفيه.

(*) انظر الفصل الثاني ص ١٢١، والفصل الثالث ص ١٣٧.

(١) انظر الفصل الرابع من هذه الدراسة.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٤٦، ٥٥٤. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٨٧.

(٣) فيليب حتي: تاريخ العرب مطول، جـ ٢، ص ٥٧٤.

يعتبر الوالي أو الملك الحاكم الفعلي في منطقة حكمه، ويتمتع بصلاحيات السلطان السلجوقي نفسها كمنح الإقطاعات، ومكافأة الأمراء والقواد، وله القيادة العليا للجيش، وتعيين كبار الموظفين في الدولة وعزلهم وتأديبهم، والنظر في المظالم أحياناً ومقابلة بعض ذوي الحاجات من الأهالي، وتحديد سياسة الإمارة [1]. وقد مرت في الفصول السابقة كثير من الأعمال التي قام بها الولاة والأمراء في حلب وكان يتبع الملك أو الوالي في حلب ولاة المناطق التابعة لها كولاة أنطاكية واعزاز ومنبج ومعرة النعمان وأحياناً أفاميه وشيزر وحماه والأثارب [2].

وكان هؤلاء الولاة يرتبطون بالمركز وينفذون سياسة الدولة العامة، ويؤدون لها الضرائب، ويشاركون مع أنصارهم في الحروب إلى جانب الملك أو الوالي بقدر ما يكون لهذا الملك أو الوالي من قوة وهيبة.

ونتيجة الضعف الذي أصاب ولاة حلب وانشغالهم بتثبيت مراكزهم، أخذ حكام المناطق يعصون أوامر وتعليمات الإدارة المركزية، وقد وصل الأمر ببعضهم حد العصيان والإنفصال كما حدث مع حاكم أنطاكية ياغي سيان الذي أيد الملك دقاق في حربه ضد أخيه رضوان [3]، مع أنه تابع لهذا الأخير ولم ينه خلافه مع الملك رضوان إلا مقتله بعد دخول الفرنجة الصليبيين إلى أنطاكية، وكذلك فعل الأمير عمر والي اعزاز الذي عصا على رضوان واستدعىٰ كذلك الفرنجة الصليبيين لمساعدته بالإنفصال عن سيده، وانتهىٰ الأمر حين قبض عليه رضوان وقتله [4]، وكذلك فعل الأمير بلك والي حلب بالأمير حسان بن كمشتكين حاكم منبج عندما حاصره وحاربه لمجرد أنه سمع وشاية عليه [5].

ويبدو أن التصرفات التي صدرت عن حكام المناطق، عبّرت عن مدىٰ التدهور والوهن الذي أصاب رأس السلطة في العاصمة حيث فقد احترامه ليس أمامهم فقط، بل وأمام أبناء الشعب وزعمائه المحليين، وزاد موقفهم أمام حكام المناطق عدم قدرتهم على رد الغزو الفرنجي الصليبي.

---

(١) علي إبراهيم حسن: المماليك البحرية، ص ١٦٢.

(٢) كان والي إيلغازي على الأثارب القريبة من حلب ــ بلاق بن اسحاق ــ وقد قام بدور مهم ضد الفرنجة الصليبيين. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٤١٣.

(٣) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢١٣. الفارقي: تاريخ الفارقي، ص ٢٤٣. الأصفهاني: البستان الجامع، ص ٩٣. ابن أبي الدم: تاريخه ــ مخطوط، ص ١٤٠. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٤٨. اليافعي اليمني المكي: مرآة الجنان، جـ ٣، ص ١٥٢. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ١٧. الذهبي: العبر، جـ ٣، ص ٣١٩. بيشوف: تحف الأنباء، ص ٤٨.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٠٥.

(٥) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٦١٩. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٨١. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٥١٥.

أما بقية الأعمال والاختصاصات في الدولة فكانت تقع على عاتق الجهاز الإداري الذي يتألف من عدد من المسؤولين يأتي على رأسهم الوزير[1]، ويعتبر مساعداً للملك يقدم له المشورة والنصح ويساعده في رسم سياسة الدولة الداخلية والخارجية كما يشرف على جميع المرافق الهامة في الدولة، وكذلك يهتم بالأمور الإدارية ويراقب استغلال العمال والموظفين لسلطاتهم[2].. أما مرتب الوزير في حلب فلم تشر المصادر إليه، إلا أنه يمكن الإفتراض أن راتبه كان شبيهاً بمثيله السلجوقي بما يحصله من واردات الإقطاعات في بغداد وهو عشر دخل الدولة[3].

وقد تولى منصب الوزارة في هذه الفترة عدد من الوزراء، ففي عهد آق سنقر نسمع عن وزيرين هما أبو العز بن صدقة[4]، وأبو نصر محمد بن الحسن بن النحاس[5] دون أن تشير المصادر إلى أي دور لهما أو لغيرهما من المسؤولين في الدولة لأن آق سنقر كان قائداً عسكرياً فرض نفسه في كل أمر وقضية، وأعار اهتمامه لشؤون الإمارة وتابع تنفيذ تعليماته وأوامره، وتصرف في مملكته تصرف حاكم مطلق، ولذلك كان دور المسؤولين الآخرين ضعيفاً إن لم يكن معدوماً.

بعد مقتل آق سنقر عيّن أبا القاسم بن بديع، وزيراً بحلب وذلك[6] سنة ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥ م، وهو الذي سلم حلب إلى الملك رضوان بن تتش عند دخوله إليها. لكن الملك رضوان عزله وولى مكانه أخاه أبا النجم بن بديع، وكان ذا تأثير على أمور رضوان، ولم يلبث طويلاً في الوزارة فقد عزله رضوان وولى مكانه أبا الفضل هبة الله بن عبد القاهر بن الموصول[7]، وكان ابن الموصول هذا من أغنياء حلب وأثريائها، وقد وقع في الأسر في إحدى المعارك بين جناح الدولة حسين والملك رضوان، وقد أطلق سراحه مقابل فدية مالية[8].

بعد وفاة الملك رضوان وانتقال الحكم إلى ابنه ألب أرسلان ألقى القبض على الوزير ابن

---

(١) حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي، ص ١٨٦.

(٢) محمد مسفر الزهراني: نظام الوزارة في الدولة العباسية ٣٣٤ هـ/ ٥٩٠ هـ، (العهدان البويهي والسلجوقي)، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م، ص ١٧٢.

(٣) محمد مسفر الزهراني ــ المرجع السابق، ص ١٢٩.

(٤) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ المجلد الثالث، ترجمة آق سنقر.

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ١١٠.

(٦) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٨٢.

(٧) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٠٢.

(٨) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٠٩ ــ ٥١٠.

الموصول[1] لكن لؤلؤ المتحكم بأمور ألب أرسلان أعاد ابن الموصول إلى الوزارة[2]، ثم ما لبث أن قبض عليه بعد أقل من سنة أي سنة ٥٠٨ هـ/١١١٤ ــ ١١١٥ م، وحجز على أمواله وصادرها[3]، واستوزر أبا الرجاء بن السرطان الرحبي، ولكنه ما لبث أن اعتقله أيضاً وعذبه وصادر أمواله، وأعاد ابن الموصول إلى الوزارة[4] للمرة الثالثة.

بعد مقتل لؤلؤ سنة ٥١٠ هـ/١١١٦ ــ ١١١٧ م، عاشت حلب في فوضى إدارية وسياسية حتى وصلها إيلغازي سنة ٥١١ هـ/١١١٧ ــ ١١١٨ م، فأبقى على الوزير ابن الموصول إلى أن مات في صفر سنة ٥١٦ هـ[5] / نيسان ١١٢٢ م، فولى الوزارة مكانه أبو الرجاء بن السرطان للمرة الثانية، إلا أنه قام باعتقاله[6] بسبب وشاية سمعها، وذلك في ١٧ ربيع الآخر سنة ٥١٦ هـ/٢٦ حزيران ١١٢٢ م، ثم أعاده بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار إلى الوزارة مرة ثانية وذلك في صفر سنة ٥١٧ هـ/نيسان ١١٢٣ م.

عندما تسلم تمرتاش حلب استوزر محمد بن هبة الله بن الموصول، ثم أطاح به وصادر أمواله في رجب سنة ٥١٨ هـ/آب ــ أيلول ١١٢٤ م، وأعاد أبا الرجاء بن السرطان[7] للمرة الثالثة، واستوزر البرسقي أثناء حكمه لحلب المؤيد بن عبد الخالق[8] الذي ظل في منصبه في عهد ابن البرسقي عز الدين مسعود حتى وصول عماد الدين زنكي إلى حلب.

لا تشير المصادر إلى الصلاحيات التي مارسها الوزراء في حلب، إلا أنه يمكن الافتراض أنها الصلاحيات نفسها التي تمتع بها الوزراء أمثالهم في الدول الإسلامية المعاصرة وتمركز أغلبها حول الجوانب المالية والإدارية، ولعل توالي عمليات العزل واستبدال الوزراء، مردها إلى اضطراب الأحوال المالية وكثرة الطلب على المال من قبل الحاكم الأعلى، وعجز الوزراء عن تلبية هذا الطلب بسبب ما كانت تعانيه الإمارة من نفقات الجيوش التركمانية والخراب والدمار الذي أحدثته الهجمات الفرنجية الصليبية، وبالتالي عدم قدرة المناطق على دفع التزاماتها إلى المركز، مما أضعف موقف الوزراء وجعلهم ألعوبة بيد الحكام.

---

(١) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ٢، ص٥٣٣.
(٢) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ٢، ص٥٣٥.
(٣) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ٢، ص٥٣٧.
(٤) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ٢، ص٥٣٧.
(٥) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥ م، ص ٣٧١.
(٦) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥ م، ص ٣٧١.
(٧) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٥٨٤.
(٨) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ٢، ص٥٩٩.

ومن الوظائف الأخرى التي كانت قائمة في النظام السلجوقي وظيفة الحاجب: ويعتبر صلة الوصل بين السلطان والوزير، وهو الذي يتلقى الأوامر السلطانية الشفهية، ومن اختصاصه أيضاً الاتصال بالسلاطين والملك، وقد أصبح هذا المنصب مصدر ثراء لبعض الحجاب[١] عند سلاطين السلاجقة ويرد ذكر بعض الحجاب في حلب أثناء العهد السلجوقي في تاريخ ابن العديم حين يتحدث عن عصيان سليمان بن إيلغازي على أبيه فيقول: «وقبض سليمان حجاب أبيه فضعفهم وحلق لحاهم». وكما ذكر حاجب اسمه ناصر وأنه كان شحنه بغداد، وآخر اسمه الفتكين كان حاجباً لألب أرسلان بن رضوان[٢].

ولم توضح المصادر التي ذكرت هؤلاء الحجاب دورهم، أو الأعمال التي كانوا يقومون بها ومدى تأثيرهم، وشروط اختيارهم وطريقة تعيينهم.

كما وجدت وظيفة أخرى عرف صاحبها باسم المستوفي يأتي مقامه بعد الوزير وله حق النظر في الأمور المالية، والإشراف على حسابات الدولة وتدقيقها. ويقوم بجولات تفتيشية للتأكد من سلامة الأمور المالية[٣]، وتذكر المصادر هذه الوظيفة عندما عيّن السلطان ملكشاه حاجبه آق سنقر والياً على حلب وعيّن كذلك تاج الرؤساء أبا منصور بن الخلال الرحبي لجمع الأموال[٤].

ثم يأتي العارض أو العميد: ووظيفته الإشراف على ديوان الجيش، والعمل على تسليح الجيوش وصرف المرتبات، ويتعاون مع الشحنة في الإشراف على الجيش إذا حدث شيء يعكر صفو الأمن[٥]. ولا يرد اسم هاتين الوظيفتين في إمارة حلب إلا مرة واحدة وكانت عندما قبض مقدمو الجيش على باروقتاش فقام سلطانشاه بن رضوان بتعيين قائد للجيش ومدبر للأمور في حلب عارض الجيش العميد أبي المعالي المحسن الدمشقي. وقد ضعفت حلب في عهده وخربت مناطقها[٦].

أما الشحنة فهو قائد الحامية العسكرية في المدينة، وله صلاحيات أمنية وإدارية واسعة[٧]، وهو مسؤول عن إدارة المدينة والمحافظة على أمنها واستقرارها، ويذكر العظيمي أن السلطان

---

(١) حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي، ص١٨٣.
(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٥٦٤.
(٣) حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي، ص١٩٨.
(٤) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٤٦٧.
(٥) حسين أمين ـ المرجع السابق، ص٢٠٢ ـ ٢٠٣.
(٦) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥م، ص٣٦٧. ابن العديم ـ المصدر السابق، جـ٢، ص٥٤٣.
(٧) حسين أمين ـ المرجع السابق، ص٢٠٢.

ملكشاه ولىٰ القصر والشحنكية لآق سنقر[1]، كما يرد اسم الشحنة في إمارة حلب عندما يذكر ابن العديم مؤيدي سليمان بن إيلغازي في عصيانه على أبيه، فوصف الحاجب ناصر بأنه شحنة حلب وغيرها[2]، كذلك عيّن بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار، جبريل بن برق شحنة على حلب، وذلك بعد أن سلم بدر الدولة قلعة الأثارب للفرنجة الصليبيين بموجب معاهدة عقدت بينه وبينهم في ١٠ صفر سنة ٥١٧ هـ/ ٩ نيسان ١١٢٣ م، وكان جبريل بن برق والي القلعة[3]، كما أن تمرتاش ولىٰ الحاجب عمر النحاس شحنكية حلب[4] نتيجة الخدمات التي قدمها له ولأبيه إيلغازي.

أهمل المؤرخون ذكر أعمال بعض الإداريين في حلب فأهملوا ذكر مهمات المستوفي، والعارض، والشحنة في إمارة حلب وتأثيرهم على مجريات الأحداث، إلى جانب أنهم أغفلوا ذكرها في بعض العهود وخاصة الأولىٰ منها كعهد آق سنقر والملك رضوان بن تتش. ويبدو أن السبب في ذلك هو طغيان منصب رئيس المدينة ومقدم الأحداث على الوظائف الأخرىٰ.

وإلى جانب الوظائف السابقة كان لدىٰ البلاط السلجوقي وظائف معروفة منها[5]: الطغراء والمشرف والكاتب والساقي والطشت دار، والاسفهسلار الذي كان يطلق عليه في حلب مقدم الجيش.

ومن الوظائف المهمة في إمارة حلب والتي شغلت دوراً بارزاً ومؤثراً في حياة الإمارة ولم تكن من الوظائف السلجوقية هي وظائف: **رئيس المدينة، ومقدم الأحداث، وأمير القلعة**، وقد كان منصبا رئيس المدينة ومقدم الأحداث معروفين منذ أيام المرداسيين، وغالباً ما جُمعا في شخص واحد.

وكان أول رئيس لمدينة حلب هو سالم بن مستفاد وهو ابن أحد غلمان سيف الدولة

---

(١) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥م، ص ٣٥٤.

(٢) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٦٤.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٧٣.

(٤) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٨٥.

(٥) حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي، ص ١٥٤ ــ ٢٠٥، ويقول عن هذه الوظائف:

ــ الطغراء: ويعني رئيس الديوان وهو حامل الأختام، ويتولىٰ استصدار الأوامر السلطانية ممهورة بشعار الطغرائي.

ــ المشرف: ويعني بالمحاسبات والإشراف على ضبط الحسابات والصادرات والواردات، وهو مكمل الديوان الاستيفاء.

ــ الكتاب: وهم رؤساء الدواوين لكتاب الرسائل والجند والاستيفاء والإشراف.

ــ الساقي: ويشرف على مد الأسمطة وتقطيع اللحوم وتقديم المشروبات والماء.

ــ الطشت دار: وهو مسؤول عن صب ماء الغسيل للسلطان.

ــ الاسفهسلار: وهو الذي يتقدم الجيش في القتال ويخرج إلى الحروب.

الحمداني، وقد ساعد الأمير صالح بن مرداس بدخوله حلب، فكافأه صالح بأن أسند إليه منصب رئيس المدينة إضافة لكونه مقدم الأحداث[1]، وقد ظل سالم بن مستفاد يشغل هذين المنصبين حتىٰ قتل على يد نصر بن صالح بن مرداس نتيجة خلاف بينهما[2]، ولم تشر المصادر بعدها إلى رئيس مدينة أو مقدم للأحداث حتىٰ سنة ٤٧٢ هـ/ ١٠٧٩ ـ ١٠٨٠ م. عندما برز دور رئيس المدينة ومقدم أحداثها الشريف حسن بن هبة الله الهاشمي المعروف بالحتيتي[3] في مساعدة شرف الدولة مسلم بن قريش بدخوله إلى حلب، حيث تشير الحوادث التي مرت بها حلب منذ أيام سابق المرداسي وحتىٰ مقتل مسلم بن قريش[4] إلى دور فعّال مؤثر شغله الحتيتي في هذه الفترة، ويبدو أن الحتيتي كان يعد نفسه لتسلم زمام الأمور في حلب، وإقامة دولة مستقلة يحكمها أحداث حلب وأبناؤها، ومما يؤيد هذا الافتراض جملة الممارسات والأعمال، التي قام بها الحتيتي ومنها أنه رفض تسليم حلب إلى سليمان بن قتلمش، وبنىٰ لنفسه قلعة أسماها قلعة الشريف سنة ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ ـ ١٠٨٦ م، واستخدمها كمقر لحكومته وثكنة لأحداثه، واتفق مع سالم بن مالك والي قلعة حلب على دعوة السلطان ملكشاه لتسليمه حلب[5]. وكذلك رفض تسليم حلب لتتش على الرغم من أنه قدم إليها بناء على دعوته، ولذلك وبمجرد أن دخلها نفىٰ الحتيتي إلى بيت المقدس، وتخلص من زعامته، بينما حاول استرضاء أهل حلب وأحداثها بالإحسان لهم وتوزيع الهبات عليهم[6].

بعد خروج الحتيتي من حلب بقيت المدينة دون رئيس لها حتىٰ قدوم ملكشاه إليها وتولية آق سنقر عليها، ولا تذكر المصادر أي شيء عن دور رئيس المدينة ومقدم الأحداث في عهد آق سنقر على الرغم من أنه عيّن بركات بن فارس الفوعي المعروف بالمجن رئيساً لحلب، وقد استعان به لمعرفته بالمفسدين. وقد استمر على رئاسة المدينة أيام آق سنقر وتتش، ثم استمر في عهد رضوان حيث قوي نفوذه وامتدت سلطته حتىٰ شملت جميع الموظفين بما فيهم القضاة والوزراء. وقد قتل الوزير أبا نصر بن النحاس لخلاف بينهما[7]، وبقي كذلك حتىٰ تخلص منه

---

(١) سهيل زكار: إمارة حلب، ص ١٧٧.

(٢) العظيمي: تاريخه، ص ٣٣١، ويقول إن سبب قتله هو عصيانه مع أحداث حلب على الأمير نصر.

(٣) العظيمي: تاريخه، ص ٣٥٣، ويسميه: الشريف أبي علىٰ الحتيتي الهاشمي. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٣١. أما ابن الأثير فيقول: إن مقدمهم يعرف بابن الحتيتي العباسي.

(٤) العظيمي: تاريخه، ص ٣٥٣، كذلك انظر ـ الدراسة ـ الفصل الثالث، صفحة ـ ١٠٤ ـ ١٢١ ـ

(٥) انظر التفاصيل في الفصل الثالث من الدراسة.

(٦) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٦٣.

(٧) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٠٢، ويقول: ولاه قسيم الدولة رئاسة حلب لشهامته وكفايته ومعرفته بالمفسدين.

الملك رضوان في سنة ٤٩١ هـ/١٠٩٧ ــ ١٠٩٨ م، بعد أن استخدمه في قتل يوسف ابن آبق، وقد ولّى رضوان رئاسة حلب لصاعد بن بديع الذي جمع حوله «الأحداث»[*]. لكن المصادر لا تشير إلى أي نشاط لصاعد هذا، خلافاً لما قام به الأحداث بمساندتهم للملك رضوان في كثير من معاركه.

ويبدو أن تزايد نفوذ النزارية في عهد رضوان واعتماده عليهم في سياسته الداخلية والخارجية حّد من نشاط رئيس المدينة ومقدم الأحداث، إلا أنهما عملا على استعادة نفوذهما بعد وفاة رضوان. ومما يدل على ذلك أنه لمجرد وفاة رضوان وتسلم ابنه ألب أرسلان سارع ابن بديع يوغر صدر ألب أرسلان على النزاريين وطلب منه التخلص منهم وقدم خدماته في هذا السبيل، وفعلاً تم له ما أراد[1]، ولكن ألب أرسلان ما لبث أن اعتقل صاعد بن بديع وسجنه، ثم أطلق سراحه فتوجه إلى قلعة جعبر وعيّن مكانه في رئاسة حلب ومقدمية الأحداث إبراهيم الفراتي، الذي لمع نجمه وذاع صيته[2]، وفي سنة ٥١٤ هـ/ ١١٢٠ ــ ١١٢١ م، قام إيلغازي بتعيين مكي بن قرناص الحموي رئيساً للمدينة[3]، ثم ألقىٰ القبض عليه بعد أن اتهمه بمساعدة ابنه سليمان على العصيان، وولّىٰ مكانه سليمان بن عبد الرزاق العجلاني البالسي[4] الذي دامت رئاسته حتىٰ سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤ ــ ١١٢٥ م، وما لبث أن اعتقل بدوره من قبل الأمير بلك وعيّن مكانه محمد بن سعدان الحراني[5]، لكن أيامه لم تطل حيث عزله حسام الدين تمرتاش، وولّىٰ الرئاسة بعده فضائل بن صاعد بن بديع[6]، وعادت رئاسة حلب إلى آل البديع حتىٰ قدوم عماد الدين إلى حلب سنة ٥٢٢ هـ/ ١١٢٨ م.

يبدو أن صاحب منصب رئيس المدينة ومقدم الأحداث لم يكن أوفر حظاً من الوزير. فقد

ــ كذلك انظر تفاصيل علاقة رضوان بالجن وأسباب قتله في الفصل الثالث.

(*) ابن العديم ــ المصدر السابق، ص ٥٣٢.

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٣٢، انظر موقف رضوان وابنه ألب أرسلان من أتباع النزارية في الفصل الثالث.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٣٤، ولم يشر ابن العديم أو غيره من المؤرخين إلى نهاية إبراهيم الفراتي.

(٣) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥ م، ص ٣٧٠. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٦٢.

(٤) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥ م، ص ٣٧١. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٦٦.

(٥) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥ م، ص ٣٧٤. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٨٠.

(٦) من شدة بأسه أن جوابه عندما سُئل وهو يُعذب كيف تجد طعم الحديد؟ قال: اسألوا الحديد كيف يجد طعمي؟ ابن العديم: بغية الطلب ــ مخطوطة أحمد الثالث، ترجمة: رضوان بن تتش، ص ٣٨٧.

شمله التغيير والعزل والمصادرة، كما خضع نفوذ رئيس المدينة لبعض العوامل منها قوة الأحداث وقدرتهم على التأثير في مجرى الأمور، ومنها أيضاً قوة الحاكم أو ضعفه، فإذا كان الحاكم قوياً ضعف نفوذ رئيس المدينة، وإذا كان ضعيفاً قوي مركزه وتأثيره، كما أن القوى الناشطة في حلب أيام رضوان من النزاريين أضعفت الأحداث ورئيسهم، وكذلك فإن تدخل رئيس المدينة في الأمور الإدارية والسياسية لم يكن له أية ضوابط إلا مطامع رئيس المدينة نفسه، وهذا ما ظهر لدى كل من الحتيتي ومحاولاته للإنفراد بالسلطة، ومثله المجن الفوعي الذي كان قوياً شديد البأس(*) متمكناً من الحكم مسيطراً على الأمر حتى أصبح هاجس الملك رضوان وأركان حكمه، مما دفعه للتخلص منه.

والي القلعة: يعتبر من المناصب المهمة التي أسهمت بدور أساسي في الحياة السياسية والإدارية لحلب إلى جانب والي المدينة، وكان والي القلعة يقيم فيها، وفي كثير من الفترات كان يجمع المنصبين ــ والي المدينة ووالي القلعة ــ شخص واحد، فيقيم حينها في القلعة مع حاشيته، وكان يتم تعيين والي القلعة من قبل الأمراء المرداسيين، وكذلك فعل مسلم بن قريش، وبعد أن أصبحت تابعة للسلطان السلجوقي أصبح هو الذي يعين والي القلعة كما سيرد بعد قليل.

أما أعمال والي القلعة فكان منها الإشراف على فتح وإغلاق باب القلعة المخصص لدخول الجند وخروجهم[1] وتفقد أسوارها ومنافذها والعمل على إصلاحها وصيانتها، ثم ما لبث أن أصبح من اختصاصه كذلك الفصل فيما يقع بين العامة من الخصومات[2].

وكذلك كان لوالي القلعة دور مؤثر في الأحداث السياسية حين تتأزم الأمور في المدينة، وكانت القلعة معتقلاً للخصوم السياسيين ومعارضي الحكم، ففي عهد نصر بن محمود المرداسي سلمت القلعة إلى رجل اسمه ورد، وبعد مقتل نصر قام أمير القلعة ورد بدور أساسي في تسليم الإمارة للأمير سابق حيث رفعه إلى القلعة من السور[3] وحين تسلم شرف الدولة مسلم مدينة حلب ظلت القلعة عاصية عليه، ولم يتسلمها إلا بعد اتفاقه مع سابق، إثر حصار دام أربعة أشهر، من سنة ٤٧٣ هـ/ ١٠٨٠ ــ ١٠٨١ م.

ــ بعد تسلم مسلم للقلعة عين الأمير سالم بن مالك العقيلي والياً عليها من قِبَله، وبعد

(*) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢٢ ــ ٢٣.

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ٢٢ ــ ٢٣.

(٢) علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ٢٣١.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ٤١٧.

مقتل مسلم إنفرد الحتيتي بتدبير أمور المدينة وسالم بالقلعة، واتفقا على دعوة السلطان ملكشاه لتسليمه حلب وقلعتها، وعندما انتصر تتش على سليمان بن قتلمش دخل حلب وحاول تسلم القلعة إلا أن واليها سالم بن مالك عصىٰ بها ورفض تسليمها له، وبقي محاصر بها حتىٰ وصل السلطان ملكشاه وتسلمها وقلعتها، كل ذلك يؤكد أهمية منصب والي القلعة، وأن الاستيلاء على حلب كان يظل ناقصاً وغير محقق إذا لم يتم الاستيلاء على القلعة، وعندما قام السلطان ملكشاه بتعيين آق سنقر والياً على حلب ولىٰ على القلعة رجلاً آخر من قبله هو نوح التركي ــ وهذا دليل على أنه ليس من الضروري أن يكون والي القلعة هو نفسه حاكم المدينة وواليها ــ وعندما اعتقل آق سنقر معارضيه شبل بن جامع أمير كلاب وابنه وهما من معارضي حكمه فإنه أودعهما سجن القلعة.

بعد مقتل تتش عاد رضوان إلى حلب فتسلمها وقلعتها من وزير أبيه[1]، ولأهمية منصب والي القلعة وتأثيره، فقد احتفظ رضوان بهذا المنصب واتخذ من القلعة مقراً لإقامته وحكمه، ومنها كان يصرف الأمور، حتىٰ أنه أخذ في سنة ٥٠٤هـ/١١١٠ ــ ١١١١م، بعضاً من أهل حلب كرهائن وأودعهم في القلعة حتىٰ لا يسلموا المدينة لعساكر السلطان عندما توجهت إلى حلب[2]. وظل رضوان في القلعة حتىٰ وفاته، وكذلك فعل ابنه ألب أرسلان الذي قتله مدبر أمره لؤلؤ اليايا وهو في القلعة، ونصب مكانه أخاه سلطانشاه، فلزم الاثنان القلعة، وبعد مقتل لؤلؤ حاول الخادم ياروقتاش الصعود إلى القلعة، إلا أن مقدمي القلعة اعتقلوه بناء على أوامر من بنات رضوان وسلموا القلعة إلى خادم من خدم رضوان.

عندما قدم إيلغازي إلى حلب للمرة الثانية تسلم قلعتها، وأخرج منها سلطانشاه وأخواته أولاد رضوان، وجعل نائبه في حلب وقلعتها شمس الدولة سليمان، وبذلك جمع المنصبين في شخص واحد لما لمسه من تآمر الذين في القلعة من الجند وأصحاب رضوان وأولاده، وعند قدوم بلك بن بهرام إلى حلب أقام في القلعة وبقي فيها حتىٰ قتل في منبج فتسلم حلب وقلعتها حسام الدين تمرتاش الذي ولىٰ القلعة شخصاً اسمه عبد الكريم[3]، وعندما تغلب البرسقي على حلب بقي في القلعة حتىٰ سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م، أما ابنه مسعود فإنه ولىٰ القلعة للأمير تومان، وبعد وفاة مسعود وصل إلى حلب خطلغ أبه فتسلمها وصعد إلى قلعتها، إلا

---

(١) انظر تفاصيل ذلك في الفصل الثالث.

(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص٢٧٩. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٥٢٣.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٥٨٥.

أن الأهالي ثاروا عليه، وقدموا بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار ونادىٰ أهل حلب والقلعة بشعاره[1]، وظل فيها حتىٰ وصول عماد الدين زنكي إليها سنة ٥٢٢ هـ/ ١١٢٨م.

القاضي: لم يكن القضاء في هذه الفترة يختلف عن أي فترة سبقتها، وقد حظي القضاء باهتمام كبير، كما قام بعض القضاة بأدوار مهمة إلى جانب الولاة والحكام، وكان القاضي يتسلم منصبه لمدة طويلة دون أن يتعرض للعزل والتنكيل والمصادرة والقتل، كما كان يحدث للوزراء ورؤساء المدينة والشحنة، وكثيراً ما بقي في منصبه حتىٰ وفاته، وكان القاضي يقوم بالخطابة إلى جانب القضاء عدا بعض الحالات التي أسندت الخطابة فيها لشخص آخر غير القاضي.

كانت وظيفة القضاء والخطابة تستلزم ثقافة دينية ولغوية، ولذلك كان الحكام يولونها لأولئك الذين تمرسوا بهذه الثقافة[2]. أما تعيين القضاة فيبدو أنه كان قبل هذه الفترة يتم من قبل الخليفة أو السلطان، أما في الدول المستقلة فإنه غالباً ما كان يعين من قبل والي المدينة أو الإمارة كما هو واضح فيما يأتي. فمنذ سنة ٤٤٢ هـ/ ١٠٥٠ ــ ١٠٥١م، تولىٰ القضاء في حلب القاضي «كسرىٰ بن عبد الكريم بن كسرىٰ السلمي»[3]، وقد ظل في منصبه حتىٰ توفي أيام أبي المكارم مسلم بن قريش، فولىٰ القضاء والخطابة أبو الفضل هبة الله بن أحمد أبي جرادة وذلك سنة ٤٨٦ هـ/ ١٠٩٣م، وكانت ولاية القضاء والخطابة تتم من بغداد[4]، وبقي في منصبه حتىٰ توفي سنة ٤٩٠ هـ/ ١٠٩٦ ــ ١٠٩٧م، فولىٰ القضاء والخطابة بعده ابنه أبو غانم محمد بن هبة الله بن أحمد بن أبي جرادة[5]، وحين قرر الملك رضوان الدعوة للخليفة الفاطمي[6] رفض أبو غانم الخطبة للخليفة الفاطمي، فعزله عن القضاء والخطابة، وعيّن على الخطابة أبا تراب حيدرة بن أبي أسامة الحلبي وكان امامي المذهب وكبيراً بالسن، أما القضاء فقد ولىٰ عليه القاضي فضل الله الزوزني العجمي الحنفي، وكان ذلك سنة ٤٩٠ هـ/ ١٠٩٦ ــ ١٠٩٧م، وقد أرسله إلى مصر في وفادة وأناب عنه في القضاء أبو الفضل أحمد ابن أبي أسامة الحلبي[7]، وظل الأمر كذلك إلى أن أعاد رضوان القضاء والخطابة مرة ثانية إلى

---

(١) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٦٠١.

(٢) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، جـ ٢٠، ص ١٨ ــ ١٩.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٥٦، أما المؤرخ العظيمي فيجعل ذلك سنة ٤٤٥ هـ، ص ٣٤١.

(٤) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٩٢.

(٥) أبو غانم محمد بن هبة الله بن أحمد بن جرادة هو جد والد المؤرخ الكبير ابن العديم ــ صاحب كتابي بغية الطلب وزبدة الحلب.

(٦) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٩٢.

(٧) العظيمي: تاريخه، ص ٣٥٩. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٩٣.

أبي غانم محمد بن هبة الله بن أبي جرادة، وذلك سنة ٤٩٥ هـ/ ١١٠١ ــ ١١٠٢م، وبقي أبو غانم في منصبه حتىٰ سنة ٥٠٨ هـ/ ١١١٤ ــ ١١١٥م، حين تعرضت إمارة حلب إلىٰ حصار اقتصادي شديد، وأصبحت البلاد بحاجة إلى الأموال لصرفها على الجند، مما اضطر لؤلؤ معه لبيع قرىٰ كثيرة في مناطق حلب. وكان القاضي أبو غانم هو الذي يقوم بالبيع بينما تولىٰ لؤلؤ صرف أثمانها[1]، ولم يعد يأتي ذكر أبي غانم بعدها ولا نعلم كيف إنتهت ولايته للقضاء بالعزل أم بالقتل؟! حيث يذكر المؤرخون أنه لدىٰ وصول إيلغازي إلى حلب كان المدبر لها جماعة من الخدم؛ والقاضي أبو الحسن بن الخشاب هو المرجوع إليه في حفظ المدينة والنظر في مصالحها. وقد لعب ابن الخشاب دوراً هاماً في الصراع الذي نشب بين الفرنجة الصليبيين وأهالي حلب، وقد استطاع بما عرف عنه من مهارة سياسيَّة وشجاعة نادرة ونشاط لا يفتر، وبما كان يتمتع به من حب أهالي حلب له أن يصمد بالمدينة أمام هجمات الفرنجة الصليبيين وكان يتمتع بصلاحيات القائد الأعلىٰ للحرب والإدارة، كما كان يقوم بالإشراف على الأمور العمرانية. وقد تمكن ابن الخشاب من إقناع إيلغازي بدخول حلب، وكذلك قام بدور مشرف في حض العساكر وتحريض الناس على القتال واستنهاض العزائم في معركة ساحة الدم، وكذلك كان موقفه حازماً من اعتداءات الفرنجة الصليبيين على قبور الموتىٰ ونبشها، فأعطىٰ أوامره بعد موافقة مقدمي حلب، بهدم الكنائس بحلب وتحويلها إلى مساجد[2] لردعهم عن التعدي على القبور وكان ذلك رد فعل لم تعرفه حلب من قبل، وفي أثناء حصار دبيس بن صدقة والفرنجة الصليبيين لحلب استغاث أهل حلب بحسام الدين تمرتاش وأرسلوا له وفداً على رأسه القاضي السابق أبي غانم محمد بن هبة الله بن أبي جرادة ومعه نقيب الأشراف وأبو عبد الله بن الجلي[3]، وقد تمكن الوفد من الوصول إلى البرسقي بعد أن يئسوا من تلبية تمرتاش لدعوتهم[4]، وقد أحسن أبو غانم الوفادة واستطاع إقناع البرسقي بالتوجه إلى حلب، وعندما تمكن البرسقي من هزيمة الفرنجة الصليبيين في جبل جوشن طلب منه القاضي ابن الخشاب أن يتابع المهزومين، لكنه رفض لأمور أشير إليها سابقاً. ولا تشير المصادر إلى وجود قضاة في المناطق التابعة لإمارة حلب أيام السلاجقة، ومن المتوقع أن يكون للقاضي في

---

(١) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ٢، ص٥٣٧.

(٢) العظيمي: تاريخه، ص٣٢٩. ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ٢، ص٥٥٠. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، جـ١ ــ مخطوطة روما ــ ورقة ٧٦. ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص٨٢. وانظر كذلك الفصل الرابع من الدراسة.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٥٨٩.

(٤) انظر الفصل الرابع من الدراسة صفحة ـ ٢٥٤ ـ

مركز الدولة نواب في المناطق، كما هو متبع في الدول المجاورة.

الجيـش: كان المرداسيون يعتمدون في حروبهم وغزواتهم على رجال قبيلتهم الكلابيين إضافة لبعض القبائل العربية الأخرىٰ، ولم يكن لهم جيش منظم تنظيماً عسكرياً ثابتاً بالمعنىٰ المعروف للكلمة، وكان الأمير القوي هو الذي يجمع أكبر عدد من رجال القبيلة ليقفوا معه في حربه ضد أمير آخر من نفس القبيلة أو غيرها لتثبيت زعامته والحفاظ على ملكه وكذلك لقتال الأعداء المحيطين والمتربصين، وكانت هذه القوات قبلية وموسمية تستدعىٰ وقت الحاجة، ويذكر ابن الأثير أنه في سنة ٤٣٣ هـ/١٠٤١ ــ ١٠٤٢ م «لما توفي الدزبري[١]. فسد أمر بلاد الشام وزال النظام وطمعت العرب وخرجوا في نواحيه... وخرج معز الدولة بن صالح الكلابي بحلب وقصدها وحصرها وملكها...»[٢]. وإلى جانب القوات البدوية القبلية الموسمية كان لا يستبعد وجود غلمان وحرس شخصي للأمير بمثابة قوة نظامية مع وجود ميلشيا شعبية داخل المدينة (الأحداث). كان الأمير يستعين بهم وقت الحاجة، كما حدث مع مسلم بن قريش العقيلي في معركته مع سليمان بن قتلمش حيث قتل منهم أربعمائة شخص وذلك في ٢٤ صفر سنة ٤٧٨ هـ[٣]/ ٢٠ حزيران ١٠٨٥ م.

لكن الأمور تبدلت مع مجيء السلاجقة، فعندما عيّن السلطان ملكشاه آق سنقر والياً على حلب ترك معه حامية مؤلفة من أربعة آلاف شخص[٤]، ويمكن القول إنه منذ هذا التاريخ بدأت حلب تعرف نوعاً من الجيش الدائم والقوة النظامية، ولم تكن قوات هذا الجيش في أغلب الأحوال كافية للدفاع عن المدينة والإمارة أو تحقق مطامع أمراء حلب وصراعاتهم ووقوفهم أمام القوىٰ الخارجية، ولذلك غالباً ما لجأ هؤلاء الأمراء أو الولاة إلى الاستعانة بقوات مرتزقة من التركمان ومن بداة القبائل العربية إلى جانب الدخول في أحلاف مع غيرهم من الأمراء والحكام، كما حدث مع الملك رضوان عندما استدعىٰ سكمان بن أرتق لمساعدته[٥]، وكذلك استدعىٰ العرب من بني كلاب بزعامة وثاب بن محمود. وعندما تعرض لضغط من أخيه دقاق ومولاه ياغي سيان سنة ٤٩٠ هـ/١٠٩٦ ــ ١٠٩٧ م، استدعىٰ سليمان بن

---

(١) كان الدزبري حاكم الشام الفاطمي الفعلي ولديه قوات منظمة.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ٩، ص ٥٠١.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ١٤٠.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٦٧.

(٥) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٢٦٩.

إيلغازي فوصله بعسكر كثير إلى حلب، وأصبحت قوات رضوان مؤلفة على قول ابن العديم من التركان والعرب وأحداث حلب[1]، وهذا يدل أنه كان في إمارة حلب نوعان من القوات: الأولىٰ وهي القوات النظامية أو العسكر النظامي، والثانية القوات الاحتياطية أو المرتزقة التي تستدعىٰ وتجمع عند الحاجة، كالتي جمعها إيلغازي من ماردين، وأتىٰ بها إلى حلب لمقاتلة الفرنجة الصليبيين وكما فعل الأمير بلك، ولا تشير المصادر إلى كيفية إدارة هذا الجيش أو الرتب التي حملها قواده، لكن يمكن الافتراض أنه كان هناك ديوان للجند كنظيره في دمشق، وأن الحاكم أو الوالي كان يشرف على الديوان بنفسه أو يعين له أحد كبار قواده[2]، وقد ذكر العظيمي أن ابن الملحي السلمي كان يطلق عليه عارض الجيش[3] وقد عينه سلطانشاه قائداً للجيش ويشار له بالعميد أيضاً، وهي المرة الوحيدة التي يشار فيها لقائد الجيش ورتبته، كما كان يطلق أحياناً على قائد الجيش مقدم العسكر، وقد يسند إليه وظيفة متولي إقطاع الجند وفي ذلك يقول ابن العديم إنه في أيام حكم لؤلؤ، صار شمس الخواص مقدم عسكر حلب ومتولي أقطاع الجند[4].

أما رواتب الجند فكانت على ما يبدو نوعين: الأول الإقطاعات التي تمنح للعساكر لتكون بديلاً عن الرواتب التي كانت تدفع للجنود في العهود السابقة[5]، فقد أقطع تتش عندما انتصر على آق سنقر الشام لعسكره، ومعرة النعمان واللاذقية لياغي سيان[6]، ومثله فعل ابنه الملك رضوان بعد فترة عندما أقطع معرة النعمان وأعمالها إلى سكمان بن أرتق وعسكره[7]. والنوع الثاني هو الرواتب النقدية للجند، وكانت تصرف لهم من خزينة الدولة ومواردها، وكثيراً ما اضطر بعض الولاة والحكام لمصادرة الوجهاء والأثرياء والمتنفذين وحتىٰ الوزراء ورؤساء المدن لدفع رواتب الجند، كما فرضوا ضرائب ومكوس جديدة تثقل كاهل المواطنين وتضيف ضيقاً إلى ضيقهم، وذلك كله ليسددوا نفقات ورواتب الجند وقد وصل الأمر بلؤلؤ اليايا مدبر أمور حلب أيام ألب أرسلان الأخرس، أن اضطر لبيع قرىٰ حلبية كثيرة لصرفها على مصالح القلعة والجند والبلد.

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٩٠.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشىٰ، جـ ٤، ص ١٩. المقريزي: الخطط، جـ ٢، ص ٢١٩.

(٣) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥م، ص ٣٦٧.

(٤) انظر فيما سبق من هذا الفصل، صفحة ــ ٢٠٧ ــ

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٣٨.

(٦) حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي، ص ٢٠٥.

(٧) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٨٢.

ومن هذا الاستعراض يتبين أن الإدارة في مملكة حلب في هذه الفترة اعتمدت على النظم التي كانت سائدة لدى السلاجقة. مع ارتكازها على الأسس الإدارية التي كانت موجودة في بلاد الشام قبل قيام الحكم السلجوقي فيها، وظل الموظفون يعملون وفق ما كان معمولاً به في الفترات السابقة، مع زيادة تمركز السلطة بيد الملك أو نائبه مقابل إنحسار واضح في سلطة الوزراء ورؤساء المدينة.

٢ ــ الحياة الاجتماعية في حلب أثناء الحكم السلجوقي:

١ ــ عناصر السكان: العرب ــ التركمان ــ الأجناس الأخرى:

كان النسيج السكاني لشمال بلاد الشام منذ أوائل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي خليط من العرب المنحدرين من قبيلة كلاب وبعض القبائل الأخرى الأقل شأناً منها، كبني أسد الذين عاشوا في منطقة معرة مصرين وجبل السماق ونقرة بني أسد بين خناصرة والأحص وفي أطراف وادي بطنان، وبني عبس الذين سكنوا وادي بطنان وحيار بني القعقاع وحاضر قنسرين، بينما سكن بنو تنوخ معرة النعمان واستقر بنو منقذ في المنطقة الشمالية الغربية لمدينة حماة واتخذوا من كفر طاب وشيزر مراكز لهم، وقاموا بدور هام في أحداث بلاد الشام[1]، وكذلك استوطنت خفاجة أسفل بلاد الرافدين، وعقيل في منطقة الموصل، ونمير في منطقة حران، وقشير حول قلعة جعبر[2].

وإلى جانب العرب عاشت في حلب ومناطقها جماعات أخرى من الأكراد والأرمن[3]، وظل الأمر كذلك حتى الاحتلال السلجوقي لإمارة حلب حيث بدأ ظهور العنصر التركماني إلى جانب العنصر العربي، فقد بدأ هؤلاء بالتوافد على المنطقة منذ سنة ٤٥٧ هـ/ ١٠٦٤ ــ ١٠٦٥ م، حتى أصبحت المنطقة مسرحاً لتحركاتهم العسكرية، ومكاناً لاستقرارهم.

كانت غالبية التركمان الوافدين من العسكريين، وقد وصلوا المنطقة في البدء على شكل جماعات من المرتزقة تعمل لحسابها الخاص كالناوكية، وجماعة أحمد شاه والأفشين، ثم وصلوا على شكل موجات ضمن الحملات العسكرية المنظمة والتي أخذ جزء منها بالاستقرار في المنطقة، فقد ترك السلطان السلجوقي مع آق سنقر أربعة آلاف عسكري لحماية إمارة حلب

---

(١) سهيل زكار: المدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ص ٧٨.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، القاهرة ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣ م، جـ ١، ص ٣٤١.

(٣) شاكر مصطفى: دخول التركمان الغز إلى بلاد الشام، ص ٣٠٦.

بعد أن أصبحت تابعة لسلطنته وأخذ استقرار التركمان السلاجقة يزداد في المنطقة بعد غزو الفرنجة الصليبيين لبلاد الشام باعتبارهم القوة العسكرية التي إنضافت إلى قوى العرب في المنطقة، وعملت معهم على الدفاع عن البلاد.

ومع الاجتياح العسكري السلجوقي لإمارة حلب أصبحت القيادة العسكرية بيدهم، وأصبح العرب يقاتلون تحت لوائهم وفي ظلهم، ولم تعد المصادر تذكر اسم القبائل العربية في المعارك العسكرية وغيرها إلا نادراً، فقد ذكرت المصادر أحياناً اضطرار الحكام إلى الاستنجاد بالقبائل العربية في بعض معاركهم، كما فعل آق سنقر عندما اضطر لتجنيد الكلابيين للاستعانة بهم في حربه مع تتش، لأن ما كان لديه من القوات التركمانية لم يكن كافياً، ولم تفقد القبائل العربية موقعها ومكانتها العسكرية فقط، بل شمل ذلك أيضاً منظمة «الأحداث» الذين أخذ اسمهم يخبو، كما أن قوتهم وسيطرتهم على مقدرات الإمارة أخذت تتراجع بانتظار الفرص السانحة التي تسمح بظهور قوتهم من جديد كما سنرى فيما بعد. بينما حل الأمراء والضباط والمقدمون السلاجقة في الفراغ الذي تركه شيوخ القبائل والأحداث، وبدأت طبقة جديدة بالتشكل في البلاد هي طبقة القادة العسكريين السلاجقة التي نمت وازدادت قوتها حتى غدت هي الطبقة القادرة على إحداث أي تغيير في البلاد[1].

ومع الموجات التركمانية كان يفد إلى شمالي بلاد الشام عدد كبير من أبناء الشعوب الأخرى ومنهم الأكراد والديلم والأوج[2]، ويشير ابن الأثير إلى الأكراد في روايته عن القتال الذي دار بين تاج الدولة تتش وشرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي بقوله: «وفي هذه السنة جمع تتش جمعاً كثيراً وسار عن بغداد وقصد بلاد الروم: أنطاكية وما جاورها، فسمع شرف الدولة صاحب حلب الخبر فخافه، فجمع أيضاً العرب من عقيل والأكراد وغيرهم، فاجتمع معه جمع كثير»[3]. أما ابن العديم فيشير إلى وجود عدد من الأجناس مع ابن خان عندما وصل إلى المعرة في ١٧ شوال سنة ٤٥٨ هـ/ ١٢ أيلول ١٠٦٦ م، بقوله: «ووصل إليها من الترك والديلم والكرد والأوج مقدار ألف رجل»[4]، ولم تشر المصادر إلى أية معلومات إضافية عن مصير الديلم والأوج في المنطقة، بينما سيكون للأكراد دور مهم في هذه المنطقة بعد وصول الزنكيين إليها وانتهاء دور السلاجقة فيها تدريجياً.

---

(١) سهيل زكار: المدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢١٢.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٣٧٣. والأوج هم سكان الثغور. الجندي: تاريخ المعرة، جـ ١، ص ١٣٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ١٢٧. محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ١، ص ٢٣٩.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٣٧٤.

وهكذا أصبح السكان في إمارة حلب خليطاً من أجناس متعددة، لكن العنصر العربي ظل هو الغالب والأساسي فيها، بينما ظل التركان قليلي العدد نسبياً إلى مجموع السكان لأن الجماعات التي كانت تنتظم الحملات الكبرىٰ كحملتي ألب أرسلان وملكشاه، كانت تعود بغالبيتها إلى الشرق بعد تنفيذ مهامها، وما بقي فعلاً في حلب إثر الحملة الثانية وأقام فيها هو أربعة آلاف فارس الذين سمح لهم ملكشاه بالبقاء مع آق سنقر، كما أن الجماعات التي توطنت في البلاد كانت بأمرة قواد يصلونها تباعاً وبأمرة كل قائد ما بين «٥٠٠ ــ ١٠٠٠» رجل أو عائلة، وهو ما يمكن أخذه قياساً على ابن خان وأتباعه عندما وصلوا المعرة، حيث كان تعدادهم حوالي ألف من الرماة من غز، وكرد، وديلم، وأوج مع حاشيتهم وأتباعهم، وكذلك ينطبق على حملات إيلغازي والبرسقي ما ينطبق على الحملات الأولىٰ من عودة غالبيتهم إلى الشرق وعدم استقرارهم جميعاً في المنطقة.

وعلى الرغم من ذلك فقد استوطنت عشائر تركانية كثيرة في سورية في النصف الأول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وعاشت قرب حلب وعينتاب وفي سهل العمق قرب أنطاكية، وفي حارم وطرابلس وأماكن أخرىٰ على حدود الإمارات التي أقامها المحتلون الفرنجة الصليبيون، وقد عاشت هذه القبائل من تربية الأغنام[1] والأعمال الزراعية الأخرىٰ.

أصبح التركان السلاجقة بعد استقرارهم في بلاد الشام هم رجال الحرب والإدارة والمسيطرين على مقدرات الدولة، إلا أنهم ظلوا أقلية محصورة في مجالات معينة، ولم تذكر المصادر شيئاً عن اختلاط التركان بالسكان المحليين عن طريق التزاوج أو سواه، ويرجح أن التركان ظلوا على شكل قبائل مهامها الرئيسية العمل العسكري، ولذلك ظل العرب أبناء البلاد في المدن كحلب وأنطاكية واعزاز ومنبج والمعرة... وفي الريف والبادية هم العنصر الأقوىٰ والمسيطر على مناحي الحياة الاقتصادية، فمنهم الفلاحون والحرفيون والصناع وأرباب التجارة.... ولم يقتصر دور العرب على الاقتصاد وإنما ساهموا كذلك في الحرب والدفاع عن البلاد كجند في الجيش وكمقاتلة متطوعة في وقت الخطر، وعندما كان يعجز الحكام السلاجقة عن ذلك وخاصة أثناء حصار الفرنجة الصليبيين لحلب[2]... أو غيرها.

---

(١) آشتور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص ٢٧٥.

(٢) انظر الفصل الرابع من الدراسة، صفحة ٢٥٠ وما بعدها.

٢ ـ الأسر الكبيرة والفئات الشعبية:

على الرغم من أنه لم يحدث أن حكمت حلب في هذه الفترة من أسرة حلبية كما حدث في طرابلس وشيزر مثلاً، إلا أن الحلبيين شاركوا في إدارة الدولة والحكم بها من خلال سيطرتهم على كثير من المناصب كمنصب رئيس المدينة والوزارة والقضاء، كما حاولوا أن يقرروا مستقبل إمارتهم في أحيان كثيرة، تدعمهم المليشيات الشعبية المسلحة التي كانت على استعداد دائم لتقوم بدورها وتظهر قوتها عندما تحين الفرصة لذلك.

لقد تعرضت إمارة حلب إلى كثير من التخريب والسلب والنهب والتشعيث، وكذلك لكثير من المصادرات وفرض الضرائب والحصارات طوراً من التركمان السلاجقة، وآخر من الفرنجة الصليبيين مما كان له تأثير كبير على حياتهم الاجتماعية واستقرارهم وسوء أحوالهم الاقتصادية لكنهم على الرغم من ذلك لم يستكينوا للغزاة، ولم يقبلوا بوجودهم، وإنما دفعهم ذلك للنقمة على الحكام الغرباء الذين لم يتورعوا عن عمل أي شيء ضد السكان العرب المحليين إرضاء لمطامعهم وشهواتهم، فقاموا بعدة محاولات للتخلص منهم، ففي سنة ٤٦٢ هـ/ ١٠٧٠ ــ ١٠٧١ م، ثار الحلبيون ضد التركمان الذين خسروا أربعين رجلاً، بينما خسر الحلبيون عشرة رجال[١]، وفي سنة ٤٧٢ هـ/١٠٧٩ ــ ١٠٨٠ م، حاول الحلبيون حكم بلدهم وجعلوا ملكهم مسلم بن قريش، لكن تتش قضى على هذه الحكومة الفتية[٢]، وكذلك حاول أهالي حلب بزعامة أبي القاسم الحسن بن علي الإنفراد بحكم حلب وعدم تسليمها لرضوان، لكن هذا الأخير تمكن من إفشال المحاولة[٣].

كان للبرجوازية المحلية المتمثلة بالعائلات الكبيرة كآل البديع وآل الخشاب دور كبير في مجريات الأحداث في هذه الفترة لمدة ليست بالقصيرة، فقد سعت هذه العائلات على حصر السلاجقة في المراكز والقيادات العسكرية على حين يبقى لهم السيطرة على الإدارة[٣]، وكانت خطة البرجوازية المحلية كما يبدو ملائمة للظروف التي تمر بها البلاد، فحلب كانت في خطر كبير لكونها محاطة تقريباً بمواقع الفرنجة الصليبيين، الذين ضغطوا عسكرياً وحاولوا الاستيلاء عليها وكان برجوازيو حلب بحاجة إلى قوة السلاجقة عسكرياً، فكانوا في بعض الفترات يقدمون لهم الأموال ليقوموا بمهمة الدفاع والقتال. وقد استمر ذلك لمدة أربعين سنة تقريباً قام فيها بنو الخشاب وبنو بديع باستدعاء أمراء مختلفين لحكم إمارة حلب، على أمل أن يقوم

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٣٨٠.
(٢) محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ١، ص ٢٣٩.
(٣) انظر فيما سبق ــ الفصل الثالث من الدراسة ــ تسلم رضوان زمام الأمور في حلب.

هؤلاء الأمراء بالدفاع عن المدينة ويكون لهم الحكم الاسمي، بينما يظلوا هم الحكام الفعليين لحلب والمسيطرين على مقدراتها، إلا أن الأمور كانت لا تجري في كل الأحيان حسب رغباتهم، لأن بعضاً من الأمراء لم يقنعوا بالحكم الاسمي، وإنما مارسوا الحكم المطلق وجعلوا الوزير ورئيس المدينة وأحياناً القاضي ألعوبة بأيديهم، وهذا يعني أن زعماء الأسر الكبيرة هم الذين أصبحوا مطية لدىٰ الأمراء ينفذون السياسة التي تطلب منهم والأمثلة على ذلك كثيرة[1]. ففي عهد ألب أرسلان بن رضوان كان آل بديع هم المتنفذون ورئيس المدينة أحد زعمائهم وهو صاعد بن بديع، وقد تمكن صاعد هذا من إقناع ألب أرسلان بالتخلص من أتباع النزارية الذين كانت لهم كلمتهم أيام حكم الملك رضوان[2]، ومما لا شك فيه أن سياسة صاعد تجاه النزارية كانت تتوافق وسياسة البرجوازية العليا (الأغنياء الكبار) تجاههم، ولم تكن الأسرة الكبيرة الأخرىٰ أسرة بني الخشاب تقبل بالرضوخ لسياسة صاعد، وكانوا له بالمرصاد فعملوا على نفيه من خلال استدعائهم للأمير إيلغازي، وسيطروا هم على المدينة التي مزقتها الصراعات والإنقسامات، وقد سلموا المدينة في سنة ٥١١ هـ/ ١١١٧ ــ ١١١٨ م، إلى إيلغازي ظناً منهم أنه سيبقيهم متزعمين للمدينة، ولكن إيلغازي ما لبث أن تخلىٰ عن بني الخشاب وعيّن لرئاسة المدينة شخصاً وضع ثقته به وهو مكي بن قرناص الحموي. ولكنه تعاون مع ابنه ضده مما دعاه إلى قتله والتخلص منه. ومع ذلك فإنه لم يقدم بني الخشاب ولم يسلمهم رئاسة المدينة.

لم يقبل بنو الخشاب الوضع الجديد، وظلوا يتحينون الفرص لاستعادة مكانتهم حتىٰ سنة ٥١٧ هـ/ ١١٢٣ ــ ١١٢٤ م، حين تمكنوا من دعوة الأمير بلك لحكم حلب بانتظار أن يعيد إليهم زعامة المدينة لكن بلك قام هو الآخر بإبعاد زعماء العائلات المتصارعة من أجل حكم المدينة وقام بتعيين محمد بن سعد الحراني رئيساً للمدينة[3]، وبعد موته سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤ ــ ١١٢٥ م، حكم حلب حسام الدين تمرتاش الذي قام بعزل الحراني وأعاد السلطة في المدينة لبني بديع فعيّن فضائل بن صاعد بن بديع رئيساً للمدينة[4]، وقد ظل فضائل يشغل هذا المنصب مدة من الوقت على الرغم من تغير الأمراء المتكرر، وبالمقابل لم يهدأ بنو الخشاب وتحركوا من جديد واستدعوا الأمير البرسقي علهم يستعيدون سلطتهم. إلا أن

---

(١) انظر الفصل الخامس من الدراسة، فقرة الإدارة ونظام الحكم.

(٢) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥ م، ص ٣٦٦.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٨٠.

(٤) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥ م، ص ٣٧٤. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٨٤.

البرسقي أبقىٰ فضيلاً في منصب الرئاسة، وأصبح مركزه أقوىٰ بعد وصول خطلغ أبه إلى عرش حلب، وعندما خلع خطلغ أبه هذا حاولت كل عائلة تأييد أحد الأمراء، فوقف بنو بديع مع سليمان الأرتقي[1]، بينما أيدّ بنو الخشاب إبراهيم بن رضوان السلجوقي لكن هذا الصراع بين العائلات الكبيرة المتنفذة لم يطل، بسبب وصول نور الدين الزنكي إلى حلب حيث وضع حداً لهذه الصراعات وبدأت مرحلة جديدة من الحكم.

والسؤال الذي يرد هنا: لماذا كان زعماء الأسر الكبيرة يدعوة الأمراء لحكم حلب ولم يتمكنوا من تسلم الحكم بأنفسهم ولصالحهم؟ مما لا شك فيه أن القوىٰ التي ساهمت بإبعاد هذه العائلات عن مسرح السياسة ومنعتها من الوصول إلى الحكم كانت:

١ ــ قوة القبائل العربية البدوية ــ وخاصة المرداسيين ــ التي حاول أمراؤها الاعتماد على رجال القبيلة في حكمهم دون السماح للعلائلات الكبيرة بمشاركتهم الحكم.

٢ ــ قوة التركان السلاجقة التي احتلت إمارة حلب وحلت محل القبائل العربية البدوية، ولم تترك فرصة لأبناء البلاد لتسلم زمام الحكم بأنفسهم.

٣ ــ القوىٰ الفرنجية الصليبية التي كان أحد أهدافها الرئيسية هو الاستيلاء على حلب.

- **الفئات الشعبية:**

آ ــ الأحـــداث:

إلى جانب الفئة العليا التي كان منها الملوك والأمراء والمقاتلين والوزراء ورؤساء المدن والقضاة. كانت هناك فئات شعبية متعددة تمثل أكثرية السكان، وكان همها الكدح في سبيل العيش واستمرار الحياة. وكان على هذه الفئات تقديم الأموال وحتىٰ النفوس للحكام عند الطلب، وجلّ هذه الفئات كانت تعمل في الزراعة والتجارة والصناعة، وأفرادها هم عماد الإنتاج في الدولة، وهذه الفئات هي فئات الفلاحين والتجار والصناع والحرفيين، ويلحق بهم فئة الأحداث المشكلة من بعض أبناء هذه الفئات، ولها إلى جانب عملها الأساسي في كسب عيشها مهمة الدفاع عن البلد والذود عنه وقت الشدة.[2]

الأحداث: وتعتبر من أهم الفئات الشعبية في مدينة حلب كونها شبه عسكرية[3] وقد تكونت هذه الجماعات نتيجة الاضطراب السياسي وفقدان الأمن الذي شهدته مدن بلاد

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٦٠٢.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٦٠٢.

(٣) شاكر مصطفىٰ: دخول التركان الغز إلى بلاد الشام، ص ٣١٥.

الشام مع تدهور القوىٰ السياسية والتبدل السريع في دول المنطقة، وخاصة الضعف الذي أصاب الخلافة العباسية وتدخل العنصر الأجنبي فيها، ويمكن القول إنها كانت جواباً على الفراغ السياسي الذي حدث في هذه المدن، مما دفع أبناءها لإنشاء منظمات لأغراض الدفاع تعود بداياتها لأواسط القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وقد إنتشرت إنتشاراً كبيراً وخضعت لنوع من التنظيم جعلها ميلشيات شعبية شبه رسمية عناصرها من صغار الكسبة والعمال والفقراء، ولكن زعاماتها كانت في الغالب محصورة في العائلات البرجوازية الكبيرة، وقد اقتصر نشاط منظمة الأحداث على مدينة حلب دون مناطقها[1].

قام أحداث حلب بأدوار خطيرة في الدفاع عن مدينتهم أثناء الأزمات، ووقفوا إلى جانب الحكام مرات عديدة، فهم الذين ساعدوا صالح بن مرداس على دخول حلب وتسلمها، وقد وصلت قوتهم إلى حد أن المؤيد في الدين قال عنهم أثناء وجوده في حلب أيام ثمال بن صالح «وفي نفس المدينة قوم يسمون [الأحداث] هم لها أملك من مالكها، وأكثر استيلاء عليها من واليها...»[2]، وقد حاول الأحداث بشكل أو بآخر أن يعبروا عن رفضهم للقوىٰ الخارجية وعن إرادتهم الذاتية في إقامة حكم شعبي محلي، فكانوا ضد الفاطميين كما كانوا ضد التركمان، حتىٰ أن الفاطميين لم يتمكنوا من دخول دمشق إلا بعد أن قضوا على غالبية أحداثها، بينما بقيت قوتهم في حلب[3] حتىٰ أيام الحكم التركماني السلجوقي، وكان لهم مع الحكام التركمان مواقف عدائية متعددة ففي سنة ٤٦٢ هـ/١٠٦٩ ــ ١٠٧٠م، حدث صراع بين أهل حلب والتركمان كانت نتيجته خسارة عدد من الأشخاص من الطرفين[3]. ويبدو أن الأحداث هم الذين قادوا هذا الصراع لأنهم كانوا القوة الوحيدة المنظمة في المدينة. وفي سنة ٤٦٧ هـ/١٠٧٤ ــ ١٠٧٥م، وقف الأحداث وقفة مشرفة مع نصر بن محمود ضد التركمان بزعامة ابن أخ لقتلمش، فاضطر للرحيل عنها إلى أنطاكية، ويقول سبط بن الجوزي: «وكان في قلبه من أحداث حلب حيث قاتلوه ونهبوا أصحابه وقتلوا منها جماعة»[4].

كذلك كان موقف الأحداث عندما كاتبوا شرف الدولة مسلم بن قريش ليساعدهم في رد التركمان عن حلب، حيث كسروا الأبواب ودخلها مسلم مع أصحابه ، وذلك يوم الجمعة

---

(١) شاكر مصطفىٰ ــ المرجع السابق، ص٣١٥ ــ ٣١٦.

(٢) المؤيد في الدين: مذكرات داعي الدولة الفاطمية، ص٢١٥.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٣٨٠.

(٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ــ القسم المطبوع، ص١٧٥.

٢٠ ذي الحجة سنة ٤٧٢ هـ/ حزيران ١٠٨٠ م، وأثناء تقدم مسلم بن قريش لقتال سليمان ابن قتلمش، كان «الأحداث» هم العنصر الرئيسي الذي بقي في المعركة معه، بعد أن تخلت القوات التركمانية عنه وانضمت إلى سليمان مع بدء المعركة، إضافة إلى هرب أتباعه من بني عقيل وكان عددهم يقارب الستمائة قتل منهم في هذه المعركة أربعمائة، وانسحب الباقي إلى حلب[١]. ويبدو أن فترة حكم مسلم في حلب كانت فترة نشاط وازدهار «للأحداث» بحيث يكفي للدلالة على ضخامة عددهم أن ستمائة منهم كانوا في جيش مسلم كما تقدم، وكان الشريف حسن بن هبة الله الحتيتي مقدمهم، وكانت قلعته ثكنة لهم، فكانوا عوناً له عندما امتنع عن تسليم حلب لتتش[٢].

بعد سيطرة السلاجقة على حلب سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ ــ ١٠٨٧ م، تراجع الأحداث وخبا دورهم العسكري والسياسي تدريجياً واقتصر دورهم على المشاركة ببعض الأدوار الدفاعية ضد القوى الغريبة وإذا ما قاموا بأية حركة شعبية فإن ذلك كان يتم تحت زعامة رؤساء العائلات الكبيرة من آل البديع أو الخشاب ففي عهد آق سنقر اشترك جماعة من أحداث حلب مع القوات التي عبأها لمواجهة تتش[٣]، وكذلك كانوا إلى جانب بركات بن فارس الفوعي (المجن) عندما ثار على الملك رضوان محاولاً التخلص منه والإنفراد بحكم حلب ثم تركوه ووقفوا مع صاعد بن بديع عندما تولى رئاسة المدينة[٤].

ومنذ أن وصل الملك رضوان إلى الحكم كان يشك بإخلاص أهل حلب له وخاصة «الأحداث»، ولذلك كان لا بد له من الاعتماد على قوة داخلية تدعمه إلى جانب أتباعه التركمان فاعتمد على أتباع النزارية في حكمه[٥]. بينما ضعف موقف الأحداث الذين حاول قسم منهم الإنضمام إلى النزارية لاستعادة دورهم، ويشير إلى ذلك عبد الكريم غرايبه بقوله: «وقويت دعوة الباطنية في حلب وانضم إليهم بعض الأحداث...»[٦] لكن الأحداث لم يستطيعوا استعادة مركزهم، وكلما قويت شوكة النزارية وزاد اعتماد رضوان عليهم في تنفيذ

---

(١) سبط ابن الجوزي ــ المصدر السابق، ص ٢٠٢.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٥٩ ــ ٤٦٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ١٥٠. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤١٢. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ١٢.

(٤) انظر الفصل الثالث من الدراسة، صفحة ١٦٧ وما بعدها.

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٢٣، كذلك انظر الفصل الثالث من الدراسة، صفحة ـ ١٧٦ ـ

(٦) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٠٢. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٤٩٩. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٣٢. سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ــ القسم الأول، جـ ٨، ص ٤٨. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، جـ ١، القسم الأول، ص ١٨. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ٣٣. انظر الفصل الثالث من الدراسة، صفحة ـ ١٧٧ ـ

سياسته ازداد موقف الأحداث ضعفاً حتىٰ أصبح شبه معدوم وخبت جذوتهم، ويبدو أنهم أصبحوا عرضة للإنتقام من خصومهم ولم يعد لمقدمهم ابن بديع بوصفه رئيساً للمدينة أي تأثير في سياسة الدولة طيلة فترة حكم رضوان ولم تذكر المصادر شيئاً عن نشاط الأحداث إلا بعد وفاة رضوان.

بعد وفاة رضوان أسرع ابن بديع مقدم الأحداث بتقديم مشورته لألب أرسلان ابن رضوان والمتولي لؤلؤ للتخلص من أتباع النزارية والقضاء عليهم، وكانت غايته من ذلك استعادة الأحداث لنفوذهم وسيطرتهم على حلب مرة أخرىٰ ، إلا أن الأخبار لا تنبيء عن استعادة الأحداث لعافيتهم في هذه الفترة ومشاركتهم في الحوادث التي مرت على دولة حلب، وظل الأمر كذلك حتىٰ مجيء إيلغازي إليها، حيث برز اسم الأحداث من جديد فقد استعان إيلغازي بهم بعد معركة ساحة الدم وشاركوه في مهاجمة حصن الأثارب وزردنا واشتبكوا مع الفرنجة الصليبيين في الرابع من جمادىٰ الأولىٰ سنة ٥١٣ هـ/تموز ١١١٩ م[١].

خبا نجم الأحداث ثانية بعدها، ولم يعد لهم جامع يجمعهم بعد أن غدا رئيسهم الذي هو رئيس المدينة ألعوبة بيد الحكام الذين تعاقبوا على حكم حلب، وأخذوا يظهرون من حين إلى آخر يعملون على ضرب الفرنجة الصليبيين من جهة، ويدفعون شرهم ويبعدونهم عن مدينة حلب من جهة أخرىٰ. فقد خرجت جماعات فدائية منهم للإغارة على معسكرات الفرنجة الصليبيين، وقامت بمهمتها ثم عادت إلى حلب وذلك أثناء حصار الفرنجة الصليبيين وحلفائهم لحلب، وكذلك عندما عجز حكام حلب السلاجقة عن فك الحصار والدفاع عن المدينة[٢].

على الرغم من أن المؤرخين لم يشيروا صراحة إلى أن هذه الجماعات الفدائية هي من الأحداث، إلا أنه يمكن استنتاج ذلك، لأنه لم يكن في حلب من يقوىٰ على المقاومة في تلك الظروف إلا الأحداث الذين كانوا يتحينون الفرص لإظهار ما خبا من قوتهم كما تقدم.

وكذلك يمكن القول إن الثورة التي أعلنها أهالي حلب على خطلغ أبه بزعامة رئيس حلب فضائل بن صاعد بن بديع وذلك في الثاني من شوال سنة ٥٢١ هـ/ ٢١ تشرين أول ١١٢٧ م، إنما كانت بتدبير وقيادة تنظيم الأحداث للأهالي الذين ذاقوا الويلات من فوضىٰ الحكم التي عاشتها حلب بعد مقتل آق سنقر البرسقي[٣].

---

(١) العظيمي: تاريخه، ص ٣٧٠. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ٥٥٥. انظر الفصل الرابع من الدراسة، صفحة - ٢٢٠ -

(٢) انظر الفصل الرابع من الدراسة، صفحة - ٢٥١ -

(٣) انظر الفصل الرابع من الدراسة، صفحة - ٢٦٠ -

وخلاصة القول إن الأحداث قاموا بأدوار أساسية في الدفاع عن حلب وشاركوا برسم سياستها، وعبروا بأشكال مختلفة عن رفضهم لكل طامع في بلدهم، وعن إرادتهم الذاتية في إقامة حكم شعبي، ولكنهم لم يتمكنوا من تحقيقه بسبب دخول حلب تحت الحكم العسكري التركاني السلجوقي.

ب ــ الفلاحــون:

لم يعمل السلاجقة في الإنتاج بشكل عام وبالزراعة بشكل خاص، وإنما شكلوا طبقة عسكرية وإدارية كانت معزولة عن الفئات المنتجة عامة والفلاحين خاصة، وكانت ملكية الأرض موزعة بين السلاطين والأمراء وأجنادهم. بينما كان الفلاح صاحب الأرض الحقيقي محروماً من ملكيتها، إلا أنه مشدود إليها في الوقت ذاته، ويفني حياته في فلاحتها وخدمتها دون أن يتمتع إلا بما يسد الرمق من خيراتها بينما طريق الجزء الأكبر من هذه الخيرات إلى جيوب الأمراء والاقطاعيين والمتنفذين وجامعي الضرائب[1].

كان الفلاح يمثل العنصر الأكثر أهمية بالنسبة لواردات الدولة المالية في عهد السلاجقة، حيث كان أغلب هذه الواردات يأتي من جهد وعمل الفلاحين في الأرض، كما كان يمثل العنصر الوطني الذي ظل صامداً ومتعلقاً بأرضه على الرغم مما تعرض له من ظلم وتعسف على أيدي الحكام والاقطاعيين الذين أثقلوا كاهله بالضرائب والأتاوات وأعمال السخرة التي فرضوها. وعلى الرغم من أنه لا توجد إشارات لأنواع الضرائب التي دفعها الفلاحون في العهد السلجوقي، إلا أنه يمكن قياسها بما كان لدى الزنكيين والأيوبيين الذين حكموا حلب بعد السلاجقة مباشرة ويكفي للتدليل على الضرائب والمصادرات التي تعرض لها سكان إمارة حلب إنهم تقدموا بشكوى إلى الأمير إيلغازي يطلبون فيها إلغاء الرسوم والضرائب التي فرضت عليهم أيام رضوان، وكان مبلغها اثنا عشر ألف دينار وقد وقع لهم منشوراً بذلك[2]. أما أعمال السخرة فتعتبر من أبشع أشكال الاضطهاد والظلم والعسف الذي تعرض له الفلاحون ذلك أن السلاطين والأمراء كانوا يستخدمونهم في شق الطرق وأعمال البناء، ويجبرونهم على العمل فوق طاقتهم، وكانوا يتعرضون أثناء أعمال السخرة لكل ضروب الامتهان والتجويع[3].

---

(١) سيرد بحث الضرائب بشكل مفصل في فقرة الموارد المالية، صفحة ٣٢٨

(٢) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، القسم الأول، ص ٩١. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ٥٦٠. ابن أبي الدم: تاريخه ــ مخطوط، ص ١٤٤. كذلك انظر الفصل الرابع من الدراسة، صفحة ـ ٢٣٤.

(٣) تاريخ الفلاحين في الوطن العربي: دار البحث للطباعة والنشر ــ دمشق، جـ٢، ص ٦١٠.

لم يعانِ الفلاحون من الضرائب وأعمال السخرة فقط، وإنما عانوا أيضاً من ويلات الحروب والكوارث الطبيعية والمجاعات، التي كانت تجبرهم في بعض الأوقات على ترك أراضيهم والنزوح عنها. والأمثلة على ذلك كثيرة كلها تشهد على عظمة الفلاح العربي الحلبي، وتشبثه بأرضه على الرغم من توالي المصائب عليه ففي سنة ٤٦٢ هـ/١٠٦٩ ــ ١٠٧٠ م، لقي أهل البلاد من عسكر صندق التركاني شدة عظيمة[١]، وفي سنة ٤٧٢ هـ/١٠٧٩ ــ ١٠٨٠ م، عاد أفشين من حلب ومناطقها ولم يبقَ قرية مسكونة ما بين المعرة وحلب وأنطاكية من جراء التخريب والنهب والسلب والسبي، حتىٰ أن الناس لم يجدوا ما يأكلوه، مما أدىٰ إلى هلاك البعض من الجوع، بينما أكل بعض منهم لحوم القتلىٰ، ومن سلم من هذه المجاعة رحل إلى الموصل وأميرها شرف الدولة مسلم بن قريش[٢]. وفي السنة نفسها ٤٧٢ هـ/١٠٧٩ ــ ١٠٨٠ م، وصلت جيوش تتش إلى شمالي الشام فأحرقت مناطق وقرىٰ جبل السماق وبني عليم، وفرضت الغرامات على أهل سرمين والمعرة، وسمح لقواته بنهب قرىٰ شرق المعرة كما أحرق معرتارح[٣].

بعد احتلال الفرنجة الصليبيين لأنطاكية وأجزاء من شمالي بلاد الشام تعرض سكان إمارة حلب وخلال الحروب الطويلة التي دامت قرابةَ ثلاثين عاماً ــ قبل حكم الزنكيين لها ــ إلى تدهور عام شمل جميع مناحي الحياة، ولم يكن باستطاعة الفلاحين بشكل خاص والسكان بشكل عام أن يفعلوا شيئاً أما ما تقوم به الجيوش المتحاربة من قطع للأشجار المثمرة، وحرق للقرىٰ والمحاصيل، ومصادرة للمواشي والدواب يتبعها قتل وسبي وأسر وتهجير للفلاحين من قراهم.

لقد استخدم الفرنجة الصليبيين في غاراتهم على القرىٰ العربية أبشع أساليب العنف والوحشية حتىٰ أن أعداداً كبيرة من القرىٰ خلت من أهلها الذين قتلوا أو فروا منها إلى المدن القريبة يلوذون بها ويتحصنون بداخلها[٤]. ويشير المؤرخون إلى اضطراب الأحوال في مناطق حلب إثر معركة أرتاح سنة ٤٩٩ هـ/١١٠٥ ــ ١١٠٦ م[٥]، وكذلك تعرضت مناطق

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ٣٨٠.

(٢) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ٢، ص ٤٣١.

(٣) الجندي: تاريخ المعرة، جـ١، ص ١٤١.

(٤) تاريخ الفلاحين في الوطن العربي، جـ٢، ص ٦٣٤.

(٥) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٤٠. ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص ٣٩٤. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ٥١٤ ــ ٥١٥. الغزي: نهر الذهب، جـ٣، ص ٨١. يعشوف: تحف الأنباء، ص ٥١. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ١، ص ٤١٢. عبد السلام التدمري: تاريخ طرابلس، ص ٢٩٨. عبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ص ٩٩.

وقرىٰ حلب إلى هجمات وتعديات الفرنجة الصليبيين بعد عودة إيلغازي إلى ماردين في جمادىٰ الأولىٰ سنة ٥١٣ هـ/آب ــ أيلول ١١١٩ م[١]، وكذلك تعرضت أراضي حلب إلى النهب والتدمير والتهجير سنة ٥١٧ هـ/١١٢٣ ــ ١١٢٤ م، أثناء غياب الأمير بلك عنها[٢]، والأمثلة أكثر من أن تحصىٰ.

إضافة إلى الهجمات والهجمات المضادة التي كانت تنتاب المنطقة بسبب الظروف الداخلية وتعرضها للهجمات الفرنجية الصليبية، فقد تعرضت إمارة حلب لكثير من الكوارث الطبيعية كالزلازل والمجاعات والأوبئة، مما أسهم أيضاً بزيادة خراب اقتصاد البلاد وإفقار السكان، وخاصة أولئك الذين عاشوا بجهدهم وعرق جبينهم ففي سنة ٤٦٩ هـ/١٠٧٦ ــ ١٠٧٧ م، تعرضت الجزيرة والشام والعراق لوباء عظيم أدىٰ إلى موت كثير من الناس حتىٰ بقيت الغلال في البيادر ولم تجد من يجمعها[٣]، وفي سنة ٤٧٠ هـ/١٠٧٧ ــ ١٠٧٨ م، لحق بأهل حلب مجاعة شديدة نتيجة حصار تتش لها[٤]، كذلك تعرضت بلاد الشام في سنة ٤٧٩ هـ/١٠٨٦ ــ ١٠٨٧ م، إلى زلازل خربت كثيراً من البلاد وترك كثير من الناس مساكنهم ثم عادوا إليها بعد أن هدأت الزلازل، وتعرضت الشام وخاصة أنطاكية سنة ٤٨٤ هـ/١٠٩١ ــ ١٠٩٢ م، لزلازل قوية يصفها ابن الأثير بقوله: «وفيها في تاسع شعبان، كان بالشام وكثير من البلاد زلازل كثيرة، وكان أكثرها بالشام، ففارق الناس مساكنهم وانهدم بأنطاكية كثير من المساكن، وهلك تحتها عالم كثير وخرب من سورها تسعون برجاً فأمر ملكشاه بعمارتها»[٥]، ضمن هذه الأوضاع كان يعيش الفلاحون في هذه الفترة، دون أن يكون لهم خيار فيها. ومع ذلك لم يقصروا أو يتوانوا عن المشاركة في الدفاع عن بلادهم، وعلى الرغم من أن القادة التركمان لم يسمحوا لهم ولأبنائهم بالانتساب للجيش، إلا أن هؤلاء حملوا السلاح بشكل تلقائي وساهموا في مقاومة الغزاة وألحقوا الضرر بهم[٦].

جـ ــ باقي فئات السكان:

لم يكن الفلاحون هم الفئة الوحيدة التي تعرضت للظلم والهوان نتيجة ثقل الضرائب

(١) انظر الفصل الرابع من الدراسة، صفحة ٢٢٢ وما بعدها.

(٢) كذلك انظر الفصل الرابع من الدراسة، صفحة ٢٤٣ وما بعدها.

(٣) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ١٠٥.

(٤) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ١٥٨.

(٥) ابن الأثير ــ المصدر السابق، جـ ١٠، ص ٢٠٠.

(٦) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٦٢. تاريخ الفلاحين في الوطن العربي، جـ ٢، ص ٦٤٣. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ ١، ص ٥٠٩. كذلك انظر الفصل الرابع من الدراسة، صفحة ــ ٢٢٧ ــ.

وعسف الجباة واضطهاد الحكام، ولم يتأثروا وحدهم بالكوارث الطبيعية من مجاعات وزلازل وأوبئة، أو بالغزوات والحروب الطويلة المستمرة التي تعرضت لها الإمارة نتيجة ضعف الحكام والأمراء وفوضى الإدارة والتخبط السياسي والاحتلال الفرنجي الصليبي، وإنما شمل ذلك جميع فئات السكان الأخرى من الصناع والحرفيين وصغار الموظفين والعمال وغيرهم والذين يشكلون غالب أبناء المدن، وجزءاً من أبناء المناطق.

فمن خلال جهد الصناع والحرفيين اليدوية كان إنتاج الأدوات والمواد والسلع الاستهلاكية التي يحتاج إليها المجتمع كالأقمشة وبعض أنواع الأثاث الخشبي والزيوت والصابون ومختلف المواد الغذائية[1]، وكان لهذه الحرف والصناعات أسواق متخصصة كسوق الحرير وسوق الصابون وسوق الأقمشة وغيرها وكان أغلبها مسقوفاً، ويقول ابن جبير في معرض وصفه لهذه الأسواق: «تخرج من سماط صنعة إلى سماط صنعة أخرى إلى أن تفرغ من جميع الصناعات وكلها مسقف بالخشب»[2]. وبجهود فئة العمال كانت تتم حركة البناء كالأسواق والمساجد والقصور ودور الكتب والقلاع والأسوار والمرافق الخدمية، ولم تكن معاناة هذه الفئات من الظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية تقل عن معاناة الفلاحين. ولم تشر المصادر إلى تنظيمات أو أعداد هذه الفئات في المدن باستثناء تنظيمات الأحداث، وكذلك لم تتعرض إلا لماماً لمواقف الفلاحين وعوام المدن تجاه الحكام التركمان السلاجقة الذين تعاقبوا خلال هذه الفترة على حكم حلب بسبب الأوضاع القلقة التي شهدتها البلاد، وستظل هذه المعلومات ناقصة إلى أن يظهر في المصادر ما يجلوها.

٣ ـ الحياة الاقتصادية:

ليس هناك دراسات أو معلومات كافية عن الحياة الاقتصادية في شمالي بلاد الشام، إلا ما يمكن استخلاصه من ثنايا كتابات المؤرخين الحوليين، التي يتضح فيها أن الاقتصاد كان يقوم على دعامتين هما: الزراعة والرعي، إضافة إلى التجارة وبعض المهن الحرفية، فمن الزراعة الغلات بمختلف أصنافها، أما الرعي فمنه المحاصيل الحيوانية كالأغنام والجمال، فابن الأثير يشير في حوادث سنة ٤٦٩ هـ/ ١٠٧٦ ـ ١٠٧٧ م «وفيها كان بالجزيرة والعراق والشام وباء عظيم وموت كثير. حتى بقي كثير من الغلات ليس لها من يعملها لكثرة الموت في

(١) انظر فيما يأتي فقرة الصناعة، صفحة ٣٠٨ وما بعدها.

(٢) ابن جبير: رحلته، ص١٧٨ ـ ١٧٩.

الناس»[1]، وهذا يدل على وجود المحاصيل الزراعية في الحقول والبيادر ظلت دون أن يستطيع أحد القيام بما يلزم لجمع المحاصيل وبالتالي فإن الزراعة كانت ناشطة وهناك من يعمل بها.

أما ابن العديم فإنه يذكر بعض الغلال الزراعية الأخرىٰ كالبساتين والكروم أثناء دخول ابن خان إلى المعرة سنة ٤٥٨ هـ/ ١٠٦٥ ـــ ١٠٦٦ م، وأن جنوده عفوا عنها[2]، كما يشير إلى الثروة الحيوانية التي كانت بحاجة إلى المراعي ومن يعمل بمهنة الرعي فيقول: إن التركمان عندما تقدموا نحو بلد أنطاكية... أخذوا نحو أربعين ألف جاموس... وأما البقر والماعز والحمير... فكانت كثرته مما يصعب حصره[3]، وفي مكان آخر يشير إلى أن جماعة صندق التركماني في شتاء سنة ٤٦٢ هـ/ ١٠٦٩ ـــ ١٠٧٠ م، نهبوا الضياع وفتحوا جباب الغلة ومدافنها في معرة النعمان وكفر طاب وغيرها، وأن جماعة أحمد شاه عندما انتصروا على بني كلاب أخذوا من الغنائم على ما يقال ١٠٠ مائة ألف من الإبل وأربعمائة ألف شاة[4].

هذه النصوص وغيرها تشير إلى أهمية الرعي والزراعة في إمارة حلب وكذلك فإن الكثيرين عملوا في التجارة بسبب موقع حلب الجغرافي ووجود المحاصيل الزراعية والصناعية فيها كالقطن والقمح والشعير وصناعة الثياب والصابون.... إلا أن الحركة الاقتصادية كثيراً ما كانت تتعطل وتصاب بالتوقف والجمود بسبب من فقدان الأمن الناتج عن كثرة الفتن الداخلية أو الحروب مع البيزنطيين أو نهب الجماعات التركمانية[5]، أو مما عاناه المواطنون من القحط والأوبئة والغلاء وظلم الحكام ومصادراتهم، وباختصار يمكن وصف الوضع السياسي والاقتصادي لإمارة حلب عشية وصول التركمان إليها:

١ ـــ إن الزعامات السياسية البدوية فيها قد مزقتها الخلافات والخصومات فيما بينها حتىٰ أن الإقتتال كان أحياناً بين الأخ وأخيه، أو عمه أو قريبه، والإلتجاء إلى الغرباء لتحقيق مصالحهم الذاتية مما أنهك اقتصاد البلاد.

٢ ـــ عاش الناس عيشة الكفاف على الرعي والزراعة إلى جانب التجارة وبعض الحرف البسيطة بعيدين ومنفصلين عن الطبقة الحاكمة[6].

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ١٠٥.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٣٧٤.

(٣) ابن العديم ـــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣٧٦.

(٤) انظر الفصل الثاني من الدراسة، صفحة ١٠٣.

(٥) انظر الفصل الثاني من الدراسة، صفحة ٨٢ حتىٰ ـ ٨٤.

(٦) شاكر مصطفىٰ: دخول التركمان الغز إلى بلاد الشام، ص ٣١٦.

وفي عهد السلاجقة لم تنعم الإمارة بالاستقرار السياسي أو الأمني ــ باستثناء بعض الفترات ــ[1]، ولم تعرف الوحدة المتكاملة لأجزائها بل كانت مسرحاً لصراع قوىٰ متنافرة، وقد إنعكس التفكك والاضطراب الذي عاشته الإمارة ــ إضافة إلى الكوارث الطبيعية ــ على الحياة الاقتصادية بجوانبها المختلفة الزراعية والصناعية والتجارية وقد زاد الأمر سوءاً احتلال الفرنجة الصليبيين لأجزاء منها، وقيامهم بالهجمات التخريبية، والقبض على الفلاحين ومعاقبتهم ومصادرة أموالهم وغلالهم، ونهب مزارعهم وتخريبها[2] أو حرقها مما أدىٰ إلى تحول معظم مناطق الإمارة الزراعية إلى خراب وأراضٍ مجدبة وأدىٰ ذلك بالتالي إلى ارتفاع كبير في أسعار المواد الغذائية[3].

ومع كل الأحداث التي مرت على الإمارة في هذه الفترة، فإن السكان كانوا يعرفون كيف يتعايشون مع الظروف التي تحيط بهم مستفيدين من خصب أرضهم واعتدال مناخها ووفرة مياه الأنهار والينابيع فيها[4]، وكذلك تجربتهم الطويلة في التجارة بحكم موقع الإمارة وشهرتهم في بعض الصناعات المحلية، وقدرتهم على التحمل والتغلب على الضائقات الاقتصادية.

ومما لا شك فيه أنه لا يمكن عزل الإمارة في هذه المرحلة عن الأقطار والقوىٰ المجاورة وإغفال آثارها العامة في الحياة الاقتصادية خاصة وأنها جزء من بلاد الشام التي كانت مسرحاً للتيارات والقوىٰ السياسية من بيزنطية وفاطمية وعباسية وقبائل عربية بدوية وسلاجقة، ومن ثم القوىٰ الفرنجية الصليبية التي كان لها التأثير الكبير على مجمل الحياة الاقتصادية وتعطيلها بشكل كبير.

١ ــ الزراعة في إمارة حلب:

١ ــ الأرض الزراعية:

تعتبر إمارة حلب من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة ويعتبر أفضلها وأصحها هواءً وأعذبها

---

(١) كانت أطول الفترات التي نعمت فيها الإمارة بالاستقرار هي فترة حكم آق سنقر قسيم الدولة، انظر الفصل الثالث من الدراسة.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص١٩٦ ــ ١٩٧.

(٣) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ٢، ص١٨١ ــ ١٨٢. ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٢٠٩. ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٥، ص٤٢٠ ــ ٤٢١. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص٢٣٨ ــ ٤٤٧.

(٤) زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ص٩٩.

ماء[1]، وتشمل أراضي إمارة حلب رقعة واسعة حدها من جهة الغرب البحر الرومي (المتوسط) ومن جهة الشرق الفرات وبعض البادية إلى منتهىٰ المناظر، ومن جهة الجنوب حدود حمص وتنتهي إلى قرية تعرف بالقرشية بالقرب من اللاذقية إلى حدود سلمية[2]، أما من الشمال فإن أقصىٰ امتداد لإمارة حلب في القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريين / الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين وصل إلى سبخه وبهسنىٰ ومرعش وسيس[3].

في هذه البقعة الواسعة تعددت البيئات فيها تبعاً لتعدد أنواع التضاريس التي تضمها، ففيها البيئة الجبلية والساحلية من الشمال والغرب، وفيها البيئة السهلية الداخلية الخصبة والصحراوية من الشرق والجنوب ولا شك أن تعدد البيئات فرض تنوع المناخات[4] التي تسمح بإنتاج مختلف الغلال الزراعية، ومما يؤيد خصب أراضي الإمارة وصلاحيتها للزراعة ما يذكره ابن العديم من أن مبارك بن شبل أمير بني كلاب وصل المنطقة في جمع كثير من العرب سنة ٤٩٣ هـ/ ١٠٩٩ ــ ١١٠٠ م، ورعوا مزروعات المعرة وكفر طاب وحماه وشيزر والجسر وغير ذلك[5].

٢ ــ الملكية الزراعية في إمارة حلب:

مرت عملية اقطاع أراضي الدولة وتمليكها للملاك بعدة طرق وأساليب منها: اقطاع الخلفاء الأراضي الزراعية لأقربائهم وأنصارهم وسمي هذا باقطاع التمليك[6]، وكذلك باع الخلفاء بعض الأراضي إلى كبار الملاك[7] كما أنه نتيجة للظروف السياسية وعدم الاستقرار وفقدان الأمن دفع صغار الملاك إلى إلجاء أراضيهم لبعض أفراد الأسرة الحاكمة أو لأحد الأمراء والشخصيات المتنفذة مقابل دفع جزء من المحصول إلى الملجأ إليه[8]، وقد أدت عملية الإلجاء إلى توسع وانتشار الملكيات الكبرىٰ على حساب الزراع الصغار[9]، ثم ظهر في العهد السلجوقي نوع

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٢، ص ٢٨٣. ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ١٨.

(٢) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ١٠.

(٣) انظر الفصل الأول من الدراسة، صفحة ٣٦. ٣٧.

(٤) كذلك انظر الفصل الأول من الدراسة، ص ٣٧ ـ ٣٨.

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٠٧.

(٦) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، جـ ١، ص ٥٩٥. الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ١٧٨. (اقطاع التمليك) يعني التنازل عن الأرض ومنحها كملكية دائمة مع حق توريثها، أو ملكية مؤقتة بهدف استثمارها، ويعطىٰ عادة من الأرض الموات لإحيائها وعلى صاحب هذا الإقطاع دفع العشر أو الزكاة. الدوري: نشأة الإقطاع، ص ٩. مصطفىٰ الشهابي: تاريخ الزراعة في بلاد العالم العربي، ص ٩٧ ــ ١١٣، مقال في مجلة المجمع العلمي العربي ــ المجلد السابق ــ دمشق ١٩٢٧ م.

(٧) مسكويه: تجارب الأمم، جـ ١، ص ٢٠٠، ٢٦٠، ٢٦٥. الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٣٢.

(٨) الدوري ــ المرجع السابق، ص ٣٤.

(٩) الدوري: دراسات في العصور العباسية، ص ١٨.

آخر من الاقطاع هو اقطاع الاستغلال ويقطع للعساكر والأجناد، وهذا الاقطاع لا يورث، ويعاد توزيعه من حين لآخر وخاصة في حال تغير الوالي أو الملك، وكان هذا الاقطاع يخصص بدلاً من الراتب[1]، وكان الوزير نظام الملك السلجوقي أول من استنه وعمل به[2].

عند خضوع بلاد الشام للحكم السلجوقي كانت أراضي الدولة تشكل نسبة كبيرة من الأراضي الزراعية وفي شمالي بلاد الشام على وجه الخصوص يبدو أن معظم الأراضي كانت ملكاً للدولة، ففي سنة ٤٥٧ هـ/١٠٦٤ ــ ١٠٦٥م، أقطع محمود بن نصر معرة النعمان لابن خان[3]، وفي سنة ٤٧٢ هـ/١٠٧٩ ــ ١٠٨٠م، أقطع مسلم بن قريش كل من شبيب ووثاب أخوي سابق قلعتي اعزاز والأثارب وعدة ضياع بينما أقطع سابق مواقع بمنطقة الرحبة[4]، ولكنه ألغى هذا الاقطاع سنة ٤٧٥ هـ/١٠٨٢ ــ ١٠٨٣م، كما أن رضوان عندما تسلم الحكم أعاد اقطاع معرة النعمان ومناطقها إلى سكمان بن أرتق سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ ــ ١٠٨٧م[5]، وكذلك يذكر ابن العديم أن الملك رضوان باع في يوم واحد ستون قرية سنة ٥٠٤ هـ/ ١١١٠ ــ ١١١١م[6]، وفي سنة ٥٠٨ هـ/١١١٤ ــ ١١١٥م، باع لؤلؤ اليايا كذلك قرى كثيرة في إمارة حلب[7]، ويقول ياقوت «ثم بيعت قرى أخرى، ولم يأتِ القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي حتى كان أكثر من ٨٢٠ قرية في إمارة حلب ملكاً لسكانها، ومائتي قرية ونيف مشتركة بين الدولة والسكان»[8]، وهذا ما يؤكد أن معظم الأراضي في إمارة حلب كانت ملكاً للدولة يتصرف بها الملك والأمراء والقواد.

٣ ــ طرق الزراعة وأدواتها:

إن تنوع المناخات في إمارة حلب أدى إلى تنوع المزروعات، فمن القمح والشعير والبقول إلى القطن، إلى الأشجار المثمرة (الزيتون ــ الفستق ــ التين والعنب ــ اللوز والجوز ــ المشمش ...)، وقد استتبع كل ذلك تنوع طرق الزراعة والسقاية ونظامها وعلى الرغم من أنه لا يوجد في المصادر إشارات إلى طرق الزراعة في الفترة المدروسة ــ بسبب الأحداث

---

(١) مسكويه ــ المصدر السابق، جـ ١، ص ١٥٩، جـ ٢، ص ٢٤١ ــ ٢٤٢.
(٢) سهيل زكار: المدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: نظام الملك، ص ٣٧١.
(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٣٧٣.
(٤) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٣٣، ٤٤٢.
(٥) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٨٧.
(٦) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٢١، كذلك انظر الفصل الرابع من الدراسة، صفحة ٢١٣.
(٧) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٥٣٦.
(٨) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٢، ص ٧٨٥.

السياسية العاصفة التي مرت على المنطقة ــ إلا أنه يمكن قياسها بما سبقها أو أعقبها، فالاصطخري يقول عن الزراعة في الدولة العربية الإسلامية بأنه لم يكن فيها نظام زراعي واحد، وإنما كان هناك نظم زراعية مختلفة، وحتىٰ ضمن الولاية الواحدة، فقد كان كل وادٍ أو قرية يكاد ينفرد بنظام معين يتلاءم مع ظروف الطبيعة[1]، فزراعة الحبوب تتطلب حراثة الأرض وقد استعمل في ذلك المحراث البسيط الذي تجره الثيران أو البغال أو الحمير كما هو الحال في كل بلاد الشام[2]، وهو مصنوع من الخشب والحديد والجلد[3]. ومما يدل على ذلك اهتمام آق سنقر قسيم الدولة بقتل حيوان ابن آوىٰ الذي يأكل الجلود التي على آلات الحرث في قرىٰ حلب[4]. ويدل كذلك على استعمال الفلاحين لهذا المحراث في تلك الفترة، كما استعمل الفلاح الفأس ذات الرأس الحديدية لعزق ونكش البساتين وحقول الأشجار المثمرة، وكذلك المجرفة والمر والمنجل إلى ما هنالك من آلات تساعده في خدمة محصوله وجنيه.

أما إرواء الأراضي فإن المصادر تشير إلى أن منطقة حلب وقنسرين كانت تعتمد على مياه الأمطار بالدرجة الأولىٰ «وجميع جند قنسرين أعذاء وشربهم من السماء»[5]، أما معرة النعمان والقرىٰ التي حولها فإنها أعذاء ليس فيها ماء جار ولا عين[6]، وكذلك كفر طاب[7] فإن شرب أهلها من صهاريج تملأ بماء المطر[8]، وكذلك أهل منبج فإن شربهم من قنىٰ تسيح على وجه الأرض وفي دورهم آباراً أكثر شربهم منها لأنها عذبة صحيحة[9]. وعلى الرغم من اعتماد المنطقة عموماً على مياه الأمطار فإن فيها بعض المناطق المروية التي وردت عند المقدسي وناصر خسرو، كشيزر وأنطاكية وحلب، ومنبج[10]، والأنهار التي تروي هذه المناطق هي نهر قويق والساجور والذهب وقسماً من نهر العاصي الذي يروي شيزر وأفاميه وأنطاكية[11].

---

(١) الاصطخري: المسالك والممالك، ص ٨٠.

(٢) اخوان الصفا: رسائل اخوان الصفا، جـ ١، ص ٢١٧. الدوري: تاريخ العراق، ص ٤٩. هاملتون جب: المجتمع الإسلامي والغرب، جـ ٢، ص ١١٠.

(٣) لا يزال يستعمل حتىٰ الآن في بعض المناطق وتجره الحمير أو البغال أو الثيران.

(٤) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٦٨. آشتور: التاريخ الاقتصادي، ص ٦٤

(٥) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٨٣. ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحد الثالث ــ المجلدة الأولىٰ، ص ٤١. أبو الفداء: تقويم البلدان، جـ ٢، ص ٢٨٣.

(٦) ابن حوقل ــ المصدر السابق، ص ١٦٤. ابن العديم ــ المصدر السابق، ص ٤١. أبو الفداء ــ المصدر السابق، جـ ٥، ص ١٥٦.

(٧) كفر طاب: بلدة بين المعرة وحماه، بقاياها على بعد /٣/ كم إلى الغرب من خان شيخون الحالية.

(٨) ابن العديم ــ المصدر السابق، ص ٤٦. أبو الفداء ــ المصدر السابق، جـ ٤، ص ٤٧٠.

(٩) أبو الفداء ــ المصدر السابق، جـ ٥، ص ٢٠٦.

(١٠) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ١٦٢، ١٧٣، ١٧٥. ناصر خسرو: سفر نامة، ص ٤٥، ٤٦، ٥٥.

(١١) انظر الفصل الأول من الدراسة، تفاصيل وافية عن أنهار حلب، صفحة ــ ٤١ ــ

٤ ــ المحاصيل الزراعية:

احتلت الزراعة مكانة مرموقة في حياة سكان إمارة حلب في العهد السلجوقي على الرغم من الأحداث السياسية التي اجتاحت البلاد، وكان احتلال الزراعة لهذه المكانة ناتج عن عدة اعتبارات منها:

١ ــ تعدد أنواع التربة.

٢ ــ تعدد أنواع المناخات.

٣ ــ نسبة الأمطار العالية فيها (٣٠٠ ــ ٦٠٠ مم)[١].

كل هذه الاعتبارات أدت إلى تنوع المحاصيل في إمارة حلب، ففي أراضيها يزرع القطن والسمسم والبطيخ والخيار والتفاح، ولها من الكور والضياع ما يجمع سائر الغلات النفيسة، والأراضي بين أنطاكية وحلب تزرع بالقمح والشعير تحت شجر الزيتون[٢]. ويصف الرحالة ابن جبير الأندلسي المناطق التي مر بها في أراضي إمارة حلب وما بها من المحاصيل والمزروعات وذلك في النصف الثاني من شهر ربيع الأول سنة ٥٨٠ هـ/النصف الثاني من حزيران ١١٨٤ م، أي بعد الفترة المدروسة بحوالي ستين عاماً بقوله: «وقنسرين هذه هي البلدة الشهيرة في الزمان، لكنها خربت وعادت كأن لم تغن بالأمس... ولكن قراها عامرة منتظمة لأنها على محرث عظيم مد البصر عرضاً وطولاً... وعن المعرة يقول: وهي سواد كلها بشجر الزيتون والتين والفستق وأنواع الفواكه، ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين، وهي من أخصب بلاد الله وأكثرها أرزاقاً وعن حماه يقول: وبخارج هذه البلدة بسيط فسيح عريض قد انتظم أكثر شجرات الأعناب وفيه المزارع والمحارث»[٣]، ولنص ابن جبير أهمية خاصة هنا وذلك لأمرين: الأول هو قرب نصه من الفترة المدروسة، وبذلك أعطى صورة صحيحة وصادقة عن الزراعة في الإمارة، والثاني هو تجوله في أغلب مناطق الإمارة واختراقه لها من الشرق إلى الغرب، فقد بدأ في الرقة وانتهى بحماه وحمص مروراً بمنبج ــ الباب ــ حلب ــ قنسرين ــ المعرة ــ سهول حماه. وكذلك يزرع العقيل والاشنان في حاضر قنسرين[٤]، وفي مناطق سرمين ومعرة مصرين تكثر الأشجار المثمرة وخاصة الزيتون والتين[٥]، وتعتبر حارم

---

(١) رجاء دويدري: دراسة إقليمية، ص ٣٠٠.

(٢) ابن العديم ــ المصدر السابق، ص١٣، ١٤، ٣٣. ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ١٤٩. القفطي: تاريخ الحكماء، ص٣٩٦.

(٣) ابن جبير: رحلته، ص١٧٧ ــ ١٨١.

(٤) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ــ مخطوطة قنسرين، ص ١٠.

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٥١٣، حاشية رقم /١/.

دمشق الصغيرة لما فيها من البساتين والعيون الكثيرة، ولكثرة ما فيها من الفواكه[١]، وكذلك تكثر الأشجار والبساتين والثمار والبقول في تل باشر وبزاعة والباب ومنبج[٢].

وعلى الرغم من أن ما تحدث به مؤرخو وجغرافيو ورحالة ذلك العصر كان إما سابقاً لفترة السلاجقة أو لاحقاً لها، إلا أن أغلب المحصولات الزراعية تكاد تكون نفسها، لأن عصر السلاجقة كان عصر حروب أكثر مما كان عصر تغيير وتطوير في الزراعة وأساليبها، وقد بقيت أكثر المحاصيل هي نفسها حتىٰ أيامنا هذه.

يأتي على رأس المحاصيل الزراعية الحبوب وأهمها القمح حيث له السيادة على المحاصيل الأخرىٰ[٣] ثم الشعير وتعتبر هذه المحاصيل المصدر الرئيسي لغذاء الإنسان الذي يعتمد بالدرجة الأولىٰ على الخبز الذي ينتج من القمح أو الشعير، ومن ثم البرغل وأصناف أخرىٰ مصدرها الحبوب.

وتعتبر سهول حلب بما فيها حماه بمناخها المعتدل[٤]، وكميات الأمطار الهاطلة فيها مناطق مناسبة لزراعة القمح والحبوب الأخرىٰ، ويذكر الغزي أن أعظم الحبوب التي تزرع في حلب وأعمالها هي الحنطة التي بها حياة أهلها وأغلب صادراتهم التجارية منها[٥]، والقمح يزرع في كل مكان من بلاد الشام تقريباً، وهناك بعض المناطق التي صدرت كميات كبيرة منه[٦]، ويشير ابن العديم إلى أن أراضي حلب الغربية حتىٰ أنطاكية أرض صالحة لزراعة الحنطة والشعير[٧]، وكذلك يزرع القمح والشعير في شيزر وقنسرين ومعرة النعمان[٨].

أما عن كميات المحاصيل في تلك الفترة فلم تذكر المصادر عن كمية أي منها، إلا أنه نتيجة للكوارث والحروب لم يتمكن الفلاحون من القيام بأعمالهم الزراعية مما أدىٰ إلى نقص في المساحات المزروعة وبالتالي نقص في المنتجات الزراعية وأدّىٰ الجفاف والكوارث الطبيعية والحروب إلى حدوث مجاعات وغلاء فاحش في أسعار الحنطة والمحاصيل الأخرىٰ، ففي سنة

---

(١) ابن شداد ــ المصدر السابق، ص ١٧.

(٢) ابن شداد ــ المصدر السابق، ص ١١٠.

(٣) آشتور: التاريخ الاقتصادي، ص ٥٥.

(٤) انظر الفصل الأول من الدراسة، صفحة ـ ٤٠

(٥) الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ١١٤.

(٦) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٦٢. الاصطخري: المسالك والممالك، ص ٤٦. آشتور: التاريخ الاقتصادي، ص ٥٦. رجاء دويدري: دراسة إقليمية، ص ٧٣.

(٧) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ المجلدة الأولىٰ، ص ٣٣. القفطي: تاريخ الحكماء، ص ٣٩٦. كذلك انظر الفصل الأول من الدراسة، صفحة ٤٠.

(٨) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ٤٥. ابن جبير: رحلته، ص ١٨٠.

٤٧٣ هـ/ ١٠٨٠ ــ ١٠٨١ م، ارتفعت أسعار الحنطة نتيجة الحصار الذي فرض على أهل حلب[١]، والشيء نفسه حدث في فترة الحصار الذي عاشته حلب سنة ٥١٣ و ٥١٤ هـ/ ١١١٩ ــ ١١٢١ م، من جهاتها الشمالية والغربية والجنوبية، بينما كانت المناطق الشرقية مخربة أيضاً ومجدبة[٢].

وما يقال عن محصول القمح يصدق على محصول الشعير والذرة البيضاء والصفراء والفول والحمص واللوبياء[٣]، ومن المحاصيل الأخرىٰ الأرز ويـزرع في الأماكـن التـي تكثر مياهها كسهل العمق وجهات مرعش[٤]، وكانت الفواكه والخضار من المحصولات التي تزرع في حلب منذ القديم ولا تزال حتىٰ الآن ومنها: البطيخ[٥]، والخيار[٦]، والقثاء والكوسا والباذنجان والبندورة والجزر واللفت والشوندر، وقصب السكر الذي يكثر في أنطاكية وعينتاب وخاصة الأراضي المروية[٧]، ويكثر الثوم والبصل في منطقة معرة مصرين[٨] إضافة إلى أنواع أخـرىٰ كثيرة.

ومن المحاصيل أيضاً الأشجار المثمرة والفواكه، وتعتبر مناطق حلب الشمالية والغربية من المناطق الهامة بزراعة الأشجار المثمرة وإنتاج الفواكه، وشجرة الزيتون من أكثرها انتشاراً في تلك المناطق، وخاصة ما بين حلب وأنطاكية، وبسبب جودة التربة وخصوبتها كان الفلاحون يزرعون القمح والشعير تحت أشجار الزيتون[٩]، وقد أكـد المؤرخـون والرحالـة كثرة شجـر الزيتون في إمارة حلب، وكثرة معاصر الزيت فيها، وأن الناس كانوا يمشون من مقام إبراهيم عليه السلام إلى النقرة والأحص في ظلال شجر الزيتون إلى جانب انتشارها في مناطق جبل السماق وسرمين وكفر طاب ومعرة النعمان وجبل سمعان[١٠]، ويشير ابن العديم وغيره إلى أن

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ٤٣١، ٤٣٣، بيعت الحنطة كل ستة أرطال بدينار.

(٢) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ٢، ص٤٤٨. كذلك انظر الفصل الرابع من الدراسة، صفحة ـ ٢١٨ ـ

(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٢، ص ٢٨٤. الغزي: نهر الذهب، جـ٣، ص١١٥. كذلك انظر الفصل الأول من الدراسة، صفحة ـ ٤٣ ـ

(٤) الغزي: نهر الذهب، جـ٣، ص١١٦. كذلك انظر الفصل الأول من الدراسة، صفحة ٤٣٠

(٥) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص١٤٧. القلقشندي: صبح الأعشىٰ، جـ٤، ص٨٧. الغزي: نهر الذهب، جـ٣، ص١١٩.

(٦) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٢، ص ٢٨٤.

(٧) الغزي: نهر الذهب، جـ٣، ص١١٩ ــ ١٢٢.

(٨) ابن العديم ــ المصدر السابق، ص٢٢. الغزي ــ المصدر السابق، جـ٣، ص ١٢٠.

(٩) ابن العديم ــ المصدر السابق، ص٣٣. القفطي: تاريخ الحكماء، ص٣٩٦.

(١٠) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ المجلدة الأولىٰ، ص ٢٢. ناصر خسرو: سفر نامه، ص ٤٥. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٥، ص ١٥٦. ابن جبير: رحلته، ص ١٨٠. ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ١٤٩.

مناطق الأثارب وأرتاح حتى جبل السماق تشبه فلسطين في كثرة الزيتون[١].

كذلك اشتهرت إمارة حلب بزراعة الكروم، وتعتبر منبج وقنسرين وجبل السماق من المناطق الملائمة لزراعة الكرمة التي تعتمد على مياه الأمطار[٢]، وفي معرة مصرين زرع العنب بجانب التين، ويروي ابن العديم نقلاً عن المهلبي قوله: «وكان بلد معرة مصرين إلى جبل السماق بلد التين والزبيب والفستق والسماق وحبة الخضراء يخرج عن الحد في الرخص، ويحمل إلى مدن العراق ويجهز إلى كل بلد»[٣]، كما وصف جبل السماق بأنه من أنزه البقاع وأحسن الأماكن وأطيبها، ويزرع في أرضه كل أنواع الحبوب والقطاني، وأن أشجار التين والعنب غطت معظم تلاله وبقاعه[٤] وأوديته، وفي المعرة تكثر أنواع العنب التي استعملت في صنع الزبيب والدبس والخل[٥]، وقد أشار ابن العديم إلى بساتين وكروم المعرة عندما قال عن جماعة ابن خان إنه: «ما رؤي أعف منهم عن البساتين والكروم»[٦]. وكذلك كانت منبج مشهورة بعنبها وزبيبها الذي كان يباع في حلب وغيرها من المدن ويقول ابن حوقل إن لها من ناطف الزبيب المعمول بالجوز والفستق والسمسم ما لم يرَ شبيهاً له إلا ببخارى[٧].

وإذا كانت هذه شهرة الكرمة، فإن التين لم يقل عنه شهرة وارتبط اسمه مع الكرمة، وكان مزروعاً في عدة مناطق من إمارة حلب، ويذكر ابن الشحنة أن فيها التين الذي لا يوجد له نظير لا في الشكل ولا في الطعم ولا في الكمية[٨]، وأكثر وجوده في قنسرين ومعرة النعمان وجبل السماق[٩]، ويبدو أن أهالي حلب في عهد سيف الدولة زرعوا مختلف أنواع أشجار الفاكهة ومنها التين والتفاح والكرمة وغيرها[١٠]، ومن ثم أصبح ينتج بكميات كبيرة.

أما التفاح والمشمش فلم تبلغ شهرتهما المحاصيل الأخرى كالزيتون والكرمة واقتصرت زراعتهما على بعض المناطق منها قرية نواز في جبل السماق حيث غطت أشجار التفاح هذه

---

(١) ابن العديم ـ المصدر السابق، ص ٤٣. ابن الشحنة ـ المصدر السابق، ص ١٤٩. آشتور: التاريخ الاقتصادي، ص ٥٨ ـ ٥٩.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٦٦ ـ ١٧١. ابن العديم ـ المصدر السابق، ص ١٦٤ ـ ١٦٧. الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ١٢٣.

(٣) ابن العديم ـ المصدر السابق، ص ٤٣. ابن الشحنة ـ المصدر السابق، ص ١٤٩.

(٤) ابن العديم ـ المصدر السابق، ص ٤٣.

(٥) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ٤٥. ابن الشحنة ـ المصدر السابق، ص ١٤٩. الجندي: تاريخ المعرة، جـ ١، ص ٢٧٧.

(٦) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٣٧٤.

(٧) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٦٦.

(٨) ابن الشحنة ـ المصدر السابق، ص ٢٥٢.

(٩) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ـ المجلدة الأولى، ص ١٦. ناصر خسرو: سفر نامه، ص ٤٥. ابن جبير: رحلته، ص ١٨٠. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٥، ص ١٥٦. الجندي ـ المرجع السابق، جـ ١، ص ٨٤.

(١٠) درويش الجندي: الشعر في ظل سيف الدولة، ص ١٢.

المنطقة إضافة لأشجار اللوزيات كالمشمش والجوز واللوز والكمثرى والسماق[1]، كما زرع التفاح في منطقة المعرة[2]، ومنطقة الرافقة وبخاصة قرية داماان التي يضرب المثل بجودة تفاحها وحمرته[3]، وتشتهر أنطاكية بالمشمش العجمي والدراقن والسفرجل[4].

أما الفستق فقد غطت زراعته أغلب مناطق الإمارة وبلغت شهرته أن سمي بالفستق الحلبي نسبة لحلب التي تنتج منه أشهر الأصناف وأجودها[5]، ومن المناطق التي اشتهرت بزراعته أيضاً المعرة حيث كان يحمل منها إلى مصر وسائر الشام[6]، ويشير ابن حوقل إلى أن جميع جند قنسرين بلد التين والفستق والكروم[7]، وكذلك يشير ابن العديم إلى أنه من بلد معرة مصرين إلى جبل السماق بلد التين والزبيب والفستق والسماق[8]، وكذلك اشتهرت منبج بالفستق واستخدمه أهلها في صناعة الزبيب[9].

وهناك أنواع أخرى من الفواكه منتشرة في أماكن متفرقة من إمارة حلب منها الرمان الذي يكثر في مناطق الجبل الأعلى المتصل بجبل سمعان وجبل السماق[10]، وفي شيزر وحارم[11]، والمعرة[12] أما الأجاص فإنه يكثر في جبل سمعان والأعلى[13]، بينما اشتهرت منبج بزراعة شجر التوت[14]، وأنطاكية بزراعة قصب السكر[15]، وتعتبر إمارة حلب من أهم مناطق بلاد الشام

---

(١) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ـ المجلدة الأولى، ص١٦٧ . القزويني: آثار البلاد، ص١٨٣ . الغزي: نهر الذهب، جـ٣، ص١٢٦ .

(٢) الجندي: تاريخ المعرة، جـ١، ص٢٧٥ ـ ٢٧٦ . الشهابي: معجم الألفاظ الزراعية، ص٤٣٩ .

(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٢، ص٤٣٣ .

(٤) وصفي زكريا: جولة أثرية، ص١٠٣ .

(٥) ابن العديم ـ المصدر السابق، ص ١٠ ـ ١٦ ـ ٤١ . ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٦٤ . الغزي ـ المصدر السابق، جـ٣، ص ١٢٣ .

(٦) ابن حوقل ـ المصدر السابق، ص ١٦٤ . ابن العديم ـ المصدر السابق، ص ٤١ . ابن بطوطة: رحلته، جـ١، ص ٨٥. الجندي ـ المرجع السابق، جـ١، ص٧٧ .

(٧) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٦٤ . والسماق نبات يظهر له ورق أخضر، وحب أحمر، طعمه حامض يستفاد من حبه للطعام ويخلط مع الزعتر والبهارات بعد طحنه، ويستفاد من ورقه في دباغة الجلود بعد طحنها، أما عيدانه وبقاياه فيستفاد منها في الوقود.

(٨) ابن العديم ـ المصدر السابق، ص١٦ . ابن الشحنة ـ المصدر السابق، ص١٤٩ . الغزي ـ المصدر السابق، جـ٣، ص١٢٣ .

(٩) ابن حوقل ـ المصدر السابق، ص١٦٦ .

(١٠) ابن العديم ـ المصدر السابق، ص١٦٦ . ابن الشحنة ـ المصدر السابق، ص٢٥٢ .

(١١) أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٥٩ ، ٢٦٣ . الغزي ـ المصدر السابق، ص١٢٨ .

(١٢) ناصر خسرو: سفرنامه، ص٤٥ . ابن جبير: رحلته، ص ١٨٠ . الغزي ـ المصدر السابق، ص١٢٨ . الجندي ـ المرجع السابق، ص٢٧٥ . فايز قوصرة: الرحالة في محافظة ادلب، ص١٥٧ .

(١٣) ابن العديم ـ المصدر السابق، ص ١٦٤ ـ ١٦٦ . الغزي ـ المصدر السابق، ص١٢٦ .

(١٤) أبو الفداء ـ المصدر السابق، ص ٢٧٠ . القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص١٢٧ . الغزي ـ المصدر السابق، ص ١٣٠ .

(١٥) وصفي زكريا: جولة أثرية، ص١٠٣ .

بزراعة اللوزيات وإنتاجها كالجوز واللوز والبندق، وتكثر في جبل سمعان والأعلىٰ وبني سليم ومنبج ومعرة النعمان[1]، كما انتشرت في الإمارة زراعة الخوخ[2]، ويقول ابن الشحنة: «وبها الخوخ الزجاجي والتل باشري والذي لا يوجد بغيرها»[3]، أما محصول السماق فقد انتشرت زراعته في المنطقة الغربية وعلى الأخص بجبل السماق[4] الذي سمي باسمه، وكذلك يكثر في الجبل الأعلىٰ ومعرة مصرين[5].

ومن المحصولات التي تشتهر بها إمارة حلب القطن[6] الذي زرع في جبل السماق وعلى ضفاف نهر الذهب[7]، وأرض المعرة[8]، أما القنب فإنه يكثر في سهول حلب[9]، وكذلك يزرع السمسم في أنطاكية ومنبج والمعرة[10]، وحول قنسرين وحاضرها يكثر العقيل والاشنان[11]، وتميزت منطقة الباب بزراعة الورود كالورد الشامي والقرنفل التي توصف دواء للمرضىٰ[12]، كما اشتهرت أنطاكية بكثرة الأزهار والرياحين فيها[13]، وبالإجمال أجمعت مصادر المؤرخين والجغرافيين والرحالة الذين زاروا المنطقة على جودة التربة وتنوع المناخ وبالتالي تنوع إنتاجها الزراعي ولا سيما الحبوب والزيتون والفواكه والكروم، وتليها في الأهمية المحصولات الأخرىٰ كالقطن والخضروات[14].

---

(١) ابن حوقل ـ المصدر السابق، ص ١٦٦ . ابن العديم ـ المصدر السابق، ص ١٦٦ ـ ١٦٧ . ناصر خسرو: سفر نامه، ص ٤٥ . ابن الشحنة ـ المصدر السابق، ص ١٤٩ ، ٢٥٠ . الغزي ـ المصدر السابق، ص ١٢٥ ، ١٢٧ . الجندي ـ المرجع السابق، ص ٢٧٥ ، ٢٧٧ . فايز قوصرة ـ المرجع السابق، ص ١٥٧ .

(٢) ابن حوقل ـ المصدر السابق، ص ١٦٤ . ناصر خسرو ـ المصدر السابق، ص ١١ .

(٣) ابن الشحنة ـ المصدر السابق، ص ٢٥٢ . الغزي ـ المصدر السابق، ص ١٢٣ ، ١٢٥ .

(٤) ابن العديم ـ المصدر السابق، ص ١٦٧ .

(٥) ابن العديم ـ المصدر السابق، ص ٤٣ . ابن الشحنة ـ المصدر السابق، ص ١٤٩ . محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٤ ، ص ١٦٤ .

(٦) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢ ، ص ٥٨٧ . ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٢ ، ص ٢٨٤ . آشتور: التاريخ الاقتصادي، ص ٥٩ .

(٧) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ـ المجلدة الأولىٰ، ص ٢٥ ، ٩٥ .

(٨) الجندي: تاريخ المعرة، جـ ١ ، ص ٢٨٠ .

(٩) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ١٤٨ .

(١٠) ابن حوقل: المسالك والممالك، ص ١٤٢ . ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٢ ، ص ٢٨٤ . الجندي ـ المرجع السابق، ص ٢٨٠ . وصفي زكريا: جولة أثرية، ص ١٠٣ .

(١١) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ـ مخطوطة قنسرين، ص ٩ .

(١٢) ابن الشحنة ـ المصدر السابق، ص ٢٥٢ .

(١٣) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ـ المجلدة الأولىٰ، ص ٢٤ .

(١٤) انظر جميع المصادر والمراجع السابقة، نفس الأجزاء والصفحات.

٥ ـ الغابات والمراعي:

إلى جانب المحاصيل الزراعية والأشجار المثمرة نمت في المناطق المختلفة من إمارة حلب وبخاصة الغربية منها حتىٰ أنطاكية الأشجار غير المثمرة التي تشكل الغابات، وفي المناطق الشرقية منها المراعي والمروج، فأشجار السرو كانت تغطي بعض المناطق حيث كان يستعمل في سقف البيوت[1]، وقد تعرضت الغابات للحرق والقطع من قبل الغزاة الفرنجة الصليبيين ففي سنة ٥١٧ هـ/١١٢٣ ـ ١١٢٤م، أحرق جوسلين باب بزاعه وقطع أشجاره، وأحرق ما سوّاه من الوادي... ونزل منطقة السعدي وقطع أشجارها[2]، ويقول الغزي إن شجرة السرو كانت موجودة بكثرة ولم يبقَ حتىٰ أيامه إلا القليل[3]، وكانت حلب من أكثر المدن أشجاراً وقد أفنتها هجمات الأخشيد وسيف الدولة ابن حمدان على حلب[4]، ثم جاءت الفترة السلجوقية والغزو الفرنجي الصليبي ليقضي على ما تبقىٰ من أشجار، إلا ما لم تكن تطاله الحملات، والأمثلة على قطع الأشجار وحرقها في هذه الفترة كثيرة[5].

أما المراعي والمروج فإنها تشكل حيزاً كبيراً من أراضي إمارة حلب، وبخاصة الشرقية منها حتىٰ نهر الفرات حيث كانت مجالاً واسعاً للرعي وتربية الماشية للقبائل البدوية العربية، ومن المروج المهمة في حلب مرج دابق، كما أن أنطاكية مشهورة بمراعيها ومزارعها[6]، ومما يدل على أهمية المروج في الإمارة أن السلطان ألب أرسلان عندما عبر الفرات في منتصف شهر ربيع الآخر سنة ٤٦٣ هـ/ كانون الثاني ١٠٧١م، في منطقة نهر الجوز نزل على المروج فأعجب بها[7]. كما أن ابن العديم أشار إلى المروج أثناء وصفه لجيوش السلطان التي نزلت على حلب بقوله: «وكانت الخيام والعساكر ممتدة من حلب إلى مروج الشام»[8].

---

(١) ابن العديم ـ المصدر السابق، ص ٤٣.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٧٨. كذلك انظر الفصل الأول من الدراسة، صفحة ـ ٣١ ـ

(٣) الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ١٢٣. محمد كرد علي: خطط الشام، جـ ٤، ص ١٥٢.

(٤) ابن الشحنة ـ المصدر السابق، ص ٢٥.

(٥) انظر الفصلين الثالث والرابع من الدراسة.

(٦) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٦٥.

(٧) انظر الفصل الثاني من الدراسة، صفحة ـ ٩٣ ـ

(٨) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ـ المجلدة الثالثة، حوادث سنة ٤٦٣ هـ. كذلك ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٧٩. وكذلك انظر الفصل الثاني من الدراسة، صفحة ٩٤

٢ ــ الثروة الحيوانيــة :

تعتبر إمارة حلب غنية بثروتها الحيوانية وهي إحدىٰ دعامات الاقتصاد في هذه الإمارة، حيث كانت تربية الماشية من مظاهر الإنتاج الاقتصادي لدىٰ القبائل البدوية وعدد من سكان القرىٰ، وقد اهتم البدو وسكان الريف بتربية الأغنام وعاشوا على منتجاتها من الألبان والأصواف واللحوم، وإلى جانب الأغنام انتشرت تربية الجاموس والماعز والجمال والحمير والبغال والخيول للاستفادة من منتجاتها واستخدامها في مختلف الأعمال.

وقد وردت عدة إشارات لدىٰ مؤرخ حلب ابن العديم عن الحيوانات التي انتشرت تربيتها في أنحاء الإمارة ففي سنة ٤٥٩ هـ/١٠٦٦ ــ ١٠٦٧ م، استولىٰ التركمان أثناء هجومهم على أنطاكية على نحو أربعين ألف جاموس وقيل أكثر ... وأما البقر والغنم والماعز والحمير ... فلم يحصَ لكثرته[١]، وهذه إشارة واضحة إلى الثروة الحيوانية الكبيرة التي كان يملكها السكـان وأهميتها في حياتهم المعاشية، وعندما إنهزم بنو كلاب أمام أحمد شاه ومحمد بن دملاج غنم التركمان على ما يقال مائة ألف جمل، وأربعمائة ألف شاة، وعلى الرغم من أن هذه الأرقام مشكوك فيها، إلا أنها تدل دلالة واضحة على أهمية هذه الثروة في البلاد.

عندما هاجم الفرنجة الصليبيون شرقي حلب سنة ٥٠٤ هـ/١١١١ ــ ١١١٢ م، نهبوا ما قدروا من المواشي[٢] (الغنم والماعز والبقر والجمال)، وكذلك استولوا في سنة ٥١٣ هـ/١١٢٠ ــ ١١٢١ م، على كل ما وجدوه في مناطق حلب الشرقية من الدواب[٣] (الحمير والبغال). كما استولوا على «ما يجل قدره من الماشية والدواب من حاضر حلب والفنيدق في صفر سنة ٥١٥ هـ[٤]/ نيسان ــ أيار ١١٢١ م». كل هذه المعلومات التي وردت تشير إلى كثرة تعداد الحيوانات في منطقة حلب.

كذلك كانت تربىٰ الخيل من قبل بعض السكان وأغلبه كان بأيدي التركمان المقاتلة، ومنذ القديم كان للخيول العربية دور هام في الحروب مع الأعداء، حيث كانت تلقي الرعب

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٣٧٦.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٥١٩.

(٣) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ٢، ص٥٥٨.

(٤) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ٢، ص٥٦٢.

والخوف في قلوب المحاربين[1]، ومما يدل على أهميتها في تلك الفترة أنّ الفرنجة الصليبيين كانوا يطلبونها إلى جانب المال أثناء عقد المعاهدات مع التركمان، فقد صالح الملك رضوان عدوه تنكريد سنة ٥٠٤هـ/١١١١ــ ١١١٢م، على عشرين ألف دينار وعشرة رؤوس من الخيل[2]، وكان أبناء حلب يركبون الخيل لمهاجمة الفرنجة الصليبيين أيام حكم إيلغازي[3]، ويشير ابن العديم إلى أن جوسلين خرج في ١٩ رمضان سنة ٥١٨هـ/٣٠ تشرين أول ١١٢٤م، فهاجم الوادي والنقرة والأحص واستولىٰ على ما يزيد عن خمسمائة فرس. ومن الجانب الجنوبي ثلاثمائة فرس وأخذ من الدواب والبقر والغنم والجمال ما لا يحصىٰ ثم هاجم الجبول وما حولها واستولىٰ على دواب كثيرة[4]. وكذلك استولىٰ بلك على ثلاثمائة رأس من الجوالق الفخم[5] عندما حاصر حلب، كل ذلك يؤكد كثرة الخيول في المنطقة واستخدامها في الحروب على نطاق واسع.

أما أهميتها للدولة فكانت من خلال الضرائب التي تفرضها على تربية المواشي والخيل والجمال والبقر، وتعتبر هذه الضرائب إحدىٰ الروافد الأساسية لخزينة الدولة، وعلى الرغم من أنه لا توجد إحصائية عن مبلغ هذه الضرائب في الفترة المدروسة، فإنه يكفي مراجعة ما ورد في قائمة واردات حلب لسنة ٦٠٩هـ/١٢١٢ــ ١٢١٣م، للتعرف على مقدار حجم تلك الثروة والموارد في الإمارة، فقد بلغت قيمة الضرائب المحصلة من تعداد المواشي[6]. مليون وثلاثمائة وخمسين ألف دينار من أصل ستة ملايين وتسعمائة وأربع وثمانون ألفاً هي ميزانية حلب لنفس السنة[7] موزعة كالتالي:

سوق الخيل والجمال والبقر	سوق الغنم	سوق التركمان للغنم	عداد العرب[8]	عداد التركمان
٣٨٠ ألف	٤٥٠ ألف	٣٠٠ ألف	١٠٠ ألف	١٢٠ ألف

إضافة إلى ٣٠٠ الف راس من الغنم تعطى عينا للدولة.

(١) موريس لومبار: الإسلام في فجر عظمته، ص ١٩٩.
(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ٥٢٠.
(٣) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ٢، ص ٥٧٣.
(٤) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ٢، ص ٥٧٨ ــ ٥٧٩.
(٥) الجوالق، انظر الفصل الرابع من الدراسة، صفحة ـ ٢٤٠ ـ.
(٦) تعداد المواشي: ضريبة تدفع عن كل رأس منها، وتسمىٰ ضريبة العداد، ومحصلها يسمىٰ العداد، وإيصالها يطلق عليه الكوشان، وهي لا تزال قائمة في بعض المناطق حتىٰ أيامنا.
(٧) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ١٤٧ ــ ١٤٨.
(٨) المقصود بعداد العرب والتركمان هو ضريبة تعداد الأغنام والماعز والجمال التي يملكها العرب أو التركمان.

هذه الأرقام تدل على أن الثروة الحيوانية كانت تشكل أكثر من سدس ميزانية الدولة وأن هذه الثروة بأعدادها الكبيرة أدت دوراً هاماً في اقتصاديات إمارة حلب للأسباب التالية :

١ ـــ تعتبر مصدراً هاماً من مصادر الخزينة .

٢ ـــ تعتبر الوسيلة الأساسية للزراعة والنقل والجر .

٣ ـــ تعتبر مصدراً هاماً من مصادر الغذاء للسكان .

٤ ـــ كانت منتجاتها من الألبان واللحوم والجلود مادة أساسية للتبادل التجاري في أسواق المدن مقابل القماش وأنواع من الأغذية والأدوات المنزلية والشخصية .

٣ ـــ الصناعة في إمارة حلب :

اشتهرت الإمارة منذ القديم ببعض الحرف والصناعات المحلية التي اعتمدت على وجود المواد الأولية فيها وأدت إلى قيام حركة صناعية نشيطة ومزدهرة[١]، وكان من أهم عوامل نشوء هذه الصناعات وازدهارها :

١ ـــ توفر المواد الأولية غير الزراعية والحيوانية .

٢ ـــ وجود اليد العاملة[٢] .

٣ ـــ تنوع المحاصيل الزراعية في الإمارة[٣] .

٤ ـــ وجود ثروة حيوانية كبيرة[٤] .

وسيتم التعرف أولاً على المواد الأولية غير الزراعية، ومن ثم التعرف على الحرف والصناعات التي كانت قائمة في هذه الفترة .

١ ـــ المواد الأولية :

من أشهر المواد الأولية التي وجدت في إمارة حلب منذ القديم مادة الحديد[٥]، ومما يؤكد وجوده في حلب وأهميته في الصناعة ورود اسمه في قائمة العائدات المالية بمدينة حلب[٦]، وذلك سنة ٦٠٩ هـ/١٢١٢ ـــ ١٢١٣ م، وقدرت ضريبته بخمسين ألف درهم، أما

---

(١) آشتور : التاريخ الاقتصادي، ص ٣٠٧ .

(٢) زكي النقاش : العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ص ٩٦ .

(٣) انظر فيما سبق ـــ الفصل الخامس ـــ فقرة الزراعة .

(٤) انظر فيما سبق ـــ الفصل الخامس ـــ الثروة الحيوانية .

(٥) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ١٨٤ . ابن شداد : الأعلاق الخطيرة، جـ ١، القسم الأول، ص ١٥٣ . ياقوت الحموي : معجم البلدان، جـ ١، ص ٤٣٦، ٦٣١ . ابن الشحنة : الدر المنتخب، ص ٤٨ . فيليب حتي : تاريخ سورية، جـ ١، ص ١٩٨، ٢٠٢، ٣٠٥

(٦) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة، جـ ١، القسم الأول، ص ١٥٣ . ابن الشحنة : الدر المنتخب، ص ١٤٨ .

النحاس[١] فإنه موجود في جبل جوشن الواقع غرب مدينة حلب والمار بسفحه نهر قويق، كما وجد الفحم الحجري في جبل البشر، وقد أشار ياقوت إلى ذلك بقوله: «ووجد فيه أربعة معادن: معدن القار والمغرة والطين الذي يعمل منه البواتق التي يسبك فيها الحديد»[٢]، وكذلك وجد في حلب الرمل الذي يصنع منه الزجاج وهو رمل أبيض كالاسفيداج[٣]، ومن المواد الخام المتوفرة في حلب أيضاً الملح الذي يستخرج من سبخة الجبول ويشتغل به أهل الجبول والقرىٰ المجاورة، وهو ملح أبيض في مثل بياض الثلج، وغاية في الجودة والاعتدال[٤] في الطعم، وقد ورد اسمه أيضاً في قائمة العائدات المالية لمدينة حلب[٥]، ويشير ياقوت إلى الملح بقوله: «... وفي الجبول يصب نهر بطنان، وهو نهر الذهب، ثم يجمد ملحاً فيمتار منه كثير من بلدان الشام»[٦].

٢ ــ أهم الصناعات في إمارة حلب:

قبل الحديث والتعرف عن الحرف والصناعات التي كانت قائمة في الفترة موضوع البحث لا بد من الإشارة إلى الملاحظة التالية:

لم يرد في المصادر أي إشارة إلى قيام صناعات جديدة في هذه الفترة، وما كان قائماً منها يعود لفترة أسبق منها، وظلت كذلك إلى ما بعدها بأزمان طويلة، ومنها ما هو قائم حتىٰ الآن، ومن هذه الحرف:

١ ــ استخراج زيت الزيتون وصناعة الصابون: نتجت هذه الصناعة عن توفر محصول الزيتون[٧] في مناطق مختلفة من الإمارة، ويعتبر زيت الزيتون والصابون[٨] من أهم المواد التي تفتخر بها إمارة حلب وتصدرها إلى الخارج، ويقول ابن العديم إنه ما من قرية في نقرة بني أسد إلا وفيها معصرة للزيت والحجر الذي كان يعصر بها[٩]، ويذكر ابن الشحنة أن المصابن كانت

(١) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ المجلدة الأولىٰ، ص ١٦١.

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ١، ص ٤٢٦.

(٣) الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ٤٣.

(٤) ابن الشحنة ــ المصدر السابق، ص ٤٧.

(٥) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، جـ ١، القسم الأول، ص ١٥٢. ويقدرها بـ (٣٥٠) ألف درهم. ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ١٤٧. وترد لديه برقم (٣٢٠) ألف درهم.

(٦) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٢، ص ١٠٧. القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٠٨.

(٧) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ المجلدة الأولىٰ، ص ٢٢. ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ١٤٩. ناصر خسرو: سفر نامه، ص ٤٥. ياقوت الحموي ــ المصدر السابق، جـ ٥، ص ١٥٦.

(٨) العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص ٤٤٩. زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ص ١٨٣. عبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ص ٣٨٠.

(٩) ابن العديم ــ المصدر السابق، ص ١٥.

تدفع من الضرائب ما يعادل عشرة آلاف درهم، وأن الضياع من الأثارب وأرتاح إلى نحو جبل السماق لها ارتفاع جليل من الزيت ويحمل إلى الرقة والفرات وإلى كل بلد[1]، أما سرمين فإنها كانت مركز صناعة الصابون الذي يباع إلى مصر والشام ومنه الصابون الملون والمطيب الذي يستعمل لغسل الأيدي[2].

وكذلك تعتبر بالس من المناطق المشهورة بصناعة الصابون وكانت تنتجه بكثرة ونوعية جيدة[3]، وكما اشتهرت الرقة بهذه الصناعة منذ القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي فهي «معدن الصابون الجيد»[4] ويذكر ابن الشحنة أن الذي كان ينتج في حلب هو من أفضل أنواع الصابون «ومما اختصت به حلب الصابون الذي يجلب منها إلى سائر ممالك الروم والعراق وديار بكر، وهو أفضل الصابون ويباع بحلب في اليوم الواحد منه ما لا يباع في غيرها في شهر»[5]، ومما يؤيد قول ابن الشحنة ما ذكره الغزي من أن في حلب أكثر من خمس عشرة مصبنة، والحلبيون ما زالوا محافظين على إتقان هذه الصنعة واجتناب الغش فيها ولذلك كان صابونها رائجاً في التجارة أكثر من صابون غيرها[6]، ولا تزال شهرة حلب بصناعة الصابون وبخاصة منه نوع الغار ماثلة حتى أيامنا هذه.

٢ ــ **صناعة النسيج**: تعتبر هذه الصناعة من الصناعات الأساسية والرئيسية في بلاد الشام عامة[7]، ومنها إمارة حلب وتشمل عدة أنواع من المنسوجات منها: الحريرية، الصوفية، القطنية، الكتانية وكذلك البسط والسجاد والحصر والخيم، وكان ذلك بسبب وجود المادة الخام أولاً، ووجود الحرفيين المهرة ثانياً، والطلب المتزايد على هذه الصناعة ثالثاً.

ومنذ بداية العصور العربية الإسلامية أصبحت حلب من مدن بلاد الشام التي اشتهرت بمنتجاتها الحريرية[8] ومن النسيج الذي اشتهرت به حلب «الأطلس» وما يدل على ذلك ما قام به أهل حلب من تعصيب برج الغنم بشقة أطلس استهزاء من حصار السلطان ألب أرسلان وقواته لحلب[9]، وكذلك عرفت حلب المنسوجات القطنية إضافة لتصدير القطن

(١) ابن الشحنة ــ المصدر السابق، ص١٤٧. آشتور: التاريخ الاقتصادي، ص٥٨ ــ ٥٩.

(٢) ابن بطوطة: رحلته، ص٣٣.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٦٥.

(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٤١. عبد العزيز الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي، ص١٠٤.

(٥) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص٢٥٤.

(٦) الغزي: نهر الذهب، جـ٣، ص١٠٧.

(٧) الغزي ــ المصدر السابق، جـ٣، ص١٠١.

(٨) سعيد خليفة: تاريخ المنسوجات، القاهرة ١٩٦١م، ص٩٤. جاك ريسلر: الحضارة العربية، ترجمة: غنيم عبدون ــ الدار المصرية للتأليف والنشر، ص١٢٥.

(٩) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٣٨٥. كذلك انظر الفصل الثاني من الدراسة، صفحة ـ ٩٤ ــ ــ ٩٥ ـ.

كمادة خام إلى مصر وغيرها من المناطق[١]، ونظراً لانتشار تربية الأغنام في الإمارة فإن الصوف كان متوفراً وشكل مادة أساسية لصناعة الثياب والبسط والسجاد والعباءات والمناديل والأغطية[٢].

وكذلك وجدت صناعة الخيام في حلب والتي احتاجها البدو، وكانت مادتها الأساسية شعر الماعز الذي كانت تربيته منتشرة إلى جانب المواشي الأخرى[٣]، ويشير ابن ميسر إلى الفسطاط الكبير (الخيمة) الذي صنعه في حلب أبو الحسن علي بن أحمد المعروف بابن الأيسر في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وقد كلف مع النقوش والرسوم التي عليه ثلاثين ألف دينار[٤]، ويمكن هنا الإشارة إلى خيمة رضوان بن تتش التي يصفها وليم الصوري بأنها قطعة رائعة منسوجة من أكثر أنواع الحرير نعومة وذات ألوان كثيرة .. وقيل إن هذه الخيمة كان بإمكانها استيعاب ألفي رجل بشكل مريح، وهذا ما يؤكد أن خيم الملوك والأمراء كانت تصنع من الحرير، بينما الخيم العادية من شعر الماعز كما سبق.

وكذلك كانت منبج من البلدان التي قامت فيها صناعة الحرير بسبب وجود شجر التوت فيها الذي تربى عليه «دودة القز» المصدر الرئيسي للحرير[٥]، ثم انتشرت زراعة شجر التوت في منطقة قنسرين التي أصبحت فيما بعد أهم مركز لتربية دودة القز في شمالي سورية[٦]، أما الباب فقد اشتهرت بصنع السجاد[٧]، ويذكر عن معرة النعمان أنه وجد فيها الكثير من عمال الصناعة وبخاصة صناع الحياكة[٨]، ويبدو أن اعزاز كان لها شهرة بصناعة الأقمشة بدليل أن تتش عندما قاتلها وضربها بالنار احترقت أقمشة الناس[٩]، ويحتمل أن يكون المقصود بأقمشة الناس الموجودة في محلات البيع أو أماكن حياكتها، وفي أنطاكية وجدت مصانع الحرير والأقمشة والسجاد[١٠]، ونظراً لوجود القصب في أنطاكية[١١] وسهل الروج فقد انتشرت

---

(١) آشتور: التاريخ الاقتصادي، ص ٥٩ ـ ١١٤.
(٢) الغزي: نهر الذهب، جـ٣، ص ١٠٣.
(٣) انظر فيما سبق ـ فقرة الثروة الحيوانية.
(٤) زكي حسن: كنوز الفاطميين، ص ٦٣.
(٥) موريس لومبارد: الإسلام في فجر عظمته، ترجمة حسين العودات، ومراجعة: علي الخشن، دمشق ١٩٧٩م، ص ٢١٤.
(٦) زيود: رسالة دكتوراة، ص ٢٦١.
(٧) آشتور: التاريخ الاقتصادي، ص ٣٠٧.
(٨) الجندي: تاريخ معرة النعمان، جـ١، ص ٢٧١.
(٩) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ٤٢٦.
(١٠) سعيد خليفة: تاريخ المنسوجات، ص ٩٧. فيليب حتي: تاريخ سورية، جـ١، ص ٣٠٤. محمد الزين: تاريخ طرابلس، ص ١١١.
(١١) وصفي زكريا: جولة أثرية، ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

كذلك صناعة الحصر التي كان الناس يستخدمونها في المنازل والمساجد، ويشير ابن العديم إلى استيلاء العامة على الحصر التي في الجامع أيام محمود بن صالح المرداسي[١]، مما يؤكد استخدامها بشكل واسع في الإمارة.

٣ ــ **صناعة الزجاج**: يعتبر الزجاج الحلبي الملون من أجمل وأقدم أنواع الزجاج غير الشفاف الذي أتقن الحلبيون صنعه بطريقة النفخ في القوالب، وفي المتحف الوطني مجموعة نادرة من هذا النوع من الزجاج الملون بأشكال مختلفة[٢]، وقد عرفت حلب صناعة الزجاج في وقت مبكر وقامت بتصديره إلى منطقة حوض البحر المتوسط[٣]، وكان العراق ومصر يقلدان الزجاج الشامي المنتشر في صور وأنطاكية وعكا والخليل وحلب وغيرها، واستمر ذلك طوال العصور الإسلامية[٤]، وكذلك عرفت حلب والرقة ومدن أخرىٰ صناعة الزجاج المموه بالمينا والذهب واكتسبت شهرة واسعة في أنحاء العالم[٥].

ومنذ القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي شهدت حلب تقدماً في صناعة الزجاج، وكان الزجاجون ينتجون الكؤوس والقوارير والأواني الزجاجية المستخدمة في الكيمياء كأنابيب التقطير والأوعية وغيرها[٦]، ومما يؤيد شهرة حلب بصناعة الزجاج قول أحد التجار: «أريد أن أحمل الكبريت من إيران إلى الصين... ومن هناك آخذ الخزف الصيني إلى بلاد الشام... والفولاذ الهندي إلى حلب، وآخذ الزجاج الحلبي إلى اليمن»[٧]، وهذا يدل على أن الزجاج الحلبي وصلت شهرته إلى اليمن وكان أحد المواد التي يُتاجر بها.

وبعد الاحتلال الفرنجي الصليبي لأجزاء من بلاد الشام زاد الاهتمام بصناعة الزجاج في أنطاكية وغيرها من الإمارات التي احتلها الفرنجة الصليبيون بقصد تصديره إلى أوروبة الغربية[٨]، ويقول الغزي: وكانت مادة المورن التي تعمل منها الأواني الزجاجية تؤخذ من جبل

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٣٨٢.

(٢) بشير زهدي: الزجاج القديم، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد ١٠ لعام ١٩٦٠م، ص ١٢٨.

(٣) لومبارد: الإسلام في فجر عظمته، ص ٢١٩. زكي حسن: كنوز الفاطميين، ص ١٧٦. الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٩٩.

(٤) لومبارد ــ المصدر السابق، ص ٢١٩. زكي حسن ــ المصدر السابق، ص ١٧٦. محمد كرد علي: خطط بلاد الشام، جـ ٤، ص ٢١٦.

(٥) آشتور: التاريخ الاجتماعي، ص ٣٠٨. محمد أبو الفرج العش: الزجاج السوري، الحوليات الأثرية السورية لسنة ١٩٦٦م، المجلد السادس عشر، جـ ١، ص ٤٣.

(٦) جاك ريسلر: الحضارة العربية، ص ١٢١. القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، جـ ٥، ص ١٢٣، ١٢٧. أبو الفرج العش ــ المرجع السابق، ص ٤٦ ــ ٤٧.

(٧) زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٣٢٦. زكي حسن: كنوز الفاطميين، ص ١٧٨.

(٨) ابن جبير: رحلته، ص ٢٤٦. سعيد عاشور: تاريخ العلاقات بين الغرب والشرق في العصور الوسطىٰ، ص ٣٢٦.

البشر وللحلبيين بها شهرة واختصاص[1].

٤ ـ **صناعة الخزف والفخار**: اشتهرت بلاد الشام ومنها إمارة حلب بصناعة الفخار، وبدءاً من القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين ـ تطورت هذه الصناعة وأصبحت أكثر اتقاناً وتنوعاً في الأشكال والحجوم وأكثر وفرة في الإنتاج[2]، ومن أهم مناطق صناعة الفخار والخزف الرقة، ويقول عمر رضا كحالة أن أهم خزفها يعود إلى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي وما بعده[3]، وكذلك كانت أنطاكية من المدن المشهورة بصناعة الخزف[4]، وكانت كفر طاب قليلة المياه لذلك أقيمت فيها الصهاريج لحفظ مياه الأمطار وتستعمل في الحمام وما يخرج منه يستعملونه في دباغة الجلود، وما زالوا يستعملونه في طين الفخار الذي يصنع ويحمل إلى البلاد التي حولها[5]. ويقول الغزي إن من صناعة الخزف الخوابي وشربات الماء والقرميد والجرار، وهي من البضائع الباقية على حالتها من قديم الزمان إلى أيامه[6].

٤ ـ **الدباغة والجلود**: قامت حرفة الدباغة في حلب بسبب وجود مادة الجلود التي تؤخذ من الثروة الحيوانية المتوفرة في أنحاء مختلفة من الإمارة[7]، وكان تمركزها على نهر قويق بظاهر باب أنطاكية[8]، وكانت استخدامات الجلود متنوعة كالأحذية التي يحتاجها جميع الناس وبأشكالها المختلفة والمعروفة منذ القديم ولها سوق خاص بها، ومنها ما يستخدم في آلات الحرث والبرادع والسرج لحيوانات الجر والركوب كالخيول والحمير والبغال والجمال، ويدل على ذلك قول ابن العديم: من أن قسيم الدولة آق سنقر عندما علم بأن حيوان ابن آوىٰ يأكل الجلود التي على آلات الحرث أمر الصيادين في مختلف بلدان الإمارة بصيد بنات آوىٰ[9]، ولا تزال هذه الحرفة قائمة ومشهورة في حلب حتىٰ أيامنا.

---

(١) الغزي: نهر الذهب، جـ٣، ص١١٣.
(٢) العش: الفخار غير المطلي، مقال في مجلة الحوليات الأثرية السورية الأعداد ١١ ـ ١٢ لعام ١٩٦١ و ١٩٦٢م، ص١٤٢ ـ ١٤٤.
(٣) عمر رضا كحالة: الفنون الجميلة في العصور الإسلامية ـ المطبعة التعاونية بدمشق ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، ص٢١٤.
(٤) سميح الزين: تاريخ طرابلس الشام، ص١١١.
(٥) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ـ المجلدة الأولىٰ، ص٦٣. عمر رضا كحالة: الفنون الجميلة، ص٢٣٩.
(٦) الغزي: نهر الذهب، جـ٣، ص١٠٩.
(٧) انظر فقرة الثروة الحيوانية.
(٨) الغزي: نهر الذهب، جـ٣، ص١٠٤ ـ ١٠٥.
(٩) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٤٦٨.

صناعة الورق: وهي إحدىٰ الصناعات التي عرفتها حلب[1]، وقد أطلق على الحي الذي أقيمت فيه معامل الورق باسم الوراقة، وقد استمر الورق الحلبي الصقيل المتين محافظاً على شهرته حتىٰ العصر الحديث، ومن المدن التي اشتهرت كذلك بصناعة الورق في الإمارة منبج وحماه[2].

وكان لانتشار الورق أكبر الأثر على تأليف الكتب في جميع فروع العلوم والمعارف، وقد عرفت حلب أيام الحمدانيين والمرداسيين نهضة ثقافية واسعة[3]، وكذلك فعل بنو منقذ، ولكن هذه النهضة أصيبت بالشلل إن لم نقل الموت أثناء الفترتين السلجوقية والفرنجية الصليبية اللتين مرتا على الإمارة، ولم تبدأ بالنمو والظهور مرة أخرىٰ إلا بعد قيام الحكم الأيوبي في البلاد.

٧ ــ **الصناعات المعدنية والخشبية**: نظراً لتوفر مادتي الحديد والخشب في شمال بلاد الشام فقد اشتهرت حلب ببعض الصناعات المعدنية والخشبية ومنها صناعة السيوف[4]، وبعض الأدوات الحديدية كالمسامير وشبكات النوافذ[9] وأدوات المطبخ، وعرفت معرة النعمان الصياغة، غير أنها كانت مقصورة على صنع الحلي للأغنياء وصنع الخواتم[9]، ويقول الغزي إن في حلب خمسين دكاناً للصياغة وتركيب الماس والياقوت وبقية الأحجار الكريمة وصناعتها مقصورة على النصارىٰ[7].

كما كانت النجارة من الصناعات المنتشرة في حلب وأغلب منتجاتها الأبواب والأسقف وبعض أنواع الأثاث، ويقول ابن جبير: «تخرج من سماط صنعة إلى سماط صنعة أخرىٰ إلى أن تفرغ من جميع الصناعات وكلها مسقف بالخشب»، وفي ازدهار الصناعة الخشبية يقول: «وقد استفرغت الصنعة القرنصية جهدها»[8]. وكذلك صناعة آلات الحرث[9] المصنوعة من الجلود والأخشاب والسكك الحديدية، وكان لبائعي آلات الحرث سوق اسمه «قبو المسلاتية» بالقرب من بانقوسا وسوق باب النيرب وسوق باب الجنان[10].

(١) القلقشندي: صبح الأعشىٰ، جـ ٤، ص ٤٧٦، ٤٨٧، ٤٨٨. محمد كرد علي: خطط بلاد الشام، جـ ٤، ص ٢٤٣ ــ ٢٤٤.

(٢) آشتور: التاريخ الاقتصادي، ص ١١٧.

(٣) سهيل زكار: إمارة حلب، ص ١٧٩.

(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ١٦٢، ١٧٤، ١٨٤. محمد كرد علي: خطط بلاد الشام، جـ ٤، ص ٢١٣. أمينة بيطار: الحياة السياسية، ص ٣٣٦.

(٥) الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ١٠٤.

(٦) الجندي: تاريخ المعرة، جـ ١، ص ٢٧٢.

(٧) القاضي الزبيري: الذخائر والتحف، ص ٨٦، ٨٧. الغزي ــ المصدر السابق، جـ ٣، ص ١٠٣. سهيل زكار: إمارة حلب، ص ١٦٩.

(٨) ابن جبير: رحلته، ص ١٧٨ ــ ١٧٩.

(٩) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٦٨.

(١٠) الغزي ــ المصدر السابق، جـ ٣، ص ١٠٣.

٨ ــ **بعض الحرف والصناعات الأخرىٰ**: كذلك وجدت في إمارة حلب بعض الحرف والصناعات مثل طحن الحبوب، فقد حفرت بعض الأقنية لتشغيل طاحونة تقع جنوب حلب، كما أقيمت طواحين أخرىٰ على نهر قويق وإلى الشمال والجنوب من حلب، ووجد في أنطاكية بعض الطواحين، وفيما بينها وبين مدينة حلب، وكذلك وجدت الطواحين في منطقة شيزر[١]، ويبدو أن الطواحين كانت منتشرة في أغلب المناطق لحاجة المواطن إليها في طحن الحبوب.

وكذلك اختصت حلب بماء الورد النصيبي الذي اشتهرت به منطقة الباب، فإنه لا يوجد في الدنيا مثله بحيث لا يقاربه شيء مما يجلب إلى الديار المصرية من الشام[٢]، أما منبج فقد اشتهرت بصناعة ناطف الزبيب المعمول بالجوز والفستق والسمسم ما لم يرَ مثله وهو يصدر إلى حلب وغيرها من المدن، كما كانت أنطاكية مشهورة بصناعة السكر من قصب السكر.

٤ ــ التجارة في إمارة حلب:

إن الإمكانيات الزراعية لإمارة حلب وكثرة إنتاجها من الغلال والثمار والزيتون والقطن والكروم من جهة وإنتاجها لبعض المصنوعات وحاجتها لصناعات أخرىٰ من جهة ثانية، ووقوعها على ملتقىٰ الطرق التجارية من جهة ثالثة أدىٰ إلى قيام حركة تجارية هامة وناشطة، وإلى نشوء عدد من الأسواق والخانات والفنادق المختلفة لتسيير العمليات التجارية، وكانت حلب عاصمة الإمارة ومركزها الإداري والسياسي كذلك مركزاً تجارياً كبيراً تجلب إليه البضائع المختلفة من سائر البلدان، واستوطن بها أناس من جهات شتىٰ، وزادت مواردها المالية من خلال الضرائب الكثيرة على التجار.

وقد تأثرت التجارة في حلب شأنها شأن الزراعة والصناعة بما كان يحدث فيها وفي المناطق المحيطة بها من فتن واضطرابات وحروب كانت تعرقل حرية التجار في التنقل والأسفار، كما قام قطاع الطرق واللصوص بدور خطير في عرقلة سير القوافل التجارية في الفترات التي كان يتولىٰ الحكم فيها أمراء ضعاف[٣].

أما الفترات التي تولىٰ الحكم فيها أمراء أقوياء، فإن الأمن ساد الطرق التجارية وتضاءل خطر قطاع الطرق واللصوص، ويشير المؤرخون إلى أن آق سنقر قسيم الدولة قضىٰ على

---

(١) الأصطخري: المسالك والممالك، ص٦٢. ابن جبير: رحلته، ص٢٢٨. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ١، ص١٤٨، ١٧٩. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، مجلد ١، جـ١، ص١٧٩. فيليب حتي: تاريخ سورية، جـ١، ص٣٢٣.

(٢) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص٢٥١ ــ ٢٥٢. ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٦٦.

(٣) شاكر مصطفىٰ: دخول الترکان الغز إلى بلاد الشام، ص٣٠٧. انظر الفصل الثالث من الدراسة.

اللصوص وقطاع الطرق، وأباد المفسدين وأبعد أهل الشر ولاحقهم واستأصل شأفتهم[1]، فعمرت حلب في أيامه وورد التجار والجلابين إليها من جميع الجهات، وقد بالغ قسيم الدولة في ذلك حتىٰ عظمت هيبته وشاع صيته، حتىٰ أنه نودي في حلب بأن لا يرفع أحد متاعه ولا يحفظه في طريق لما حصل من الأمن في بلاده، ورغب الناس في المقام بها للعدل الذي أظهره فيهم، وكذلك كتب إلى الأطراف أن يفعلوا مثل فعله لتأمن الطرق وتسلك السبل[2]، ولذلك فقد عم الرخاء في الإمارة وزادت الثروة وارتفع الخراج فيها فكانت واردات حلب في يوم واحد أيام قسيم الدولة ألف وخمسمائة دينار[3].

واستقرت المنطقة وتوفر الأمن في الإمارة إلى حد أن آق سنقر قسيم الدولة كان قد شرط على أهل كل قرية من بلاده أنهم متىٰ أخذ عندهم قفل أو أحد من الناس غرمهم جميع ما يؤخذ من الأموال قليل أو كثير، فكانت السيارة إذا بلغوا قرية من بلاده ألقوا رحالهم وناموا وحرسهم أهل القرية إلى أن يرحلوا[4].

ولم تكن فترة آق سنقر قسيم الدولة هي فترة الاستقرار الوحيدة التي شهدتها إمارة حلب، ولكنها عرفت فترات أخرىٰ كالفترة التي تسلم فيها الأمير إيلغازي سنة ٥١١ هـ/ ١١١٧ ــ ١١١٨ م، حيث أمنت البلاد والطرقات وقضي على اللصوص وقطاع الطرق[5]، وكذلك لدىٰ دخول الأمير بلك بن بهرام حلب سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤ ــ ١١٢٥ م، الذي تمكن بما عرف عنه من قسوة وحزم من نشر الأمن الذي افتقد حلب في الفترات السابقة، وقضىٰ على الذعار وقطاع الطرق وأقام الهيبة العظيمة، وأمر بفتح أبواب حلب ليلاً ونهاراً[6].

لم يكن اللصوص وقطاع الطرق فقط هم الذين يؤثرون على سير القوافل التجارية والمسافرين، وإنما كان الحكام في بعض الأحيان يهاجمون القوافل في المناطق التي يسيطر عليها أعداؤهم من الحكام المنافسين لهم، كما حدث في سنة ٤٦٨ هـ/ ١٠٧٥ ــ ١٠٧٦ م، حين هاجم سليمان بن قتلمش قافلة تجارية قرب حلب وأسرها كرد فعل ضد حكام حلب الذين

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ١٩٧. ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ١٨٠. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٦٧ ــ ٤٦٨. ابن العماد الحنبلي: الزهد والضرب، ص ٨ ــ ٩. الغزي: نهر الذهب، جـ ٣، ص ٧٧.

(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ١٩٦. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٦٨. سهيل زكار: المدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٠٩.

(٣) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤٦٨. سهيل زكار ــ المرجع السابق، ص ٢١٨.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ١، ص ٢٧.

(٥) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ــ مخطوطة قنسرين، ص ١٠٢.

(٦) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٨٠.

وقفوا ضده وحاربوه قبل ذلك التاريخ[1]، وفي سنة ٤٧٢ هـ/١٠٧٩ ـــ ١٠٨٠ م، هاجم تتش حاكم دمشق عدداً من قوافل التجار المتجهة من رفنيه إلى طرابلس، وقتل من بها واستولى على أموالهم[2].

وبعد الاحتلال الفرنجي الصليبي لأجزاء من إمارة حلب كان الفرنجة الصليبيون يتعرضون كثيراً لقوافل التجار[3]، وقد أثر ذلك على التجارة فتراجعت بسبب إنعدام الأمن على الطرقات، مما أثر بالتالي على الحالة الاقتصادية للبلاد وسيتم فيما يلي بحث:

١ً ـــ التجارة الداخلية ـــ الأسواق. ٢ً ـــ التجارة الخارجية.
٣ً ـــ الخانات والفنادق والقيساريات. ٤ً ـــ طرق التجارة المارة بحلب.

١ ـــ التجارة الداخلية ـــ الأسواق: تشمل التجارة الداخلية المبادلات التجارية التي تتم بين المدينة والريف من جهة وبين مركز الإمارة أو الدولة من جهة أخرى، ويتركز النشاط التجاري الداخلي في الأسواق التجارية التي كانت منتشرة في حلب، وبين المراكز والأسواق التجارية المنتشرة في مناطق كثيرة وعديدة في الإمارة كبالس والرحبة ومنبج ومعرة مصرين وشيزر وكفر طاب ورفنيه وأنطاكية والرقة ومعرة النعمان وحماه وسرمين[4]. فمدينة حلب كانت عامرة وبها أسواق غنية متنوعة يصفها ابن حوقل بقوله: «وكان بها أسواق حسنة وحمامات وفنادق كثيرة ومحال وعراص فسيحة»[5]، ويقول ناصر خسرو عن أسعارها ومحلاتها والرخص الذي شاهده فيها: «ولم تزل أسعارها في الأغذية قديماً وجميع المآكل والمشارب واسعة رخيصة والأوزان بسوقها بالرطل الظاهري»[6]، وعلى الرغم من الأحداث السياسية التي مرت عليها والصراع المستمر بين القوى الطامعة بها فإنها حافظت على ازدهارها فترة طويلة، وإلى ذلك يشير ابن العديم بقوله: «ومن عجائب حلب أن في قيسارية البز عشرين دكاناً للوكلاء يبيعون

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ـــ القسم المطبوع، ص ١٧٥.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٢٩.

(٣) فيليب حتي: تاريخ العرب مطول، جـ ٢، ص ٥٧٦.

(٤) الأصطخري: المسالك والممالك، ص ٤٥ ـــ ٤٧. ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٦٤ ـــ ١٧٠. المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ١٦٠ ـــ ١٨١. ابن المنقذ: كتاب الاعتبار، ص ١٠٥ وما بعدها. ناصر خسرو: سفر نامه، ص ٤٠، ٤١، ٤٤، ٤٥، ٥٣. الأدريسي: نزهة المشتاق، ص ٢ ـــ ٢٠. أبو الفداء: تقويم البلدان، ص ٢٥٣ وما بعدها. ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ـــ المجلدة الثالثة، ص ٣٢، ٣٩، ٤٢. ابن جبير: رحلته، ص ٢٤٢، ٢٧١. آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، مجلد ٢، ص ٣٨٧.

(٥) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٦٣ ـــ ١٦٤.

(٦) ناصر خسرو. سفر نامه، ص ٤٥. والرطل الظاهري هو الذي اعتمد أيام الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١ ـــ ٤٢٧ هـ/ ١٠٢٠ ـــ ١٠٣٥ م).

فيها كل يوم متاعاً قدره عشرون ألف دينار مستمر ذلك منذ عشرين سنة إلى الآن»[١]، ويؤيد ذلك ما كتبه ابن الشحنة عن خصائص حلب، من أنه قد يباع في يوم واحد ما لا يباع في غيرها بعدة شهور[٢]، ويشبه ابن جبير قيساريتها بحديقة بستان لما لمسه فيها من نظافة وترتيب وجمال وأن أكثر حوانيتها خزائن بديعة الصنعة. وكذلك يقول إن لكل صنعة سماط والأسمطة مسقوفة بالخشب[٣].

وفي المعرة وجدت أسواق كثيرة وافرة العمران طافحة بالخيرات والأرزاق[٤]. وكانت أسواق منبج فسيحة متسعة ودكاكينها وحوانيتها كأنها الخانات اتساعاً وكبراً وهي مسقوفة[٥]. أما سوق بزاعة فإنه كان يجمع بين متطلبات التجار والمسافرين الغرباء، وبين المتاجر الحضرية[٦] التي تحوي مختلف البضائع، وفي حماه أسواق كثيرة ضمت مختلف المصنوعات والبضائع التجارية[٧]، أما بالس فكانت محطة للقوافل التجارية التي تحمل البضائع التي ترد من مصر وبلاد الشام ثم تحمل من أسواقها في السفن إلى بغداد[٨]، ويمكن القول إن أغلب مدن وبلدان الإمارة كانت فيها أسواقاً تختلف حسب أهمية المدينة أو البلدة وكبرها وموقعها.

وقد استقبلت حلب البضائع الواردة إليها من الريف والمناطق، وخاصة المحاصيل الزراعية والحرير المصنوع في أنطاكية[٩]، بينما كان يستورد تجار المعرة الحلي والمجوهرات والصياغة والنحاس ومواد أخرىٰ من أسواق حلب وحماة[١٠]، ويجلبون معهم إلى حلب المحاصيل الفائضة عن حاجة سكانها كالزيتون والتين والفستق وأنواع الفواكه[١١]، وكذلك كان تجار سرمين والرقة وباقي البلدان والمناطق، ولعل ذلك لم يكن مقصوراً على فترة معينة أو دولة بذاتها وإنما كان قائماً في جميع الفترات وجميع الدول حيث المبادلات بين الريف والمدينة قائمة أبداً. ويبدو أن

---

(١) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ المجلدة الأولىٰ، ص ١١. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٢، ص ٢٨٤. فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، جـ ٢، ص ٢١٤.

(٢) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ٢٥٤.

(٣) ابن جبير: رحلته، ص ١٧٨.

(٤) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ٤٥. الجندي: تاريخ المعرة، جـ ١، ص ٧٩.

(٥) ابن جبير: رحلته، ص ١٧٦، ١٧٨، ١٧٩.

(٦) ابن جبير: رحلته، ص ١٧٧.

(٧) ابن جبير، رحلته، ص ١٨١.

(٨) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ١٥٩.

(٩) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ١٥٠.

(١٠) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ المجلدة الأولىٰ، ص ٤١. ابن بطوطة: رحلته، جـ ١، ص ٨٥. الجندي: تاريخ المعرة، جـ ١، ص ٢٧٢.

(١١) ابن جبير: رحلته، ص ١٨٠.

الرابح فيها دائماً هو تاجر المدينة أو المركز.

٢ ــ التجارة الخارجية: تقع إمارة حلب على مفترق الطرق التجارية في شمال بلاد الشام، فقد ذكر الاصطخري أنها تقع على طريق العراق إلى الثغور وسائر الشامات[١]، مما أعطاها أهمية خاصة في ميدان التجارة الدولية كونها ملتقى الطرق بين بلاد الروم وديار بكر في الشمال، والعراق في الشرق، وبلاد الشام ومصر من الجنوب، واتصالها بالبحر عن طريق أنطاكية واللاذقية، وتبعاً لهذا الموقع وأهميته، وجدت فيها جميع مستلزمات التجارة من أسواق وخانات وحمامات وفنادق كثيرة ومحلات[٢]، تحوي معظم لوازم المسافرين ويعطينا ناصر خسرو الذي زارها سنة ٤٣٩ هـ/١٠٤٧ ــ ١٠٤٨ م، فكرة واضحة عن أهمية حلب التجارية بقوله: «يمكن مقارنة حلب ببلخ وهي مدينة عامرة... وفيها تحصل المكوس عمّا يمر بها من بلاد الشام والروم وديار بكر ومصر والعراق، ويذهب التجار من جميع هذه البلاد... والوزن في سوقها بالرطل الظاهري وهو أربعمائة وثمانون درهماً»[٣]. وكان فيها أيضاً قيساريات تتجمع فيها البضائع الواردة من مختلف البلدان كقيسارية البزالتي ذكرها ابن العديم[٤] وكذلك دكاكين للوكلاء وهم السماسرة في أيامنا، ومهمتهم عقد الصفقات التجارية الكبيرة، والذي يدل عليه الرقم الذي أورده ابن العديم[٥].

وفي العهد السلجوقي نشطت التجارة وزاد الاهتمام بها ويذكر المؤرخون عدة حوادث تدل على هذه الأهمية، ففي سنة ٤٧١ هـ/١٠٧٨ ــ ١٠٧٩ م، وصل الأفشين إلى رفنيه فوجد فيها أعداداً كبيرة من التجار والقوافل متجهة إلى طرابلس[٦]، وهي محملة بالبضائع، وكذلك أورد ابن العديم في روايته لحصار حلب من قبل تتش وعسكره، واستدعائه لنجدة تركانية بزعامة تركان وكان بصحبة هذه النجدة عدد من التجار القادمين لبيع بضائعهم في حلب[٧]، وهذا يدل على أن التجار كانوا في بعض الأحيان يرافقون القوات العسكرية لحمايتهم، وفي عهد آق سنقر قسيم الدولة ازدهرت التجارة مع توفر الأمن والاستقرار حين قطع دابر

---

(١) الأصطخري: المسالك والممالك، ص ٤٦.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٦٣ ــ ١٦٤.

(٣) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ٤٤ ــ ٤٥.

(٤) ابن العديم: بغية الطلب مخطوطة أحمد الثالث ــ المجلدة الأولى، ص ١١. انظر نص ابن العديم في الصفحة السابقة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٢، ص ٧٨٤. زكي نقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، ص ١٠٠.

(٥) انظر فيما سبق صفحة ٣١٨.

(٦) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٢٩.

(٧) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٦٨

المفسدين، وأبعد أهل الشر، فازداد قدوم القوافل التجارية إليها، ووصلها التجار والمسافرون من كل مكان وأصبحت واردات الخزينة المالية أضعاف ما كانت عليه[*]، ولم يكتفِ آق سنقر بذلك بل كان يخرج بنفسه ملاحقاً اللصوص وقطاع الطرق، كما حدث سنة ٤٨٢ هـ/ ١٠٨٩ــ ١٠٩٠م عندما هاجم اللصوص قافلة تجارية كبيرة في أراضي الإمارة، فخرج بنفسه على رأس جماعة من عسكره، ولاحقهم حتىٰ تمكن من القبض عليهم وقتلهم، فأصبحت الطرق آمنة بإمارته[1]. ومما يدل على مكانة التجارة وأهميتها في هذه الفترة أنه في شهر ربيع الأول سنة ٥٠٥ هـ/ ١١١١ــ ١١١٢م، وصل إلى حلب تاجر كبير اسمه أبو حرب عيسىٰ بن زيد بن محمد الخجندي ومعه خمسمائة جمل تحمل مختلف أصناف البضائع والتجارات[2]، وأثناء الاحتلال الفرنجي الصليبي لأجزاء من شمال بلاد الشام تعرض التجار للمضايقات والمصادرات ففي سنة ٥٠٥هـ/ ١١١١ــ ١١١٢م، أقلعت من مصر مراكب فيها بضائع وأمتعة كثيرة لتجار من حلب فتعرض لها الفرنجة الصليبيون وهاجموها واستولوا عليها بما فيها، مما دعا جماعة من أهل حلب للتوجه إلى بغداد لطلب المساعدة ضد الفرنجة الصليبيين[3]. كما تحدث ابن الشحنة عن شهرة حلب التجارية فقال إن من خصائصها «نفاق ما يجلب إليها من البضائع كالحرير والصوف والبرزي والقماش العجمي وأنواع الفراء من السمور والوشق والفنك والسنجاب والثعلب وسائر الوبر، والبضائع الهندسية، وأجناس الرقيق من الجركس والترك والروم وسائر الأجناس، وأنه قد يتفق أنه يباع في يوم واحد ما لا يباع في غيرها في شهر، كل ذلك بأطيب ثمن وأرغبه، مثلاً إذا أحضر إليها مائة حمل حرير فإنه يباع في يوم واحد ويقبض ثمنه ولو حضر إلى القاهرة التي هي أم البلاد عشرة أحمال لا تباع في شهر»[4]، وعلى الرغم من أن ما جاء لدىٰ ابن الشحنة كان متأخراً عن الفترة المدروسة، إلا أنه يعبر عن شهرة حلب التجارية، وأهمية موقعها الاستراتيجي، وأنواع البضائع التي كانت تباع فيها، وقوة الحركة التبادلية التجارية فيها، حتىٰ فاقت القاهرة التي هي أم الدنيا.

(*) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ــ القسم المطبوع، ص ٢٤٤.

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ١٨٠.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٢٥ــ ٥٢٦. سهيل زكار: المدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٩٠، نقلاً عن ابن العديم: بغية الطلب ــ المجلد السادس، مخطوطة أحمد الثالث.

(٣) فيليب حتي: تاريخ العرب مطول، جـ ٢، ص ٥٧٦.

(٤) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ٢٥٤.

لم تكن حلب وحدها المشهورة تجارياً، وإنما شاركها في ذلك بعض المدن في الإمارة كأنطاكية التي تقع قرب ميناء السويدية على البحر المتوسط وإلى الغرب منها سهل فسيح خصيب، وهي ذات موقع تجاري هام(*) باعتبارها أحد المنافذ الرئيسية لإمارة حلب على البحر، ونظراً لأهمية موقعها كانت الهدف الأول للغزو الفرنجي الصليبي، حيث احتلت في ٢٩ جمادىٰ الآخر سنة ٤٩٠ هـ/٣ حزيران ١٠٩٧م، ومع أنه لم يرد شيء عن نشاطها التجاري خلال هذه الفترة، إلا أن وفرة محاصيلها الزراعية وموقعها ساعدا على النشاط التجاري فيها ويقول عنها ياقوت بأنها تبعد عن البحر فرسخين ولها مرسىٰ في السويدية ترسو فيه المراكب الإفرنجية والإسلامية، ومنه ترفع الأمتعة والتجارات على الدواب إلى أنطاكية(١)، وكذلك كانت مراكب باري BARI سنة ٤٧٩ هـ/١٠٨٦ ـ ١٠٨٧م، تنقل الفواكه والبضائع إلى أنطاكية(٢).

وكذلك أدت الرقة ــ وهي إحدىٰ المدن الهامة على الضفة الشامية للفرات ــ دوراً هاماً في التجارة بين بلاد الشام والعراق، ويقول عنها ياقوت بأنها كثيرة الخير والنماء تتميز بحركتها التجارية المستمرة مع مدن الشام والعراق وشغلت دوراً سياسياً هاماً في هذه الفترة، مهد لها القيام بدور هام في التجارة الداخلية والخارجية لبلاد الشام(٣). ويشير ابن شداد إلى أن بالس مدينة قديمة على شاطىء الفرات كان لها دور بارز في التجارة حيث تتجمع فيها البضائع التي تصل من مصر وبلاد الشام ثم تنقل منها بالسفن إلى العراق(٤).

٣ ــ **الخانات والفنادق والقيسارات**: كانت حركة التبادل التجاري تتم في الأسواق التجارية العامة وفي بعض المنشآت التي كانت تقام خصيصاً لاستقبال القوافل التجارية والمسافرين، وقد أقيمت هذه المنشآت إما ضمن المدن أو في أطرافها أو على الطرقات(٥)، وقد أطلق عليها الفنادق وأحياناً القيساريات وتارة الخانات ويسميها ناصر خسرو أيضاً أربطة ويقول: إنها تتألف من أربعة أو خمسة أدوار(٦)، وتساهم هذه المنشآت مساهمة فعّالة في تنشيط التجارة، وقد ذكر ابن حوقل أن حلب اشتهرت بفنادقها الكثيرة التي تحيط بها الساحات الفسيحة

(*) سهيل الزين: تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً، ص ١١١.
(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ١، ص٢٦٨.
(٢) HEYDE, Histoire du commerce. de levant au moyen age, 2 vols., Leipezing,. Vol. 1-P-96—100.
زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والأفرنج خلال الحروب الصليبية، ص ١٠١.
(٣) طاهر النعساني: تاريخ الرقة، ص٤٢وما بعدها.
(٤) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة ــ مخطوطة قنسرين، ص ٣.
(٥) الأسدي: موسوعة حلب المقارنة، خمسة مجلدات، المجلد الثالث، ص ٣٠٠.
(٦) ناصر خسرو: سفر نامه، ص٤٧.

والأسواق الحسنة وفيها الحمامات لاستقبال الغرباء[1]، ويبدو أن منطقة الفنيدق التي جرت فيها عدة معارك أثناء الصراع على حلب أيام المرداسيين وبعدهم السلاجقة، والمعروفة اليوم بتل السلطان كانت موضعاً كبيراً لتجمع التجار فيها[2].

أما القيساريات فإنها كانت متخصصة بالتجارة وأحياناً أخرى بالصناعة، وفيها بعض الغرف المخصصة لسكنى الغرباء والصناع[3]، ويبدو أن القيساريات كانت كثيرة وأشهرها قيسارية البز التي وردت عند المؤرخين حيث كان يباع فيها في يوم واحد ما يعادل مبيع شهر في غيرها كما سبق.

كذلك اشتهرت حلب بخاناتها التي أدت دوراً هاماً في الأعمال التجارية، وكانت تقام إما داخل البلد أو على الطرق التجارية ويراعى فيها أن تبتعد عن بعضها مسيرة مرحلة[4]، والخان متسع من الأرض محاط غالباً بطابقين من البناء تستخدم كمستودعات وغرف للمسافرين، وكان التجار ينزلون فيه بضائعهم ويبيتون فيه، وتأوي إليه دوابهم، وكذلك يعرضون فيه نماذج عن بضائعهم على المشترين، ويبدو أنه كان لكل بضاعة سوق وخان، فالسوق لبيع المفرد والخان لمبيع الجملة، كسوق الصابون وخان الصابون، وسوق الحبال وخان الحبال[5]،...

وعلى الرغم من قول الأسدي بأن الخانات ظهرت في البلاد الإسلامية منذ عهد المماليك[6]، فإن هذا القول غير دقيق ويبدو أن الخانات كانت أسبق من هذه الفترة[7] لأن ابن جبير ينقض هذا القول في معرض وصفه لحلب بأن لها ربضاً كبيراً فيه من الخانات ما لا يحصى عدده[8]، وتلك إشارة إلى تعدد الخانات حول حلب حيث الطرق التجارية تصل إليها من الجهات الأربع، ويذكر ابن جبير أنه نزل بأحد الخانات الذي يعرف بخان أبي الشكر، ويتحدث كذلك عن خان آخر كبير اسمه خان التركمان محصن تحصيناً قوياً، ويشير إلى تحصين الخانات بقوله: وخانات هذا الطريق كأنها القلاع امتناعاً وحصانة وأبوابها حديد،

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٦٣ ـ ١٦٤. نقولا زيادة: تاريخ بلاد الشام من القرن السادس إلى القرن السابع عشر، ص ١٧٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ١٠، ص ١٢. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٢١. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٤، ص ٢٧٨.

(٣) الأسدي: أحياء حلب وأسواقها، ص ٤٨.

(٤) الأسدي: موسوعة حلب، جـ ٣، ص ٣٠٠. مادة خان، والمرحلة مسيرة لثماني ساعات.

(٥) الأسدي ـ المصدر السابق، جـ ٣، ص ٣٠١. الأسدي: أحياء حلب وأسواقها، ص ٤٣. آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، مجلد ٢، ص ٣٨٧.

(٦) الأسدي: موسوعة حلب، ص ٤٩٩.

(٧) سهيل زكار: إمارة حلب، ص ١٦٩ ـ ١٧٠.

(٨) ابن جبير: رحلته، ص ١٨٠.

وهي من الوثاقة في غاية، وذكر أيضاً أنه كان من ضواحي حماه خانات وديار كثيرة[1]. كما يوجد في حلب أيضاً خان الكتان وهو تجاه مدرسة الصلاحية ومعروف بقدمه، وكان يعرف بخان السيدة، وكان هذا الخان مشرفاً على الخراب تنزله قوافل الكسروان ولا يزال قائماً إلى الآن[2] ويبدو أن الخانات في العهد السلجوقي تركت للقوافل التجارية وللمسافرين بعد أن كانت قبلهم تستخدم أيضاً كمراكز عسكرية إلى جانب وظائفها الأخرى البريدية والسفرية[3].

ولم تشر المصادر إلى زمن بناء الخانات، إلا أن ابن الشحنة يشير إلى باب بانقوسا بقوله: «ويعرف الآن بباب بانقوسا لأنه يخرج منه إليها، وهي حارة كبيرة ظاهر حلب من جهة الشرق والشمال، بها جوامع ومساجد وحمامات وخانات...»[4]، وهذا ما ذهب إليه الأسدي بقوله إن الحي في حلب أصبح خلية لها استقلالها السكاني والاقتصادي فلها مسجدها وخاناتها وأسواقها وحماماتها[5]..، وقد ورد لدى ابن الشحنة[6] أسماء عدد كبير من الخانات، ولكنه لم يشر إلى زمن بنائها مما أضعف الاستفادة منها، إلا أنها على الأغلب بنيت عبر فترات طويلة من الزمن ومن هذه الخانات: خان المجني ــ خان الشعارين، خان الزيت، خان الفحم، خان الحنة، خان الحرير، خان الصابون.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن كلمة فندق استعملت كثيراً للدلالة على الخان بدليل أن ابن بطلان يذكر أن الفنادق في اللاذقية هي الخانات المخصصة لسكن الغرباء والتجار والعاملين في مختلف المهن والأعمال[7]

وإلى جانب الخانات والفنادق وجد في حلب خلال القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، عدد من الخانات والمواخير حيث كان بإمكان المسافرين والتجار وأصحاب الأموال قضاء أوقاتهم فيها، وتقدم فيها الأغاني والمشروبات بالإضافة إلى مبيتهم فيها أيضاً، وخير

---

(١) ابن جبير: رحلته، ١٧٩ ــ ١٨٠. آدم متز ــ المصدر السابق، مجلد ٢، ص ٣٨٧.

(٢) دعد حكيم: الخانات في حلب، مطبعة كيال ــ الطبعة الأولى، حلب ١٩٥٦ ــ ١٩٥٧. رسالة جامعية ــ نسخة مخطوطة بمتحف الوثائق التاريخية، ص ٣٦، والقول: إن السيدة هي بنت وثاب النميري، أخت شبيب زوجة نصر بن محمود بن مرداس، ويقال إنها جهزت جيش غزاة من مالها.

(٣) زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية، ص ١٩٢. فؤاد عيني: جرد أثري لخانات دمشق، مقال في مجلة الحوليات الأثرية السورية العدد ٣، سنة ١٩٨١م، ص ٧١ ــ ٧٢.

(٤) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص ٤٤.

(٥) الأسدي: أحياء حلب وأسواقها، ص ٤٣.

(٦) ابن الشحنة ــ المصدر السابق، ص ١٤٧.

(٧) القفطي: تاريخ الحكماء، ص ٢٦٨، «ترجمة ابن بطلان مختار بن حسن عبدون». آدم متز: الحضارة الإسلامية، مجلد ٢، ص ٣٨٧.

مثال عليها حانة معرة النعمان المشهورة التي كانت ملكاً للدولة وتؤجر لأحد الأشخاص ليديرها ويشرف عليها[1].

٤ ــ **طرق التجارة المارة بحلب**[2]. تمتعت إمارة حلب بشبكة من المواصلات البرية كانت أحد العوامل التي أهلتها وساعدتها في تبوء مكانتها التجارية المرموقة إضافة إلى الزراعة والصناعة. ومثلما تأثرت كل من الزراعة والصناعة بالأحداث السياسية التي عاشتها الإمارة من إقتتال وتطاحن أيام الحكم المرداسي، ومن ثم السلجوقي، ومقاومة الغزاة الفرنجة الصليبيين، تأثرت التجارة وطرقها فأصبح بعضها غير آمن وبعضها ناله التخريب، فقلت عائداتها المالية[3] وعلى الرغم من ذلك فإنّ ما ورد عند المؤرخين والجغرافيين والرحالة بدءاً من ابن خرداذبة وحتى ياقوت الحموي من معلومات عن الطرق التي كانت تسلكها القوافل التجارية والمسافرين يعطينا فكرة واضحة عن شبكة الطرق التجارية التي ربطت حلب بالمدن والمناطق الداخلية من جهة، وبالدول والممالك المحيطة بها من جهة ثانية. وهذه الطرق هي:

١ ــ الطرق الداخلية بين حلب ومدن ومناطق الإمارة والمسافات بينها[4]:

ــ حلب ــ أنطاكية: والمسافة بينهما ثلاثة أيام.[5]

ــ حلب ــ حماه: والمسافة بينهما ثلاثة أيام.

ــ حلب ــ اللاذقية: والمسافة بينهما ثلاثة أيام.

ــ حلب ــ منبج: والمسافة بينهما يومان.

ــ حلب ــ الرقة: والمسافة بينهما أربعة أيام.

ــ حلب ــ المعرة: والمسافة بينهما يومان.

ــ حلب ــ قنسرين: والمسافة بينهما يوم واحد.

ــ حلب ــ الأثارب: والمسافة بينهما يوم واحد.

ــ حلب ــ تيزين[6]: والمسافة بينهما يوم واحد.

ــ حلب ــ بالس: والمسافة بينهما يومان.

ــ حلب ــ خناصرة: والمسافة بينهما يومان.

---

(١) سهيل زكار: إمارة حلب، ص ١٧٠.

(٢) انظر مصور طرق المواصلات مع الملاحق.

(٣) انظر فيما سبق صفحة ٣١٦

(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٢، ص ٢٨٤.

(٥) اليوم يساوي ٨ فراسخ أو ٢٤ ميل.

(٦) تيزين: قرية كبيرة من نواحي حلب، كانت تعد من أعمال قنسرين، ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٢، ص ٦٦.

٢ ــ ترتبط حلب مع دمشق وجنوبي بلاد الشام ومن ثم الأردن وفلسطين ومصر بعدة طرق منها:

١ ــ حلب ــ قنسرين ــ صورى ــ حماه ــ حمص ومنها إلى دمشق حيث ترتبط حلب عبرها بالحجاز ومصر عن طريق مدن الأردن وفلسطين(*).

٢ ــ حلب ــ الرقة ــ الرصافة ــ القريتين ــ جرود(١) ــ دمشق(٢)، وهو طريق صحراوي.

٣ ــ حلب ــ الرقة ــ الرصافة ــ قسطل(٣) ــ سلمية ــ حمص ــ قارا ــ النبك ــ القطيفة ــ دمشق(٤).

٣ ــ ترتبط حلب بالعراق والمشرق بالطرق التالية:

١ ــ حلب ــ الرقة ــ باجروان(٥) ــ حصن مسلمة(٦) ــ راس عين(٧) ــ كفرتوثا(٨) ــ دارا(٩) ــ نصيبين ومنها إلى مدن العراق والشرق(١٠).

٢ ــ حلب ــ الرقة(١١) ــ باجروان ــ حران ــ الرها ــ شمشاط ــ آمد(١٢) ــ دارا

(*) ابن خرداذبه: المسالك والممالك، ص ١١٧. ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٧٠. المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ١٩٠، زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية، ص ١٨٧. دعد حكيم: الخانات في حلب، ص ١٨.

(١) جرود: هي جيرود الحالية، وهي شرق القطيفة على مسافة عشرين كيلو متراً منها وترتبط بدمشق إما من طريق الضمير ــ عدرا ــ دمشق، أو عن طريق الرحيبة ــ المعضمية ــ القطيفة ــ دمشق، وتبعد عن دمشق حوالي سبعون كيلو متراً.

(٢) قدامة بن جعفر: نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ــ مطبعة بريل، ١٨٨٩ م، ص ٢١٨.

(٣) ابن خرداذبه: المسالك والممالك، ص ٩٨، قسطل: موضع بين حمص ودمشق. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٤، ص ٣٤٧.

(٤) ابن خرداذبه: المسالك والممالك، ص ٩٨. قدامة بن جعفر: نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة، ص ٢١٨.

(٥) باجروان: قرية من ديار مضر بالجزيرة من أعمال البليخ. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ١، ص ٣١٣.

(٦) حصن مسلمة: حصن بالجزيرة بين رأس عين والرقة بناه مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، وبين الحصن وحران تسعة فراسخ، وهو على طريق القاصد للرقة من حران. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٢، ص ٢٦٥.

(٧) رأس عين: مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودنيسر وبينها وبين نصيبين خمسة عشر فرسخاً وكذلك بينها وبين حران، وهي إلى دنيسر أقرب بينهما نحو عشرة فراسخ. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٣، ص ١٤.

(٨) كفر توثا: قرية كبيرة من أعمال الجزيرة بينها وبين دارا خمسة فراسخ، وهي بين دارا ورأس عين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٤، ص ٤٦٨.

(٩) دارا: بلدة في لحف جبل بين نصيبين وماردين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٢، ص ٤١٨. قدامة بن جعفر: نبذ من كتاب الخراج، ص ٢١٥.

(١٠) قدامة بن جعفر: نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة، ص ٢١٥.

(١١) ابن خرداذبه: المسالك والممالك، ص ٩٦. قدامة بن جعفر: نبذ من كتاب الخراج، ص ٢١٤.

(١٢) آمد: وهي من أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدراً وأشهرها ذكراً. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ١، ص ٥٦.

نصيبين ــ اذرمة[1] ــ برقعيد[2] (ومن ثم باشزىٰ) ــ بلد[3] ــ الموصل ــ ومنها إلى مدن العراق، ومن آمد يتفرع الطريق إلى ميافارقين ــ ارزن[4] ــ ثم الثغور وأرمينية.

٣ ــ حلب ــ الرقة ــ هيت[5] ــ الأنبار[6] ــ بغداد ــ البصرة، ومنها كانت المراكب العربية تمخر بحار الشرق الأقصىٰ إلى مدنه وممالكه.

٤ ــ الرقة ــ السماوة ــ صحراء السماوة ــ ويسير جنوباً باتجاه المدينة ومكة وهو أحد طرق الحج[7].

٤ ــ وترتبط حلب مع الجزيرة وديار بكر والأراضي البيزنطية بطريقين هما:

١ ــ حلب ــ الرقة ــ عين الرومية ــ سروج ــ سميساط ــ حصن منصور[8] ــ ملطيه ــ زبطرة ــ الحدث ــ مرعش[9].

٢ ــ حلب ــ قنسرين ــ أنطاكية ــ اسكندرونه ــ المصيصة ــ ومن المصيصة يتفرع إلى فرعين أحدهما نحو أذنة وطرسوس ثم الجوزات ــ قونيه ــ عمورية[10] والثاني إلى عين زربه ــ الهارونية ــ الكنيسة السوداء.

٥ ــ وكذلك ترتبط حلب بطريق يمتد من الرقة إلى الساحل العربي السوري على النحو التالي:

١ ــ الرقة ــ دوسر ــ جسر منبج ــ منبج ــ حلب ــ الأثارب ــ سهل العمق ــ

---

(١) أذرمة: من أعمال الموصل من كورة تعرف بين النهرين، وقد مر بها الخليفة المعتضد قادماً من برقعيد أثناء حملته لحرب خمارويه بن أحمد ابن طولون. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ١، ص ١٣٢.

(٢) برقعيد: بلدة كبيرة من أعمال الموصل ويقول ياقوت إن القوافل تجنبها في زمانه إلى باشزىٰ ونظراً لما عرف عن أهلها من اللصوصية. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ١، ص ٣٨٧. وباشزىٰ بليدة من كورة بقعاء الموصل قرب برقعيد فيها سوق وبازار بين جزيرة ابن عمر ونصيبين تنزلها القوافل. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ١، ص ٣٢٣.

(٣) بلد: مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل بينهما سبعة فراسخ، وبينها وبين نصيبين ثلاثة وعشرون فرسخاً. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ١، ص ٤٨١. والفرسخ يساوي ثلاثة أميال ويساوي كذلك اثنا عشر ألف ذراع. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ١، ص ٣٦.

(٤) أرزن: وهي مدينة مشهورة قرب خلاط، ولها قلعة حصينة، وكانت من أعمر نواحي أرمينية. ياقوت الحموي: معجم، جـ ١، ص ١٥٠.

(٥) ابن خرداذبه: المسالك والممالك، ص ٧٢ ــ ٧٣.

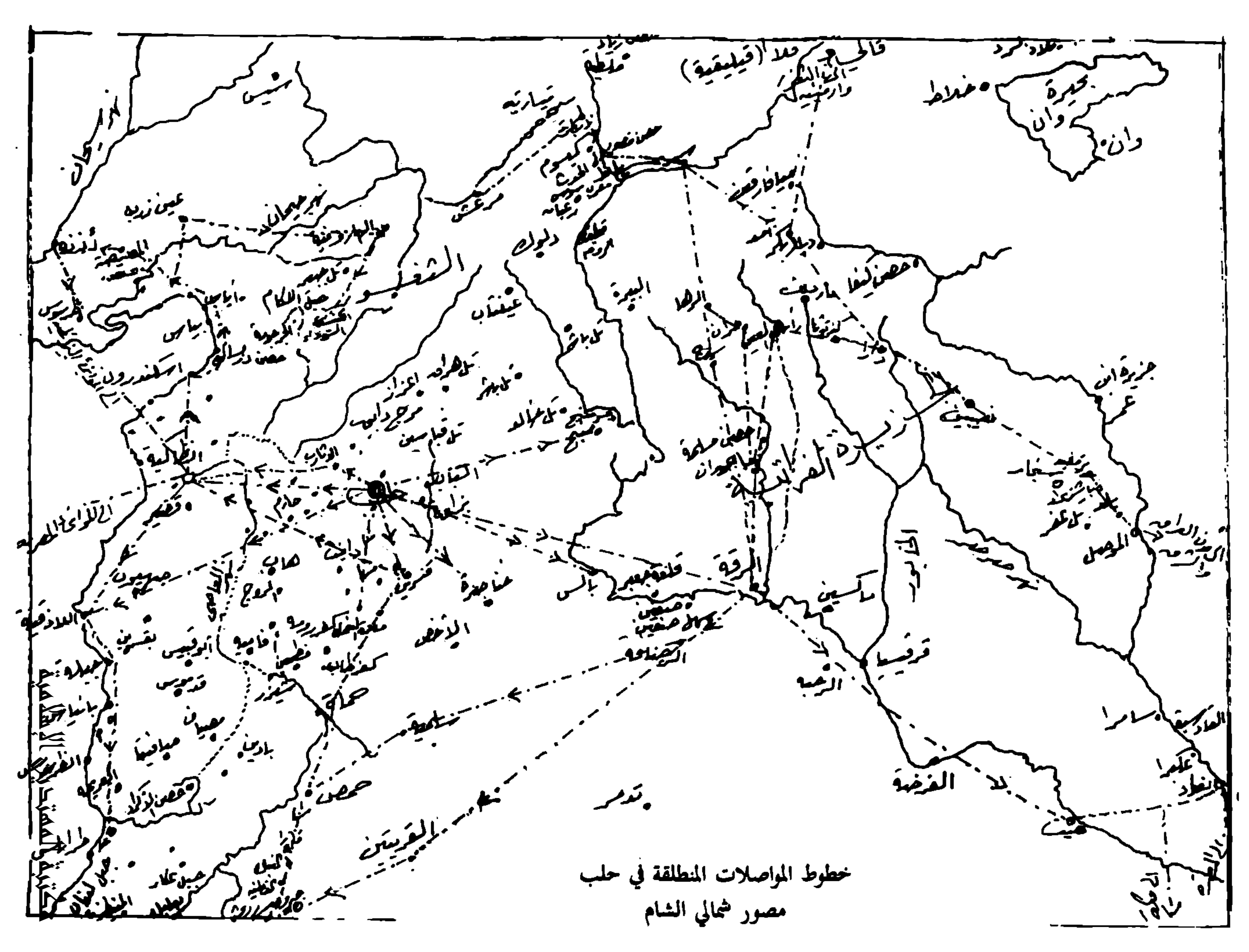
(٦) الأنبار: مدينة على الفرات بينها وبين بغداد عشرة فراسخ. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ١، ص ٢٥٧.

(٧) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٢٥٠.

(٨) حصن منصور: من أعمال ديار مضر لكنه في غربي الفرات قرب سميساط ومن حصن منصور إلى زبطرة مرحلة، وهو منسوب إلى منصور بن جعونة بن الحارث العامري القيسي. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ ٢، ص ٢٦٥. والمرحلة تعادل تقريباً مسير ثماني ساعات. الأسدي: موسوعة حلب، المقارنة، جـ ٣، ص ٣٠٠.

(٩) ابن خرداذبه: المسالك والممالك، ص ٩٧. قدامة بن جعفر: نبذ من كتاب الخراج، ص ٢١٦.

(١٠) ابن خرداذبه: المسالك والممالك، ص ٩٩ ــ ١٠١. قدامة بن جعفر: نبذ من كتاب الخراج، ص ٢٢٩.



خطوط المواصلات المنطلقة في حلب

مصور شمالي الشام

أنطاكية ــ اللاذقية ــ جبلة ــ طرابلس ــ بيروت ــ صيدا ــ صور [1].

٦ ــ كذلك ارتبطت حلب مع الموانىء البيزنطية من جهة، ومع مصر وشمال أفريقيا وأوروبا عبر المتوسط من جهة ثانية بطريقين:

١ ــ حلب ــ أنطاكية ــ الموانىء البيزنطية [2].

٢ ــ حلب ــ أنطاكية ــ الموانىء المصرية وشمال أفريقيا، ومن أنطاكية كانت القوافل البرية تحمل البضائع إلى أحد موانىء الفرات عبر حلب ثم تنقل بالقوارب إلى العراق والمحيط الهندي [3].

مما سبق يتبين أنه كان في إمارة حلب ثلاث عقد للمواصلات الأولى: هي مدينة حلب نفسها والتي تعتبر مدينة حدود ومدينة اتصال تلتقي بمنطقتها الوحدات الجغرافية الكبرى سورية وبلاد الرافدين والأناضول، والثانية: هي الرقة وهي مدينة نهرية وتتفرع عنها طرق المواصلات بجميع الاتجاهات، والثالثة: هي أنطاكية التي تربط الإمارة بالدولة البيزنطية والبحر المتوسط.

٥ ــ الموارد المالية لإمارة حلب:

أدت الإمكانات الاقتصادية التي تمتعت بها إمارة حلب إلى زيادة مواردها المالية التي اعتمدت بالدرجة الأولى على المكوس والضرائب المفروضة على الزراعة والتجارة والصناعة وبخاصة أثناء فترات الاستقرار وتوفر الأمن حتى أن واردات مدينة حلب وحدها أيام حكم آق سنقر بلغت «١٥٠٠» ألف وخمسمائة دينار في اليوم الواحد [4].

وعلى الرغم من أن الضرائب كانت تشكل المورد الأساسي للخزانة في حلب أيام السلاجقة، لكن المصادر لم تتطرق بالتفصيل إلى مقدار هذه الضرائب إلا أنه يمكن قياسها بما كان مفروضاً بالفترات التي سبقتها والفترات المتأخرة، ومن خلال ما ورد في المصادر فإنه يمكن الإشارة إلى بعض أنواع هذه الضرائب:

١ ــ **الخراج**: وهو ما يوضع من الضرائب على الأرض ومحصولاتها، وهو من أقدم أنواع الضرائب [5].

---

(١) ابن خرداذبه: المسالك والممالك، ص٩٨.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ١٩٠. ناصر خسرو: سفر نامه، ص٤٨.

(٣) ابن خرداذبه: المسالك والممالك، ص١٥٣ ــ ١٥٤. آشتور: التاريخ الاقتصادي، ص١٠٥. ويقول: إن على هذا الطريق نفسها كانت تنقل الصادرات الشامية والمصرية إلى العراق والشرق الأقصى.

(٤) سهيل زكار: المدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ص٢١٣. نقلاً عن كتاب عنوان السير في محاسن أهل البدو والحضر.

(٥) جرجي زيدان: التمدن الإسلامي، جـ١، ص ٢٢١. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص٤٥٩.

٢ ــ **الزكاة**: وقد اقتصرت على زكاة المواشي والزروع[١].

٣ ــ **الجزية**: ضريبة شخصية فرضت على رعايا الدولة غير المسلمين وهي تسقط باعتناق الإسلام[٢].

٤ ــ **ضريبة المعادن**: وكانت الدولة تقطع المعادن لمن يستخرجها، وللدولة خمس ما يخرج منها[٣].

٥ ــ **أعشار التجارة**: وتختلف باختلاف جنسية التجار وأديانهم، فالأجانب يؤخذ منهم (١٠٪)، وأهل الذمة (٥٪)، وعلى تجارات المسلمين (٢,٥٪)، وكان يرد إلى الخزينة منها مبالغ كبيرة بسبب توسع الحركة التجارية وازدهارها[٤].

٦ ــ **المكوس**: وهي تقابل الرسوم الجمركية في أيامنا، وتعاظم دخلها مع توسع الحركة التجارية أيضاً في إمارة حلب[٥]، ويورد ناصر خسرو أنه أثناء مروره بحلب لاحظ نشاطها التجاري، وتحصيل المكوس فيها عمّا يمر من بلاد الشام والروم وديار بكر ومصر والعراق[٦] من تجارات.

٧ ــ **ضريبة الأسواق والحوانيت والطواحين**[٧]: وكانت تفرض على البائعين والذين تؤجرهم الدولة بعض المحلات مقابل استخدام الأماكن المخصصة لهم والتي بناها الناس على أرض حكومية وتسمى أحياناً ضريبة العرصات والمستغلات[٨].

٨ ــ **ضرائب أخرى**: فرضت على الأرزاق والرواتب في نهاية القرن الرابع الهجري[٩]،

---

(١) ابي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ط ٣، القاهرة ١٩٧٣ م، ص ١٠٩. تاريخ الفلاحين في الوطن العربي: جـ ٢، ص ٢٩٢.

(٢) أبو يوسف القاضي يعقوب بن إبراهيم: كتاب الخراج ــ المطبعة السلفية، ط ٤، ١٣٩٢ هـ، ص ٣. جرجي زيدان ــ المصدر السابق، جـ ١، ص ٢١٩. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٦٤٠.

(٣) الماوردي ــ المصدر السابق، ص ١٠٥ ــ ١٠٦. جرجي زيدان ــ المصدر السابق، جـ ١، ص ٢٢٧. تاريخ الفلاحين في الوطن العربي: جـ ٢، ص ٢٩٢.

(٤) جرجي زيدان ــ المرجع السابق، جـ ١، ص ٢٢٨. عماد الدين خليل ــ المرجع السابق، ص ٤٥٩. تاريخ الفلاحين في الوطن العربي: جـ ٢، ص ٢٩٣. محمد زيود: رسالة دكتوراة غير منشورة ــ ١٩٨٧ م، ص ٥٢٤.

(٥) جرجي زيدان ــ المرجع السابق، جـ ١، ص ٢٢٨. عماد الدين خليل ــ المرجع السابق، ص ٤٥٩. تاريخ الفلاحين في الوطن العربي: جـ ٢، ص ٢٩٣. زيود ــ المرجع السابق، ص ٥٢٦.

(٦) ناصر خسرو: سفر نامه، ص ٤٤.

(٧) اليعقوبي: البلدان، ص ٢٤٣.

(٨) ابن حوقل: المسالك والممالك، ص ٢١٧. تاريخ الفلاحين في الوطن العربي: جـ ٢، ص ٢٩٣.

(٩) ابن حوقل: المسالك والممالك، ص ٣٠٣. أبو علي المحسن بن علي أبي القاسم التنوخي: نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة أو جامع التواريخ ــ خمسة أجزاء ــ تحقيق: عبود الشالجي ــ بيروت ١٣٩١ هـ/ ١٩٧١ م، و ١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢ م، جـ ١، ص ٧٤ ــ ٧٥.

وهناك ضرائب الغرامات التي تأخذها الشرطة من الجناة مرتكبي الجرائم[١]، وضريبة دار الضرب وتتقاضاها الدولة من ضامن صك العملة[٢].

أما في الفترة المتأخرة فإن قائمة الواردات المالية لإمارة حلب الواردة بتاريخ ابن الشحنة[٣]، والتي تعود إلى سنة ٦٠٩ هـ/ ١٢١٢ ـ ١٢١٣م، تشير إلى أنواع الضرائب التي كانت تجبى فيها، ومن هذه الضرائب ضريبة العشر، وضريبة المحاصيل الزراعية كالبطيخ والعنب والخضر والبساتين، وكذلك ضريبة الحيوانات وعدادها والمتاجرة بها، وبعض الحرف والصناعات كالدباغات والمصابن والمسالخ والمطاحن وصبغ الحرير وصك المعادن والمواد الأولية كالحديد والحرير والقنب والفحم والحطب والملح والمسابك ودار الضرب، وكذلك ضريبة الخراج والسجون والمبيت بالخانات وضمان المزابل والمواريث العشرية وضرائب أخرى كثيرة.

وكانت الحروب عاملاً أساسياً في اللجوء إلى فرض الضرائب لصرفها على الجند والمتطوعة، فأصبحت عبئاً ثقيلاً على المواطنين حتى وصل الأمر إلى حد التذمر والشكوى منها، ففي شهر ربيع الآخر سنة ٤٧٣ هـ/أيلول ـ تشرين أول ١٠٨٠م، عندما دخل شرف الدولة مسلم بن قريش حلب كان أول عمل له فيها أن أحسن إلى أهلها وخفف عنهم أثقالاً كثيرة وصفح عن كلف كثيرة فرضت عليهم أيام بني مرداس[٤]، لكن فرحة الأهالي لم تدم طويلاً لأنه لم يلبث أن وصلها أبو العز ابن صدقة البغدادي وزير شرف الدولة فجمع أموالها في سنة ٤٧٤ هـ/ ١٠٨١ ـ ١٠٨٢م، وتخلى عمّا كان بدأ به من العدل والإحسان وصادر جماعة وضاعف الخراج[٥]، وهذا يدل على أن الأمور كانت مزاجية في فرض الضرائب وطرق الجباية عنيفة ومرهقة[٦]، ويبدو أن الضرائب لم تكن توزع بين الناس توزيعاً عادلاً، فكان الأمراء والاقطاعيون وأصحاب رؤوس الأموال وكبار التجار وذوو الحظوة يدفعون ضرائب لا تتناسب مع ما تغله عليهم أراضيهم ولا مع ضخامة الثروات التي يملكونها[٧] مستخدمين في ذلك نفوذهم ووسائلهم الخاصة وقربهم من السلطة للتهرب من دفع كامل الضرائب، في حين كان الفلاحون هم دافعي الخراج، وكذلك تحمل صغار ملاك الأراضي القسم الأعظم من موارد

---

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية، جـ١، ص١٨٩

(٢) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص١٤٧. تاريخ الفلاحين في الوطن العربي، جـ٢، ص٣٩٣.

(٣) ابن الشحنة: الدر المنتخب، ص١٤٧ ـ ١٤٨.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٤٣٧.

(٥) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص٤٣٩.

(٦) الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي، ص٢١٧.

(٧) تاريخ الفلاحين في الوطن العربي، جـ٢، ص٤٦٧.

الجباية[١]. بعد دخول السلطان ملكشاه إلى حلب عيّن عليها حاجبه آق سنقر وترك معه أربعة آلاف فارس كحامية لها، وولىٰ على جمع المال أبا منصور بن الخلال[٢] وهذه هي المرة الأولىٰ التي يرد فيها اسم شخص عيّن من قبل السلطان لجمع أموال الإمارة إلى جانب واليها ووالي القلعة، وذلك دليل على اهتمام السلاطين السلاجقة بأمور المال وجمعه وتوريده للسلطنة، لأن الحملات العسكرية، والاحتفاظ بقوات عسكرية لغرض الأمن والاستقرار[٣] كلف الكثير من الأموال، والأموال مصدرها جيوب المحكومين، وهذا يعني أن الحكم السلجوقي جلب معه إلى الإمارة زيادة في الأعباء المالية[٤] التي ستكون على شكل ضرائب ومصادرات.

وعلى الرغم من أنه لم يرد في المصادر ما يشير إلى أن آق سنقر أول حكام السلاجقة في حلب لم يفرض ضرائب أو مكوس جديدة على أهلها، ولكن ما يشار له من أن وارداته من مدينة حلب لوحدها كانت ألف وخمسمائة دينار يومياً[٥] يكفي للتدليل على مقدار الضرائب والأتاوات التي كان يجمعها آق سنقر ليتمكن من تنفيذ سياسته الأمنية الحازمة[٦].

وفي عهد الملك رضوان بن تتش الذي دام قرابة عشرين عاما فرضت وجددت في حلب مكوس وضرائب جديدة[٧] أثقلت كاهل المواطنين، ويكفي أن نعرف جشع الملك رضوان واستغلاله لموارد الدولة أنه خلف في خزانته عند وفاته من الأموال المنقولة وغير المنقولة ما يبلغ مقداره ستمائة ألف دينار، وفي رواية أخرىٰ تقارب مليون دينار[٨].

ومثلما عرفت إمارة حلب الحكام الذين فرضوا على أهلها الضرائب والمكوس التي أثقلت كاهلهم، عرفت أيضاً حكاماً قاموا ببعض الاصلاحات المالية، وألغوا كثيراً من الضرائب المجحفة وخففوا بعضها الآخر، وأول من بدأ ذلك هو ألب أرسلان بن رضوان عندما ألغىٰ بعض ما كان فرضه والده من رسوم وضرائب ومكوس[٩].

ومن أهم الاصلاحات المالية التي تمت في فترة حكم السلاجقة إصلاح سنة ٥١٤ هـ/

---

(١) تاريخ الفلاحين في الوطن العربي، جـ ٢، ص ٢٩٩.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٤٦٧.

(٣) انظر فصل آق سنقر من الدراسة.

(٤) سهيل زكار: المدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢١٣.

(٥) سهيل زكار ـ المصدر السابق، ص ٢٩٦، ترجمة: آق سنقر قسيم الدولة.

(٦) انظر الفصل الثالث من الدراسة.

(٧) سهيل زكار: المدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، ص ٣٨٧، ترجمة: رضوان بن تتش.

(٨) سهيل زكار ـ المصدر السابق، ص ٣٨٧، ترجمة رضوان بن تتش.

(٩) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٠١. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٣١.

١١٢٠ ـ ١١٢١م، عندما قدّم أهالي حلب شكوى إلى الأمير إيلغازي حول «رسوم جددت عليهم في أيام رضوان بن تتش لم تجر بها عادة في دولة العرب، ولا دولة المصريين، ولا أيام آق سنقر من مكوس ومؤن ومظالم، فأمر إيلغازي بحساب مقدارها، فأخبر أنها تبلغ اثني عشر ألف دينار كل عام، فأمر بإلغائها، ووقع لهم أمراً بذلك وكتب منشوراً علقه بباب الجامع»[1] فقابل ذلك أهالي حلب بالشكر والثناء والاعتداد والدعاء[2].

إن ما فعله كل من ألب أرسلان وإيلغازي يدل على مقدار الضرائب المجحفة التي فرضها رضوان على الأهالي وكذلك ألغى إيلغازي بعض المكوس عن الحلبيين سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١ ـ ١١٢٢م، ومثله فعل أيضاً البرسقي عندما دخل حلب وتسلم قلعتها، إذ أنه أزال المظالم والمكوس التي فرضها والي حلب عمر الخاص، والحاجب عبد الكريم والي القلعة، وكتب لهم منشوراً بذلك نسخته كانت موجودة أيام ابن العديم[3].

وكذلك فرضت الدولة الضرائب على البضائع التي تصل إلى المدينة، إذ لم يكن التاجر الذي وصل ببضاعته إلى أحد الموانىء أو بلغ مدينة من المدن حراً في إنزال بضاعته كما يشاء ويتعامل مع الزبائن كما يريد، وإنما خضع ذلك لنظام معين يتلخص في بعض الإجراءات[4]، فلمجرد وصول التاجر إلى المركز أو الخان يحمل بضاعته (أو يحملها عمال الدولة) إلى مستودع حيث تستوفى أولاً الرسوم الواجب دفعها بعد البيع مباشرة، وبعد ذلك تباع السلع في الخان أو الفندق لمن يود شراءها من تجار المفرق ويقوم الوكيل (السمسار) بتقديم خدماته للتوفيق بين البائع والمشتري، ولا شك أنه كان يؤدي أيضاً ضرائب على دخله من هذا العمل.

وبالرغم من أنه لا توجد إشارات لدى المؤرخين عن الضرائب المفروضة على استيراد البضائع أو تصديرها في الفترة المدروسة، لكنها على ما يبدو كانت رسوم على البضائع المجلوبة وتقديم الخدمات مثل تفريغ البضاعة وجردها وخزنها والمحافظة عليها... وما إلى ذلك.

وإلى جانب الضرائب كان هناك نوع آخر من الموارد المالية كثيراً ما لجأ إليه الحكام للحصول على مزيد من الأموال إما لإنفاقها على أغراضهم الشخصية أو لصرفها على قواتهم الحاشدة[5] من التركمان السلاجقة وهي المصادرة التي اعتبرها الحكام السلاجقة نوعاً من

---

(١) العظيمي: تاريخ العظيمي، دمشق ١٩٨٥م، ص ٣٧٠. ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٢٢. ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ٥٦٠.

(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٣٢٢.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ٥٩٤.

(٤) كلود كاهن: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى الامبراطورية العثمانية، نقله إلى العربية: بدر الدين القاسم، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٧٢م، ص ٢٣٠.

(٥) عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية، ص ٤٦٣.

الضرائب يفرضونها على من يريدون، وفي الوقت الذي يحتاجون فيه للأموال وكثيراً ما شملت المصادرة الوزراء ورؤساء المدن والمتنفذين، فكانت بذلك نوعاً من العقوبة التي استخدمها الأمراء والحكام للإنتقام من منافسيهم أو معاقبة المستغِلين لمناصبهم، أو عندما تفرغ خزينة الدولة من الأموال، وأصبحت عملية المصادرة في الفترة السلجوقية أسلوباً اتبعه أغلب الحكام السلاجقة الذين حكموا حلب، وقد أدىٰ طمع الحكام وسلبهم للأموال ولجوئهم للإبتزاز إلى عدم الطمأنينة على الأموال وعدم احترام الملكية[1].

كان أول الحكام السلاجقة الذين لجأوا إلى المصادرة ألب أرسلان بن رضوان عندما اعتقل جماعة من خواص والده فقتل بعضهم، وصادر أموال الآخرين، وكذلك صادر أموال صاعد بن بديع رئيس حلب بعد أن اعتقله[2]، وعندما تولىٰ شؤون حلب لؤلؤ اليايا وجد الخزينة فارغة وليس لديه ما يدفع للجند والموظفين فلجأ إلى بيع قرىٰ كثيرة في إمارة حلب، وكذلك اعتقل الوزير ابن الموصول وصادر أمواله واستوزر أبا الرجاء بن السرطان الرحبي الذي ما لبث أن صادر أمواله أيضاً[3].

وعندما دخل إيلغازي حلب لجأ إلى مصادرة الأموال التي اكتنزها أركان الملك رضوان وحاشيته وكذلك أموال أولئك الذين تحكموا بأمور حلب بعد رضوان[4]، وكذلك صادر سليمان بن إيلغازي أموال عدد من أهل حلب، ومثله فعل تمرتاش عندما صادر أموال أولئك الذين حاولوا خيانته وراسلوا دبيساً حليف الفرنجة الصليبيين[5]، أما خطلغ أبه فإنه صادر أموال جماعة من أهل حلب متهماً إياهم بإخفاء ودائع المجن الفوعي الذي قتله الملك رضوان دون التمكن من أمواله[6]، ولم تكن المصادرة مقتصرة على حكام حلب السلاجقة، وإنما مارسها أيضاً المحتلون الفرنجة الصليبيون، وذلك عندما غدروا بالفلاحين الذين كانوا تحت حكمهم في المناطق التي شملها صلحهم مع إيلغازي واعتقلوهم وصادروا أموالهم واستولوا على غلالهم[7].

---

(١) احمد أمين: ظهر الإسلام. جـ١، ص ١٢١.
(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ص ٥٣٢ ــ ٥٣٤.
(٣) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ٢، ص ٥٣٦ ــ ٥٣٧.
(٤) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ٢، ص ٥٥٠.
(٥) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ٢، ص ٥٨٥.
(٦) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ٢، ص ٦٠١.
(٧) ابن العديم ــ المصدر السابق، جـ٢، ص ٥٦٠.

وهكذا كثرت المصادرات والاعتقالات أثناء الفترة السلجوقية بغية تأمين الأموال بعد أن أصبح تأمينها من الزراعة والصناعة والتجارة أمراً عسيراً بسبب الظروف السياسية التي عاشتها الإمارة، ومما تجدر الإشارة إليه أن المصادرة لم تطل غالب الناس العاديين وإنما شملت الطبقة الحاكمة والمتنفذة.

ومما زاد الأمر سوءاً بالنسبة للسكان احتلال الفرنجة الصليبيين لأجزاء من الإمارة حيث كثر القتل والتدمير ونهب الأموال والممتلكات، ولم تسلم مدينة أو قرية هاجمها الفرنجة الصليبيون أو احتلوها من فرض الأموال والأتاوات على أهلها، وكذلك لم يسلم الحكام من دفع الأتاوات، فقد دفع الملك رضوان اثنين وثلاثين ألفاً من الدنانير إضافة لمجموعة من الخيول[1]، وعلى منواله دفع ابنه ألب أرسلان الأتاوة لهم[2]، وكذلك دفع لهم ابن منقذ أمير شيزر أربعة آلاف دينار وعلي الكردي أمير حماه ألفي دينار[3].

مما تقدم يتضح أنه لم يكن لدى الحكام السلاجقة سياسة مالية واضحة وإنما تخبطوا فيها وبما يتناسب مع أهوائهم والظروف السياسية التي يمرون بها، فمرة تفرض ضرائب ومكوس وأخرى تزال، ومرة يصادرون وأخرى يعيدون المصادرة وباختصار لم يكن هناك ضوابط تحكم تصرفاتهم وسياستهم تجاه الأمور المالية.

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص ٢٧٣، ويقول إن هذه الأتاوة (القطيعة) كانت سنوية. أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، جـ ١، ص ٢٢٤. الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ٣٢، ويجعل المبلغ ثلاثين ألف دينار وثياب وخيل. الغزي: نهر الذهب، جـ ٢، ص ٨١. يعشوف: تحف الأنباء، ص ٥١.

(٢) ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٥٣٢.

(٣) الذهبي: تاريخ دول الإسلام، جـ ٢، ص ٣٢.

١ ـ ثبت بأسماء المصادر المخطوطة والمطبوعة:

ـ **ابن الأثير الجزري**: أبو الحسن عز الدين علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني ت (٦٣٠هـ)
١ ـ الكامل في التاريخ ـ طبعة صادر ودار بيروت ـ ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.
٢ ـ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ـ تحقيق عبد القادر طليمات ـ القاهرة ١٩٦٣م.
ـ **ابن آجا**: محمد بن محمود الحلبي ت (٨٨١هـ)
١ ـ العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك بن مهدي الدوادار تحقيق: أحمد دهمان.
ـ **الأربلي**: عبد الرحمن سبط بن قنيتو ت (٧١٧هـ)
١ ـ خلاصة الذهب المسبوك ـ بغداد ـ مكتبة المثنى.
ـ **اخوان الصفا**:
١ ـ رسائل اخوان الصفا وخلان الوفا ـ بيروت ١٩٥٧م.
ـ **الاصطخري**: إبراهيم بن محمد ت (٣٤٦هـ)
١ ـ المسالك والممالك ـ طبعة ١٩٣٧م.
ـ **الأصفهاني**: محمد بن محمد ت (القرن السابع الهجري)
١ ـ البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان ـ مخطوطة أحمد الثالث ـ رقم ٢٩٥٩.
ـ **الأصفهاني**: محمد بن محمد العماد الكاتب ت (٥٩٧هـ)
١ ـ تاريخ دولة آل سلجوق ـ تهذيب الفتح البنداري ـ مصر ١٣١٨هـ/١٩٠٠م.
٢ ـ خريدة القصر وجريدة العصر ـ تحقيق شكري فيصل ـ دمشق ١٩٦٤م.
ـ **ابن بطوطة**: محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتي الطبخي ت (٧٧٩هـ)
١ ـ رحلة ابن بطوطة.
ـ **البلاذري**: ت (٢٧٩هـ)
١ ـ فتوح البلدان ـ تحقيق رضوان محمد رضوان ـ مصر ١٩٥٩م.

ــ التطيلي: بنيامين

١ ــ رحلة بنيامين ــ ترجمة: عزرا حداد ــ بغداد ١٣٦٤ هـ/١٩٤٥ م.

ــ ابن تغري بردي: جمال الدين أبي المحاسن ت (٨٧٤ هـ)

١ ــ النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة ــ القاهرة ١٩٣٦ م.

ــ التنوخي: أبو علي المحسن بن علي بن أبي القاسم ت (٣٨٤ هـ)

١ ــ نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة أو جامع التواريخ ــ تحقيق: عبود الشالجي ــ بيروت ١٣٩١ هـ/١٩٧٣ م.

ــ ابن جبير: محمد بن أحمد الكناني الأندلسي ت (٦١٤ هـ)

١ ــ رحلة ابن جبير.

ــ ابن جعفر: أبي الفرج قدامة ت (٣٣٧ هـ)

١ ــ نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ــ طبع ليدن ــ مطبعة بريل ١٨٨٩ م.

ــ ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي ت (٥٩٧ هـ)

١ ــ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ــ الطبعة الأولى ــ حيدر أباد ١٣٥٩ هـ.

ــ الحسني: محمد بن محمد عبد الله بن ادريس الحمودي الأدريسي ت (٦٤٩ هـ)

١ ــ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ــ المعهد العلمي الفرنسي ــ تسعة أجزاء.

ــ الحسيني: ناصر بن علي ت (٦٢٢ هـ)

١ ــ أخبار الدولة السلجوقية (زبدة التواريخ) ــ تحقيق: محمد إقبال ــ لاهور ــ ١٩٢٣ م.

ــ الحموي: شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ت (٦٢٦ هـ)

١ ــ معجم البلدان ــ طبعة صادر ودار بيروت ــ ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤ م.

ــ ابن حوقل: أبو القاسم النصيبي ت (٣٦٧ هـ)

١ ــ صورة الأرض ــ دار الحياة ــ بيروت.

٢ ــ المسالك والممالك ــ طبعة ليدن ــ ١٨٧٣ م.

ــ ابن حيوس: محمد بن سلطان

١ ــ ديوان ابن حيوس ــ تحقيق: خليل مردم بك ــ دمشق ١٩٥١ م.

ــ ابن خرداذبه: أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ت (بحدود ٣٠٠ هـ)

١ ــ المسالك والممالك ــ طبعة ليدن ــ ١٨٨٩ م.

ــ خسرو: ناصر ت (٤٨١ هـ)

١ ــ سفر نامة ــ نقلها إلى العربية يحيىٰ الخشاب ــ دار الكتاب الجديد ــ بيروت.

ــ ابن خطيب الناصريه: ت (٨٤٣ هـ)

١ ــ الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب ــ مخطوط.

ــ ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد ت (٨٠٨ هـ)

١ ــ العبر وديوان المبتدأ والخبر ــ بيروت ١٨٨٦م.

ــ **ابن خلكان**: أحمد بن محمد ت(٦٨١هـ)

١ ــ وفيات الأعيان وأبناء الزمان ــ تحقيق: إحسان عباس ــ بيروت.

ــ **ابن أبي الدم**: إبراهيم ت(٦٤٢هـ)

١ ــ تاريخ ابن أبي الدم ــ مخطوطة البودليان ــ مارش ٦٠.

ــ **الدواداري**: أبو بكر عبد الله بن أيبك ت(٧٣٦هـ)

١ ــ الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية، وهو الجزء السادس من كتاب كنز الدرر وجامع الغرر ــ تحقيق: صلاح المنجد ــ القاهرة ١٩٦١م.

ــ **الذهبي**: الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني ت(٧٤٨هـ)

١ ــ تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ــ خمسة أجزاء ــ المركز العلمي الفرنسي.

٢ ــ دول الإسلام ــ مخطوطة المتحف البريطاني ــ رقم ٥٥٨. OR

٣ ــ العبر في خبر من غبر ــ أربعة أجزاء ــ الكويت ١٩٦١م.

ــ **الراوندي**: محمد بن علي بن سليمان ت(٥٧٠هـ)

١ ــ راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية ــ القاهرة ١٩٦٠م.

ــ **ابن رسته**: أبو علي أحمد بن عمر ت(٢٩٠هـ)

١ ــ الأعلاق النفيسة ــ طبع ليدن سنة ١٨٩٦م.

ــ **الزبيري**: القاضي الرشيد ت(في القرن الخامس الهجري)

١ ــ الذخائر والتحف ــ تحقيق: محمد حميد الله ــ الكويت ١٩٥٩م.

ــ **سبط ابن الجوزي**: شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزأوغلي التركي ت(٦٥٤هـ)

١ ــ مرآة الزمان ــ مخطوطة أحمد الثالث ــ المجلدة ٢٩٠٧ س.

٢ ــ مرآة الزمان ــ الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة بين السنوات ١٠٥٦ ــ ١٠٨٦م، طبع حيدر آباد ١٣٧٠هـ/١٩٥١م.

ــ **السجستاني**: أبو يعقوب.

١ ــ الينابيع ــ تحقيق مصطفىٰ غالب ــ الطبعة الأولىٰ ــ بيروت ١٩٦٥م.

ــ **ابن الشحنة**: محمد أبو الوليد ت(٨٨٣هـ)

١ ــ الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ــ دمشق ــ طبعة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

ــ **ابن شداد**: عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم ت(٦٨٤هـ)

١ ــ الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ــ مخطوطة قنسرين.

٢ ــ الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ــ مطبوع.

ــ **شيخ الربوة**: شمس الدين أبي عبد الله محمد أبي طالب الأنصاري الصوفي الدمشقي ت(٧٢٧هـ)

١ ــ نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ــ ليبزغ ١٩٢٣م.

ــ الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك ت(٧٦٤هـ)
١ ــ الوافي بالوفيات الأجزاء ١ ــ ٥ الطبعة الثانية.
ــ الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير ت(٣١٠هـ)
١ ــ تاريخ الأمم والملوك ــ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ــ بيروت ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.
ــ ابن ظافر: جمال الدين علي ت(٦٢٣هـ)
١ ــ أخبار الدول المنقطعة ــ مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة.
ــ الظاهري: خليل بن شاهين ت(٨٧٣هـ)
١ ــ زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ــ طبع باريس ١٨٩٣م.
ــ ابن عبد ربه: أبو عمر أحمد بن محمد ت(٣٤٩هـ)
١ ــ العقد الفريد ــ القاهرة ــ الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ/١٩٥٣م.
ــ ابن العبري: أبو الفرج ت(٦٨٥هـ)
١ ــ تاريخ الزمان ــ بيروت ــ دار المشرق ١٩٨٦م.
٢ ــ مختصر تاريخ الدول ــ بيروت ١٩٥٨م.
ــ ابن العديم: كمال الدين عمر بن أحمد ت(٦٦٠هـ)
١ ــ بغية الطلب ــ مخطوطة أحمد الثالث ــ المجلدة الأولى.
٢ ــ زبدة الحلب من تاريخ حلب ــ تحقيق: سامي الدهان ــ دمشق ١٩٥١ ــ ١٩٥٤ ــ ١٩٦٥م.
ــ العظيمي: محمد بن علي ت(٥٥٦هـ)
١ ــ تاريخ العظيمي ــ تحقيق: إبراهيم زعرور ــ دمشق ١٩٨٥م.
ــ ابن العماد الحنبلي: عبد الفلاح عبد الحي ت(١٠٨٩هـ)
١ ــ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ــ طبعة مصورة ــ بيروت.
ــ العمري: ابن فضل الله شهاب الدين أحمد ت(٧٤٢هـ)
١ ــ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ــ نسخة مصورة ــ المركز العلمي الفرنسي.
ــ ابن العميد: جرجس بن العميد بن إلياس ت(٦٧٢هـ)
١ ــ تاريخ المسلمين ــ طبع ليدن ١٦٢٥م.
ــ العيني: بدر الدين أبو محمد ت(٨٥٥هـ)
١ ــ عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ــ مخطوطة برقم ٢٥٦٨.
ــ الفارقي: أحمد بن يوسف بن علي الأزرق ت(٥٧٢هـ)
١ ــ تاريخ الفارقي ــ حققه بدوي عبد اللطيف ــ دار الكتاب اللبناني.
٢ ــ تاريخ ميافارقين ــ مخطوط.
ــ أبو الفدا: الملك المؤيد عماد الدين بن إسماعيل بن محمد بن عمر ت(٧٣٢هـ)
١ ــ المختصر في أخبار البشر ــ استامبول ١٨٦٩م.

٢ ــ تقويم البلدان ــ طبع باريس ١٨٩٠م.
ــ **الماوردي**: أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي ت (٤٥٠هـ)
١ ــ الأحكام السلطانية ــ طبعة ثالثة ــ القاهرة ١٩٧٣م.
ــ **مسكويه**: أبو علي أحمد بن محمد ت (٤٢١هـ)
١ ــ تجارب الأمم ــ القاهرة ١٩١٤ و ١٩١٥م.
ــ **المقدسي**: محمد بن أحمد المعروف بالبشاري ت (٣٧٥هـ)
١ ــ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ــ ليدن ــ بريل ــ الطبعة الثانية ١٩٠٩م.
ــ **المقريزي**: أحمد بن علي تقي الدين ت (٨٤٥هـ)
١ ــ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ــ تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد ــ القاهرة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.
ــ **ابن منقذ**: أسامة بن مرشد الكناني الشيزري ت (٥٨٤هـ)
١ ــ كتاب الاعتبار ــ مطبعة برنستون ــ الولايات المتحدة ــ ١٩٣٠م.
ــ **المؤيد في الدين**: هبة الله بن موسىٰ ت (٤٨٠هـ)
١ ــ مذكرات دعاة داعي الدولة الفاطمية ــ بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
ــ **القرماني**: أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي ت (١٠١٩هـ)
١ ــ أخبار الدول وآثار الأول ــ بيروت ــ طبعة مصورة.
ــ **القزويني**: زكريا بن محمد بن محمود القزويني ت (٦٨٢هـ)
١ ــ آثار البلاد وأخبار العباد ــ طبعة بيروت ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.
ــ **القفطي**: جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف ت (٦٤٦هـ)
١ ــ تاريخ الحكماء ــ القاهرة ١٩٠٣م ــ طبعة أولىٰ.
ــ **ابن القلانسي**: أبو يعلي حمزة ت (٥٥٥هـ)
١ ــ تاريخ دمشق ــ تحقيق: سهيل زكار ــ دمشق ــ طبعة أولىٰ ١٩٨٣م.
ــ **القلقشندي**: أحمد بن علي بن أبي اليمن القاهري الشافعي ت (٨٣١هـ)
١ ــ صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشا ــ أربعة أجزاء ــ نسخة مصورة.
ــ **الكتبي**: محمد بن شاكر أحمد ت (٧٦٤هـ)
١ ــ فوات الوفيات ــ تحقيق: إحسان عباس ١٩٧٣م.
ــ **ابن كثير**: إسماعيل بن عمر الدمشقي ت (٧٧٤هـ)
١ ــ البداية والنهاية ــ بيروت ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.
ــ **الكرديزي**: عبد الحي بن الضحاك
١ ــ زين الأخبار ــ طبعة فاس ١٩٧٣م.
ــ **ابن أبي الهيجا**

١ ــ تاريخ ابن أبي الهيجا ــ مخطوطة برقم ٩٥١٤ (المكتبة الأحمدية بتونس).
ــ **ابن واصل الحموي**: محمد بن سالم ت(٦٩٧ هـ)
١ ــ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ــ تحقيق: جمال الدين الشيال ــ القاهرة ١٩٥٣م.
ــ **الوداعي**: علي بن حنظلة بن أبي سالم ت(٦٢٦ هـ)
١ ــ سمط الحقائق في عقائد الإسماعيلية ــ تحقيق: عباس العزاوي ــ دمشق ١٩٥٣م.
ــ **اليافعي**: محمد بن عبد الله اليمني المكي
١ ــ مرآة الجنان وعبرة اليقظان في ما يعتبر من حوادث الزمان ــ حيدر أباد ١٩١٩م.
ــ **يعقوب بن إبراهيم**: أبو يوسف القاضي ت(١١٢ هـ)
١ ــ كتاب الخراج ــ المطبعة السلفية ــ طبعة رابعة ــ (١٣٩٢ هـ).
ــ **اليعقوبي**: أحمد بن أبي يعقوب بن واضح ت(٢٧٨ هـ)
١ ــ البلدان ــ مطبوع مع كتاب الأعلاق النفيسة لابن رسته ــ ليدن ١٨٩١م.

٢ ـ ثبت بأسماء المراجع التي وردت في الكتاب :

ـ **الأسـدي**: خير الدين

ـ أحياء حلب وأسواقها ـ دمشق ـ منشورات وزارة الثقافة ١٩٨٤ م.

ـ موسوعة حلب ـ جامعة حلب ـ معهد التراث.

ـ **آشـور**:

ـ التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطىٰ ـ ترجمة: عبد الهادي عبلة ـ دار قتيبة ـ دمشق ١٩٨٥ م.

ـ **أميـن**: أحمـد

ـ ظهر الإسلام ـ الطبعة الثالثة ـ القاهرة ١٩٦٢ م.

ـ **أميـن**: حسـين

ـ تاريخ العراق في العصر السلجوقي ـ بغداد ١٩٦٥ م.

ـ **أومـان**:

ـ الامبراطورية البيزنطية ـ تعريب: مصطفىٰ بدر ـ القاهرة ١٩٥٣ م.

ـ **بارتولد**: فاسيلي

ـ تركستان من الفتح العربي إلى الغز المغولي ـ نقله عن الروسية: صلاح الدين عثمان هاشم ـ الكويت ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.

ـ **باشـا**: محمد مختار

ـ التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنكية والقبطية ـ تحقيق: محمد عمارة ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ طبعة أولىٰ ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م.

ـ **برجـاوي**: سعيد أحمد

ـ الحروب الصليبية في المشرق ـ بيروت ـ طبعة أولىٰ ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م.

ـ **بيتـز**: نورمان

ـ الامبراطورية البيزنطية ـ تعريب: حسين مؤنس، محمود زايد ـ مدريد ـ نوفمبر (تشرين ثاني) ١٩٥٧ م.

ــ يعقـوب: الجرماني
ــ تحف الأنباء بتاريخ حلب الشهباء ــ بيروت ١٨٨٠م.
ــ بيطار: أمينة
ــ موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين ــ دمشق ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
ــ الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام ــ دمشق ١٩٨٠م.
ــ تاريخ الفلاحين: دار البعث للطباعة والنشر ــ دمشق.
ــ التدمري: عبد السلام
ــ الحيـاة الثقافيـة في طرابـلس الشام ــ بيروت ــ دار فلسطين ــ طبعـة أولـى ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.
ــ تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور ــ بيروت ــ دار الكتاب العربي.
ــ التيمي: رفيـق
ــ الحروب الصليبية ــ القدس ــ الطبعة الأولى ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م.
ــ جب: هاملتون
ــ دراسات في الحضارة الإسلامية ــ دار العلم للملايين ــ بيروت ١٩٦٤م.
ــ الجنـدي: درويش
ــ الشعر في ظل سيف الدولة الحمداني ــ القاهرة.
ــ الجنـدي: محمد سليم
ــ تاريخ معرة النعمـان ــ تحقيـق: عمـر رضا كحالـة ــ دمشق ــ وزارة الثقافـة ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.
ــ حبشي: حسـن
ــ نور الدين والصليبيون ــ دار الفكر العربي.
ــ حتي: فيليب
ــ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ــ ترجمة: كمال اليازجي.
ــ تاريخ العرب (مطول) ــ تعريب: ادوارد جرجي ــ جبرائيل جبور ــ طبعة رابعة ١٩٦٥م.
ــ الحريري: سيد علي
ــ الأخبار السنية في الحروب الصليبية ــ مصر ــ الطبعة الثانية ١٣٢٩هـ.
ــ الحريري: محمد علي
ــ الأعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين ــ تحقيق: سهيل زكار ــ دمشق ــ مكتبة دار الملاح.
ــ حسـن: حسن إبراهيم
ــ تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ــ الطبعة الثالثة ــ القاهرة

١٩٦٤م.
ــ تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والاجتماعي ــ القاهرة ــ الطبعة السابعة ١٩٦٥م.
ــ حسن: زكي
ــ كنوز الفاطميين ــ القاهرة ــ طبعة أولىٰ ١٩٣٧م.
ــ حسن: علي إبراهيم
ــ دراسات في تاريخ المماليك البحرية ــ القاهرة ــ الطبعة الثانية ١٩٤٨م.
ــ حسين: محمد كامل
ــ طائفة الإسماعيلية ــ تاريخها ــ نظمها ــ عقائدها، القاهرة ــ طبعة أولىٰ ١٩٥٩م.
ــ حكيم: دعد
ــ الخانات في حلب ــ حلب ــ طبعة أولىٰ ١٩٥٦م. رسالة جامعية ــ نسخة محفوظة بمتحف الوثائق التاريخية ــ دمشق.
ــ ابن حماد:
ــ أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ــ طبع جول كربونل بالجزائر ١٣٤٦هـ.
ــ أبو خليل: شوقي
ــ أطلس تاريخي ــ دمشق ــ الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
ــ خليل: عماد الدين
ــ الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ــ بيروت ــ الطبعة الأولىٰ ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
ــ عماد الدين زنكي ــ الدار العلمية ــ بيروت ــ الطبعة الأولىٰ ١٣٩١هـ/١٩٧١م.
ــ خليفة: سعيد
ــ تاريخ المنسوجات ــ القاهرة ١٩٦١م.
ــ الخالدي: نجدة
ــ الإدارة في العصر الأموي ــ طبعة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
ــ الدوري: عبد العزيز
ــ المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام ــ جامعة الأردن ١٩٧٤م.
ــ تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ــ بغداد ١٩٤٨م.
ــ مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ــ بيروت ١٩٦٩م.
ــ دويدري: رجاء
ــ القطر العربي السوري ــ دراسة إقليمية ــ جامعة دمشق ١٩٧٥م.
ــ دائرة المعارف الإسلامية ــ الجزءان الثامن والعاشر
ــ رزوق: معروف عزيز نايف
ــ تاريخ شيزر منذ القدم وأخبار من مر بها من البشر ــ وزارة الثقافة ــ دمشق ١٩٨٢م.

ـ رونسيمان: ستيفن

ـ تاريخ الحروب الصليبية ـ الجزء الأول ـ طبعة بيروت ١٩٨١م.

ـ ريسلر: جاك

ـ الحضارة العربية ـ ترجمة: غنيم عبدون ـ الدار العصرية للتأليف والنشر.

ـ زابوروف: ميخائيل

ـ الصليبيون في الشرق ـ دار التقدم ـ موسكو ١٩٨١م.

ـ الزبيدي: محب الدين أبي الفيض محمد مرتضىٰ الحسني الواسطي

ـ تاج العروس ـ تحقيق: عبد العليم الطحاوي ـ طبعة الكويت ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

ـ الزركلي: خير الدين

ـ الأعلام ـ الطبعة السادسة ـ تشرين الثاني ١٩٨٤م.

ـ زكار: سهيل

ـ المدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ـ الطبعة الثانية ـ دار الفكر ـ ١٩٧٣م.

ـ الحروب الصليبية ـ الحملتان الأولىٰ والثانية حسب روايات شهود عيان ـ حققها: سهيل زكار ـ دمشق ـ الطبعة الأولىٰ ١٩٨٤م.

ـ إمارة حلب ـ رسالة دكتوراه غير منشورة.

ـ زكريا: وصفي

ـ جولة أثرية ـ دار الفكر ـ طبعة ثانية ـ دمشق ١٩٨٤م.

ـ زهدي: بشير

ـ الزجاج القديم ـ مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية ـ المجلد العاشر لعام ١٩٦٠م.

ـ زهراني: محمد مسفر

ـ نظام الوزراة في الدولة العباسية ـ الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

ـ زيادة: نقولا

ـ المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام من القرن السادس إلى القرن السابع عشر ـ الدار المتحدة للنشر.

ـ الجغرافية والرحلات عند العرب ـ بيروت ١٩٨٠م.

ـ زيدان: جرجي

ـ تاريخ التمدن الإسلامي ـ طبعة مصورة.

ـ الزين: سميح وجيه

ـ تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً ـ بيروت ـ دار الأندلس للطباعة.

ـ زيود: محمد

ـ حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العهد الطولوني حتىٰ نهاية العصر الفاطمي ـ رسالة دكتوراه ـ سنة ١٩٨٨م.

ـ سالم: عبد العزيز
ـ طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي ـ الاسكندرية ١٩٦٧م.
ـ سرور: محمد جمال الدين
ـ سياسة الفاطميين الخارجية ـ دار الفكر العربي ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م.
ـ النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ـ دار الفكر ١٩٦٤م.
ـ سميل: ر. س
ـ الحروب الصليبية ـ ترجمة: سامي هاشم ـ الطبعة الأولىٰ ـ بيروت ١٩٨٢م.
ـ فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر (١٠٩٧ ـ ١١٩٣م) ـ دمشق ١٩٨٥م.
ـ شميساني: حسن
ـ مدينة ماردين من الفتح العربي إلى سنة ٥١٥هـ/١٢١م ـ طبعة أولىٰ ـ بيروت ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
ـ الشهابي: مصطفىٰ
ـ تاريخ الزراعة في بلاد العالم العربي ـ مقال في مجلة المجمع العلمي العربي ـ دمشق ١٩٢٧م.
ـ معجم الألفاظ الزراعية.
ـ الشيخلي: صباح إبراهيم سعيد
ـ الأصناف في العصر العباسي ـ نشأتها وتطورها ـ العراق ١٩٧٦م.
ـ الطباخ: محمد راغب
ـ أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ـ الطبعة الأولىٰ ـ حلب ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م.
ـ طلس: محمد أسعد
ـ الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب ـ دمشق ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م.
ـ عاشور: سعيد عبد الفتاح
ـ الحركة الصليبية ـ طبعة أولىٰ ـ القاهرة ١٩٦٣م.
ـ العش: محمد أبو الفرج
ـ الزجاج السوري ـ مقال في مجلة الحوليات الأثرية السورية ـ مجلد ١٦ جزء ١ ـ لسنة ١٩٦٦م.
ـ الفخار غير المطلي ـ مقال في مجلة الحوليات الأثرية السورية العددان ١١ و١٢ السنتي ١٩٦١ ـ ١٩٦٤م.
ـ علي: أحمد إسماعيل
ـ تاريخ السلاجقة في بلاد الشام ـ الطبعة الأولىٰ ـ دمشق ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
ـ علي: محمد كرد
ـ خطط الشام ـ الطبعة الثالثة ـ دمشق ١٩٨٣م.
ـ الغزي: كامل بن حسين بن مصطفىٰ بالي
ـ نهر الذهب في تاريخ حلب ـ طبع المطبعة المارونية في حلب ـ ثلاثة أجزاء.

ـ غرايبه: عبد الكريم
ـ العرب والأتراك ـ مطبعة جامعة دمشق ١٣٨١ هـ/١٩٦٣ م.
ـ فامبري: أرمينيوس
ـ تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتىٰ العصر الحاضر بست ١٨٧٢ م.
ـ فهمي: نعيم زكي
ـ طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ـ الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٣ م.
ـ قوصرة: فايز
ـ الرحالة في محافظة ادلب ـ إطلالة تاريخية ـ الطبعة الأولىٰ ـ حلب ١٩٨٥ م.
ـ كاهن: كلود
ـ تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتىٰ الامبراطورية العثمانية، نقله إلى العربية: بدر الدين القاسم ـ الطبعة الأولىٰ ـ بيروت ١٩٧٢ م.
ـ كحالة: عمر رضا
ـ الفنون الجميلة في العصور الإسلامية ـ المطبعة التعاونية بدمشق ١٣٩٢ هـ/١٩٧٢ م.
ـ كراتشكوفسكي: أغناطيوس يوليا نوفتش
ـ تاريخ الأدب الجغرافي العربي ـ نقله إلى العربية: صلاح الدين عثمان هاشم ـ موسكو ١٩٥٧ م.
ـ كنار: ماريوس
ـ نخب تاريخية وأدبية ـ جامعة لأخبار سيف الدولة الحمداني ـ الجزائر ١٩٣٤ م.

ـ كويت: جامعة الكويت ـ مجلة فصلية ـ ١٩٧٤ م.
ـ لومبارد: موريس
ـ الإسلام في فجر عظمته ـ ترجمة: حسين العودات، ومراجعة: علي الخشن ـ دمشق ١٩٧٩ م.
ـ الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي ـ ترجمة: عبد الرحمن حميدة ـ دمشق.
ـ متز: آدم
ـ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ـ الطبعة الرابعة ـ بيروت ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م.

ـ مصطفىٰ: شاكر
ـ المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام الأول ـ عمان ١٩٧٥ م.
ـ المعاضيدي: خاشع
ـ دولة بني عقيل في الموصل ـ بغداد ١٩٦٨ م.
ـ ناجي: عبد الجبار
ـ الإمارة المزيدية ـ البصرة ١٩٧٠ م.

ـ النقاش: زكي
ـ العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية ـ منشورات دار الكتاب اللبناني ـ ١٩٥٨م.
ـ هونكه: زيغريد
ـ شمس العرب تسطع على الغرب ـ الطبعة السابعة ـ بيروت ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
ـ عيسى: فؤاد
ـ جرد أثري لخانات دمشق ـ مجلة الحوليات الأثرية السورية ـ العدد ٣٣، سنة ١٩٨١م.

٣ ــ المراجع الأجنبيــة :

— C.laude cahen, les Syrie du Nord à l'Epoque de croisades et la principante franque d'antioche, Paris, 1940.
— Hayd: Histoire du commerce de levant au Moyen Age, 2 vols. Leipzing 1885-1886-1923.
— Runsiman, Steven: Bysontine civilization, London. Eduard arnold, Co. 1936.
— Vasiliev: Histoire of the Byzantine Empire, Vol. 1 (Madison, 1964).

المحتوىٰ